الجزء الأول



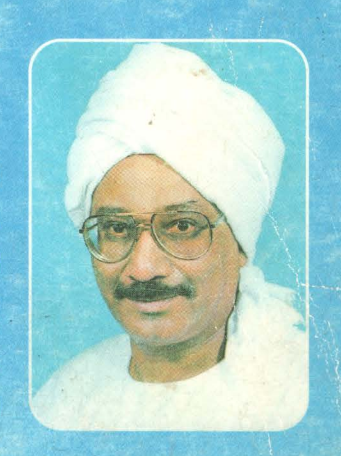
تاريخ حياتي

بابكر بدري

تحقيق ومراجعة د. بابكر علي بدري

أصدق التاريخ ما كُتِبَ في زمانه وصدق فيه كاتبه وصدّقه معاصروه فيما روى

لمحات من تاريخ الحركة المهدية وتاريخ السودان تتخلل رواية بابكر بدري لتاريخ حياته في الفترة من عام ١٨٦١ م إلى ١٨٩٩ م



نبـذة عن المحقق

- ولد د. بابكر علي بدري في مدينـة أم درمـان في آخـر أغسطس عـام ١٩٣٩م، وتلقى تعليمه الإبتدائي في مدارس كمبوني بالخرطوم، والمتوسط والثانـوي بمـدارس الأحفاد بأم درمان. التحق بعدها بالجامعة الأمريكية ببيروت حيث حصل على درجة البكالريوس في علم النفس عام ١٩٦٢م.

- بعد ذلك التحق بجامعة لندن - كلية شمال شرق لندن - حيث حصل على درجة الدكتوراه في علم النفس الأكلينيكي عـام ١٩٧٧م. وخـلال تلك الفترة حصل على درجة في التشخيص والقياس الأسقاطي من مركز تافستك في لندن عام ١٩٧٥م.

- عمل منذ عام ١٩٦٢م مع حكومة السـودان في مـواقع مختلفـة في إصـلاحيات الأحداث ثم في المصحات العقلية حتى عام ١٩٧١م. أيضـاً شـارك بـالتـدريس في كليات التمريض وضباط البوليس وغيرها في السـودان. ومن عـام ١٩٧٥م إلى عـام ١٩٧٧م عمـل في مستشفى سـانت أولاف St. Olave ثم مستشفـى جـاي التعليمي Guy's Hospital ثم مركز براين ديدسبري لـلأطفـال المتخلفين Brian Didsbury Centre بلندن.

- انضم بعد ذلك لجامعة الرياض بـالمملكـة العـربيـة السعـوديـة وشغل في عـام ١٩٨١م منصب رئيس قسم علم النفس. كما كـان عضـواً في مجلس إدارة مـركـز البحوث التربوية بنفس الجامعة. انتقل بعدها للعمل بجامعـة الأحفـاد بـالسـودان حتى عام ١٩٨٧م، وكان أيضاً مديراً لبرنامج التبادل بين تلك الجامعة وجامعة أيـوا بالولايات المتحدة الأمريكية.

- وقد شارك في عدد من المؤتمرات العلمية وله مجموعة من المنشورات والتراجم منها «تشخيص إعاقة الأطفال وراثياً : مقياس دينفر»، ١٩٨٥م؛ «المرأة كعنصر للتغير في المجتمع السـوداني»، ١٩٨٥م؛ و«اسهـام الأطبـاء العـرب والأغـريق في التطـور البشري»، ١٩٧٨م.

- وهو عضو في الجمعية البريطانية لعلم النفس، كما ضمت الموسوعة الأمـريكيـة Who is Who in The World لعام ١٩٩٠م جزءاً من سيرته.


بسم الله الرحمن الرحيم

فسح رقم : ١٤٠٨/م
تــاريــخ : ١٤١٠/٣/٥هـ

الجزء الأول

تاريخ بابكر بدري
حياتي

تحقيق ومراجعة د. بابكر علي بدري

أَصْدَقُ التّارِيخ مَاكُتِبَ في زَمانِهِ وَصَدَقَ فيهِ كاتِبُهُ وَصَدَّقَهُ مُعاصِرُوهُ فيما رَوى

لمحات من تاريخ الحركة المهدية وتاريخ السودان تتخلل رواية بابكر بدري
لتاريخ حياته في الفترة من عام ١٨٦١ م إلى ١٨٩٩ م

فهرس الكتاب

صفحة

صفحة

الفصل الثالث

الفصل الرابع

صفحة

صفحة

الفصل الثامن

صفحة

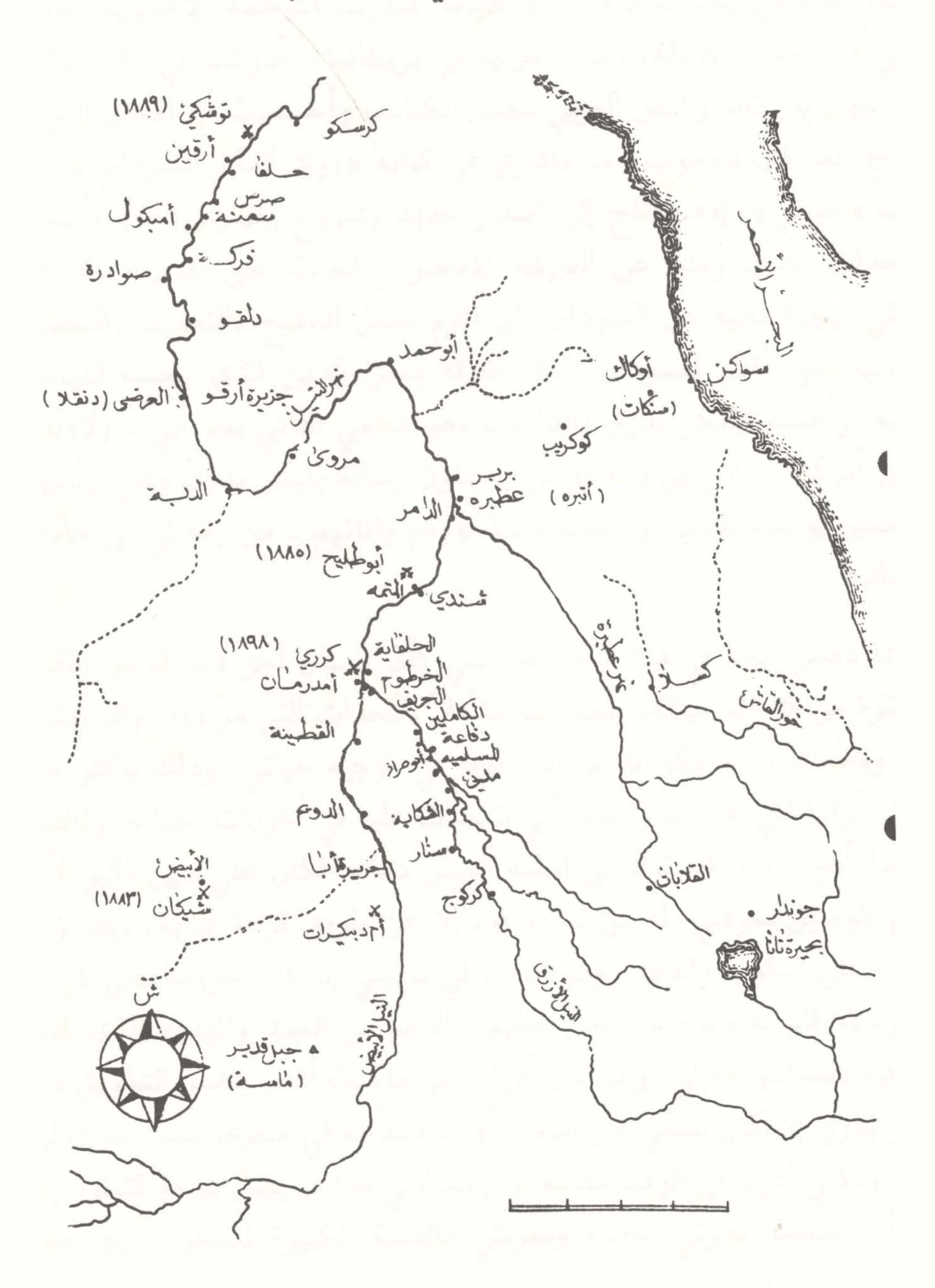
الفصل التاسع

فهرس الملاحق

ملحق		صفحة
١	خريطة السودان	ز
٢	خطاب السيد خضر بدري	٣٢٠
٣	نسب آل بدري	٣٢٣
٤	تسلسل نسب آل بدري وشكاك ومالك	٣٢٤
٥	تسلسل نظارة قبيلة الشُّكْرِيَّة	٣٢٥
٦	زيارة السيد خضر بدري إلى دراو	٣٢٨
٧	خريطة استحكامات الخرطوم وأمدرمان عند فتح الخرطوم	٣٣٠
٨	خريطة لجنوب مصر وشمال السودان	٣٣٢

ملحق رقم (١)

مدن وقرى السودان التي شملها الكتاب



مقدمة المحقق

بدأ اهتمامي بكتاب «حياتي» عندما صدرت الترجمة الإنجليزية للجزء الثاني من أجزائه الثلاثة، وكنت حينها في بريطانيا. أدركت في ذاك الوقت بُعد البون بين تلك والنص العربي لنفس الكتاب، وأحسست أن الأصل العربي يحتاج كما قال محجوب عمر باشري في كتابه «رواد الفكر السوداني» عن كتاب «حياتي»، إنه يحتاج إلى إصدار جديد وشروح وفهارس؛ لأن الأسماء والأحداث بَعُدت زمنياً عن القارئ المعاصر. فعولت على نفسي، وأنا في طريقي لهجرة ثانية عن السودان، أن أقوم بعمل التنقيح والتجديد والتحقيق للكتاب لعلي أقدم للسودان الذي أفارقه بعض الدين الذي يحسه المهاجر لوطنه، وأحسه لبابكر بدري بالذات ـ وهو معلمي الثاني بعد أبي ـ ولأولئك الذين أتركهم ورائي في بلادي ممن يحملون رسالة بابكر بدري وعلي رأسهم بروفسير يوسف بدري، والأساتذه ـ ذكورهم واناثهم ـ من زملائي في جامعة الأحفاد.

ومما دفعني أيضا في هذا الاتجاه هو أنني كأى إنسان آخر لابد له من وقفة، في فترة من فترات حياته، يقف فيها متأملاً للأحداث التي مرّ بها. وقد فعلت ذلك ووجدت أن لبابكر بدري أثراً قوياً في توجيه حياتي، وذلك بأكثر من طريق. أولها أني حفيده، وثانيها أني تتلمذت عليه في أخريات حياته، وثالثها ـ وهذا أهم ـ فهو قد ترك لي اسمه أعيش داخله فكان عليَّ دين أكبر لأن أسعى لتوصيل معرفتي له لمن لم يعرفوه إلا عن طريق قراءة كتابه. وهذا زاد تأكيدَه عليَّ أسلوبُ والدي ـ وهو ابنه ـ في تربيتي إذ كان حريصا على غرس تقديره لما قام به والده من عمل عظيم، بالرغم من العمق والهدوء الذي كان يضع فيه ذلك التوجيه لي. وأنا الآن أدرك أنني ماكنت أشعر بنفس التطويق من بابكر بدري إن كان اسمي غير اسمه، أو لم أشَدُّ به في صغري مثلما حدث لي معه. ولكني أدرك في الوقت نفسه أن إحساسي هذا لم يصل درجة التبلور إلا بعد أن نضجت نظرتي للحياة ومعرفتي بالقيمة الكبيرة لبابكر بدري عند

كثيرين غيري من أبناء وبنات السودان. والحديث عن تلك القيمة العظيمة والأثر الكبير لبابكر بدري أتركه ليفصله المرحوم الكاتب المصري محمد فريد أبو حديد الذي خط المقدمة للطبعة الأولى لهذا الكتاب، والتي سيجدها القارئ في الصفحات القريبة التالية.

أيضا فقد وجدت في أسلوب كتابة المؤلف لتاريخ حياته أنه كان يدوّن الأحداث كما هي دون الاعتماد علي ربط حياته بالأحداث الكبيرة فقط في الفترة التي تحدّث عنها. وبذلك فقد صوَّر حوادث وشخصيات ولمحات من سلوك الناس لم تجد توضيحاً مشابهاً في مراجع التاريخ الأخري. فهو مثلا قد وصف المجاعات التي عاشها السودان في فترتين بعمق من عاشهما؛ الأولى في طفولته والثانية خلال الحملة لغزو مصر. وأيضا نجده يعطي صوراً حية عن شخصيات كبرى كعبد الرحمن النِّجُومي ويونس الدِّكيم وأبو قَرْجَة والزبير باشا، وأخرى كالفقيه أحمد حامد الكراس وعبد الحليم مساعد وعبد القادر ولد مدرع وأبو الفتح موسى دقنِه، وأيضا عن والده ووالدته وأنسبائه وغيرهم، وكل ذلك بوضوح شديد فيأخذ من أراد العبر منها ويأخذ المؤرخ حقائقه أو يستمتع الباقون منّا بمتعة السِّير عمن تحدث عنهم، أو متعة الأسفار التي لم تنتهِ معه.

لكل ما ذكرته وأكثر منه بدأت في أكتوبر ١٩٨٧م قراءة أجزاء حياته الثلاثة مرة جديدة وبالطبع كان من اليسير عليّ أن أختار «الجزء الأول» للعمل على تحقيقه كبداية للأجزاء الثلاثة من الكتاب، خصوصا فإن الأحداث فيه بَعُدت كثيراً عن أجيال الشباب اليوم إذ مضى عليها أكثر من قرن قليلاً. وكان أول اهتمامي مراجعة النص للتأكد من أن الأحداث فيه وتواريخها تدعمها المراجع الأخرى؛ علماً بأن المؤلف نفسه استهل كتابه بقوله.. «أصْدَقُ التَّارِيخِ مَا كُتِبَ فِي زَمَانِهِ وَصَدَقَ فيه كَاتِبُهُ، وصَدَّقَهُ مُعَاصِرُوهُ فِيمَا رَوَى».

وقد يحدث أن يتسلل التساؤل لأذهان البعض كما حدث في لقاء بين البروفسير عثمان سيد أحمد وبروفسير ساندرسن، فدار الحديث عن نقاء ذاكرة المؤلف وهو قد بلغ الثمانين من العمر عندما كتب مذكراته، فأجابه

ساندرسن بأنه هو أيضا يذكر الأحداث التي كتبها بابكر بدري وعمره في وقت تلك المقابلة أيضا ثمانون عاماً.

بدأت هذه المهمة ولكنها لم تكن هينة لشخص في المهَجّر، إذ كان أول صعوباتها ندرة المراجع ذات الاتصال بتلك الفترة من تاريخ السودان في مستقري الجديد. ولكن تَذَلَّل ذلك بحمد الله بمساعدة نفرٍ كريم ممن لهم مكتبات ثرية أمثال د. كمال محمد البرير ـ الصيدلي بمستشفى الملك خالد التعليمي بالرياض ـ والأستاذ ضرار محمد صالح ضرار، والأخير قام مشكوراً بقراءة المسودة التي أعددتها واقترح بعض التصحيحات القيمة. وهذا الجهد نفسه قام به الأستاذ عمر محمد أحمد الأمين ـ أستاذ اللغة العربية بجامعة الملك سعود ـ فله أيضا جزيل شكري وتقديري. وفي هذا المنحنى أود شكر السيد أحمد حسن عبد الله الذي قام بطباعة هذه النسخة في مراحلها الأولى دون ملل، والأستاذ أحمد عبد الرحمن البلاّل ـ أستاذ الفنون الجميلة بجامعة الملك سعود ـ لتصميم غلاف الكتاب. كذلك استفدت من شروح لبعض الجوانب التاريخية والأسرية من نفر ممن يعرفون بابكر بدري عن قرب أولهم السيد خضر بدري ـ الشقيق الأصغر له ـ ويوسف بدري ابنه، بالإضافة لبعض أفراد أسرته.

وخلاصة كل ماتوصلت إليه من الكتب العديدة التي اطلعت عليها أنها أكدت التفاصيل التي أوردها بابكر بدري وهو يعيشها فعلا أو يشاهدها مشاهدة حقيقية ثم يعود لتدوينها عام ١٩٤٤م دون أن يشوب ما ذكره تهويل او إنقاص لحقيقة. كذلك وضح لي أن تلك المحاولة لكتابة تاريخ حياته لم تكن الأولى، فقد خطَّ شيئاً منه في عام ١٩١٠م تحت إلحاح من يعقوب باشا أرتين، وكيل وزارة المعارف المصرية في ذاك الوقت، عند زيارته لمدرسة بابكر بدري في رفاعة، وإعجابه بدقة مارواه له عن تاريخه. عليه فقد يكون ذلك مدعاة لحسن خزنها في ذاكرته. أما باقي قصة ذلك المخطوط هي أنه بعد أن كتب المؤلف ست كراسات عن تاريخ السودان تدخل الشيخ محمد البدوي رئيس المعهد العلمي في ذاك الوقت، وأحرق ما كتبه بابكر خوفاً عليه ممن يكون قد ذكرهم في سرده لتلك الأحداث، وهو الشجاع ـ كما يظهر هنا ـ في

كتابته عن نفسه أولاً ثم عن غيره ثانياً.

كذلك كنت في حيرة نحو التصرف في لغة الكتاب، هل أحتفظ بها كما هي ؟ أم أجددها لتناسب لغة العصر، علماً بأن النص الأول كُتب بلغة عصره في نهاية القرن الماضي وشمل مجموعة من العبارات والصِّيغ اللغوية التي لم تعد مألوفة للقارىء المعاصر. واللغة كالكائن الحي تتجدد وتتطور؛ وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن كلمة «نزيلي» التي استعملها المؤلف كانت تعني في زمنه «الشخص الذي يستضيف شخصاً آخراً»، بينما تعني اليوم العكس من ذلك، فهي تعني الآن الضيف نفسه !. وقد أبلغني يوسف بدري عند طرقي لهذه الناحية معه، أن أباه عند انتهائه من كتابة مذكراته رماها له قائلا: «تفضل خذها؛ لأنك لاحقتني في أن أكتبها، وها قد أنجزتها، ولكني أرى أن تُكَوّن لجنة من عبيد عبد النور وإبراهيم مالك وشيخ شبيكة.. احذفوا منها ما ترون وأبقوا ما تريدون». وعندما استشارهم يوسف بدري قال الشيخ شبيكة لهم: «نحن نخرجه بمثل لغته لأنه تاريخ، وسيأتي آخرون يحققونه ويعيدون صياغة لغته». لذا فقد رأيت أنا عدم تغيير لغة الكتاب إلا في حدود النحو وقواعد اللغة العربية، ولكني قمت بتفسير العبارات والكلمات كلما كان ذلك ضرورياً لفهمها. كذلك كانت النسخة الأولى تفتقد نقاط الوقف والفواصل للجُمل وعلامات النقل لما يقوله أشخاص حكاياته، فأضفتها.

في الختام أرجو أن يكون الله قد وفقني لبلوغ ماهدفت إليه من دفع دين للسودان الذي أفارقه، وأيضا في إبلاغ أجيال ابنائنا المحدثين بما فعله آباؤهم لهم ولسودانهم.

بابكر علي بابكر بدري

الرياض ١٩٩٠م

مقدمة الطبعة الأولى:

هذا الكتاب الذي بين أيدينا مظهر من التجديد الذي امتاز به صاحبه المغفور له الشيخ بابكر بدري، فقد كان رائداً مجدداً في كثير من السنن الحميدة في حياته الطويلة الخصبة. فقد عرفنا الكثيرين ممن شاركوا في غمار الحياة العامة، وتطلعنا وتساءلنا لعلنا نلمح ما كان يختلج في صدورهم من المشاعر وما كان يدور في عقولهم من الآراء ولكنّا كنّا في أكثر الأحيان نرجع من تطلعنا وتساؤلنا بصور غير واضحة ونضطر إلى جمع أخبارهم من هنا ومن هناك بغية الاهتداء إلى الحقائق التي كانت تنطوي في حياتهم الزاخرة. ولكن الشيخ رحمة الله عليه يوفر علينا كثيراً من المشقة، وكثيراً من التساؤل ويجنبنا كثيراً من مواطن الخطأ فى التفسير والتأويل؛ لأنه خلّف لنا صورة واضحة من تاريخ حياته في هذه المذكرات التي يحتويها هذا الكتاب، وهي صورة تشتمل على شخصه كما تشتمل على وصف صادق لكل ماكان يحيط به. فهذا الكتاب ـ وإن كان سيرة لحياة الرجل ـ يحتوي على تاريخ عصر كامل وهو عصر من أخطر ما مرّ على السودان وعلى الأمة العربية جمعاء.

وقد عرفت الشيخ المغفور له بابكر بدري منذ وطئت قدماي أرض السودان لأول مرة في عام ١٩٤٠م، وكنت سمعت به من بعيد قبل وفودي على القطر الشقيق، وما كان لي إلا أن أسمع برجل وقف حياته على التعليم وجعله هواية حياته، مدفوعاً بإيمان صادق جعله لا يتردد أمام عقبة من العقبات سواء أكانت من جانب سلطان الحكم الأجنبي الذي كان يتحكم في السودان ويخشى عاقبة التوسع في التعليم في زلزلة سيطرته، أم كانت من جانب الشعب نفسه لما كان يتقيد به من التقاليد البالية التي عاقت تقدم العالم العربي كله في القرن الماضى.

كان الشيخ الوقور من أول من سعيت إلى لقائهم، وكان لالتقائى به أثر من أعجب ما وقع لي في حياتى. ذهبت إليه وأنا أسائل نفسي عما سمعته عنه ـ وكنت سمعت عنه أشتاتاً متناقضة من الأخبار ـ وخرجت من عنده وأنا أحسب أني خارج من لدى صديق عزيز قديم. رأيته لأول مرة رجلاً ضئيل الجسم له لحية خطها الشيب، ويدل ظاهره على أنه قد بلغ العقد السادس من

عمره، وهو في الحقيقة كما علمت فيما بعد قد بلغ السادس والسبعين. واسترعي انتباهي منه بصفة خاصة وجهٌ بشوش تبدو منه بساطة الشباب وعينان تتألقان بنور وجهٍ ينم عن إخلاص وحيوية دافقة. وجرى بيننا الحديث كأن كلاً منا يعرف الأسرار الكامنة في صدر صاحبه؛ فمنذ تلك المقابلة الأولى استمرت الصداقة بيننا وإن بعُدت شقة المسافة بين موطنينا وقد وقع في روعي بعد تكرار المقابلة أن ذلك الشيخ الوقور البشوش يطوي في حياته صفحة السودان الحديث كلها، وتمنيت فيما بيني وبين نفسي لو استطاع أن يسطر تلك الصفحة في كتاب.

لهذا كنت سعيداً عند زيارتي الثانية للسودان في عام ١٩٥٥م، إذ عرفت أن الشيخ قد سطر ذلك الكتاب.

وأول مايطالعنا في هذا الكتاب صورة صادقة للشيخ نفسه منذ طفولته، ومنها نتبين شخصية صاحبها ـ شخصية صريحة بسيطة عميقة التفكير ليس فيها أثر من الالتواء أو الادعاء. وأول حياته جدير بأن نجمله في بضع فقرات، فإن النواة هي أصل النخلة السامقة.

وُلِد الطفل بابكر وَلَد بدري حوالي عام ١٨٦٤ للميلاد لوالدين «فقيرين في المال، غنيين أعظم الغنى في الخلق» وكان مسقط رأسه علي نهر "أتبرة" في شمال السودان[١]. أحاطت الشدائد بالطفل منذ مولده، إذ غاب والده عن الأسرة وتُركت الأم وحدها تواجه مجاعة شديدة وقعت عند ذلك. فكان سعيد ـ أخوه من أمه ـ يجلب الصمغ في ثوبه لتخلطه الوالدة بدقيق الذرة والطفل بابكر يأخذ ما يعلق بثوب أخيه من ذلك الصمغ فيعلكه علكاً. ولما بلغ سن الرابعة انتقلت الأسرة إلى موطن عم الطفل في رفاعة (على النيل الأزرق) فاستقرت الأسرة هناك حتي بلغ بابكر مبلغ الرجال وتزوج من أهلها. وكان

---

(١) مسقط رأس المؤلف كان في الحقيقة في قرية في منطقة الرُبَاطَاب بشمال السودان تسمى قنِيفِد، وتاريخ ميلاده كان عام ١٨٦١م. انظر ملحوظة ٢ صفحة ١٨ ـ (المحقق).

حكم السودان في ذلك الوقت يدعو إلى الحنق والأسف معا، والشيخ يذكر في سيرة حياته بعض حوادث يوردها عرضاً في ثنايا حديثه وهي تدل دلالة واضحة على أحوال ذلك الحكم الذي كان يجمع بين الضعف والعسف، ومن ذلك ما ذكره بمناسبة غياب والده عن الأسرة. فقد ذهب الوالد مع سبعة من أبناء قبيلة "الرُّباطَاب" بقصد اكتساب الرزق في الخرطوم. وهناك قبض عليهم أحد النظار السودانيين الذين كانوا في خدمة الحكومة وأودعوهم السجن لسبب مضحك مبكٍ في وقت واحد.

كان سبب قبضه عليهم هو أن بعض أفراد قبيلة الرُّباطَاب قد اقترفوا جريمة إحراق غابة مملوكة للحكومة، فلما عرف الناظر أن هؤلاء السبعة من قبيلة الرُّباطَاب كذلك، قبض عليهم بغير أن يكلف نفسه مشقة التحقيق في أمرهم. واستمروا في السجن شهرا وكان المدير السوداني لا يحرك ساكنا فيما يتصل بأمرهم ، فلم يخرجهم إلا وكيل المدير الذي فطن بالمصادفة إلى أن هؤلاءالسبعة قد يكونون غير الآخرين الذين أحرقوا الغابة، فبدأ يتحقق من أمرهم حتى تبين له أنهم أبرياء فأطلق سراحهم. ومن العجيب أنهم بعد الخروج من السجن لم يأمنوا علي أنفسهم من العودة إليه إلا لسبب عجيب أيضا. فقد سخر الله لهم أحد مشايخ البلد في الخرطوم وكان من قبيلة الرُّباطَاب، فاحتال في أمرهم بأن أوهم الحكومة أن هؤلاء السبعة قد توفوا إلى رحمة الله واحداً بعد الآخر، وذلك بأنه كان كلما مات رجل في شياخته بعث إلى الحكومة بأنه واحد من السبعة الذين سبق لهم أن سجنوا، حتى أفناهم جميعا على الورق وأصبحوا في مأمن من عودة الحكومة إلى تعقب آثارهم.

ونستطيع أن نكوِّن صورة صادقة لتلك الحكومة مما ورد في ثنايا سيرة الشيخ من النوادر، وهي صورة كافية لتبرير حنق الشعب عليها ولتبرير أي ثورة على فساد حكمها.

وقد نال الشيخ حظاً طيباً من التعليم المعتاد في زمانه فبدأ بدخول الخلوة - أي المكتب أو الكُتَّاب - منذ بلغ سن السادسة ولكنه لم يبدأ دراسة جدية إلا على يدي أحد مشايخه الذين كان لهم أثر عظيم في نفسه وهو الفقيه

«الكَرّاس»، الذي استمر يتلقى التعليم على يديه إلى أن مات وكان بابكر قد بلغ السادسة عشرة. وتتلمذ بعد ذلك علي فقيه آخر من أقربائه وهو الشيخ الإزيرق وكان يتلقى دروسه عليه في "مَدَنيِ".

وكان بابكر في شبابه يمتاز بحساسية مرهفة تجتمع إلى نفس ثوارة، وكانت هذه الحساسية لا تجد متنفساً تنطلق ثورتها فيه، فكان يلجأ إلى التنفيس عن ثورته بطرق أخرى يصفها لنا في صراحة.

حدث مرة أن دخل أحد الضباط الأتراك إلى شيخه ليؤاخذه على أمر من الأمور وانتهت المؤاخذة بأن عاقبه بالجلد أمام تلاميذه. وكان بابكر حاضراً عند ذلك فيقول في صراحة: «فتجاذبت كذباً ورميت بنفسي على الأرض شاخص البصر عادم الحركة فحملوني من الخلوة للمنزل وأنا أعرف كل من حولي من الجالسين ولكني أتصنع الجذب». ويذكر لنا أنه بعد هذا جعل يقول في حالة جذبه المتصنع بعض الأقوال ينفس بها عن غيظه فتوقع بأن ذلك الضابط سوف يقتل. ومن عجيب الاتفاق أنه قتل حقاً في أثناء ثورة حدثت بعد عام واحد من تلك الحادثة.

ولم يتردد الشيخ في حديثه عن نفسه أن يورد بعض أمور كان غيره يؤثر أن يتجنب ذكرها. فهو أحياناً يذكر بعض أخطاء ارتكبها ويذكر بعض مواقف تهور فيها وجانب الاعتدال، كما أنه يورد ذكر أحلام شتى كانت تعتاده بين حين وآخر، وهي بغير شك مجالات وهمية كان يجد فيها متسعا للقيام بأدوار لم يتهيأ له القيام بها في عالم الحقيقة. فهو لايخفي شيئاً وإن كان مما يتحرج الناس من ذكره، وليس أدل من ذلك على صدقه وتحريه الحقيقة في كل ما أثبته في سيرته.

ومما يظهر واضحاً في ثنايا هذه السيرة أنه كان من أشد الناس تحمساً للثورة. كان يضمر الثورة منذ صباه وشبابه، حتى قبل أن يقوم المهدي بثورته. فما كاد المهدي يعلن الثورة حتى بادر بابكر بمبايعته. فلنعرج قليلاً على هذه الثورة، فهي من أكبر الحوادث وأعظمها دلالة، وكانت مثار كثير من الأقوال واختلفت فيها الآراء، وإنه لمن الإنصاف لأنفسنا أن نتعرف حقيقتها وأن نلمح

الدافع الذي حدا بالشاب بابكر أن يسارع إلى الانضمام إلى صفوف المجاهدين فيها.

لقد مضى الآن وقت طويل على حركة المهدي وفي استطاعتنا أن ننظر إليها من بعيد ونحن في مأمن من تدخل المؤثرات التي تضلل أحكامنا. فما هي حقيقتها وماهي العوامل الدافعة إليها ؟ وما هي الأغراض التي كانت تقصد إلى بلوغها ؟

فلنعد بالذاكرة إلى القرن الثامن عشر لنستعيد ما حدث فيه عندما بلغت موجة الضعف إلى حضيضها في الأمه العربية. كان حكام هذه الأمة يلهون في حياتهم الرخيصة ولا يبالون شيئاً سوى سلطانهم وكبريائهم الجوفاء ويسخّرون الأمة في إقامة حكمهم الذي نخره الجهل والغفلة. وكانوا يعسفون بالشعوب العربية ويهدرون كرامتها حتى تدهورت أحوالها من كل ناحية - في الحياة الاقتصادية والحياة الثقافية والاجتماعية وفي موقفها السياسي بين شعوب العالم. وحاولت الشعوب مرة بعد مرة أن تتخلص من ربقة هؤلاء الضعفاء الذين لايقوون إلا على الطغيان، ولكن حركاتها كانت تنتهي إلى الفشل؛ لأن الطغاة على ضعفهم كانوا أقوياء على إخماد حركات الشعوب العزلاء. واتجهت أنظار دول الاستعمار في أوروبا إلى العالم العربي في أواخر القرن الثامن عشر بعد أن انصرفت عنه طوال القرون الثلاثة الماضية، عندما كانت مشغولة باستعمار بلاد آسيا وأفريقيا، لأنها فطنت آخر الأمر أن أقدامها لا يمكن أن تستقر في تلك المستعمرات إلا إذا أَمَّنت الطريق إليها، وكان ذلك الطريق هو الوطن العربي الممتد من خليج البصرة إلى المحيط الأطلنطي. فما كاد الاستعمار يلمس حكم الطغاة المتحكمين في الأمة العربية حتى انهار ذلك الحكم ووقعت الشعوب العربية في قبضة الاستعمار قطعة بعد قطعة.

وكانت سطوة الطغاة على أمة العرب ثم انهيار حكمهم أمام صدمة الاستعمار بمثابة هزة قاسية ارتجت لها النفوس وثارت لها العواطف، فتحركت عوامل الثورة في الصدور جميعاً. وكان تاريخ القرن التاسع عشر يمثل محاولات الأمة العربية في كل أوطان العروبة التي تنهض من عثرتها، وأن تحاول أخذ

أمورها بيديها بعد أن اتضح لها أن الطغاة الذين يتحكمون فيها لم يدافعوا عنها بل حرصوا على المحافظة على أنفسهم ومصالحهم وباعوا شعوبهم وباعوا ضمائرهم وصاروا عبيداً للاستعمار. فنشأت حركات فكرية نفسية في كل قطر عربي، تقصد إلى تنبيه وعي الأمه وإعادة الثقة إليها وجمع صفوفها للجهاد من أجل حريتها، والخلاص من حكامها الأذلاء ومن سادتهم المستعمرين.

اتخذت هذه الحركات صوراً شتى وهي جميعاً تنبع من نبع واحد وتقصد إلى غاية واحدة. كانت تدعو الأمة العربية لإصلاح شؤونها وتنحو عليها باللائمة لانحرافها عن جادة الحياة الفاضلة وتحملها مسئولية الذل الذي صارت إليه منذ تركت شؤونها نهباً للأنانيين وعقولها نهباً للجهالة. وكانت خلاصة الدعوات الجديدة أن الله لايغير ما بقوم حتي يغيروا ما بأنفسهم. وكانت هذه الدعوات جميعاً لا تعترف بالحدود التي تقام بين أوطان الأمة العربية بل كانت كل دعوة منها توجه إلى الأمه العربية في أوطانها جميعاً.

هكذا فعلت الوهابية في بلاد العرب وهكذا فعلت السنوسية في شمال أفريقيا وحركة جمال الدين الأفغاني بمصر والمهدي في السودان. فلم تكن حركة المهدي سوى واحدة من هذه الدعوات التي كانت تهيب بالعرب أن ينفضوا عنهم غبار الهوان والتهاون ويهبّوا لاسترداد حرياتهم ويستعيدوا حياتهم المجيدة التي كان يحياها أجدادهم.

وكان من الطبيعي أن يخشى الطغاة تلك الحركات ويحاولوا بكل الوسائل أن يخمدوها، وكان من الطبيعي أيضا أن تدفعهم أنانيتهم إلى التعاون مع الاستعمار في كثير من الأحوال للقضاء عليها في سبيل الإبقاء على سيطرتهم المزيفة. فتجرد الطغاة لإخماد حركة الوهابية في جزيرة العرب كما قاوموا السنوسية في شمال أفريقيا. وكان جمال الدين هدفا لسخطهم في كل مكان يستقر فيه. فلم يكن من العجيب أن ينزعج الطغاة لحركة المهدي فى السودان ويعملوا بكل ما استطاعوا على إخمادها بالقوة. وقد كان شعب مصر في الوقت عينه يتحرك لاسترداد حريته بقيادة عرابي فأدى ذلك إلى ما أدى إليه من ارتماء الطاغية الذي كان يحكم مصر في أحضان الاستعمار كي يبقى على حكمه الذليل.

أليس من أعجب العجائب مع هذا أن توصم حركة المهدي بأنها لم تكن سوى حركة عداء ضد شعب مصر ؟. إنها لم تكن سوى ثورة من الثورات الشعبية العربية التي كانت الأمة العربية في كل موطن تنتفض فيها بغية استرداد حريتها والتخلص من حكم طغاتها.

لم يعد خافيا على أحد في أيامنا الحاضرة أن ثورة المهدي كانت موجهة ضد طغيان الحكم العثماني وممثلة في مصر فهي موازية لثورة عرابي ضد هذا الحكم نفسه. وكان المهدي مثل السنوسي يأمل أن يعود بعد نجاح ثورته فيتجه إلى الاستعمار الذي أصبح محيطاً بالسودان من كل جهة، بل صار يمد مخالبه في قلب السودان نفسه في أشخاص مثل أمين باشا (شفيرز النمسوي) حاكم إقليم خط الاستواء وغوردون الحاكم العام في السودان.

فواعجبا للاستعمار إذ يدسس إلى حكم مصر فيحتلها في سنة ١٨٨٢م، ثم يقوم بالدعاية العريضة لإظهار المهدي في صورة الثائر على مصر وصورة المعادي لشعب مصر !. وأعجب من ذلك أن تلك الدعاية وجدت قبولاً عند طوائف شتى أخذت تردد صيحة الاستعمار، بعضها سيىء النية، وبعضها حسن النية ولكنه واهم مغتر. ويكفي في دحض هذه الفرية ما ثبت من براهين عدة منها ما قاله الشيخ بدري في كتابه من أن المهدي كان حريصاً على أن يبقي غوردون حياً عند فتح الخرطوم، فإنه كان يطمع أن يقبض عليه حياً لعله يساوم به الإنجليز الذين قبضوا على عرابي بعد نصرهم المختلس ونفوه إلى جزيرة سيلان. فلم تكن ثورة المهدي سوى ثورة شعب عربي سار وراء زعيم دعوة من دعوات التجديد والتحرير وهي مثل سائر الدعوات تتجه إلى الأمة العربية كلها بغير نظر إلى حدود الأوطان. وإذا كانت ثورة المهدي قد تعثرت في الظروف التي أحاطت بها فهي مثل ثورة عرابي في تعثرها بالظروف التي أحاطت بها، وإذا كان أبطالها وزعماؤها قد ذهبوا ضحايا في الجهاد وانزوى من بقي منهم في الحياة العامة، فلا نستطيع أن ننسب إليهم تلك الدعاية التي نشرها الاستعمار البريطاني في السودان على نطاق واسع بعد أن مد مخالبه إلى الخرطوم بعد امتدادها إلى القاهرة. لقد كان هم الاستعمار أن يلقي في روع شعب مصر أن شعب السودان يريد به الشر، ويلقي في روع شعب السودان

كذلك أن شعب مصر يريد به الشر. وهذا هو السر في كل ما خيم على العلاقة بين الشعبين من سُحب قاتمة طوال مدة الاستعمار البريطاني.

فلنعد إلى صاحب السيرة لنواصل الحديث عنه، فإنه كان منذ شبابه الأول من أنصار ثورة المهدي. فذهب لمبايعته في أول عهده كما سبق القول، وكان عند ذلك في صحبة والدته التي كانت تؤمن إيماناً عميقاً بالدعوة المهدية. ولعل بابكر الشاب كان متأثراً في حماسته لهذه الدعوة بإيمان والدته التي كانت عظيمة الأثر في توجيه حياته كلها. فهي التي احتضنته صغيراً وهي التي عنيت بتربيته وكانت تختار خيرة الفقهاء ليتلقى عليهم دروسه. وكانت تعنى بكل كبيرة وصغيرة تتصل به، بل لعله ورث منها حساسيتها المرهفة التي كانت تغذيها في كل مناسبة. وكان الفتى بابكر يفضي إليها بكل أسراره ولو كانت مما يندى له الجبين خجلاً، ويلوذ بها كلما اشتدت عليه وطأة الحياة، فهي التي حملته على أن يهاجر إلى مَدَني عندما وجدت أنه يلقى عنتاً شديداً على يدي معلمه في رُفَاعَة وهي التي اختارت له فقيهاً فاضلاً من أقاربها ليكون أستاذه؛ فلم يكن عجيباً أن يندفع معها في حماستها للدعوة الجديدة بكل ما في قلبه من حرارة. وفي الكتاب نوادر شتى تدلنا على مبلغ حماسته للمهدية، وكان يتعرض بعد التحاقه بصفوف المجاهدين للسفن الحربية بغير ستار رغبة في الشهادة حتي اضطر قائد فرقته أن يقيم عليه حراساً لمنعه من الخروج للاصطدام بالسفن الحربية إذا مرت قريباً من موقعه. وقد دفعته الحماسة إلى التضحية بأموال الأسرة عندما ترك زراعتها وحمل أهله ذاهباً إلى موطن القتال. وكان أبوه في صفوف المحاربين فسأله: «كيف جئت ولمن تركتِ الزرع ؟» فأجابه: «تركته لله والجهاد أفضل منه» وكان عند حصار الخرطوم في مقدمة المحاربين في أقرب النقط من المدينة بحيث كان يرى السيجارة المشتعلة ويسمع كلام المحصورين ليلاً.

ولما خمدت ثورة المهدي وقف من بقي من صفوف الثوار وجهاً لوجه أمام حكم الاستعمار؛ وكان في ظاهره حكماً مشتركاً بين الإنجليز والمصريين ولكنه كان في الحقيقة حكماً استعمارياً محضاً. فإذا كان الشيخ يوجه اللوم في مواقف كثيرة للحكام المصريين ويدعوهم بأنهم كانوا أشد وطأة من الإنجليز أنفسهم.

وإذا كان يقول إن الحكام الإنجليز كانوا أقرب إلى الرحمة من الحكام المصريين الذين كانوا أولى بالرحمة، فما ذلك الا شبيهاً بما كان المصريون أنفسهم يقولونه في مصر لأعوان الاستعمار من أبناء مصر. وهل شيء أشد في التقريع من أن يوصف المصري بأنه أقسى حكماً من الأجنبي المستعمر ؟ لقد كانت هناك خطة مدبرة للإيقاع بين المصري والسوداني. كان الحاكم الإنجليزي يأمر تابعه المصري بالتشدد والقسوة في تنفيذ أوامر الحكومة، فإذا ما صدع المصري بالأمر خاضعاً عنيفاً، وتظلم السوداني من جبروته إلى رئيسه الإنجليزي، عاد ذلك فألغى الأمر الذي يشتكي منه السوداني، ثم عاد إلى المصري فألقى عليه وزر العنف والتشدد. وكان يفعل هذا علناً حتى تذيع أخباره بين الناس فتحملهم على كراهية أبناء مصر وسوء الظن بهم وبنواياهم.

وإنه لمما يؤسف له أن مصر المحتلة لم تستطع أن تفعل شيئاً في مواجهة هذه الخطة المدبرة. وقد آثر صاحب السيرة أن ينزوي بعد فشل الثورة في زاوية بعيدة، ولكنه اختار زاوية أقرب إلى أن تكون كمينا يتحفز فيه لوثبة جديدة. فإنه اختار التعليم ملجأ يعتصم به. وكان يؤمن بأن قومه قد خسروا الجولة الأولي وأن عليهم أن يستعدوا للجولة الثانية عن طريق اكتساب العلوم والمعارف. كان يؤمن بأن التعليم هو المقدمة لكل نهضة، ويؤمن بما آمن به قاسم أمين من أن الأمة لا يمكن أن تسير على قدم واحدة بتعليم الرجال وحدهم. وكان الشيخ شجاعاً في عقيدته فلم يتردد في افتتاح مدرسة لتعليم البنات على رغم ما يعرفه من تمسك قومه بالتقاليد القديمة التي حالت بين المرأة والتعليم طوال القرن التاسع عشر في كل أنحاء الأمة العربية. وقد كنت في مناقشتي معه ألمح ما كان يملأ قلبه من الآمال في مستقبل هذه الأمة وما كان يشرق عليه من الاستبشار كلما لمح تقدماً في ركن من أركان الوطن العربي. لم يكن متزمتاً ولا متعصباً ضد شيء ما دام يرى فيه مصلحة لقومه، وكان قومه دائماً هم الأمة العربية. وقد كان له ما أراد فرفع راية التعليم في مقدمة نهضة السودان الحديث.

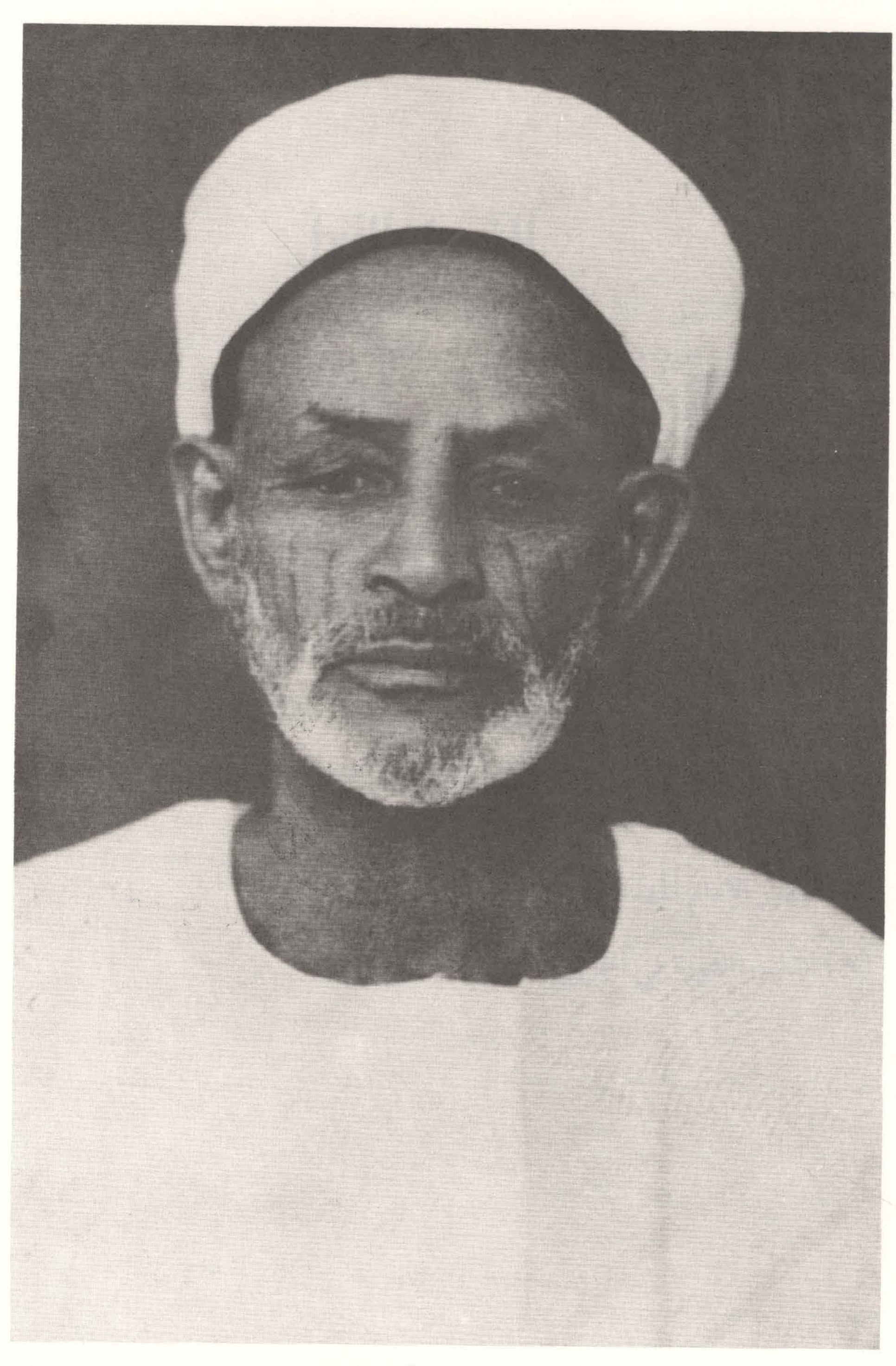
وبعد فإنه من دواعي سعادتي أن تحققت لي أمنية كنت أضمرها في نفسي. إذ كنت منذ عرفت الشيخ بابكر بدري أرى فيه ممثلاً لعصر كامل ولحركة ثورية كاملة مستمرة. وكنت أتمنى في نفسي لو استطاع هذا الرجل أن يكتب تاريخ حياته بنفسه فتكون صورة واضحة لكل عصره، فهو شيخ شهد مبدأ الحركة واستمرارها على مدى عشرات من السنين، وهو لذلك جدير بأن يجلي للأجيال القادمة حقائق كثيرة كانت جديرة بأن تخفى عليهم. فلما زرت السودان للمرة الثانية في عام ١٩٥٥م أطلعني نجله الوفي السيد يوسف بدري على مجموعة من المذكرات بخط يد والده، وكانت نيته تتجه إلى طبع تلك المذكرات. فكان ذلك تحقيقاً لأمنية اختمرتها ولهذا كنت سعيداً أن أكتب هذه المقدمة للكتاب، مشاركة مني في الوفاء لصديقي الشيخ الوقور الكريم عليه رحمة الله ومشاركة مني في تجلية السحابة التي أثارها الاستعمار وأعوانه حول العلاقة بين شعبي السودان ومصر وهما شعبان تشاركا في الحياة على الوادي المبارك منذ ألوف السنين وتشاركا في الرضاع من نهرهما الخالد، فهما شعبان أخوان شقيقان رضيعا لبان تجمعهما العروبة والمصالح المشتركة وسيواجهان المستقبل دائما بعون الله وهما سائران جنباً إلى جنب.

فرغ منها يوم ١٠ أغسطس ١٩٥٩م

محمد فريد أبو حديد (١)

---

(١) محمد فريد أبو حديد هو أحد الأدباء المصريين المشهورين وله كتابات متعددة في سلسلة كتاب «اقرأ» التي كانت تنشرها دار الهلال في مصر. وله أيضاً مجموعة من القصص المشهورة مثل «عشرة أيام في نوفمبر». كذلك فقد شغل عدداً من المناصب الكبيرة في وزارة التربية والتعليم المصرية (وزارة المعارف آنذاك) في الأربعينيات والخمسينيات، منها أنه عمل عميداً لمعهد التربية العالي (حالياً كلية التربية - جامعة عين شمس) وكان آخرها وكيل وزارة التربية والتعليم. وقد زار السودان مرات عديدة في أعمال تتعلق بالتعليم المصري بالسودان. وقد توفي منذ فترة عن عمر كبير.



المؤلف: الشيخ بابكر بدري

الفصل الأول

بســم الله الرحمــن الرحيم

«أَصْدَقُ التَّارِيخِ ماكُتِبَ فِي زَمانِهِ وصَدَقَ فيه كَاتِبُهُ وصَدّقَهُ مُعَاصِرُوهُ فِيمَا رَوَى»

بابكر بدري

الميـــلاد :

أخبرني والداي أني ولدت يوم الخميس غُرة صفر الخير سنة ١٢٧٨هـ ، الموافق ٨ أغسطس ١٨٦١م[١]. ولقائل أن يقول : «كيف عرف والداي الأميان ولادتي باليوم والشهر والعام ؟» والجواب هو أن تاريخ اليوم والشهر تعرفه كل امرأة في الغالب بالحوادث الهامة في نظرها. وأما العام فإن والدي جعل الأساس له زيارة الخديوي سعيد باشا للسودان[٢]. وكان ذلك يوم ٢٣ ربيع الثاني لسنة ١٢٧٢هـ ، الموافق أول يناير ١٨٥٦م، وهو يوم وصوله للخرطوم[٣].

---

(١) المعادلات الآتية تستعمل عادة لتحويل التاريخ الميلادي إلى هجري والعكس بالتقريب وهي كما يلي:

السنة الميلادية = هـ + ٦٢٢ - (هـ ÷٣٣).

السنة الهجرية = م - ٦٢٢ + ((م - ٦٢٢) ÷ ٣٣))

(٢) الخديوي سعيد باشا هو ابن الخديوي محمد على باشا. تولى الحكم في مصر سنة ١٨٥٤م واستمر فيه إلى سنة ١٨٦٣م للميلاد، وكان له اهتمام بأحوال السودان على غير حال حكام مصر الذين سبقوه، فخفف الضرائب وجعل كل واحدة من مديريات السودان ترتبط مباشرة بالقاهرة وبذلك ألغى دور الحاكم (الحكمدار) المصري بالخرطوم. أما في مصر فهو أول من أمر بحفر قناة السويس (تاريخ شعوب وادي النيل - مكي شبيكة، ١٩٨٠ صفحة ٥٠٤ - ٥٠٩).

(٣) زيارة الخديوي سعيد للسودان يذكرها نعوم شقير (تاريخ السودان: تحقيق د. محمد إبراهيم أبو سليم، ١٩٨١م ـ صفحة ٢٢٨)، على أنها تمت في ١٦ يناير ١٨٥٧م وهو اليوم الذي وصل فيه الخرطوم. إذن هناك إختلاف قليل بين التاريخين وهذا يعود للأسلوب التقريبي لتحويل التاريخ الهجري إلى ميلادي، والأقرب للحقيقة هو تاريخ نعوم شقير لاعتماده على وثائق.

كان بين هذه الزيارة وولادتي ست سنوات تَأيّمت[1] فيها والدتي أربع سنوات، ثم وضعت أختى السَّهْوَة التي ولدت قبلي بسنتين. وُلِدت من والدين[2] أميين في التعليم وفي الأرزاق حين ولداني، ولكنهما غنيان في الأخلاق في حالتيّ بؤسهما ونعيمهما والحمد لله.



الخديوي سعيد باشا

محمد علي باشا
مؤسس العائلة الحاكمة
في مصر

مذكوراتي :

مما أتذكره عن طفولتي لبن رضاعي رغم أني ما رضعت أكثر من سنتين. أتذكر لبن الثدي يأتيني من فتحات صغيرة وهو رقيق وفي طعمه حلاوة. أيضا أتذكر المنزل الذي كنا به بنهر أتبرة (حدث في هذا الاسم إبدال منذ بداية هذا القرن فأصبح يكتب أتبرا ثم عطبرة بدلا عن أتبرة ـ المحقق)، وكان عمري إذ ذاك لا يتجاوز ثلاث سنوات. وأتذكر أنه في آخر سنة ثلاث

---

(١) تأيمت: أي توفي زوجها.

(٢) ينسب المؤلف لقبيلة الرُّبَاطاب وهي إحدي القبائل المعروفة في شمال السودان وتسكن على ضفاف النيل وقد ولد في قرية «قنيفد» ثم ارتحل مع عائلته إلى قرية «كشوي» في نفس منطقة الرّباطاب. بعدها هاجروا جميعهم جنوباً إلى نهر عطبرة ثم إلى رُفاعة في السودان الأوسط كما مذكور هنا. أما والده فهو محمد بدري الصادق الطيب محمد الفكي مالك، مع ملاحظة أن محمد بدري هو اسم واحد، وكذلك الفكي مالك. ووالدته هي مدينة بنت محمد دياب صريرابي (انظر الملحق رقم ٤).

وثمانين[1] تغيّب والدي وأصابتنا مجاعة عامة. وأتذكر أن سعيداً ـ أخي من والدتي ـ كان يجلب لنا الصمغ في ثوبه لتخلطه والدتي مع دقيق الذرة لنأكله، وكنت آخذ ما يبقى في ثوبه مما يلتصق به أكدّه كدّا.

وأذكر أن عمي محمد على حمد السِّيد[2] أخذنا لرُفَاعة[3]. وحينما دخلنا المدينة كان يحملني على كتفه فهرش فينا كلب، فوضعني على الأرض ليضرب الكلب. كان عمري في ذلك الوقت لم يتجاوز الأربع سنوات. ومكثنا في رُفَاعة بعد ذلك إلى أن تزوجت بها[4].

اسمحوا لي أن أذكر الحكاية التالية وإن كانت خارجة عن تاريخي. سبق أن قلت إن والدي تغيّب عنّا ونحن بأتبرة، وكان في غيبته هذه ضمن سبعة رجال ذهبوا إلى الخرطوم وما بعده للتكسب (يتضح من أسلوب المؤلف هنا أن اسم الخرطوم كان يعامل في القرن الماضي على أنه مُذكّر وأصبح اليوم يعامل وكأنه مؤنث ـ المحقق). كان أولئك كلهم رُّباطاب وأحدهم كان يدعي الماحي، واتفق أن سبعة آخرين من الرُّباطاب أحرقوا غابة للحكومة بالقَرّاصة شرقي الخرطوم، وكان بينهم أيضاً رجل يدعى الماحي. فنشرت الحكومة للنُظّار في

(١) يقصد المؤلف أواخر عام ١٢٨٣هـ (حوالى ١٨٦٧م) ، وحدث في ذلك التاريخ ارتفاع في ثمن الذرة بسبب القحط وبسبب الحروب التأديبية التي أعقبت ثورة الجهادية السود في كَسَلا في عام ١٨٦٥م، ونتج عنها أن توقف الزراع في منطقة شرق السودان والقضارف عن زراعة الذرة لتشريدهم وخوفهم من جنود الحكومة التُركية، فارتفع سعر ربع الذرة من قرش إلى خمسة قروش، ولكن جعفر باشا مظهر(انظر ملحوظة ٢ صفحة ٣٣) الحاكم التركي في ذلك الوقت، قام بشراء كميات من الغلال من مناطق أخرى لتهدئة المجاعة وتسكين هياج سكان مناطق شرق ووسط السودان (شقير، صفحة ٢٤٦). وحدثت مجاعة أخري عام ١٨٨٨ـ ١٨٨٩م، تعرف «بمجاعة سنة ستة» أي عام ١٣٠٦هـ ، ذكرها المؤلف خلال الأحداث عن الحملة لغزو مصر (انظر الحاشية صفحة ٩٣ ـ ٩٤).

(٢) محمد علي هو ابن عم محمد بدري والد المؤلف راجع نسبهما في ملحق ٤ .

(٣) رُفَاعَة مدينة صغيرة تقع على الضفة الشرقية للنيل الأزرق جنوب الخرطوم وشمال مَدَنيْ (انظر الخريطة ملحق رقم ١ لمواقع المدن والقرى المذكورة في هذا الكتاب).

(٤) هذه الأحداث التي يذكرها الشيخ بابكر بدري هنا ليست مرتبة تاريخيا حيث إن المجاعة المذكورة كانت وعمره ست سنوات، وذهابه لرفاعة تم وهو في الرابعة. لذا فهي كما يبدو من العنوان أعلاه أحداث يتذكرها عن طفولته أتت دونما ترتيب. وزواجه المذكور هنا كان أول زواج له حيث تزوج =

تلك الجهة أن يبحثوا عن هؤلاء الجناة . ومن ضمن النُّظَّار ناظر سوق الخرطوم ويدعى محمد عبد القادر ولد أبي دبل المحسي، وفي مروره سحراً وجد والدي ومن معه نائمين في إحدي خلوات الضيوف (كان من عادة السودانيين بناء غرفة لاستقبال الضيوف تُلحق بالبيت وتسمي خَلْوة - المحقق) بحِلّة "الثمانيات". فحسبوهم وهم نيام، ثم نَبّهوا أحدهم وسألوه عن اسمه وكان صدفة هو الماحي. وعندما سألوه عن جنسه أجابهم: «نحن رُّباطاب». فقالوا: «هم.. هم.. والله». فألقوا القبض عليهم وأرسلوهم إلى الخرطوم باسم الذين أحرقوا غابة القَرّاصة ووضعوهم في السجن لمدة شهر كامل، وتركوا البحث عن الجانين الحقيقيين.

كان المدير إذ ذاك أحمد بك أبو سِن الشُّكْرِي(١)، وقد اعتاد أن يعرض عليه المساجين كل جمعة طائفة طائفة، بحسب جناياتهم. فيسأل عن جناياتهم ويجيبه المأمور: «هؤلاء أهل تهمة كذا»، فيأمر بردهم للسجن. وكان عندما يصل طائفة والدي ومن معه يقال له هؤلاء الرُّباطاب الذين أحرقوا غابة القَرّاصة فيردّون للسجن. وفي مرّة تغيب أحمد بك أبو سن في مرور فعرضوهم على معَنّى بك السوري وكيل المديرية، الذي كان يسأل المأمور عند كل طائفة: «أين ورقهم ؟». حتي وصل إلى والدي ومن معه فسأله عن ورقهم. فقال: «لم يُعمل لهم تحقيق». فعجب من ذلك والتفت إليهم قائلاً: «حقيقة أنكم أحرقتم غابة القَرّاصة ؟». فقالوا له: «ماهي القَراصة ؟». فقال: «البلدة التي على بحر

= حواء بنت المبارك برفاعة عام ١٨٨١م (انظر صفحة ٢٣٤). تزوجها رغم أنها كانت مطلقة وتكبره في السن لإصرار والده الذي خشي والد حواء لأنه كان صديقه، خصوصاً وأن والد المؤلف كانت له أيضا ابنة مطلقة نجح في تزويجها في نفس تلك الفترة. أعقب ذلك زواج ثانٍ للمؤلف في عام ١٨٨٧م للبقيع بنت عثمان خلال الحملة لغزو مصر (انظر صفحة ٨٧)، وزواج ثالث عام ١٨٩٠م لحفصة بنت مريم أثناء أسره في جنوب مصر (انظر صفحة ١٨٤)، وزواج رابع عام ١٨٩٥م لنفيسة بنت صالحة بأمدرمان (انظر صفحة ٢٤٦)، ثم تزوج نفيسة بنت إبراهيم مدني (صديقه) في رفاعة عام ١٩٢٧م، وأخيرا تزوج بامرأة تدعى بخيتة من قبيلة الجَمّوعِية عام ١٩٣٤م.

(١) أحمد بك أبو سن: هو أحمد عوض الكريم أبو سن ناظر قبيلة الشكرية خلال الحكم المصري التركي، وقد عين حاكماً لمديرية الخرطوم عام ١٨٦٠م وظل يشغل ذلك المنصب إلى تاريخ وفاته عام ١٨٧٠م (تاريخ حياة بابكر بدري: ترجمة يوسف بدري وجورج اسكوت، ١٩٦٩، صفحة ٢) (انظر أيضاً ملحق ٥).

أبيض قبّلي (جنوب) الخرطوم». قالوا: «نحن ما وصلنا الخرطوم إلا للسجن لأننا جئنا من الرُّباطاب». فقال لهم: «ما علامة أنكم جئتم من الرّباطاب ؟». فقدم أحدهم سَركي الوصل[١] الذي دفع به الضريبة وهو بالرباطاب فوجد مَعنّى بك أن تاريخ الوصل كان بعد حادثة حرق الغابة. فقال لهم: «هل تجدون أحداً يضمنكم حتى نتحقق من براءتكم ؟». أجابه المأمور: «نطلب الشيخ السعيد والد مولى بك شيخ الرُّبع بمدينة الخرطوم لأنه رُباطابي، فإذا عرفهم وضمنهم نترك سراحهم». فجاء الشيخ السعيد وسألهم، فلمّا سأل والدي قال له: «أنا ولد حاج الصادق ولد الطيب». قال له: «أنت ولد بدري ؟». قال: «نعم». قال: «هل تعرف هؤلاء كلهم ؟». قال: «نعم». فوضع ضمانة عليهم وأخذهم إلى منزله. وفي اليوم الثالث قال لهم اذهبوا حيث شئتم، فذهب والدي إلى رُفَاعة حيث كنا نحن.

في تلك السنة سافر والدي إلى كَرْكُوْج[٢] ورجع منها غنياً. ثم سافر لزيارة الشيخ السعيد بالخرطوم وأعطاه ـ كما قال ـ ثلاثين ريالاً. وقال له: «إن شاء الله ما تكون الحكومة أتعبتك كثيراً في غيابنا». فقال السعيد: «أنت يا ود بدري من زمان مُتّ». قال: «وكيف ذلك ؟». قال له السعيد: « منذ سافرتم أنا صرت كلما مات رجل في رُبْعِي أعرضه على الحكومة بأنه أحدكم، حتي أتممت الرجال السبعة كلهم ماتوا، وحجتي ضغط السجن وتغيير الهواء». فشكره والدي متعجباً من جرأته وغفلة الحكومة. أليس مثل هذه الحكومة تستحق الزوال وإنشاء حكومة رشيدة يقظة تحلّ محلها[٣].

(١) سرَكي الوصل، أي صورة الوصل أو كعبه.
(٢) كَرْكُوْج: هي قرية كبيرة على الضفة الشرقية للنيل الأزرق، وتبعد حوالي ثلاثمئة وخمسين كيلو متراً جنوب شرق الخرطوم وجنوب مدينة سِنَّار (انظر الخريطة ملحق رقم ١).
(٣) الإحساس الذي يعبر عنه المؤلف هنا عن سوء الحكومة التركية إحساس شائع بين أهل السودان في نهاية القرن التاسع عشر وذلك لفشل الإدارة وتفشي الرشوة والبطش. وقد غُيّر الحاكم العام (الحكِمدار) التُركي أو المصري ٢٥ مرة في خلال ستين سنة (١٨٢١ـ ١٨٨٥م)، وذلك كان أحد أسباب نجاح الثورة المهدية التي إنبثقت عام ١٨٨١م.

دراستي في خلّوة[1] الفقيه الكرّاس:

أدخلوني خَلّوة القاضي الطيب لأنها بجوارنا، ولكنّي لم أستفد منها شيئاً لإهمال الفقيه بها أو لصغر سني التي كانت في أول السادسة. وقد قالت المُغنّية في ذلك حين ختاني في قصيدة غنتها « .. الكَسَّر سنَيْنَات اللّبَن في الخَلّوة » . ثم نُقلت إلى خَلّوة الرجل الصالح اليقظ المخلص في عمله الفقيه أحمد حامد ـ الشهير بالكرّاس ـ سنة ١٢٨٨هـ (أي عام١٨٧١/١٨٧٢م). واستمريت عنده إلى أن توفي سنة ١٢٩٥هـ (١٨٧٨م)، حيث كان، يأمرني بتمريضه. وأظنه كان مصاباً بالحمى السوداء لأنه كان يتبول دماً ويأمرني بدفنه في حفرة عميقة بعيداً عن الناس.

اسمحوا لي أن أذكر عن هذا الرجل ما أعرفه عنه أداءً لواجبه عليّ. كان رحمه الله، فوق السبعين من عمره، ورغم ذلك فقد كان قوي البنية يمكث بخلوته إلى الساعة الحادية عشرة مساء حتى يتمم تلاميذه سُبع القرآن وبعدها يتوجه لإحدي زوجتيه ليرجع إلى الخلوة في الساعة الرابعة صباحاً أو قبلها، وذلك بالتوقيت الأفرنجي، أي الساعة العاشرة مساء بالتوقيت العربي[2] على الاستواء. وعند مجيئه يثيرنا (يوقظنا) فنوقد النار بالنوبتجية (أى يقوم بذلك واحد منهم في كل يوم ـ المحقق) ونشرع في القراءة للعَرضَة (أي التسميع من الذاكرة لما كتبه التلميذ على لوحه ـ المحقق). أما هو فيدخل في مخزن الخَلّوة ويستحم يومياً ومعه تلميذان يقرآن عليه لوحيهما ليمحواهما بعد هذه القراءة

---

(١) الخَلّوة: هذه الكلمة ـ كما سبقت الإشارة - تعني غرفة استضافة الضيوف وأيضا تُستَعمل بمعنى المدرسة التي تختص بتحفيظ القرآن الكريم وتدريس بعض مبادئ اللغة العربية والحساب.

(٢) كان السودانيون يحسبون الزمن على أساس الليلة فاليوم، ويطلقون على هذا التوقيت الزمن العربي، ونفس هذا التوقيت لا يزال يستعمل في بعض الأقطار العربية لا سيما في المملكة العربية السعودية وأيضاً في أثيوبيا. يبدأ هذا التوقيت عند المغرب أي حوالي الساعة السادسة حيث تحتسب نقطة البداية فتكون الساعة السابعة مساء بالتوقيت الإفرنجي هي الساعة الواحدة بالتوقيت العربي وهكذا.

ويكتبا غيرهما. فتستمر العَرضَة ـ قراءة الألواح حفظاً ـ عليه لكل تلميذين على حدة حتي يفرغ من اغتساله، فيخرج ويجلس على عنقريبه [1] والعرضة مستمرة حتى يسفر الفجر. فيأمرنا بالقيام للوضوء فنصلي الصُّبح ونستأنف العَرْضَة حتي نفرغ. ومَنْ سَمّعوا منّا يمحون ألواحهم ويكتبون غيرها من ذاكرتهم لأنهم يكونوا قد حفظوها عصر اليوم الماضي. وبعد الكتابة يصححون عليه ما كتبوه مثنى مثنى. كان يفعل ذلك مع الكبار منّا، أما المتوسطون فإنه يجلس أمامهم ويملي عليهم ما يكتبون في يومهم غيبا من ذاكرته، والصغار يكتب لهم ألواحهم بنوى التمر ليكتبوا فوق ما كتبه لهم ليتعودوا على الكتابة وتحسين الخط. كل هذا يجريه يومياً لا يشغله عمل عن عمل لا في النظام ولا في الصحة.

ومما أذكره هنا أني تساهلت يوما في حفظ لوحي وكان خطئي في قوله تعالى: ﴿ولما فتحوا متاعهم﴾ في سورة يوسف عليه السلام. كان الوقت حينذاك عشاء فلما حضر الفقيه وقت السَّحر وكنت اجتهدت في حفظه حتي جاءت نوبة تسميعي فظننت أنه لا ينتبه لي فمحوته، وكتبت ﴿فلما دخلوا﴾. وعندما قرأته عليه ضحى الغد للصحة سكت إلى أن ختمته بقولي «إنه هو العليم الحكيم». قال لي: «تعال يا العليم الحكيم أنت عرضت على منْ ؟» فقلت له: «عرضت عليك يا سيدنا». قال: «متي ؟». قلت: «وأنت تستحم في المخزن». قال: «أنا دخلت للاستحمام وكان يقرأ فلان وفلان ثم بعدهما فلان وفلان وبعدهما فلان وفلان، وخرجت وهما يقرآن. فبين أي هذه الدُّفع عرضت لوحك ومن كان معك ؟» فقلت: «يا سيدنا يموت الفكي ويموت أبوي أنا عرضت». فقال لي: « تموت أنت !.. امش امحُ وتعال أكتب ما محوته». ذهبت ومحوته وكتبت سطرين مما محوته، فاتضح أمْري فضربني على الكذب ثم أملاني لوح ﴿ولما فتحوا﴾. وحكم علي ألا أبرح الخَلْوة حتي أسمعه إياه غيابياً (أي أعرضه عليه)، وفعلاً حصل ذلك.

---

(١) عَنقَريب : بلغة أهل السودان تعني السرير.

رغم أن حَيرَان[١] الخَلّوة كانوا يفيضون على الأربعمائة طالب لم يكن له منهم مساعد ولا من غيرهم. كان، رحمه الله، لا يبالي بأهل المال ولا أهل الجاه، ولا يقبل هدية من أحد، ولا يسمح لأحد أن يُخدِّم تلاميذه في بِلادَه[٢] ولا في منزله كغيره، ولا يستخدمهم هو. وقد رأيت الشيخ عوض الكريم أبو سن[٣] وهو ناظر الشُكْرِيّة جاءه زائراً في إحدى المرات، وكان الشيخ راكباً حصاناً، فوقف عند باب زَرْيبِة[٤] الخَلّوة فقابله الفقيه إبراهيم وقيع الله. فقال



الشيخ عوض الكريم أحمد أبو سن (باشا)

(١) الحِيرَان: (حواريون) جمع حُوار أي التلميذ الذي يدرس القرآن لدى الفقيه.
(٢) البِلادَ باصطلاح السودان تعني الأرض التي تزرع وتسقى من ماء المطر.
(٣) الشيخ عوض الكريم أبو سن هو ابن الشيخ أحمد بك عوض الكريم أبو سن الذي ورد ذكره في صفحة ٢٠ أعلاه، وقد خلف أباه في نظارة الشُكْرِيّة (انظر ملحق ٥) ومنحته الحكومة التركية لقب باشا إذ كان هو وأسرته من الأسر التي وجدتها القوات المصرية التركية تحكم قبائل السودان منذ تاريخ طويل. وقد كانت نظارة الشكرية في بيت أبو سن منذ القرن الثامن عشر واستمرت كذلك خلال التركية السابقة ثم المهدية، حتى الحكم الإنجليزي المصري وأيضاً بعد الإستقلال. وكان شيخ عوض الكريم معارضا للمهدية تارة بصورة واضحة وتارة بصورة مستترة منذ ظهورها، وقد كشف معارضته خلال حكم الخليفة عبد الله الذي وضعه في الإعتقال حتى وفاته عام ١٨٨٦م. (تاريخ حياة بابكر بدري: ترجمة يوسف بدري وجورج اسكوت النص الإنجليزي، ١٩٦٩م، صفحة ٥).
(٤) الزريبة: السور الخارجي للدار أو لغيره ويصنع عادة من فروع الشجر الجافة الشائكة.

الشيخ عوض الكريم إني زائر الفقيه أحمد الكراس. فجاء الفقيه "العالم" وقيع الله لشيخنا والحيران يصححون ويكتبون، وقال: «يا فكي أحمد الشيخ عوض الكريم جاء يزورك»، فلم يلتفت له. ولما رأى الشيخ عوض الكريم عدم قيام الفقيه أحمد من عنقريبه ترجّل من حصانه ودخل المسجد راجلاً حتى وصل الفقيه أحمد وصافحه وجلس . استمر شيخنا مشتغلاً بعمله والشيخ عوض الكريم جالس بجانبه. ولما طالت المدة طلب منه الفاتحة، فصفق الفقيه يديه علامة للسكوت، ثم طلب الفاتحة من كل الحيران وودّع الشيخ عوض الكريم حتى ركب حصانه ثم رجع. فأنّبه الفقيه وقيع الله على عدم استقباله للشيخ عوض الكريم كما يستحق. فكان رده عليه بعبارة الزاجر: «يا زول هل ربنا يسألني عن مجاملة الشيخ عوض الكريم أو عن إصلاح ألواح الحيران؟».

كانت عادة فقهاء الخلوات أن يفزعوا[١] حيرانهم للغابات يومين من كل أسبوع ليكثر الخشب لديهم ليبيعوا منه لحيران الخلوة ويستعملون منه في منازلهم. أما شيخنا فكان يجمع حطبه سنويا من البحر زمن الفيضان. فحينما يسمع «أن البحر رامي»[٢] يأمرنا ذاك اليوم بالتوجه إلى البحر ـ الكبار منا لجلب الخشب من بطن البحر والمتوسطون يتناولونه من الشاطىء والصغار يحملونه إلى الخَلْوة. ولضمان سلامة الحيران كان يكتب لكل واحد اسمه بخطه، للمتوسطين يكتب الاسم على الذراع، وللصغار على الساق. وبعد رجوعنا يُفتّش على ما كتبه، فمن وجده أضاع العلامة جَلَدَه أو منعه من التوجه مع إخوانه إلى البحر، وهذا أنكي للولد. كان ـ رحمه الله ـ يمنعنا من عادات الخلوات المؤدية للدناءة كالشحتة بالشَّرَافَة[٣] في السوق أو في المنازل أو السعي لمآتم الأموات لنأكل لحم الصدقات.

---

(١) يفزعون: يرسلون.

(٢) اصطلاح يعني أن النهر قد فاض واقتلع الأشجار وحملها معه في جريانه.

(٣) الشَّرَافَة: زينة يُحَلى بها لوح القرآن كلما حفظ الحوار جزءاً وانتقل لآخر (قاسم، صفحة ٦٠٨).

مكثت في الخلوة سبع سنوات ولم يحدث أن ذهب أحد من حيرانه لمأتم عدا مرتين، إحداهما لمأتم الشيخ على أبو سن[١]، والثانية لمأتم الفقيه ولد عونِ الله - أحد أقربائه - وما رأيت له عملا يدني إلى الدناءة إلا أنه كان يقسم لنا كَرْامَة العائد أو المُنتهي[٢] في أيدينا لكثرتنا. كذلك كان لايستعمل كالفقهاء الآخرين آلة الفلكة[٣] ليضرب الولد على راحة رجليه بل كان له سوطان أحدهما قصير يسمى «الجَدّوَة» ويصنع من جلد القِرنتيِة - فرس البحر - والثاني مصنوع من جلد البعير ويربطه في خشبة ويسمى «الفَرْطُوق». وكان الشيخ سريع الجلد حيث يمسك بتلابيب الولد ويجلده بالجدوة، فإذا رأى الولد اشتد في الجذب أطلقه فيقع الولد على الأرض وبسرعة الحاوي يضع الجدوة ويأخذ الفَرْطُوق ليستمر في الجلد حتى يزحف الولد حابياً مبتعداً عنه. بالرغم من ذلك فقد كان - رحمه الله - ميالاً للأنواع الأخرى من العقاب أكثر من الضرب. ويقول سليمان خلف الله في الجلد:

حزنانة الجدوة دايره الشرف والفوت[٤]

وقالت مرتبتي أنا أخير من صوت

مقابلة الفكي بالمـرْ أخـير المـوت

والعشرين تحلف تقول فَدْ صوت[٥]

---

(١) الشيخ علي أبو سن هو الأخ الأصغر للشيخ عوض الكريم أبو سن، وقد ولي نظارة قبيلة الشُكْرِيّة خلفا لأخيه عوض الكريم في الفترة من ١٨٧٢ إلى ١٨٧٤م (تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي، صفحة ٦).

(٢) كَرْامَة العائد والمُنتهي: هو الأكل الذي يعده أهل التلميذ احتفالا بتخرج ابنهم، ويُرسَل الأكل للفكي في الخَلْوة ليوزعه على التلاميذ الآخرين.

(٣) الفلكة: هي عمود خشبي تربط عليه رجلا الصبي لجلده على قدميه (قاسم، صفحة ٨٧١).

(٤) الفوت: من كلمة فات أي سبق وتفوق وهي لفظة عامية في اللهجة السودانية.

(٥) فَدْ : كلمة عامية أصلها فرد أي واحد، وحدث فيها إدغام. وصوت أصلها سوط وحدث فيها قلب في الحروف. اذاً فَدْ صوت تعني ضربة واحدة بالسوط (هذا الشرح أضافه مشكورا الأستاذ ضرار صالح ضرار عند قراءته مسودة هذا الكتاب).

كذلك كان ـ رحمه الله ـ يقرأ القرآن كل ليلة مع كثرة عمله. وكان طالب علم إلى أن توفاه الله. رحمه الله رحمة واسعة أضعاف أضعاف عمله الصالح.

حصلت على القرآن في سنة ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م)[١]، بعد موت الفقيه أحمد الكراس. ودلّيت[٢] "عَودَة المُروق"[٣] على الفقيه الجابري الذي كان يُجتذب[٤] كل اليوم لا يأكل ولا يشرب وأحياناً يكون مفتوح العينين؛ ثم اشتغلت بقراءة العلم على يد الفقيه يوسف محمد نِعْمَه أحد العلماء برفاعة مع تعليمي القرآن لبعض الصغار بخلوة أحد جيراننا وقت فراغي .

أتذكر أنه في إحدي المرات جاءنا أحد الضباط الأتراك ويدعى علي كاشف وقام لسبب أجهله بجلد شيخنا الفقيه أحمد تور ياسين ـ المُعتَقد دينياً ـ فغضبت لذلك وقمت بعدها بتقليد شيخي ولد الجابري في الانجذاب، فتجاذبت كذباً ورميت بنفسي على الأرض شاخص البصر عادم الحركة، فحملوني من الخَلْوة إلى المنزل حيث وضعوني على عنقريب وأنا أعرف كل من حولي من الجالسين ولكني أتصنع الانجذاب واتكلم كلام الإنسان المجذوب كما سمعته من شيخنا. ومن العجيب أني قد صرحت فيما قلته أن علي كاشف سيقتل في قرية أبي شوكة. وفعلا قتل علي كاشف بعد عام في ثورة حصلت بحِلّة أبي شوكة[٥].

---

(١) كان عمر الشيخ بابكر عندما أنهي تلك الفترة الدراسية تسع عشرة سنة.

(٢) دلّيت: أتممت أو أكملت، أي أرشدت عن معرفتي.

(٣) عَودَة المُروق: عودة بمعني تكرار، المُروق بمعني الخروج. والتعبير اجمالاً يعني أكملت التسميع أو الإعادة الأخيرة لكل القرآن اللازم لتخرجي من تلك المرحلة الدراسية.

(٤) يُجتَذب: من الاجتذاب أي الدخول في غيبوبة، ويعتبرها الناس دلالة على الصفاء الروحي الذي يدخل فيه الشخص، وهذه تعود للأثر الصوفي الذي كان يغلب على الفكر الإسلامي في السودان .

(٥) علي أغا كاشف هو أحد القواد الأتراك، وقد أرسله جيكلر الذي كان حكمداراً بالنيابة على السودان عام ١٨٨٢م ، لإخماد الثورة التي قام بها الفقيه محمد زين على رأس جماعة من عربان رُفَاعة الهُوْيْ في ٢٥ مايو ١٨٨٢م استجابة لدعوة المهدي، وقد أخمد علي كاشف الثورة ولكنه لم يقتل في تلك الموقعة كما ذكر بابكر بدري، بالرغم من موت عدد كبير من جنوده (شقير صفحة ٣٥٥؛ جيقلر، ١٩٨٤، صفحة ١٩٩).

وفي واقعة ثانية تشاكست مع أحد يدعى محمد الشاطر نعيمة فأقسم الفقيه محمد الجابري بأن يضربني مائة سوط على رجليّ بسوط العنج[1] بالفلكة. فجعلت أصرخ إلى أن ذبح (بُحّ) صوتي، وكان كلما أتاه أحد يشفع لي يقول: «عز الله في ملكه لن أتركه حتي يتم المائة». فلما أتمها لم أستطع الحركة حتى جاء أهلي ورحلوني على حمار. وبعدها استمرت كثير من جروحي تتقيأ فيعالجونها بالمسلي المغلي حتي شفيت ورجعت إلى الخَلْوة. أظن شيخي كان مجذوباً عند توقيعه هذه العقوبة لأنه كثيراً ماكان يُجذَب .

مما أذكره من شقاوة الأطفال أيضاً أنه قد ضاع مني ثوبي بالبحر، فاحتلت وسرقت ثوباً كبيراً من عبيد كانوا يملأون الأحواض بقرب بئر بقريتنا. وذهبت بعد ذلك إلى الخَلْوة، فلما رأى حمزة السوارابي الثوب الكبير قال لي: «الأحسن تقطع منه بقدر ثوبك وترمي الباقي».

---

(١) سوط العنج : هو السوط الذي يستعمل لضرب الجمال.

حكايـة الكُجُورِيّـة: [1]

سُرِقَ "قَرِن خَمّرِي"[2] من أم طبول أختي وبحثنا عنه فلم نجده فاقترح أحد الناس أن نذهب إلى الكجورية "عَطَا منُّه"[3] نسألها لعلها تكشف عن حكاية الثوب المسروق، أو تخبرنا بمن سرقه. فأنكرتُ عليهم ذلك بقولي: «هل إذا قالت الكُجُورِيّة أن بابكر هو الذي سرق الثوب يكون ذلك حقيقة ؟». فقال أخونا ميرغني شكاك[4]: «نمتحنها أولاً بسؤالها عن أشياء معروفة لدينا فإن أصابت نعتمد كلامها، لذا فلنسألها عن اسم أمي فهي غريبة وماتت منذ زمن ولايعرف اسمها إلا القليل من عائلتنا». فقبلنا رأيه وسرنا نحوها ولما دخلنا عليها وجدناها تأكل "كِسّرَة برُوْب"[5] في قَرْعَة[6]. سَلّمنا عليها فقالت لنا: «أمّونة ما موجودة». فجلسنا حولها، وبعد برهة امتقع لونها وصرخت صرخة عالية ثم قالت: «أمّونة جات». فناداها أخونا ميرغني قائلا: «أمونة ؟». فأجابه صوت من داخل بطن "عَطَا منُّه": «حَبَابَك يا ميرغني ود كَسّبة». وكان "كَسّبة" هو اسم أمه. وعند ذلك سررنا وبدأنا نسألها عن "القرن الخمري". فقالت أخذه فُلان ود فُلانة وباعه لفُلانة. فذهبنا لفُلانة ودفعنا لها المبلغ الذي اشترت به القرن وردّته لنا.

---

(١) الكجورية: هي العرافة التي يُزعم أنها تكشف الغيب.

(٢) قَرن خَمري: نوع من القماش المزركش تلبسه نساء السودان كإزار.

(٣) اسم متعارف عليه بين الجواري ودائما تسمى الجارية بنعت يضاف إلى اسم سيدها أو لتأكيد صفة طيبة فيه مثل «عَطَا منه» و«تَام زينة» و«فَرجُه قريب» وهكذا.

(٤) ميرغني شكاك هو ميرغني محمد شكاك ابن عم المؤلف، راجع نسبهما في ملحق ٢ و٤.

(٥) الكِسّرَة: هي نوع من الخبز الرقيق يأكله عامة السودانيين. والرُوبَ هو الحليب المخمر.

(٦) قَرْعَة: إناء يستعمله السودانيون وهي من ثمار يشبه البطيخ يجففونه ثم يفرغونه من اللّب والحبوب ثم يستعملونه.

في مسجد الفكي الإزيرق:

وإذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه، وقد هُيئت لي الأسباب في يوم ما حينما أخذت قصبة من سقف الخَلْوة (غرفة الضيوف) لأبريها قلماً، وأظن أن بعض الغبار نزل على عمي محمد أحمد شكاك[1]. فخرج عليّ وأوجعني ضرباً بلا شفقة. غضبت والدتي التي لم تتعود الغضب لفعله فأدخلت كتبي في شنطة من قماش، وقالت لي: «أمشي إلى مَدَني[2] واقرأ على عمك الفَكي الإزيرق»[3]. ذهبت من ساعتي برجليّ فأدركت آخر سوق المَسَلّميّة ووجدت للحظ رجلين على حمارين ذاهبين إلى مَدَني فتعلقت في حمار أحدهما. وبعد برهة سألني: «أين تذهب ؟». قلت: «لمَدَني أقرأ العلم على الفقيه الإزيرق». قال لي: «أحفظت القرآن ؟». قلت: «نعم». قال لي: «اقرأ ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم﴾». فقرأتها عليهما فأردفني على حماره وقال: «يا ولدي الحكيم قال



بروفيسر يوسف بدري (١٩٨٩) ابن المؤلف
والمترجم لكتاب حياتي الجزء الأول والثاني للغة الانجليزية

(١) محمد أحمد شكاك هو عم المؤلف - راجع نسبهما في ملحق ٢ و٤.
(٢) مَدَنيْ: هي مدينة كبيرة وقديمة على النيل الأزرق في وسط السودان. يطلق عليها أحياناً اسم ود مدني وهى الآن عاصمة الإقليم الأوسط (انظر الخريطة ملحق رقم ١).
(٣) بالرغم من أن الشيخ بابكر بدري قد انتقل من خَلْوة الفكي (الفقيه) الكرّاس إلى خَلْوة الفكي الجابري ثم خَلْوة الفكي الإزيرق لأسباب حدثت ساعدت على ذلك الترحال، إلا أن التنقل بين الخَلاوي كان عادة الدارسين في سودان القرن التاسع عشر (القدال، ١٩٨٥). وأخبرني يوسف بدرى (يناير =

لولده احفظ القرآن فإنه لا يَرْمِيك وإذا رَمَاك يرميك على بِرِش[1]، وتعلم العلم فإنه لا يرميك وإذا رماك يرميك على سرير». فسررت من الرجل ودعوت له بالخير.

وصلت مَدَني والتحقت بطلبة العلم وقرأت "السنوسية" بشرح ولد بَقَادي وشرح ولد عيسى، و"الجزرية" بزكريا في التجويد، و"العزية" بعبد الباقي[2]؛ وهذا أهداه لي شيخنا وكان بخطه ـ رحمه الله.

اسمحوا لي أن أحكي حكايتين حصلتا لي بمدَني . الأولى حدثت بعد أن لحقني إبراهيم مصطفي، الذي كان وكيل الفقيه محمد ولد الجابري، الذي دلّيت عليه عُوْدَه[3] بعد وفاة شيخنا الفقيه أحمد الكراس. كان إبراهيم محترما عندنا وجاء معه أحمد عثمان. وكلاهما أقربائي من ناحية والدتي وكانا فقيرين. وكان أخي سعيد يرسل لي في كل يوم أحد أو يوم أربعاء قرشين أو ثلاثة قروش. وكنت كلما اشتريت فاكهة أو تمرا أو بطيخا أو كتبا أو نحو ذلك أدفع الثمن مني . وفي أحد الأيام هزّر معي (أي مازحني) إبراهيم مصطفي فأنفت نفسي واشتعلت غضبا خلاف عادتي معه حينما كنا برُفَاعة. بحثت عن سبب هذا الانقلاب فما وجدت له سببا غير إني مَنّيت عليه بما أصرفه عليهما. فأخذت باقي نقودي وكانت أربعة عشر قرشا ودَمَجَة[4] واحدة، وذهبت لشيخنا الفقيه وقلت له: «إني أخشى أن أتكبر على إخواني فاستلم مني هذه النقود». فاستلمها وحفظها إلى أن مرّ علينا والدي قادماً من كَرْكُوْج، فطلبني أمام والدي وسألني: «كيف تأكلون يوم الأحد والأربعاء ؟». فقلت: «فيهما

= ١٩٨٩م) أن الفكي الإزيرق هو حفيد الشيخ محمد المدَني الذي أسس مدينة ود مَدَني.

(١) يَرْمِيك: يسقطك ؛ وبِرِش هو نوع من الحصير يصنع من زعف النخيل.

(٢) كانت هذه من الكتب الشائعة في الدين واللغة والنحو، التي يقرؤها الدارسون في الخلاوي والكتاتيب وتكون مصحوبة بشرح يضعه العلماء أمثال ود بقادي وود عيسى وزكريا إلخ.

(٣) عوده: أي كررته أو أعدته فى الحفظ للمرة الثانية.

(٤) دَمَجَة: كلمة سودانية تعني العُملة المعدنية بقيمة المليم أو التي إمّحَت آثار الكتابة من وجهها، والدَمجَة كانت تضرب في أمدرمان خلال المهدية (قاسم، صفحة ٤٠١).

نأكل لحما وسمكا وباقي الأيام نأكل المُلاَح (المرق) ». قال لوالدي: «هل في رُفَاعة أكلكم أخير من هذا ؟». قال : « لا والله». فأخبره بمسألة النقود وسلمه إياها، فشكرني والدي على هذه.

لذلك كنت عندما أنشأت المدرسة برُفَاعة فيما بعد كنت أبحث عن مصاريف التلاميذ الغرباء الخصوصية، وأسلمها لمخصوص من المعلمين؛ واجعل لكل تلميذ مذكرة يحفظ فيها حسابه أثناء السنة، بعد مناقشته فيه وتصديقي له. وما يتبقى له في آخر السنة نسلّمه إياه عند العطلة ليشتري هدايا لأهله منها.

والقصة الثانية، هي أننا ونحن بمَدَني كنا نذاكر الدرس قبل عرضه على الفقيه في كل يوم، فيقوم أحدنا بدور المدرس والباقون بدور التلاميذ، وما نختلف فيه من المسائل نعرضه على الفقيه. وفي إحدي نوبات تدريسي شرحت لهم قول ابن عاشر «ان معجزاتهم كقولهم (وبر)»، وكنت أقصد وبر الجمال، أي الصوف الناعم، فلم يعترضني أحدهم. فلما قرأها شيخنا قال:

«ان معجزاته كقوله جلّ وبر

صدق هذا العبد في كل خبر»

فضحكنا كلنا فبدأ يغضب فأخبرناه بشرحي، فضحك حتى أدمعت عيناه. وكان كلما رآني منفرداً يذكرها لي.

أذكر أن أول بيت قلته شعراً كان بمدني حيث كنا نشرب قش الشيح سجاراً كشيخنا، فقلت لأحدنا:

«منك السجار ومني النار حاضرة

الشيح منك ومني الشرب والكيف»

وهذا سلخاً من البيت الشهير:

منك الدقيق ومني النار أوقدها

الماء مني ومنك السمن والعسل

نبذة عن شيخنا الفقيه محمد الإزيرق:

قرأ القرآن وبعض معلومات في «الدَامَر»[1] ثم رحل إلى مَدَني بواسطة عبد الله أغا الذي بنى له مسجداً مركباً من غرف، ومنزلاً بجوار المسجد، وذلك سنة ١٢٧٥هـ (١٨٥٨ـ ١٨٥٩م). وفي عام ١٢٨٢هـ (أي حوالى ١٨٦٦م)، جاء المرحوم جعفر باشا مظهر[2] والياً على السودان، وكان عالماً محباً للعلم وأهله، فجعل للمساجد بالمدن الكبرى مرتبات بالامتحان. وكان في مَدَني لجنة للعلماء فتقدم كثيرون منهم للامتحان، ومن ضمنهم الفقيه الإزيرق. وقد روى الفقيه أنه سئل أسئلة في باب المسافات فأجاب، فقال له جعفر باشا: «غلطت يامولانا في هذه المسألة». فرد عليه الفقيه بقوله: «إذا كنت غلطان فالشيخ خليل[3] غلطان». فقال له الباشا: «عندك شارح خليل؟». قال: «عندي منه الدسوقي، والزرقاني، والخراشي». فأمره بإحضار النص من الحواشي الثلاث فأحضر من كل حاشية كُراساً. وعندما رآها جعفر باشا متحدة الخط قال له: «صدقت، ولكني أرى هذا الخط متفق في النسخ الثلاث». فقال له الفقيه: «نعم وهو خطي». فقال له الباشا: «متي وكيف كتبت هذه الحواشي؟». قال: «حينما كنت طالباً، كنت حينها أطلب من الراجل الغني الراغب في كتابة أحدها أن يحضر لي ورقاً يكفي لنسختين، ويحضر لي الكتاب الذي أنقل منه، فأكتب نسخة لي ونسخة له». فقال: «هل ممكن نرى هذه الكتب؟». قال: «هل

---

(١) الدَّامر: مدينة لها تاريخ قديم في نشر التعليم الديني في السودان وتقع على النيل شمال الخرطوم بحوالي ٣٠٠ كيلو متر (انظر الخريطة ملحق رقم ١).

(٢) جعفر باشا مظهر عين حاكماً عاماً (حكمدار) على السودان في ٥ مارس ١٨٦٦م وقبلها كان نائباً للحكمدار حيث اشترك في إخماد ثورة قام بها جهادية الحكومة في كسلا بين يوليو وسبتمبر ١٨٦٥م، بسبب عدم صرفهم لمرتباتهم لفترة طويلة، كما كان يحدث كثيراً في ذلك الوقت، وحدث أثناءها الكثير من التقتيل والتشريد حتى ترك الأهالي الزراعة (شقير، صفحة ٢٣٧). وأدى ذلك لحدوث مجاعة كما هو مذكور في صفحة ١٩ ملحوظة ١.

(٣) الخليل بن إسحاق هو أحد علماء الإسلام المصريين، عاش في القرن الرابع عشر واشتهر بكتابه «مختصر الخليل في التفسير»، الذي يعد مرجعاً في المذهب المالكي، وتوفي سنة ١٤٦٥م. بعده قام الكثيرون من العلماء بوضع حواشٍ لتفسيره، منهم الزرقاني (الذي توفي عام ١٦٨٨م)، والخراشي (الذي توفي عام ١٦٨٩م) والدسوقي (الذي توفي عام ١٨١٥م)، (تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي، ١٩٦٩م، صفحة ١١).

يشرفنا سعادة الحكمدار أو ننقلها له هنا ؟ » . فقال له الباشا : « كم مجلداً عندك بخطك ؟ » . قال له : « ثمانون مجلداً » . فنهض الباشا ومن معه إلى مسجد الفقيه الذي نشر لهم الكتب، فلم رآها جعفر باشا قال: « هذا هو الامتحان الفعلي » . وجعل مسجد الفقيه هو المسجد الذي يستحق المرتب، واستمر يأخذه إلى أن قطعته المهدية ـ التي لم يكن مرتاحاً لها .

ظهور الإمام المهدي*:

في مرة في تلك الأيام اشترينا بطيخة ووجدنا على كل حَبّة منها خطوطاً تظهر على إحدي صفحتيها ويمكن قراءتها على أنها « لا إله إلا الله » . وعلى الصفحة الأخرى الخط مسقوم (أي غير واضح) ولكن يمكن أن تجمع منه كلمة « محمد » ، والباقي مسقوم. فأخذت حبات منها وعرضتها على شيخنا فقرأ الصفحة الأولي ثم قلب الحبة وقال لي: « ما هذا ؟ » . قلت: « هذا محمد » . قال: « والباقي ؟ » . قلت: « طبعا يكون المهدي » . قال: « ولماذا لا يكون رسول الله » . قلت: « رسول الله لايحتاج إلى معجزة في هذه البلاد الإسلامية » . قال لي: « ألقه على الأرض » . ثم اضطجع وقال: « آه يا ولد نَكَتُوت الشَبّعتَ الناس



الإمام محمد أحمد المهدي

---

*حاشية للمحقق: أعلن محمد أحمد المهدي (بن عبدالله بن فحل) دعوته بصورة رسمية في خطاب أرسله ـ في آواخر يوليو ١٨٨١م ـ للحكِمدَار المصري محمد رؤوف باشا بالخرطوم. أبلغه فيه بمهديته (شقير، صفحة ٣٣٥). ولكنه قبل ذلك كان قد اتصل بالمقربين منه من رجال الطرق الصوفية كالشيخ محمد الطيب البصير (يونيو١٨٨١) يبلغهم بالأمر النبوي الذي جاءه بالمهدية. وقبل هذا وذاك =

موت[1]». فغضبت جداً ولكن لهيبته لم أستطع أن أكلمه رغم اعتقادي في المهدي، الذي كنت أعرفه حينما كان يزور رُفَاعة كثيراً لوصال أقربائه .

أيضاً رأيت مرة رؤيا في منامي رأيت فيها أني وجدت لوحاً مكتوباً فيه كلام رجز ميمي كنت أحفظ منه شيئاً، يقول: «سليم في نُزل من حميم وتصليه جحيم». ثم رجز آخر يأتي في آخره: «محمد الإزيرق في عيشة راضية في جنة عالية». فقصصته عليه، وكان متكئاً، وعند سماعه روايتي نهض وقال: «قاتلك الله ياسليم لِمَ تقتلني». وكررها ثلاث مرات ثم اتكأ كما كان.

= كان محمد أحمد المهدي قد طاف أنحاء السودان عاقداً لحلقات الأذكار وندوات قراءة القرآن والراتب وإقامة الصلوات مما جمع الناس حوله وأشاع اسمه بينهم حتى أضحت الركبان تعرج على مكان إقامته ويطلق ربان البواخر النيلية أبواقها عند مرورهم أمام غاره بالجزيرة أبا (انظر ملحوظة ٢ صفحة ٣٦) تبركاً به وتحية له.

ثم توالت انتصاراته الحربية في الجزيرة أبا (١٢ أغسطس ١٨٨١م) وواقعة راشد أيمن (٩ سبتمبر١٨٨١م) وواقعة الشلالى (٢٩مايو ١٨٨٢م). ومع هذه قامت الثورات التي أشعلها مريدوه وأنصاره مثل عامر المكاشفي في سنّار في ٦ أبريل ١٨٨٢م، والشريف أحمد ود طه في أبي حَرَاز شرق النيل الأزرق في ٤ مايو ١٨٨٢م (انظر ملحوظة ٢ صفحة ٣٨). إذاً فمن البديهي أن تصل هذه الأخبار إلى شاب مثل بابكر بدري وهو المتعلم المثقف الذي مابرح يطرق أبواب شيوخ العلم وقادة الفكر في ذلك الوقت، ومن البديهي أيضا أن يبحث عنها ويستقصيها وهو الممتلىء حماسة ضد الحاكم الجائر والإدارة الخربة التي ضيقت الخناق على الناس. أما الدلائل لظهور المهدي التى يذكر بابكر بدري واحدة منها هنا تشمل رؤية اسمه على بيض الدجاج وورق الأشجار (انظر خطاب المهدي إلى يوسف الشلالى في ٢٢ مايو ١٨٨٢م، شقير، صفحة ٣٤٣ ـ ٣٤٧). وهذه المعتقدات كانت شائعة بتأثير الفكر الصوفي على العقيدة الإسلامية في السودان منذ بداية ممالك الفونج عام ١٥٠٤م. كذلك كان يؤججها الحجيج من غرب أفريقيا عند عبورهم السودان، خصوصا أولئك الذين ظهر ببلادهم دعاة للمهدية في السابق. هذه الدلائل كانت تحدد للمهدي زمن ظهوره ومكانه ونسبه (الذي كان يوصل بالنبي «صلى الله عليه وسلم» ومنه جاء لقب الأشراف لأسرته) وتحدد كذلك صفاته الذاتية وبرنامجه. فلا غرو أن يترك كل هذا أثره على فكر بابكر بدري الذي كان يتحرق لثورة تنبع من ثقافته الدينية لإزالة أسباب الفساد ورفع المجاعة التي ذاقها في نفسه وبين أهله وباقي أهل البلاد. إذاً فقد كان من السهل أن يرى تلك الدلائل في بعض الأحداث العادية المحيطة به تأكيداً لما كان يدور داخله ويتوق إليه، ولو من باب الايحاء الذاتي أو التأثير الديني أو مجرد التمني. (للمزيد من تفاصيل هذه الوقائع يمكن الرجوع للقدال، ١٩٨٥؛ ونعوم شقير، ١٩٨١م؛ ومجموعة منشورات المهدي ـ دار الوثائق ـ الخرطوم).

(١) ود نَكَتُوت يقصد بها الشخص الشقي المشاغب، والمقصود هنا أن المهدي المشاغب تسبب في موت كثيراً من الناس بالحروب التي خاضها إلى ذلك الوقت (١٨٨١ ـ ١٨٨٣م) ضد قوات الحكومة. وكل الحادثة التي يرويها بابكر بدري هنا تعني أن أخبار الوقائع الحربية قد انتشرت وأن الفكي الإزيرق كغيره من بعض شيوخ الطرق كانوا غير راضين عنها.

لم يكمل فقيهنا ذلك العام أو الذى بعده حتى قتله عبده سليم ذبحاً، ولكن سليماً عُرف وقُتل به. وكان من قوله في المهدي (عم)[1] مما أذكر من قصيدته:

الحمد لله شديد البطـــش بديع الأحوال مجيد العـرش

مكور الليل على النهـــار بـدون أعـوان ولا أنصـــار

ومنها:

أن تنزل البأس من العـذاب علـى عتـاة فـرقة الأعـــراب

إذ غرهم شخص الجزيرة أبا[2] بكـون المهـدي أبـا الله أبــــا

فلما وصل خبرها المهدي (عم) قال: «سامح الله أخانا الفقيه الإزيرق ماعَرّفنَا إلا بشخص الجزيرة أبا». وبعد حين عندما وصل أمراء المهدية الجزيرة (حوالى أبريل ١٨٨٢م)، طلبه نصر أخو الأمير أبي قرجة*، الذي كان قد قتل العَالِم ولد القبة بالمَسْلَّمِيّة، وهدد الفقيه الإزيرق بالقتل. فقال الفقيه: «والله ياولدي إن عمري في السبعين وإن قتلتني تبوء بإثمي وإثمك فلا مانع عندي». ولكن الفقيه الإزيرق هاجر بعد ذلك إلى المهدي بقصيدة أذكر منها:

فأول الظهور من بطن أبـــا بالسيد المهدي حبا الله أبــا

---

(١) عم: اختصار لكلمتي «عليه السلام»، وحيث إن الشيخ بابكر بدري لشدة إعتقاده في المهدي كان لايذكر إسمه ـ كعادة الأنصار في ذلك الوقت ـ إلا مصحوبا بها.

(٢) الجزيرة أبا: هي جزيرة في النيل الأبَيَض جنوب الخرطوم بحوالى ٢٥٠ كيلومتراً وهو المكان الذي أعتكف فيه المهدي للتعبُد قبل إعلان مهديته (انظر الخريطة ملحق رقم ١).

* حاشية للمحقق: الأمير محمد عثمان أبو قرجة ينتمي لقبيلة الدَّنَاقلة وكان يعمل قبل المهدية تاجراً في قرية القطينة علي النيل الأبيض. ثم عمل مع الزبير رحمة منصور(باشا) في تجارته. وعند ظهور المهدي سافر وانضم إليه في قدير عام ١٨٨١م، فكان من أوائل قواد المهدية. ومن الأعباء التي كلفه المهدي بها كانت قيادة الجيش الموجه لمناوشة حملة هكس الشهيرة عند تحركها من الدويم في أكتوبر ١٨٨٣م. وبعدها اشترك في واقعة شيكان (٥ نوفمبر ١٨٨٣)، وتسليم صالح الملك في فداسي (٢٧ أبريل ١٨٨٤) (ملحوظة ٣ صفحة ٤١) ثم قاد حصار الخرطوم في مراحله الوسطى وعندها لقبه =

وفي آخرها :

محمد الإزيرق وابن الطاهر   يرجو العفو من عالم السَّرايِّرِ

مؤملاً بالصفح بالبتول   وبأبي السبطين والرسول

من كل ما جنيت من إنكار   ولست شاغلاً به أفكاري

كانت هجرته بها إلى المهدي في الرَهَد (حوالى يوليو - أغسطس ١٨٨٤م) وكان معه والدي. وحكى أبي أنه قد سأله عندما كانوا هناك والمهدي راكب

وثيقة كتبها المهدي قبل إعلان مهديته بأربع سنوات وعليها توقيعه وختمه

= المهدي «بأمير البحرين والبرين» (البحرين هما النيل الأزرق والأبيض، والبرين هما الجزيرة وغرب النيل الأبيض). ثم قاد مع النجومي الجيش المحاصر للخرطوم من ناحية الجنوب. وأثناء الحصار قتل اخاه نصر في واقعة الجريف في ١٢ أغسطس ١٨٨٤م .

وبعد فتح الخرطوم عين عاملا علي بعض أقاليم السودان، فكان العامل علي كسلا عام ١٨٩١م، ثم على الرَّجَاف عام ١٨٩٢م، ولكن الخليفة عبد الله اختلف معه وسجنه بعد خلعه في الرَّجَاف نفسها عام ١٨٩٣م. وبعد انكسار جيش الأنصار في الرَّجَاف واحتلال البلجيك لها، خرج من السجن عام ١٨٩٦م وانضم للسلطان علي دينار في الفَاشرِ، وبقي هناك إلي ما بعد الغزو الإنجليزي المصري للسودان، فنفوه إلى ام غَنيم وتوفى عام ١٩١٦م.

جمله يبايع الناس، فقال: «قلت له: يامولاي أنا أمي وأنت عالم هل أعتقد[1] أن هذا هو المهدي المنتظر ؟». فقال لي: «أنا لا أعرف ما أقوله لكِ بخصوصه ولكن ياود بدري، وقبض على لحيته قائلاً: «يملكوكم الإنجليز». ورجع من هذه الهجرة ليذبحه سليم، رحمه الله رحمة واسعة.

رجعت من مَدَني على أن أعود لها ولشيخنا ولمسجده العامر بالطلبة. والسبب في عدم عودتي هو أن الشريف أحمد ولد طه[2] تحرك ضد الحكومة باسم المهدية (أبريل ١٨٨٢م)، وكانت قريته "أبو حَراز" قريبة من رفاعة. فأخذت أهلنا الشفقة علينا وأرجعونا رغم رغبتنا ورغبة شيخنا في البقاء بمدني. والذي حدث هو أن الشريف أحمد طه قتل عساكر الحكومة مرتين، وفي المرة الثالثة انضم للحكومة الشيخ عوض الكريم أبو سن والشيخ حمد النيل العركي[3]. وهذان نصحا الشريف أن يُسلّم، ولكنه رفض فقُتل. وعند سماع المهدي النبأ كتب خطاباً للشيخين عوض الكريم أبو سن وحمد النيل يقول: «قتلتم ولد طه خذلة للدين ونصرة للكافرين فلتعلمن نبأه بعد حين».

---

(١) اعتقد: من الاعتقاد أو الإيمان بالشيء، وهنا تعني «هل أومن بأن هذا هو المهدي؟»

(٢) الشريف أحمد طه، هو أحد مشايخ الطريقة السمانية الذين شايعوا المهدي في منطقة الجزيرة شرق النيل الأزرق بين أبي حراز ورفاعة، وقاد جماعة من أهالي تلك المنطقة وتغلب على جنود الحكومة في موقعة ٤ مايو ١٨٨٢م، ولكن جيقلر حاكم السودان في ذلك الوقت نظم حملة تضم جنوداً من قبائل الشكرية وقبائل أخرى فتغلبوا على الشريف وقتلوه وحملوا رأسه إلى الخرطوم في ٦ مايو ١٨٨٢م (نعوم شقير ـ تاريخ السودان، ١٩٨١م، صفحة ٣٥٤).

(٣) الشيخ حمد النيل: هو حمد النيل الريّح العركي كبير قبيلة العركيين وشيخها خلال الحكم التركي وبداية المهدية ومقره أبو حراز على الضفة الشرقية للنيل الأزرق. كان له ولعائلته نفوذ وسمعة دينية قديمة (محمد ضيف الله، صفحة، ٨٥، ١١٢، ١١٦، ١٥٥). وعند ظهور المهدية كان مناوء لها رغم مناصرة ابنه عبدالله لها ولكن بعد الواقعة المذكورة أعلاه انضم الشيخ حمد النيل لها. وفعل ذلك غيره كثيرون من أصحاب السلطة الدينية أو الإدارية الذين ناوءوها في بدايتها، وقد سجنه فيما بعد الخليفة لفترة لعدم انصياعه له. وتوفى عام ١٨٩٤م (تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي صفحة ١٥؛ شقير، صفحة ٤٦٩).

رجعت إلى رُفَاعَة (كان عمر بابكر بدري حينذاك حوالى واحد وعشرين عاما ـ المحقق) وفي أثناء وجودي بها تزوج أخي سعيد (أكبر إخوان المؤلف، أيضا انظر صفحة ٧٥ ملحوظة ١) آمنة بنت الحاج الحسن. وفي يوم أردت زيارته فمررت ببيت جارتنا زهراء فطلبتني للدخول عليها وهي راقدة وقالت لي: «بطني توجعني فأعزم[١] لي يا فكي بابكر». وعندما قبضتها بأصبعي إنقلبت فوق وركي وغنجت، فدفعتها عني ومضيت لسبيلي. وعند وصولي لمنزلي صليت العشاء إماماً، ولكني عند إضطجاعي للنوم غالبتني نفسي بالمسير لزهراء، وغلب عليّ الهوى فوصلتها ووجدتها منفردة. سُرَّت جداً بدخولي عليها ومكنتني من نفسها. ثم سألتني عمن أخبرني بأنها زانية، فقلت: «أنت نفسك أخبرتني»، فضحكت. في تلك الساعة ضرب بابها عمي محمد على حمد السِّيد، فخرجت له. وبعد أن عرفته أنا من صوته سعلت بصوت مرتفع، فسألها عمن معها فقالت له: «التميم أخوي». فانتظرتها لابساً للخروج، فقالت لي: «إلى أين ؟». قلت: «هذا عمي وقد يجيء غيره»، وانصرفت عنها. أخبرت والدتي حينما أصبحت بكل ما حصل مني ومن زهراء وعمي محمد علي، فأخذت والدتي تكرر قولها: «إقّي..إقّي[٢] وحياة محمد سعيد هي تعمل عمل "قَلوبَة" (فرس البحر) مع وليدها !». وكانت أمي «تتِفل» (أي تبصق على الأرض) أثناء قولها ذلك.

لم أر زهراء بعد ذلك إلا بعد رجوعي ووالدتي من أخذ البيعة على المهدي (عم). فزارتنا ومدت لي يدها فأبيت أن أصافحها فقالت: «تَنْدَخِر لَكْ[٣]»، تعجباً مني وإنكاراً عليّ. وعلى عهد الله لم أذق امرأة غيرها.

---

(١) أعْزِم: تعني الدعاء للمريض مع اعطائه شراباً أو غيره كتعويذ ليخف مرضه.
(٢) إقّي: اسم صوت معناه واحسرتاه، وهذا تقزز من فعل تلك المرأة مع المؤلف.
(٣) تَنْدَخِر لَكْ: أي تحفظ سوءة لك، أي لن تنسى لك.

انتشار الثورة في الجزيرة :

في هذه الفترة رجعت أقرأ على الفقيه يوسف محمد نعمة حتي ظهرت المهدية بالحَلاّوِين حيث لبّى الشيخ محمد البصير[1] طلب المهدي (عم) وشق عصا الطاعة على الحكومة بقيامه بجماعته (أواخر ديسمبر ١٨٨٣م) بقتل عسكري في سوق الحلاوين وقطع سلك التلغراف. وإثر تلك الواقعة عَرَضَ[2]



الشيخ عوض الكريم بن الشيخ عبد الله عوض الكريم أبوسن عند منحه كسوة الشرف عام ١٩٢٨.

---

(١) الشيخ محمد البَصِير هو محمد الطيب البصير من أهم المشايخ الصوفيين وينتمي لقبيلة الحَلاوين (القدال، صفحة ١١٥). وقد إتصل به المهدي في بداية دعوته وتزوج ابنته «السِّرّة». وعند إظهاره لمهديته إختاره عاملاً له في الجزيرة (تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي، صفحة ١٧؛ شقير، صفحة ٦٠٨)، وفي ١٧ يناير ١٨٨٤م قاد جماعة من قبيلته وثار ضد الحكومة فواقع قواتها بقيادة صالح باشا المك بالقرب من مدني ثم حاصرهم في فَدَاسِي (انظر تعليق ٣ صفحة ٤١) حتى سلم صالح (شقير، صفحة ٣٣٢ - ٣٣٤؛ ٤٦٩ - ٤٧١). بعد ذلك تحرك برجاله واشترك في حصار الخرطوم مع قوات الشيخ العبِيد ود بدر في الناحية الشرقية على ضفة النيل الأزرق (شبيكة، عبر القرون، صفحة ٣٣٣) وتوفي بعد نهاية عهد المهدية، عام ١٩٠٨م.

(٢) عَرَضَ: معناها استعرض فرسانه عصيانا واستعدادا للقتال.

الشيخ عبد الله عوض الكريم[1] برُفَاعَة ضد الحكومة رغم عدم رضى والده عوض الكريم أبو سن بالبُطَانة. منذ ذلك الوقت لبست الجُبَّة الأنصارية وأخلصت للمهدية كوالدتي ظاهراً وباطناً، رغم أن والدي ومشايخي كانوا مرائين ظاهراً. وصرت بعد ذلك أتعرض للوابورات[2] دون ساتر رغبة في الشهادة. ولما علم أميرنا الشيخ عبد الله عوض الكريم تعرضي لها جعل على حرساً يمنعونى عنها حتي تَمُرّ.

حدث في هذه الفترة أن طلب الشيخ محمد البصير من الشيخ عبد الله عوض الكريم حصار "قَيْقَر صالح"[3] بالشرق بمن معه. وأظن أن الشيخ عبد الله كان غير مخلص في أول الأمر، لذا فقد كان يأمرنا بالتوجه ويتقدم معنا ثم يقول لنا: «أعرفوا مُرّوا بحِلَّة (قرية) العِريبَاب وتعالوا، الرصاص ما يأخذ الناس». مع أنه بين العِريبَاب وفَدَاسي (هذه قرى صغيرة بالقرب من رُفَاعَة في وسط السودان ـ المحقق) مسافة ضعف المسافة بين رُفَاعَة والعريباب. فلما رأيت ذلك تركته وذهبت لدّيم (معسكر) أحمد ود البصير الذي حضر من المهدي وحاصر معه بالغرب. حضرت موقعتين معهم وفي إحداهما هجمنا حتى

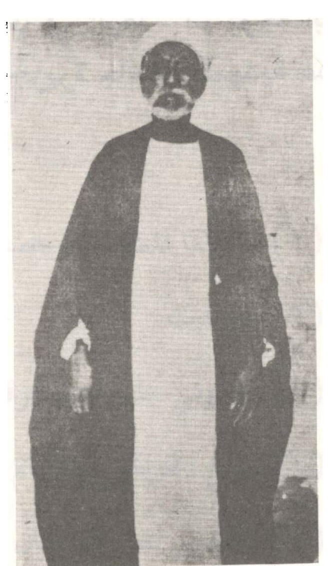
(١) الشيخ عبد الله أبو سن هو ابن الشيخ عوض الكريم أبو سن، وقد شايع المهدي مخالفاً لوالده، وتولى نظارة قبيلة الشُكْرِيّة خلال الحكم الإنجليزي المصري للسودان في عام ١٩٠٢م إلى وفاته عام ١٩٢٣م (تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي، ١٩٦٥م، صفحة ١٧).

(٢) الوابورات: جمع وابور وهي السفينة أو الباخرة النهرية التي كانت تسلح لقصف جيش المهدية، أو كانت تستعمل لنقل قوات الجيش التركي أو مؤنه.

(٣) قَيْقَر: خندق أو حصن أو استحكامات، وصالح هو صالح باشا المك من قبيلة الشَايْقِيّة القاطنين في حَلفَاية المُلوك شمال الخرطوم، وكان من كبار قواد جيش الحكومة التركية. وهو هنا قد كلف بقيادة قوة لإخماد ثورة الشيخ محمد البصير ومناصريه. ولكنه هُزم في فَداسي (مارس ١٨٨٤م)، ورغما عن هزيمته رقاه غردون لبسالته الي رتبة لواء. وبعد مناورات منه قَبِل أن يسلم (في ٢٧ أبريل ١٨٨٤م) شريطة أن يكون تسليمه علي يد أبي قَرْجَة، فجاء أبو قرجة من كُردُفَان لهذا الغرض ولقيادة حصار الخرطوم. وبعد استسلامه أرسله أبو قرجة للمهدي في كردفان. بعدها بقي ملازما للمهدي حتي حاول الاتصال بغردون خلال الحصار فعلم به المهدي وسجنه، ثم أفرج عنه بعد فتح الخرطوم بخمسة أيام وعاش إلى أن توفي عام ١٨٨٩(سلاطين، صفحة ٢٠٤؛ شقير، صفحة ٤٦٩ ـ ٤٧١)

قلعنا بعض شوك الزريبة ولكن الوابور(١) هاجمنا من جهة البحر فرجعنا تاركين وراءنا أمواتا مِنّا ومنهم. في تلك الأثناء سمع الشيخ محمد البصير بأن الشيخ عوض الكريم أبو سن جمع الشُكرِيّة وجاء ليحتل الشرق قبالة قَيْقَر صالح، فقام بالضغط على عبد الله أبو سن الذي سبق والده واحتل منطقة شرق القَيْقَر.

فلما رأى صالح ذلك أرسل للشيخ العِبيد(٢) ليحضر بنفسه ليجعله واسطة للحلاوين ليقبلوا شروطه التي يعرضها عليهم للصلح. ولكنه في الباطن كان يريد أن يحفظه معه بالقيقر فيأمن عادية المَسلّمِية به، وعادية العَرْكِيين بالشيخ حمد النيل، وعادية الشُكرية بعبد الإله وأبي عَاقلة، وبذلك يتمكن من أخذ الطريق الشرقي ليعود إلى الخرطوم. فلما حضر الشيخ العِبيد أرسل له الوابور ليدخله معه بالقَيْقَر، فرفض الشيخ وقال جملته المشهورة:



الأمير محمد عثمان أبو قرجه

«أنا تَرَنْ تَرَنْ عند القَيْف حَرَنْ، أنا مَاني فار يدخل الجحار، ومَاني صَبَر يدخل القَقَر، أنا وَدْ ريّه الما بربط النَيَّة(٣) أنا مَاني مِتِل ولد الطّريفي (حمد النيل)

---

(١) الوابور: كما سبقت الإشارة هي الباخرة النهرية والمقصودة هنا هي الوابور «محمد علي» التي كانت قد أرسلت من سنَّار لدعم قوات صالح المك ولكن أبو قَرْجَة غنمها عند استسلام صالح له (شقير، صفحة ٤٧٠ ـ ٤٧١).

(٢) الشيخ العبيد: هو العبِيد ود بَدُر أحد فقهاء الطريقة القادرية وكانت له مدرسة (خَلْوة) في أم ضُبّان شمال الحلفاية يدرس فيها الطلاب علوم الدين وقد ذاع صيتها. أما هو فقد ناصر المهدية بعد مخاطبة المهدي له عقب معركة شيكان، فقاد جيشا لحصار الخرطوم وانتصر على الجيش الإنجليزي المصري في معركة الحلفاية في ١٣ مارس ١٨٨٤م، ومعركة أم ضبان في ٤ سبتمبر ١٨٨٤م. وكانتا أول معركتين في حصار الخرطوم، وحالف الأنصار فيهما النصر (شقير، صفحة ٤٤٠ ـ ٤٨٢).

(٣) ترن ترن: اسم صوت بمعنى امتنع عن السير، والقيف هو الشاطيء، وحرن من الحِرَان أي التوقف =

جاء يتِفولَح جاب ضَقَلها يتْلُولَحْ[1]. إن سَلّمت سلِمت. وإمّا سَلّمت باكر يجي أبو قَرْجَة وتقيف الهَرْجَة». وبعدها عاد الشيخ العبيد لرفاعة.

ولكن عندما وصل أبو قرجة ومعه المدافع ندم صالح وأرسل للشيخ العبيد ثانية فرفض الشيخ العبيد الطلب وغادر رفاعة فحصل التسليم على يد أبي قرجة، الذى أرسل صالحاً وسَنَاجِكَهُ[2] إلى المهدي في الرهد. ثم توجه أبو قَرْجَة بجيشه فحاصر الخرطوم. بذلك أصبحت كل الجزيرة خاضعة للمهدية عدا الخرطوم وسنّار.

= والامتناع عن السير، والنية (النيئة) ما ليس بناضج من طعام أو عمل أو نحو ذلك.

(١) يتفولح بمعني يحاول الفلاح، والضقل هو الوتد. والمعني أنه طار فشج من كان يثبته.

(٢) سَنَاجِك : جمع سَنْجَك وهو اسم تركي للجنود المشاه من غير القوات النظامية الذين كان أغلبهم من الأتراك. ثم تم تجنيد أفراد من قبائل الشَايْقيّة ضمنهم، وبعد فترة أصبح الاسم يطلق على الجنود الشَايْقيّة بالذات.

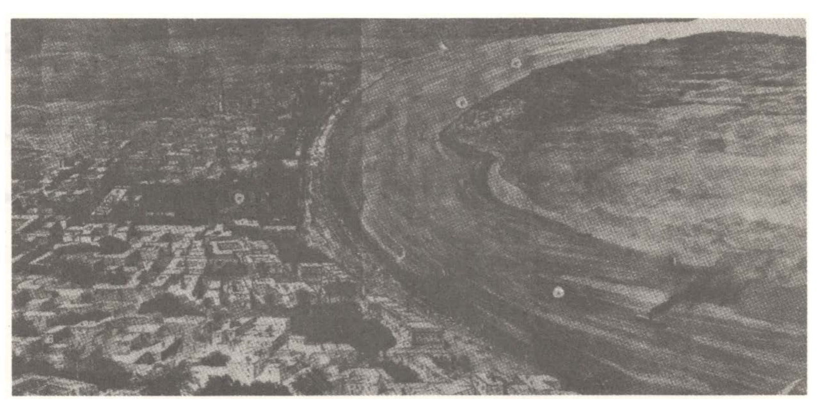
الفصل الثانى

صفحة

هجرتنا للمهدي وحصار الخرطوم:

أخذت والدتي كطلبها المُلح وهاجرنا للمهدي (حوالي أكتوبر - نوفمبر ١٨٨٤م) بشوق وإخلاص عظيمين، وذلك لأني كنت قد رأيته واعتقدته حينما كان يزور رُفَاعة لوصال أقاربه ومعه تلاميذه الذين كانوا مُشرقي الوجوه نظيفي الثياب مُنظمي الأذكار. وكثيراً ما كنا - ونحن طالبو علم - نؤدي معه صلاة المغرب لنسمع قراءة الخشوع منه. وفي مرة قرأ سورة القارعة في الركعة الأولى، وحينما قرأ ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث﴾ صُعق وخَرّ مغشياً عليه، فتقدم غيره من حيرانه وأتم الصلاة بالناس وأنا منهم، ولم يصح حتى بارحناهم.

هاجرنا أنا ووالدتي ومعنا خالى باشا - الذي غير المهدي (عم) اسمه إلى محمد يوسف - فوجدناه معسكراً بدّيم الحنيك أو في الدّيم[1] الذي جنوبه. وأثناء فيضان النيل خرج جيش الخرطوم بالبر تسانده الوابورات بالبحر على أبي قَرْجَة بدّيم بُرِّي فهزموه (واقعة الجِّريف ١٢ أغسطس ١٨٨٤م)؛ وقتل أخواه مصطفى ونصر - الذي أدخل حصانه أو أدخله حصانه القلعة قبل الناس -



الخرطوم علي شاطئ النيل الأزرق عام ١٨٨٥م

---

(١) دَّيم: تعني المعسكر (كما جاء في صفحة ٤١) أو مكان نزول الجيش أو في بعض الأحيان تعني الحيّ من المدينة. وديم الحنيك يقع بالقرب من مدينة أمدرمان (انظر أيضاً ملحوظة ١ صفحة ٥٤ وملحوظة ١ صفحة ٦٤).

فكان أول قتيل. بعدها ارتفع أبو قَرجة بجيشه إلى منطقة قُبَالة قرية ولد جار النبي، قِبْلِي (جنوب) الخرطوم بنحو يوم ونصف بالقافلة. هناك كتب له المهدي كتاباً جاء فيه «ولا تبتئس بما حصل فإن الله تعالى أراد أن يميز الخبيث من الطيب فيجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في قبضتنا». ومازال هناك حتى جاءه ولد النِّجُومي* وعبدالله ولد النور** حيث وضعوا دّيم العائلات في المنتصف بين شجرة ماحي بك(1)، والجِّريف. فأقام ولد النِّجُومي حصاره على الخرطوم من ناحية النيل الأبيض، وعبد الله ود النور على النيل

* حاشية للمحقق: الأمير عبد الرحمن النّجُومي ينتمي لقبيلة الجَعَلّيين وقد انضم للمهدي في أغسطس ١٨٨١م، بعد واقعة الجزيرة أبا مباشرة وقبل الهجرة إلى قدير (القدال، صفحة ٩٢)، وكان من أصفيائه المقربين. وهو أيضاً من كبار القواد في (راية) الخليفة محمد شريف (راية أولاد البحر، أي الراية الحمراء). وكان لقبه أمير امراء المهدية. وقد اشترك في كثير من حروبها وقاد عدداً منها مثل الحملة ضد جيش هِكِس في واقعة شيكان (في ٥ نوفمبر ١٨٨٣م)، وقاد مع عبد الله ود النور الحملة ضد العصاة في جبل الداير في كُردُفان (فبراير ١٨٨٤م). ثم ندبه المهدي كقائد أعلى لجيش حصار الخرطوم مع الأمير أبو قرجة. وبعد فتح الخرطوم سَيّره المهدي في ٨ فبراير ١٨٨٥م لطرد باقي الجيش الإنجليزي الذي قدم لإنقاذ غردون وعسكر في المَتْمَة، لكنه ما لبث أن عاد إلى أمدرمان بعد أن وجد الجيش الإنجليزي قد تحرك خارجاً من السودان. وبعد وفاة المهدي (في ٢٢ يونيو ١٨٨٥م) أرسله الخليفة عبد الله إلى سِنّار ومعه الأمير أبو قرجة وعبد الحليم مساعد ومكين النور على رأس جيش لدعم جيش الأمير محمد عبد الكريم الذي كان محاصراً لسِنّار، فوصلوها في ٢١ أغسطس ١٨٨٥م ووجدوا أن الأمير محمد عبد الكريم قد فتح سنار. إثر ذلك سيره الخليفة في آخر سبتمبر ١٨٨٥م إلى المَتْمَة مرة أخرى لقيادة جيشه الذي كان بعضه يعسكر هناك ليسير به إلى بربر ودُنقُلا ليغزو مصر. ولكنه كباقي أولاد البحر فقد ثقة الخليفة وتعرض لشئ من التخفيض. وأخيراً استشهد وهو على رأس جيشه في واقعة توشكي في ٣ أغسطس ١٨٨٩م.

** حاشية للمحقق: ينتمي عبد الله ود النور إلى قبيلة العَرَكيين في الجزيرة وانضم للمهدية منذ أول ظهورها. وقد أرسله المهدي لإثارة القبائل في كُردُفان لمناوئة الحكومة التركية المصرية، وشارك في الكثير من الحملات الأولى للمهدية مثل واقعة الشلالى والهجوم على مدينة بارا، ثم اشترك في حصار الأبَيِّض، وبعد فتحها تحرك مع أبي قرجة لحصار الخرطوم وهناك قاد فرقة من الجيش في ناحية طابية بُرّي وخلال هذا الحصار استشهد في ٣ يناير ١٨٨٥م. وحزن المهدي وأتباعه لموته حزناً شديداً (القدال، صفحة ١٠٣، ١٠٦، ١٠٧، ١١٦).

(1) شجرة ماحي بك: هي القرية المعروفة باسم «الشجرة» الآن وتقع جنوب الخرطوم، وكانت قد أقيمت بجوار شجرة كبيرة كانت موجودة هناك، وسميت باسم ماحي بك وهو الحاكم الثاني للحكم التركي المصري على السودان، وكان الحكمدار لفترة قصيرة خلال عام ١٨٢٦م. وتميز بطيب أخلاقه وكان محبوباً على غير طباع عثمان بك الذي سبقه (شقير، صفحة ٢١٣). ولكن الاسم تغير بعد ذلك إلى شجرة غردون واستمر يطلق عليها لفترة خلال الحكم الإنجليزي المصري.

الأزرق، وعبد الله ودجبارة وحاج خالد العمرابي[١] "بحلينقو" الخرطوم بحري.

خلال تلك الفترة رجعنا إلى رُفاعة ولكن والدي طُلِب مرة ثانية لحصار الخرطوم مع من طلبوا. كانت مزارعنا وقتئذ ماثلة للحصاد وكان لوالدي سِمسِمِ كثير جلبه من كَرْكُوْج، ولكني لشوقي للجهاد عدت ثانية للخرطوم، وأخذت والدتي وزوجتي وزوجة والدي[٢] وكل السِمسِمِ في مركب إستأجرتها، وتركت المزارع لأخي موسى بدري ومن معه من الرقيق، فسافرنا حتى وصلنا الجِّريف. هناك خرجت من المركب قاصداً الدّيم فلما رآني والدي اندهش وقال: «كيف جئت ولمن تركت الزرع ؟». قلت: «تركته لله.. والجهاد أفضل منه». ولما كان يعلم صحة عقيدتي وضعف عقيدته في المهدية سكت لئلا يسمع الجلوس ما دار بيننا فَيُتَّهم بالإنكار. بعد هنيهة قال لي: «من جاء معك ؟». قلت: «لم أترك غير موسى والرقيق». قال: «والسِمسِمِ ؟». قلت: «أحضرته معي». فهز رأسه عجباً أو إعجاباً لا أدري. في الحال قام واشترى ثلاث غرف لحفظ السِمسِمِ واشترى بُرُوشاً [٣] وأخشاباً لبناء منازلنا. في الصباح مشيت إلى الدَّيم بالغَرْقَان[٤] ووالدي توجه إلى المركب بنفسه ومعه بعض أولاد معارفه. لم أرجع بعد ذلك لمنزلي ولا لوالدي وأشقائي إلا بعد أسبوعين. وكنت أقيم في أقرب النقط المعدة لحصار الخرطوم ومنها كنا نرى ضوء سجاير العدو ونسمع

---

(١) حاج خالد العُمَرابي هو أحد كبار التجار بمدينة الأبيِّض خلال الحكم التركي، وكان من الأشخاص القلائل الذين علموا بدعوة المهدي قبل إعلانه لها. وعند حصار الأبَيِّض خرج منها وانضم للمهدي بمعسكر كَابَا واستمر بعد ذلك من أهل شوراه ومقرباً جداً منه. وأثناء حصار الخرطوم كان يحتل موقعاً قيادياً، وبعد فتحها عينه المهدي أميراً عليها، وتوفي عام ١٩٠١م (شقير، صفحة ٣٧٢، ٣٨٣، ٥٣٧؛ تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي صفحة ٢٠).

(٢) عن زوجته انظر تعليق ٤ صفحة ١٩ ـ ٢٠. أما زوجة والده فهي زينب بنت شيقوق الزوجة الصغرى لوالده، تزوجها بكركوج، وكانت ترافق المؤلف ووالدته في أسفارهما كما سيجئ، ومن أبنائها عبد الكريم وخضر بدري (انظر ملحق ٢ وملحق ٤).

(٣) بُرُوشاً: جمع برِش وهو نوع من الحصير يصنع من زعف النخيل.

(٤) ديم الغَرْقَان: معسكر من معسكرات جيش المهدي أثناء الحصار، ويقع جنوب الخرطوم بالقرب من قرية الغَرْقَان.

كلامه ليلاً ولا نمكنه نهاراً من الخروج من مكمنه، كما أنه لا يمكننا كذلك من ورود الماء إلا ليلاً.

اعتاد الجيش أن يخرج جميعه يوم الجمعة للعَرضَة (الاستعراض) وعند رجوعه يقف عند بيت عبد الله ود النور، بجوار الجامع. لذا فقد ظننت ذلك البيت هو منزل ود النِّجُومي. وفي يوم جاء المدعو محمد حاج خالد الرباطابي بمنشور بخصوص المتخلفين عن المجئ للحصار، وجاء في التحذير أن لا يتزوج الناس هؤلاء ولا يتزوجوا منهم ولا يعاملوهم، وإذا مات أحدهم لا يصلي عليه. وختم بالآية قال تعالى: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾. فعارضته قائلاً: «المهدي (عم) رحيم لا يكتب مثل هذا القول». فقال لي بحدة واستهانة: «أنتم ناس الجزيرة مثل أهل القَيْقَر[1] لا يصل إلى قلوبكم نور الإيمان بالمهدي (عم)». فغضبت وتوجهت في الحال إلى المنزل الذي كنت أظنه منزل ولد النِّجُومي، وجلست في رَاكُوبة[2] صغيرة عند باب الزريبة حتى خرج رجل لا أعرفه. فقمت إليه وسألته هل جاء منشور من المهدي (عم) عند الشيخ عبد الرحمن النِّجُومي موضوعه كذا وكذا. قال لي: «لم يأت عندنا، اللهم إلا أن يكون جاء عند الشيخ عبد الله ولد النور»، ووضع يده اليسرى على كتفي ووضع يدي اليمنى على كتفه وسار بي يحادثني بخصوص المنشور. وصرنا كلما رآنا أحد المارة يتبعنا حتي جاء أحد حاملاً ظروف "طبنجية" (مسدس) من النوع الذي في آخره شوكة، فوقف أمام صاحبي بخضوع وقال له: «أعطاني فلان هذه الجبخانة[3] وقال أوصلها لسيدي ولد النِّجُومي». فقال له صاحبي سلِّمها فلاناً. فتأكدت أن هذا هو ولد النِّجُومي الذي ارتفع بهذا التواضع، فشرعت أتحلل منه فلما شعر بذلك صافحني وقال لي: «صل الظهر في الصف الأول جهة اليمين فإذا سلم الإمام قم واقفاً لأراك».

---

(١) القَيْقَر أو القَقَرة هنا تعني الخندق الذي حفره غردون جنوب الخرطوم ليحيط بها ممتداً من النيل الأزرق إلى النيل الأبيض كاستحكام لصد الأنصار عن دخولها.
(٢) الراكوبة: غرفة تُبنى من البوص أو القش (انظر ملحوظة ٣ صفحة ٧٠).
(٣) الجبخانة: الذخيرة التي تزود بها الأسلحة.

وكان الإمام هو الأمير عبد الله ود النور. فلما رآني أشار لي بيده أن تعال، فمشيت نحوه مطمئناً فلما وصلته قال: «يا عبد الله اسمع كلام هذا الأنصاري». فحكيت له القصة، فقال: «لم يأتنا هذا المنشور وأنا كثير الشك فيه». فطلبا محمد الحاج خالد واستلما منه المنشور وأرسلاه إلى المهدي (عم) بجواب. فجاء الرد بالسلب، وزاد بأن أكد أن كل منشور لم يكن مختوماً بختم المهدي لا يعتبر صحيحاً.

حــــوادث:

سبق أن ذكرت رؤيتي لحلم رأيته. والحادثة الثانية التي رأيت فيها رؤيا منامية كانت عندما رأيت فيما يرى النائم أن أحداً جاء يخبرنا ـ ونحن في طابية[١] الحصار ـ أن المهدي (عم) سيزور الرُّبَاطَاب[٢] هذه الليلة، وسترسي به المَعَدِّيّة[٣] عند ديم النور الكَنْزِيّ[٤] بقرب الشجرة (أي شجرة ماحي بك). فرأيت في منامي أني ذهبت فيمن ذهب لمقابلة المهدي (عم)، ولما وصلتنا المَعَدِّيّة خرج منها رجلان وكان أحدهما يحمل مُخْلاة فيها كتاب. إستأذنته في قراءة جزء منه فلما فتحته وجدت به منشورات المهدي مطبوعة بنفس المطبعة التي طبعت بها بعد فتوح الخرطوم بنحو عام، وبنفس السجل. ففتحت منشور "حياة الدين" فلما وصلت منه إلى قول المهدي (عم): «قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ آخر أصحابي دخولاً الجنة هو عبد الرحمن بن عوف، لِمكَانة غِنَاه»[٥]. قال صاحب الكتاب لأخيه: «إسمع يا عبد الرحمن ما يقول الكتاب». فقال عبد الرحمن: «هذا ما أراد الله». فقلت له: «ومن عبد الرحمن هذا ؟». قال: «هو عبد الرحمن بن عوف». قلت: «ومن أنت؟». قال: «أنا سعد بن معاذ». فأعطيته الكتاب وتبعتهما حتى وصلا طابيتنا فوقفا وقالا لي: «أذهب إلى ذلك القصر وقل لمن تجده فيه أن سعداً وعبد الرحمن ينتظرانك لتذهب معهما». فلما دخلت القصر وجدت تحت سُلَّمه

---

(١) الطابية: ساتر أو حاجز للهجوم أو الدفاع

(٢) يقصد المؤلف هنا أبناء قبيلة الرُّباطاب من المحاربين في جيش المهدي.

(٣) المَعَدِّيّة: هي القارب الذي يستعمل لعبور أو تعدية النيل.

(٤) النُور الكَنْزِيّ هو أحد القواد في جيش المهدية، وقد اصطحبه النُّجُومي معه في الحملة لغزو مصر، وكان كثيراً ما يقود مقدمة جيش النُّجُومي في سيره إلى الشمال. وقد أُوكلت له قيادة جيش صَرَص ومنها شن عدداً كبيراً من الحملات على مراكز الجيش المصري والقُرَى على الحدود السودانية المصرية واستشهد خلالها في صَرَص في ٢٨ أبريل ١٨٨٧م (شقير، صفحة ٧٧٢). (انظر أيضاً حاشية صفحة ٨٥) .

(٥) مكانة غناه: أي درجة ثروته

فردة نِعَال من ملبوس النساء ـ مما نسميه "المَحبُوكة" ـ ذات سيور كأنها الحرير. فأخذتها بيدي وثنيتها فطاوعتني حتى التقى رأسها بمؤخرتها، فقلت في نفسي هذا ملبوس أهل الجنة، ولكن لأنها كانت بالية ألقيتها. ثم دخلت الغرفة فوجدت الرجل على سرير في «نَامُوسِيِة» من نسيج التُلْ ـ وما كنت قد رأيته من قبل. فلمسته بيدي فكادت تنزلق عنه. بلغته الرسالة فأبدى أسفه الحزين وقال: «هما يعرفان أني لا أستطيع السعي معهما الآن، أبلغهما سلامي». فذهبت إليهما وأخبرتهما، فسمعت أحدهما ـ ولم أميز أياً منهما ـ يقول للآخر: «عبد الله ولد النور بقى له سبعة أما عبد الرحمن ولد النِّجُومي فكثير». لم يذكر أياماً أو شهوراً أو أعواماً. ثم ذهبا وأنا أنظر إليهما حتى قطعا (عبرا) النيل ولم تحجبهما عني منازل الخرطوم. انتبهت عندئذ فوجدت نفسي باكياً وعيني غرقى (مغرورقتان) بالدموع. أخبرت إخواني بهذه الرؤيا وانتشر خبرها حتى وصل ود النِّجُومي، فسألني عنها وتعجب منها.

سمعت بعد يومين من عبد القادر العجب، أن التُّرُك سيخرجون في ذلك اليوم (١ يناير ١٨٨٥م) إلى بُرِّي وهو قد ركب حصانه، ومعه فارس آخر، وقد عزما أن يلحقا بجيش ود النور، فصحبتهما وكنت راجلاً حتى وصلنا بُرِّي. وفعلاً في نحو الساعة الثالثة مساءً ونحن في الطابية المسماة «بالدار الآخرة»[١] ببُرِّي رأينا جيش الترك قد خرج من القَيْقَر. فنهض عبد الله ولد النور وخرجنا معه فالتقينا في فسحة فيها أشجار صغيرة، فصار عبد الله ولد النور يقول: «يا أصحاب المهدي أما ترون الحور العين يتبخترن وبأيديهن المناديل البيضاء يلوحن بها»، وهو يهدر ويزبد بحالة تشبه الذهول. فلما

---

(١) الدار الآخرة: هي معسكر جيش المهدية الذي يقابل بوابة المَسْلميَة المقامة على الخندق المحيط كاستحكام بمدينة الخرطوم، وكانت جيوش عبد الله ود النور تعسكر عنده أثناء حصار الخرطوم. ولقرب موقعه من جنود غردون، حتى أن من فيه يرى سكان الخرطوم رؤية العين، لذا إعُتبر الجنود المحاصِرون هناك شهداء ومن أهل الدار الآخرة، ومكانه اليوم تقريباً هو حي الخرطوم "نمرة اثنين" و البوابة نفسها كانت فى مكان كوبرى المسلمية القائم اليوم فى الخرطوم.

هجمنا على الجيش ارتد أمامنا نحو القيقر، فإذا الضابط (محمد بك الملك)[١] الذي معهم يردهم برجله وسوطه، فهجم عليه عبد الله ود النور وطعنه بكَرْسَه[٢] في بطنه فجاء أحد عساكره من خلف عبد الله ولد النور وسحب الكَرْسَ بقوة قطع بها شاكلة إبهام يد ود النور اليسرى. فهجمنا عليهم هجمة ردتهم إلى القَقَرة نهائياً. وعند رجوعنا وجدنا الضابط ميتاً، وكنت رأيته قد خرج مستعداً للموت إذ كان حالقاً جميع شعر جسده، وهذه علامة لمن يستعد للموت.

وفي يوم السبت المقبل (٣ يناير ١٨٨٥م) ـ وهو اليوم السابع لرؤياي تلك ـ سمع ولد النِّجُومي أن جيش التُّرك خارج لولد النور براً وبحراً ومن كل الجهات فأرسل من الغرقان مدداً لبُرِّي، وكانت رايتنا[٣] من ضمنهم ولكنّا نُدبنا مؤخراً. فلما قابلنا باب المَسّلمية رأينا جيشاً خارجاً من الباب فوقفنا لمقابلته. وعندما قرب منا هجمنا عليه ورددناه بعد أن قتلنا أكثره وغرزنا رايتنا بين قتلاهم، ثم نقلنا قتلانا بعيداً خلف صفوفنا، خوفاً من رجوعهم بمدد غزير فيلجئونا لترك موتانا وراءنا. كنا نرى موتاهم وكان أكثرهم سوداناً[٤] فَنَبَّهنا بعض من كانوا رأوا النار تحرق الأجسام من الموتى لأحدهم؛ فرأيت جرحه قد احمر احمراراً شديداً ثم اسود ثم أخذ يبدو منه زبد صغير ثم خرج منه

---

(١) لم يكن اسم هذا الضابط مذكوراً في الطبعة الأولى لهذا الكتاب ولكن يوسف بدري حدثني بأنه يعتقد أن الضابط هو محمد بك الملك. وقد أيّد شقير (صفحة ٥١٩) ما ذكره يوسف بدري وأيضاً أيّد حدوث الواقعة.

(٢) الكَرْسَ: نوع من الحِرَاب.

(٣) رَايتنا: أي علمنا، أي الرَّاية أو العلم الذي يتبع له الجنود. وكان جيش الأنصار موزع على ثلاث رايات رئيسية، اختارها المهدي منذ واقعة أبا، هي الحمراء والخضراء والسوداء، وعلى كل واحدة خليفة وتحتهم قوادهم الأمراء، ولكل من هؤلاء راية أصغر (انظر زلفو، صفحة ١٤٩ ـ ١٦٠).

(٤) سودان: يقصد بها المؤلف الجنود في جيش غردون المجندين من قبائل النوبة أو القبائل من جنوب السودان، لأن اسم سوداني لم يكن يطلق على باقي السودانيين في ذلك الوقت بل كانوا يعرفون بأسماء قبائلهم.

دخان كدخان السيجارة ثم اشتعلت فيه النار فجعلته فحماً*. هذا وما زلنا نسمع في بُرِّي ضرب المدافع والبنادق وأصوات الأنصار كراً وفراً حتى العصر، وما زال أميرنا محمد الحاج بشير يقول: «ما لعبد الله ولد النور لا يرسل لنا أحداً يعلمنا حقيقته ؟». فجاءه بعد قليل من أخذه بعيداً عنا فأخبره بموت عبد الله ولد النور. فرجع إلينا وما زال يكرر قوله الأول ليطمئننا على حياة ولد النور لئلا تضعف قوتنا المعنوية. عند الاصفرار سكتت الحالة في كل الميادين فذهبنا إلى بُرّي. وعند وصولنا جاءنا ولد النِّجُومي ونزل في القبر الذي وجدناه محفوراً، ووضع جنازة صديقه الحميم بيده، وحمد الله على نيل عبد الله الشهادة، ولم نر في وجهه أي أثر للحزن. ثم أرسل في طلب أخيه مكين ولد النور وسلمه راية عبد الله وجعله أميراً مكانه، انظر لمصداق هذه الرؤيا !. ولما علم المهدي، (عم) بوفاة عبد الله ود النور وصبر ولد النِّجُومي قال: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر﴾ (أي عبد الرحمن ود النجومي) ﴿وما بدلوا تبديلاً﴾.

---

* حاشية للمحقق: هنا أيضاً يتضح التأثير العميق للفكر الصوفي بين أتباع المهدي حيث يشيع الاعتقاد بوجود إشارات دالة على المهدي، منها أن أعداءهم يموتون بغير الصورة التي يموت بها الجنود في الحروب العادية وإحدى هذه الدلائل هي أن أجساد الأعداء من المنكرين أو التُّرك تحترق كما وصفها بابكر بدري هنا. ونفس هذه الأوصاف وردت منذ بداية المهدية خصوصاً من المهدي نفسه، ومثال ذلك ما ذكره في خطابه في مايو ١٨٨٢م ليوسف الشلالى قبل المعركة الشهيرة (شقير، صفحة ٣٤٤) حيث قال: « ... إن النبي (صلى الله عليه وسلم) أمرنا صريحاً بقتال التُّرك .. وقد شاهد جمع من الإخوان إلتهاب النار في أعضاء العساكر المقتولين جهاراً تعجيلاً لعقوبتهم وإظهاراً لحقيقتهم..». ونفس الموضوع ذكره في خطابه لعثمان دقنه في ١٠ يناير ١٨٨٤م بعد واقعة شيكان. إذن فإن هذه الرؤيا تنطلق من ذلك الإطار الفكري وهي تأكيد نفسي لهم بأن ما اعتقدوه وساروا عليه هو الحق وها هي حواسهم تؤكده لهم.

خرجنا مرة (يبدو أن ذلك حدث في نفس يوم السبت الذي تم فيه الهجوم على عبد الله ود النور ـ المحقق) من "الدَّيم"(١) ذاهبون إلى بُرِّي وكنا تسعة، فلما قابلنا باب المَسْلّمية رأينا حركة عساكر خارجين من الققرة. فقال أحدنا: «هؤلاء العساكر يلزم أن يكونوا ذاهبين إلى الجِّريف لأخذ الغلال بوابورات الحكومة، فالأحسن أن نقف هنا ونشاغلهم ببنادقنا حيث نضرب مرة واحدة ليسمع ولد مدرع(٢) ومن معه صوت البنادق فيتنبهون». فوقفنا وجعلنا نضرب بنادقنا بصوت واحد. وبينما نحن كذلك رأيت شبح المهدي (عم) حاملاً كَرْسَه (حَربَتُه) يتقدم نحو باب المَسلّمية حيث مكان الجَرْدَة(٣) ومكان قائدها الذي كان راكباً حصانه. فجعلت أقول لمن معي: «هل ترون المهدي قاصداً الجردة؟»، فيقولون: «لا». فأقول: «ها هو مال عند تلك الشجرة الصغيرة وها هو صعد قوز(٤) الرملة ذاك». فلم يره أحد غيري وأنا انظر لذلك الشبح حتى دخل وسط الجَرْدَة. فقلت لرفاقي: «ها هو دخل الجَرْدَة». فما لبثت أن جالت واختل نظامها فغَيّرت اتجاهها ورجعت للقَقَرة. بعدها واصلنا سيرنا إلى بُرِّي.

أنا لا اعتقد أن ذلك كان هو المهدي (عم) ذاته لأنه كان يحاصر أمدرمان بالغرب، ولكن ظني منذ ذلك الوقت أنه مَلَك أو من مؤمني الجِنّ تمثل بصورة المهدي (عم) ليطمئننا في موقفنا الحرج فنؤدي واجبنا.

---

(١) الدَّيم المعنى هنا هو معسكر الجيش (انظر ملحوظة ١ صفحة ٤٥) الذي يتبعه المؤلف، وموقعه بالتقريب هو مكان "الخرطوم إثنين" اليوم.

(٢) ولد مدرع: هو عبد القادر ولد مدرع أمير قبيلة الحسنات ومن قواد راية عبد الله ولد النور ضمن جيش الحصار، وكان يعسكر بين باب المسلمية وبري شرق الخرطوم واستشهد في نفس اليوم مع قائده ود النور أثناء الحصار (يوم ٣ يناير ١٨٨٥م)؛ (تاريخ الخرطوم، صفحة ٧١).

(٣) الجَرْدَة: جماعة من الجنود يعينها القائد للقيام بمهمة عسكرية.

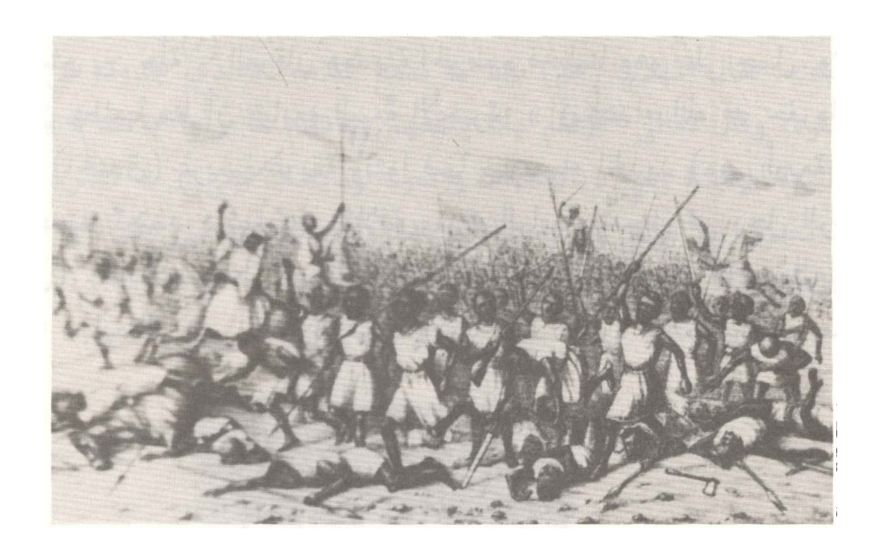
(٤) القوز: التل الرملي المنخفض.

بعد ذلك جاء فيضان النيل المنتظر للفرج لسكان الخرطوم فأرسلت الحكومة (حكومة غردون) الوابورات إلى سنار فجاءت بقليل من الغلال مما وجدته في نفس المدينة لعدم تمكنها من الوقوف في أي مكان بين المدينتين. كذلك أرسلت للنيل الأبيض وابوراً سافر فيه ساتي بك فخرج في القِطَيْنَة[1] التي كان هو أحد سكانها فيما مضى فحاربوه وقتل فيها؛ فرجع الوابور خائباً. عندئذ أحس غُردون باشا بشدة الوطأة ولم ير فائدة في بقاء الأهالي الذين لا يشتركون في الدفاع عن أنفسهم ولكنهم يشتركون في الغذاءات أو يموتون على حساب قسوته، فسمح لهم بالخروج إلى حيث يريدون. فخرج منهم عدد كبير نشروا خبر المجاعة بالخرطوم. تبع ذلك أن شدد ولد النِّجُومي الحصار على الخرطوم، الأمر الذي منع غُردون باشا من أن يرسل جيشاً خارج القفر ليهاجمنا، بل إقتصر على إعداد الغذاء لمن بالخرطوم والمحافظة على الذخيرة حتى يصله جيش الحملة المرسلة لإنقاذه. وصار يعلل الناس ويمنيهم كلما اشتدت المجاعة عليهم ووطأة الحصار بتنويع الحيّل. ولم يبق مما على القائد المحنك من عمل إلا عمله، ولكن الحذر لا ينجي من القدر. ولما سمع المهدي (عم) باقتحام جيش الحملة التي كان ينتظرها غُردون "لعَقبَة جَقدُول"، أرسل جيشاً كثيفاً من خيرة جيشه، وكان أكثره من دِغيم وكِنَانة، تحت إمرة الشيخ موسى ولد حلو شقيق الخليفة علي ود حلو[2]. فالتقى الجيشان بمكان يقال له «أبوطُلَيْح» وهناك فني أكثر

(١) القطِيْنة: مدينة صغيرة على النيل الأبيض جنوب الخرطوم بحوالى ستين كيلو متراً (انظر الخريطة ملحق رقم ١)

(٢) الخليفة علي: هو علي بن محمد حلو من قبيلة دغيم، ولد في قرية «أغسل» على النيل الأبيض في حوالى ١٨٤٢م. وانضم للمهدي عندما كان في الجزيرة أبا عام ١٨٧١م وتتلمذ عليه (شقير، صفحة ٣٢٣). وعند إعلان المهدية اختاره المهدي ثاني خلفائه وأسند إليه الراية الخضراء التي كانت تضم قبائل دغيم وكنانة وهم جنوده الأوائل الذين نصروه في معركة أبا، أول معارك المهدية (زلفو، صفحة ٢٧١). استمر الخليفة علي قريباً من المهدي زاهداً في أمور الدنيا مثله، حتى توفي المهدي فكان أول من بايع الخليفة عبد الله ليخلف المهدي، ثم تبعه الخليفة محمد شريف، ثم باقي الأمراء والأعيان أمثال السيد المكي وغيره. بعد ذلك ركن إلى تقديم المشورة للخليفة عبد الله كلما طلبها منه، ولعب دور الوسيط بين الخليفة عبد الله والخليفة محمد شريف عندما اشتد الخلاف بينهما، وعند وصول جيش كتشنر الغازي =

جيش المهدي(١) وقتل قائدهم ولم ينج منهم إلا قليل.



لوحة رسمها أحد الضباط الإنجليز لواقعة أبوطليح التي خاضها جيش موسى ود حلو في ١٧ يناير ١٨٨٥م ضد الجيش الإنجليزي الذى حضر لإنقاذ غردون ولفك حصار جيوش المهدية حول الخرطوم.

= إلى كرري خرج برايته الخضراء ضمن جيوش المهدية، وكانت آخر الرايات انهزاماً رغم أنها كانت أصغرها لما أصابها من تقليل في عهد الخليفة عبد الله. وبعد خسرانهم الحرب تراجع مع الخليفة عبد الله من أمدرمان إلى أم دبيكرات واستشهد هناك وهو جالس على يمين الخليفة عبد الله في ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩م.

(١) تقابل جيش الحملة الإنجليزي المتجة إلى الخرطوم لإنقاذ غُردون، وجيش المهدية المكون من جيش موسى ود حلو وجيش الجعليين بقيادة الحاج علي ود سعد، في ١٧ يناير ١٨٨٥م في «أبو طُليح» وهي قرية شمال المتَمَّة وتبعد مسافة عن النيل. ولكن جيش المهدية هزم في تلك الموقعة، كما ورد أعلاه.

بايعوني على قصِّ الرَّقَبَة:

عندما وصل جيش الحملة إلى المَتْمَّة وعلم المهدي (عم) بذلك، جمع أهل شوراه واتفقوا على التعجيل بفتح الخرطوم قبل وصول الحملة. وفعلاً جاء المهدي (عم) في ليلة الاثنين ٨ ربيع ثان من سنة ١٣٠٢هـ (٢٥ يناير ١٨٨٥م)، وجُمع له الجيش بين حِلَّة[١] الغَرْقَان ومدينة الخرطوم فخطبنا وهو على جمل. ومما قاله قبل أن يطلب منا أن نبايعه البيعة الأخيرة: «إن أعداء الله قد حفروا حفرة القفرة (الخندق) عريضة غريقة وبثوا فيها ضريساء الحديد (وهي أربعة أشواك من الحديد تعتمد دائماً على ثلاثة وترفع الرابعة لتدخل في رجل الرجل أو الفرس).. بايعوني على قصِّ الرَّقَبة»، وسكت هنيهة. فهتف كل جيشه بصوت واحد: «بايعناك على قَصِّ الرَّقَبَة» وكرر هذه العبارة ثلاث مرات. بعد ذلك



لوحة مرسومة توضح جانباً من جيش المهدي المحاصر لمدينة الخرطوم

---

(١) الحلَّة: هي القرية، وحلة الغَرْقَان (المذكورة أيضاً في صفحة ٤٧ أعلاه) تقع جنوب الخرطوم قرب حلة الشجرة حالياً أي ناحية باب الكلاكلة، وهو باب في استحكامات غُردون. ومكانه في الخرطوم اليوم هو مكان كوبري الحرية.

قال: «إذا فتح الله عليكم فغُردون لا تقتلوه، والشيخ حسين المجدي[١] لاتقتلوه، والفقيه الأمين الضَّرِير[٢] لا تقتلوه». ولهم رابع نسيته[٣]. ثم قال: «ومن رمى سلاحه لا تقتلوه، ومن قفل عليه بيته لا تقتلوه». فعارضه رجل أسمع صوته ولا أرى شخصه، قائلاً: «ياسيدي في بعض الجردات التي قاتلناها رأينا العسكري يرمي سلاحه فإذا تعديناه أخذ سلاحه من الأرض يرمينا أو يضربنا به». فقال المهدي (عم) بعد ما سمع كلامه: «الذي تجدونه في خط النار اقتلوه، وقال تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾». ثم بايعناه البيعة المعتادة وهي «بايعنا الله ورسوله وبايعناك على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نعصيك في معروف وألا نفر من الجهاد»؛ وربما زاد: «بايعناك على زهد الدنيا واختيار الآخرة».

---

(١) حسين المجدي: اسمه الصحيح حسين المحمدي وهو أحد الأساتذة في مسجد الخرطوم آنذاك (تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي، صفحة ٢٨؛ تاريخ الخرطوم ، صفحة ٧٩.)

(٢) الفقيه الضَّرِير: هو الأمين محمد الضَّرِير الذي كان رئيس علماء المسلمين في السودان في تلك الفترة، وقد حاول المهدي أن يقنعه بدعوته ليضمن سنده للمهدية ولكنه لم ينجح في ذلك، ثم كتب رسالة فى تكذيب دعوة المهدى؛ (تاريخ الخرطوم ، صفحة ٧٤) وتوفى في سنة الفتح (١٨٨٥م).

(٣) «سمعت من عمنا الشيخ أحمد حسن عبد المنعم في مرة، وأبي يحكي هذه القصة، أن قال له إن الرابع هو محمد السَقّا»، وهو أحد العلماء المصريين. (هذه الملاحظة سجلها يوسف بدري في الطبعة الأولى لهذا الكتاب، صفحة ٣٥).

فتوح الخرطوم والأيام الأولى للانتصار:

لا أعقل تماماً تلك الساعة ولكنا بعد ذلك قلعنا الرايات وقصدنا القفرة. فكان طريقنا من الجنوب الغربي حيث كان النيل الأبيض قد فاض داخل الخندق ورجع ثانية فردم الخندق. وكنت في أوائل الناس فلم أشعر بأني مررت على الخندق حتى وجدت نفسي عند المدفع الذي كان يضرب فينا، فلما وصلنا دخل الذين كانوا يضربونه في خيمة وألقوها عليهم فقتلوا تحتها. ومازلنا نتقدم على شفير الخندق الداخلي حتى وصلنا قبالة "صرايا غُردون" (١) فالتقينا بالأنصار الذين دخلوا عن طريق بُرّي (هؤلاء كانوا من جيش الأمير أبي قرجة - المحقق). وهناك ملِنَا نحو "الصرايا" فوجدنا غُردون باشا ملقى ودمه يجري





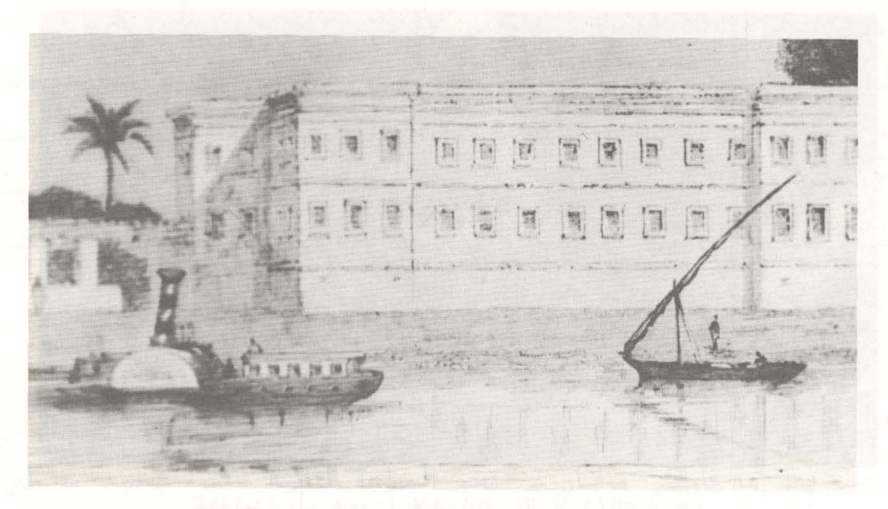
غردون باشا

فغضبنا على قاتله حيث أوصى المهدي قبل ساعتين بأعلى صوته بعدم قتله(٢)؛ كانت الساعة عندئذ حوالى الرابعة أو ما يقرب من ذلك. ثم أخذنا شارع النيل حتي وصلنا قُبَالة الجامع فعَرّجنا عليه فوصلناه عند شروق الشمس، فرأيت الفقيه الأمين الضرير بالجامع وعليه جبّة صفراء وعمّته (أي عمامته) كبيرة على طربوش ولا أذكر لون القُفطَان تحت الجبِّة فحمدت الله على سلامته. أما الشيخ حسين المجدي فقد قُتِل.

---

(١) صرايا غُردون: قصر غُردون باشا، وهو القصر الجمهوري في الخرطوم حالياً.

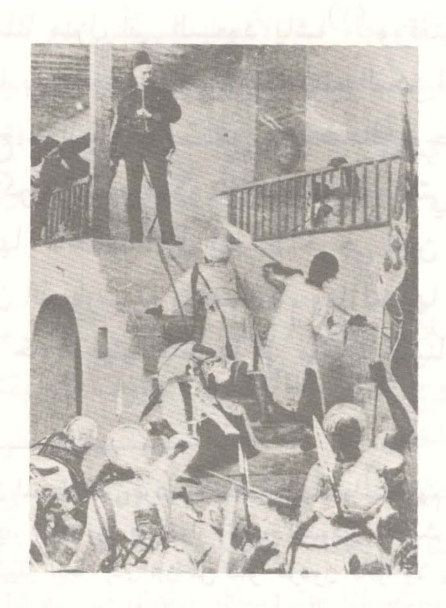
(٢) يقول شقير (صفحة ٥٣٥) إن محمد ود نوباوي شيخ بني جرار، وهو أحد أهل مشورة المهدي، هو الذي طعن غُردون أولاً ثم تلاه الباقون ممن معه ثم قطعوا رأسه وأخذوه للنجومي، ثم للخليفة شريف، ثم للمهدي نفسه. وفي رواية أوردها زلفو (كرري، صفحة ٨٣) عن على المهدي، قال إن الذي =



سراية (قصر) الحاكم العام (الحكمدار) في الخرطوم بعد الفتح (١٩٠٠م) وقد أعيد بناؤها وتجديدها مرات بعد الغزو وأصبحت في الشكل الجديد الموجود اليوم



محمد أبو السعود العقاد



مقتل غردون في سُلَّم قصره يوم فتح الخرطوم في ٢٦ يناير ١٨٨٥

= قتل غردون هو شخص يدعى مرسال يعمل «بيرقدّار» (أي حامل للعلم) للأمير ميرغني سوار الذهب، وقد أطلق رصاصة على رجل كان يُطِل من نافذة في القصر وعندما صعد المرافقون لمرسال اتضح لهم =



لحظة إحضار رأس غردون لسلاطين (المقيد بالسلاسل) للتعرف عليه

في نحو الساعة العاشرة صباحاً اجتمعت بمختار الرُّباطابي فمشينا معاً حتى وصلنا منزل أبي السعود باشا(١) ووقفنا في دهليز يفصل بين غرفتين، الغربية منها بابها مفتوح. وكانت ابنته البكر العانس تمشط شعرها على المرآة فرأت شبح حرابنا فخرجت من باب شمالي وجرت على ممشى، بجانبيه على ما أتذكر (أذكر) قصب سكر أو مايشابهه، حتي دخلت "المُرتَفَق" (المرحاض) وقفلته عليها. فأخذت أقول لها: «أخرجي نحن أولاد بلد نحفظك ولا نؤذيك .. عليك أمان الله ورسوله والمهدي». ومازلنا بها حتى خرجت وهي ترتجف فخرجنا بها إلى خارج بيتها لنضعها في مأمن. فلقينا بقرب الباب راية الكلاكلة فأدخلناها

= أن المقتول كان غُردون، فخاف مرسال واستحلفهم كتمان الأمر. وبعدها اختفى إلى أن قتل في واقعة كرري. كذلك ورد في ضرار (تاريخ السودان الحديث، صفحة ١٥٠) إن الذين قتلوا غُردون هما رجلان من قبيلة البجا. إذن فإن من قتلوا غُردون كانوا ولا يزالون مجهولين !.

(١) أبو السعود باشا: هو محمد أبو السعود العقاد وكان من عائلة مصرية تعمل منذ حوإلى ١٨٦٠م بالتجارة (خصوصاً تجارة الرقيق) في جنوب السودان. وعندما قويت السلطة الإدارية وتضاءلت التجارة في الجنوب انضم لخدمة الحكومة، إذ طلبه غُردون (١٨٧٤م) عندما كان حاكماً للإقليم الاستوائي لمساعدته في منع تجارة الرقيق. وفي عام ١٨٨١م كان مساعداً للحكمدار المصري محمد رؤوف باشا الذي أرسله على رأس قوة عسكرية إلى الجزيرة أبا للقبض على المهدي عند إعلانه مهديته ومعارضته للحكومة، إلا أنه هزم وعاد إلى الخرطوم ومات فجأة بعد ذلك بقليل (١٦ مارس ١٨٨٢م) (تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي صفحة ٣٠؛ جيقلر صفحات ٣٠، ١٧١ ـ ١٧٥، ١٨٤).

في منزل محمد باشا حسين الذي علمنا أن مكين ولد النور أميرنا الأكبر قد اتخذه مأوى له. ولم أرها بعد ذلك ولكني سمعت أنها تزوجت بالسيد محمد صالح جدّ الأشراف من آل المهدي. قلت لم أرها حتى يوم غرة رمضان سنة ١٣١٢هـ (٢٦ فبراير ١٨٩٥م) ليلة زواجي بأم أولادي، في ذلك اليوم حكيت حكايتها فقيل لي أنها ضمن المدعوات في زواجي، فأخبروها فجاءتني وحكت نفس الحكاية وشكرتني حتى أخجلتني.

قلت أني دخلت الخرطوم في أول الداخلين ولم أشعر بوجود خندق ولكني اجتمعت بعد ما فارقني مختار في نحو الساعة الثانية عشرة بمحمد مصطفى عبد القادر الرباطابي فوجدت ملابسه ملطخة بالطين وقد يبس عليها. فقلت له: «ما هذا الطين؟». فقال لي: «حينما دخلنا الخندق وجدناه مليئاً بالطين المائع فغُصت فيه إلى ما بعد ركبتي وجعل كل من جاء من الأنصار يمسكني من كتفي ويقفز أمامي، فبعضهم يمسكه الطين والخفيف منهم يخرج إلى اليابس، حتى جاء والدي مصطفى فلما وضع يديه على كتفي رأيته فعرفته، وقلت له: يابا؟. فقال لي: محمد؟. قلت: نعم، فخرج ووضع سلاحه خارج الخندق ورجع لي فَجَرّني من الطين الذي وصل صُلبي».

بعد ذلك أمر العامل[1] أن يُرفع السلاح وكان الأنصار يحوزون المنازل من أهلها. كذلك أمر سكان الخرطوم بالخروج للديم. أما والدي الرؤوف فلم يقتل أحداً مع أنه دخل الخرطوم مع أول الداخلين، بل إنه أخذ ثمانية رجال خرج بهم قبل رفع السلاح وكان كلما هجم عليهم أحد يقول: «لا لا إن الأمير ولد النِّجُومي أمرني أوصلهم الدّيم لأنهم صناع ويحتاج إليهم في خدمة الدين»، فيتركونهم حتى يوصلهم. وقد بقي بعضهم بمنزلنا حتى سافر والدي إلي كَرْكُوْج بعد ثمانية شهور من فتوح الخرطوم.

---

(١) العامل: هو إما القائد أو المسؤول الإداري ممن يعينهم المهدي (أو الخليفة من بعده) في منطقة من المناطق وتكون وظيفته تنفيذ المسؤوليات الإدارية أو العسكرية، وشملت فيما بعد جمع الضرائب.

عندما صدر الأمر للأنصار بحجز المنازل في يوم الفتح حجزنا أنا ومحمد مصطفى منزل رجل يدعى محمد علي بك وصوص، أظنه تاجراً أُصَوليّاً، فوجدنا فيه الزيت ودقيق القمح والسمن واللحم المقدد وجوالات الذرة ولم نجد به أحداً. ولم نمس شيئاً من هذه المأكولات لأني كنت صائماً، ولو كنت غير صائم لا يمكن أن آكل - كصاحبي - حتي يصدر الإذن من ولد النِّجُومي عن المهدي (عم) بإباحة ما يأكل مما يوجد من المأكولات. وفعلاً لم يصدر الإذن إلا ضحى الثلاثاء (اليوم الثاني بعد سقوط الخرطوم) حيث خبزنا من الدقيق قُرَّاصَة أدمناها بالزيت تقشفاً مع وجود السمن والعسل. ثم فكرت في أن صاحب هذا المنزل يجب أن يكون عنده من النقود والحلي الشئ الكثير فأخذنا في البحث الدقيق فلم نجد شيئاً حتى استعنا بجيراننا الذين أخبرونا أنهم يخبئون حليهم في البئر أو «المُستُراح» (المرحاض). فأنزلنا محمد مصطفى في البئر فوجدنا كثيراً من حلي النساء المصنوعة من الذهب، فأخرجناه وربطناه في بَشْكير (منشفة) وحملناه إلى بيت المال[1]. ووالله ما كنا نفرق بينه وبين الجنائز التي كنا نَمّر عليها حتى أوصلناه بيت المال، ولم يخطر ببال أحدنا أنه يحمل مالاً فيه الغنى لمدة الحياة لو إختلسه. أنظر إلى هذه التعليمات التي تصرف شاباً مثلنا عمره ثلاث وعشرون سنة وله زوجة؛ ومن له زوجة يرجو له أولاد، ولكن رجاءنا لما عند الله صرفنا عنها.

رحلنا بعد ذلك من بيت محمد علي بك إلى بيت حاج ناصر أبو حشيش الفتيحابي، لأنه واسع ويسع عائلتنا. وبعد يوم من رحيلنا به سمعنا حركة في مخزن إحدى الغرف فظنناه رجلاً مختبئاً فخاطبناه بالأمان ليخرج، فلما طال الزمن دخلت عليه وخلفي عمي محمد أحمد شكاك وكان المخزن مظلماً، فلما وصلته نفر مني وكاد ينطحني فإذا به ثور مخبأ.

---

(١) بيت المال: هو المكان الذي يعينه المهدي متمثلاً بالنبي محمد (صلي الله عليه وسلم) حيث تجمع فيه الضرائب العينية وغيرها والغنائم من الحروب التي يخوضها الجيش، وهذه يخرج منها الخمس ويحفظ في بيت المال والباقي يوزع على المحاربين. وكان أول أمين لبيت المال هو أحمد سليمان المحسي (راجع ملحوظة ٣ صفحة ٦٤).



عبدالقادر باشا حلمي حكمدار السودان الذى خلف محمد رؤوف باشا فى بداية المهدية عام ١٨٨٢م

وفي ليلة الجمعة سمعنا أن المهدي (عم)[١] سيزور الخرطوم ضحى يوم الجمعة ٢٠ ربيع الثاني (٦ فبراير ١٨٨٥م). فنزلت فيمن نزل إلى النيل للقائه، فجاء وخاض إلى الشاطئ كغيره ثم ركب حصاناً أسود، بلجامه وسرجه كَنْاتِل، وسرنا خلفه حتى وصلنا بيت المال الذي كان بمنزل المفتي شاكر[٢]. فنزل عند الباب ودخل فكنت خلفه مباشرة فوجدنا إبراهيم ضرار، ابن خال أحمد سليمان المحسي أمين بيت المال[٣]، وكان من عُمّاله. فصعد إبراهيم السُلَّم

(١) كان المهدي معسكراً طوال فترة الحصار بدّيم الخِنيك بالقرب من دّيم أبي سعد المعروف حالياً وكلاهما يقعا في الشاطئ الغربي للنيل جنوب مدينة أمدرمان (انظر صفحة ٤٥). وبعد فتح الخرطوم بدء يتردد عليها وكانت زيارته الأولى يوم ٣٠ يناير ١٨٨٥م (١٣ ربيع ثان ١٣٠٢هـ). ثم استقر في الخرطوم لفترة قصيرة بمنزل أبي بكر الجركوك، أحد وجهاء الخرطوم، بعد أن تزوج ابنته عند الفتح، أما أبو بكر نفسه فقد قتل مع من قتل يوم الفتح (شقير، صفحة ٥٨٦)، (أيضاً انظر صفحة ٦٦).

(٢) شاكر الغزي: أحد العلماء المسلمين وكان يشغل وظيفة المفتي لمحكمة الاستئناف والإفتاء في الخرطوم قبل المهدية، وبحكم منصبه فقد كان يعارض المهدية، وقد استكتبه عبد القادر باشا حلمي (الحاكم العام آنذاك) رسالة في تكذيب المهدي (تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي، صفحة ٣٢؛ وشقير، صفحة ٦٢٠؛ محمد محجوب مالك، صفحة ١٢٤).

(٣) أحمد سليمان المحسي كان من التابعين للمهدي منذ إعلان المهدية في الجزيرة أبا وكان من الأشخاص القليلين الذين يمكن لهم الدخول على المهدي في خلوته بالغار في أبا. وقد عينه المهدي كأول أمين على بيت المال في حوالى أبريل/مايو ١٨٨٣م. ولكنه فقد بعد موت المهدي تلك المنزلة الرفيعة =

وصعد المهدي (عم) وصعدنا معه. وكنت ملتصقاً بصفحته وما أن فتحت له الغرفة المحفوظ فيها الذهب من حلي وجنيهات وسبائك أكواماً وتوهج الذهب التفت المهدي (عم) عنه بسرعة البرق وصَدّ عنه راجعاً. فوقفت أتفكر بالذهب وذكرت بيت البصيري:

فراودته الجبال الشم من ذهب ...

وقلت لنفسي هذا والله هو الشمم. وعندما نزل من السُلَّم رأى الميزان ذا الرُّمَانة فسأل عنه، وقيل له: «ميزان يا سيد للمثقلات»، فقال: «هل يبين نصف الرطل ؟»، فأجيب بالإيجاب، فأذن باستعماله. وعند خروجنا من باب السور قابلته امرأة تبكي وقالت له: «يا سيدي المهدي ابنتي بأطفالها في الزَرْيبة، وهم متعبون، إئذن لي بأخذها». فسألها: «ما هي الزِّرْيبة ؟». قالت: «المكان الذي جمعت فيه النساء». فطلب أحمد سليمان وهو واقف مكانه: «ما الزريبة ؟». فقال أحمد سليمان: «الزِّرْيبة اسم المكان الذي جمعنا فيه نساء الخرطوم اللائي لم نجد لهن معارف»، قال له: «امش بنا إليها لأنظرها»، فتبعناه طبعاً. ولما قربنا منها سمعنا ضجة كبيرة وعند وصولنا أمر المهدي (عم) أحمد سليمان قائلاً: «يا أحمد كل هؤلاء الحريمات يوزعن قبل غروب الشمس فمن عرفها أحد تسلم إليه، والشابات ممن لم يعرفن أحداً ولا يعرفهن أحد زَوّجوهن». ورجع ونحن معه وأحمد سليمان أمامه حتى وصلنا منزل أحمد. هناك جاءوا لنا بزلابيا (لقمة القاضي) ففطرنا منها ورجعنا إلى منازلنا. وفي الظهر حضرنا للجمعة بالجامع حيث خطب المهدي (عم) وصلى بالناس؛ وفي آخر خطبته قال: «ياأصحاب المهدي أحمد سليمان شغل الإشراف بالمال قولوا نعوذ بالله من حالهم ثلاث مرات». فقالوها وهم طروق كأنما على رءوسهم الطير، وهؤلاء كانوا عشيرته بينهم أعمامه وأبناء عمومته. هذا هو القول الفصل الذي ليس بالهزل. وفي عصر نفس اليوم زار المهدي (عم) قبر والدته وهو على الربوة التي بجنوب إسبتالية العيون بالقرب من الباب الذي

= فعزله الخليفة لاتهامه إياه بتبديد أموال بيت المال (شقير، صفحة ٦٧٢)، ثم اتهمه بالاشتراك في ثورة الأشراف فنفاه إلى فشودة في الجنوب حيث قتل في آخر عام ١٨٩١م (تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي، صفحة ٣٢).

يقفل للقطارات[١]. وفي يوم الأربعاء وهو ثالث يوم الفتح نحو الرابعة مساء بالأفرنجي وصلت الخرطوم وابوران[٢] مرسلان من جيش الخلاص ولعلهما جاءا لتتأكدا من وقوع الخرطوم في يد جيوش المهدية. وقد وصلتا شرق الأسكلة[٣] حيث كنا بجنينة النور الخبير (جنينة الأوقاف)[٤]، فضربناهما بالبنادق. وحينما تأكدتا من وجودنا بالخرطوم رجعتا.

صار المهدي (عم) يتنقل بين أمدرمان ـ التي أسست حديثا شمال بلدة أمدرمان القديمة[٥] والتي كانت قرية صغيرة (وموقعها ثكنات الجيش الآن)، وتُرى قبورها ظاهرة إلى اليوم[٦] ـ وبين الخرطوم. حيث إنه إتخذ بيت بابكر الجَارْكُوك منزلاً له، وتزوج ابنته. كما أنه جعل ذلك المنزل مسجداً لصلاته وصلاة أصحابه الموجودين بالخرطوم لغير الجمعة. ومما أذكره هنا أنه في مرة كان يقرأ في بداية **﴿ولقد وصلنا لهم القول﴾** في سورة القصص، فلما قرأ أية **﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾** إلى قوله تعالى **﴿وكنا نحن الوارثين﴾**، إنحنى فقلت إنه سيموت، ولكنه رفع رأسه فإذا لحيته كلها تقطر من دموعه. ولما وصل آية **﴿أفمن وعدناه وعداً حسنا فهو لاقيه﴾** كررها ثلاث مرات بتلك الحالة.

---

(١) كان هذا القبر ضمن مقابر أخرى ظلت إلى حوالى عام ١٩٥٠م، ومكانها بالتقريب مكان مستشفى الثورة بالخرطوم بالقرب من كوبري المَسلَميّة الآن وهذا القبر بالذات أحتفظ به مسوراً داخل المستشفى . وكلمة إسبتالية مأخوذة من لفظ الكلمة الإنجليزية Hospital، وتعني مستشفى.

(٢) يذكر سلاطين (صفحة، ٢٠١) أن الباخرتين هما «الثلامونية» و«بردين» وقد جاءتا في صباح يوم الأربعاء ٢٨ يناير ١٨٨٥م، أي بعد سقوط الخرطوم بيومين وعليهما السير تشارلس ويلسون للتأكد من سقوط الخرطوم وموت غُردون. وقد أطلق عليها الأنصار النار فعادتا من حيث أتيتا. إلا أن شقير (صفحة، ٥٣٩ ـ ٥٤١) يذكر أن الوابورين كانا «بردين» و«تل حوين» ويؤكد باقي الأحداث.

(٣) الأسكِلة: أي المرفأ النهري على النيل الأزرق بالخرطوم. وهو المكان الذي أقيم عليه متحف السودان حالياً.

(٤) جنينة الأوقاف: هي مكان قاعة الصداقة بالخرطوم اليوم.

(٥) أمدرمان القديمة هي قرية صغيرة شمال ديم أبو سعِد، وكلاهما يقع جنوب مدينة أمدرمان الحالية مباشرة.

(٦) هذه القبور أزيلت وبني مكانها قصر الشباب والأطفال في عام ١٩٧٧م.

التحضير لغزو الشمال:

لم يسكت المهدي على قتل الإنجليز لجيش موسى ود حلو[1] بأبي طُليح، فبعد حوالى شهر من فتح الخرطوم أمر جيش ود النِّجُومي (في ٨ فبراير ١٨٨٥م) بالتوجه للمَتمَّة لطرد الإنجليز منها. كنت ضمن هذا الجيش وركب معنا المهدي نفسه إلى كَرْرِي حيث زار قبر والده*، ثم ودعنا هناك بتجديد البيعة ورجع. ولما وصل ولد النِّجُومي المتمة وجد الجيش قد بارحها راجعاً بطريق جَقْدُول فسار تواً إلى دُنقُلا. وعندما بلغ المهدي (عم) تناقل النِّجُومي إلى دُنقُلا كتب منشوره الشهير ببلاغته، وقد كتبه وهو محموم. ومنه: «أحبابي لا يخفى أنكم ممن صحبني في القلة وقام معي في الله بلا علة وفدى الدين بمحبوباته رغبة فيما عند الله». ومنه: «إن الله تعالى يقول ﴿ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة﴾.. الآية. وأن أمر مديرية دُنقُلا قد صار أمراً مهماً لتراكم أعداء الله بها ولو أن تحزبهم العاري عن معونة الله لا يغني عنهم شيئاً ولا هم ينصرون ما داموا في نصرة مالهم وجاههم». ومنه: «وسيروا إلى الله عرجى ومكاسير ولا تنظروا إلى خيال التشاهيل المؤدية إلى التعطيل فإنكم أحبابي من العقلاء والفطناء الذين يعلمون أن قيامنا هذا هو بالله ولله ابتداء وانتهاء، ولو كانت

---

(١) موسى ود حلو هو أخ على ود حلو خليفة المهدي (انظر ملحوظة ٢ صفحة ٥٥). وينتميان إلى قبيلة دغِيم، وقد أرسل موسى على رأس جيش إلى المَتمَة لمنع الحملة الإنجليزية القادمة لإنقاذ غُردون، وقد تقابل الجيشان في أبي طليح، وانهزم جيش موسى وقتل هو مع من قتل (انظر ملحوظة ١ صفحة ٥٦).

* حاشية للمحقق: يذكر القدال أن عائلة محمد أحمد المهدي كانت تعمل بصناعة المراكب والسواقي وهما من الصناعات التي شجعتها الحكومة التركية ضمن خطتها لتنمية الزراعة والمواصلات في السودان بعد أن غزته. ويذكر أن تلك العائلة قد هاجرت من موطنها في جزيرة لبب قرب دنقلا في شمال السودان حوالى عام ١٨٥٠م عندما كان المهدي في الخامسة من عمره. والأسباب لتلك الهجرة متضاربة منها البحث عن مصادر للخشب لتغذية صناعتهم. ويبدو أنهم تدرجوا جنوباً حتى استقروا في قرية كَرْري شمال مدينة أمدرمان لوجود الأخشاب قربها بالإضافة لقربهم من عاصمة البلاد واتساع سوقها ووجود عدد كبير من المتاجر فيها. وبعد فترة قصيرة توفى والده بكَرْري ودفن هناك (القدال، صفحة ٢٧ ـ ٣٠). يؤيد شقير (صفحة، ٣٢٢) كل هذه الأحداث وخصوصاً دفن والد المهدي بكَرْري.

الأموال والتشاهيل مما ينفع أو يضر لكان للتُّرك في ذلك حظ وافر ولكن كل من كان لله كان الله له ـ ومن تمسك بالأسباب تقطعت به من مقام الأطياب إلى منازل الكلاب وحاشاكم ذلك أيها الأحباب». إلخ... كله من هذا النوع، فأنظر إلى قائد أعلى يأمر جيشاً من خيرة جيوشه بالتوجه إلى أقوى عدو جربه في جيش لا يقل عن جيش ولد النِّجُومي عدداً وعدة وروحاً معنوية وينهاه عن الإلتفات إلى التشاهيل بالذخيرة والمؤن بل يأمره أن يسرع، كما بدأ أمره بتكليف أصحابه الممتلئين منه حماساً، المقتدين به في أقواله وأفعاله.

وبعد شهرين أو تزيد قليلاً توفي المهدي (عم) ورجع جيش ولد النجومي إلى أمدرمان. وكنت قبل وفاة المهدي مرضت بالملاريا ورجعت إلى أمدرمان، لذا فقد كنت بالخرطوم حينما إنتقل المهدي (عم) إلى الدار الأخرة *.

عجيبة حدثت لي في تلك الأيام أحكيها: كنا بالخرطوم وكان يقرأ لنا الرَّاتِب[1] عمي علي شكاك[2] وهو ليس من المظنونين بالكشف لكنه كان يقرأ ثم يضع الراتب من يده على فروته[3] ويقول لنا: «إذا جاءنا أحد الآن وقال

---

* حاشية للمحقق: إختلف المؤرخون في يوم وسبب وفاة المهدي. فالقدال يحدد يوم وفاته بالعشرين من يونيو ١٨٨٥م، ويذكر شقير أن الوفاة حدثت ضحى الاثنين ٢٢ يونيو ١٨٨٥م الموافق ٨ رمضان ١٣٠٢هـ، وليس الفرق بكبير. أما سبب وفاته فقد أسنده سلاطين (صفحة ٢١٣) إلى حمي التيفوس، وذكر شقير أن المهدي أصيب بحمى خبيثة تسمى (أبو دم) وهي كما قال يعرفها الأطباء بالالتهاب السحائي الشوكي. أما القدال (صفحة، ١١٩) فيقول إن الحمى التي أصابت المهدي «لعلها تيفويد أو سحائي أو ملاريا». إذاً فالاختلاف في يوم وفاة المهدي ونوع المرض الذي أصابه قليل، إلا أن هناك إجماعاً على أن الإصابة بالحمى استمرت فترة قصيرة (حوالي ستة أيام) كما جاء في المنشور الذي أصدره خليفته في ٨ رمضان ١٣٠٢هـ معلناً فيه وفاته للشعب السوداني. وكان عمر المهدي عند وفاته حوالي واحد وأربعين عاماً.

(١) الرَّاتِب هو كتاب صغير ـ في ١٢٨ صفحة ـ وضعه المهدي منذ عهده في قدير ويشتمل على بعض الآيات والأدعية، ليقرأه الأنصار مرة في الصباح وأخرى في المساء أو أكثر من ذلك، وقد وضعه ليكون بديلاً للكتب الصوفية التي إعتاد الناس قراءتها ومنعهم عنها المهدي منذ بداية دعوته (القدال، صفحة ١٣٣).

(٢) علي شكاك هو الأخ الأصغر لمحمد أحمد شكاك (انظر ملحق ٢ و٣ و٤).

(٣) فروته، أي الفروة التي تخصه، والفروة هي جلد الخروف الذي يُدبَغ ويُحفظ صوفه عليه، وتستعمل في السودان للصلاة فوقها.

المهدي مات ما كنا صانعين به ؟ ». نقول له: «نقتله أو نشبعه ضرباً». فيرفع راتبه ويقرأ. كرر هذه المقالة أياماً، وفي تلك الأيام إنتقل المهدي إلى الدار الآخرة.

عجيبة أخرى أحكيها: رأيت مناماً شاهدت فيه نفسي والمهدي (عم) ومعنا ثالث يدعى محمد أحمد الشامابي، رأيتنا نحن الثلاثة وبأرجلنا القيد الذي يسمى (مَكَيِّة)، ورأيت المهدي مشى بقيده فتبعته قليلاً وصاحبنا لم يستطع أن يقف. ثم رأيت المهدي مشى غرباً وأنا أنظر إليه حتى غاب عن عيني بدون حائل ولا ظلمة ولا غبار، بل حُجب عني في السهل القريب نهاراً. فقصصت هذه الرؤيا على جماعة وكان ضمنهم عبد الله حاج الحسن قديلاوي فقصّها على صاحب له مصري ـ كان وكيل التلغراف بالخرطوم بعد الفتح. فقال له: «أحضر لي صاحب هذه الرؤيا». فاجتمعت به وسألني: «هل المهدي مشى بقيده ؟». فقلت: «نعم». وسألني: «هل غاب عن عينيك دون حائل ما ؟». فقلت: «نعم». قال: «إذا صحت هذه الرؤيا يحصل أمر عظيم غير منتظر». فلما توفى المهدي (عم) اجتمعت بذلك المصري فقال لي: «لو قلت لك في ذلك اليوم المهدي يموت قريباً ما كنت فاعلاً بي ؟». قلت: «كنت أقتلك قبله».

تسليم حامية سِنّار:

بعد وفاة المهدي إشتدت الوطأة على الجيش الذي كان يحاصر سنّار، وانكسرت رجل القائد الأكبر السيد محمد عبد الكريم في واقعة البقرة (٣٠يوليو ١٨٨٥م) وقبل ذلك قتل الشيخ عبد القادر أبو الحسني أمير اليَعقُوبَاب[١] ومعتقدهم، كما قتل الشريف على الهندي. نظراً لهذا قام السيد محمد عبد الكريم[٢] بترحيل ديمه إلى مقر جديد (قرية البرّيَاب التي تقع شمال سنّار ـ المحقق) وتبع هذا أن طلب الخليفة عبد الله من عبد الرحمن ولد النِّجُومي أَن يعود بجيشه من المتمة إلى أمدرمان، فرجع ووجهه لفتح سنار. ولما وصلنا المسَلّمية أنتخب عمي علي شكاك ليكون أميناً لبيت مالها، فاستعار عمي حصاني وعبدي صباح الخير. وعندما وصلنا (أي جيش ولد النِّجُومي) "البرّيَاب" وجدنا السيد محمد عبد الكريم هناك ورجله مكسورة، ويسكن في "قُطّيّة" عليها "رَاكُوبة" [٣]، فجلسنا في الراكوبة ودخل عليه ولد النِّجُومي مسلماً ومسلياً. وفي تلك الساعة حضر مندوب من الحامية التي كانت تعسكر داخل سنار يطلب التسليم على يد ولد النِّجُومي. فقال ولد النِّجُومي للسيد محمد: «النصر نصرك واسمك هو الذي أكرههم فلا أجحد عليك ذلك ولا

(١) الشيخ عبدالقادر أبو الحُسنَي: من قبيلة اليَعقُوبَاب وهي قبيلة لها تاريخ ديني منذ مملكة الفونج وتسكن منطقة شمال مدينة سنار، وعبد القادر هو أحد فقهاء القبيلة على الطريقة السمانية. وقد هاجر إلى المهدي في قَدِير وحضر معه معركة شيكان (٥ نوفمبر ١٨٨٣) ثم عاد من كُردُفان مع جيش الأمير أبي قرجة وحضر معه حصار فداسي (مارس ١٨٨٤م) وبعدها أخذ فريق من جيش أبي قرجة وقاده ليفتح به سنار (١١ ابريل ١٨٨٤م). ولكنه هزم في محاولاته ومات، فدفنه ابنه وشيد له قبة فوق قبره في حلّة البقرة (شقير، صفحة ٤٧١).

(٢) الأمير محمد عبدالكريم: هو أحد أبناء عمومة المهدي وأحد القواد في راية الخليفة محمد شريف وقد أولاه المهدي في ١٩ مارس ١٨٨٥م قيادة الجيش المرسل لفتح سنار بعد فشل محاولات فتحها سابقا. وتم له النصر في ١٨٨٥/٨/١٩م بعد أن خاض معارك متعددة أصيب فيها بطلق ناري في فخذه فكسره. وفي عام ١٨٩١م اتهمه الخليفة عبد الله بالإشتراك في ثورة الأشراف ضده فنفاه إلى فَشُودَة في جنوب السودان وأوعز للعامل فيها بقتله، فقتل في عام ١٨٩٢م (شقير، صفحة ٦٥٦ ـ ٦٦١؛ تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي، صفحة ٣٧).

(٣) قُطّيّة: كوخ أو حجرة هرمية الشكل تبنى من القش، أما الراكوبة فيكون سقفها مسطحاً، وأحيانا لا تبنى لها جدران وتكون امتداداً للقطية.

أعمل عملاً يشركني معك في النصر». وألحّ ولد النِّجُومي عليه وأقسم أن لا هو ولا جيشه سيدخل سِنّار كفاتح إلا بعد تسليمها وجمع أسلحتها وغنائمها على يد السيد محمد أو على يد من يعينه عنه. فقال له السيد محمد عبد الكريم: «أوكلت السيد محمد أحمد إدريس[١] والشيخ مُضّوي براً لقسمك»، فودعه ولد النِّجُومي؛ ورأيت السيد محمد يكرر الشكر لولد النِّجُومي ويدعو له بالخير.

بعد وصولنا سنار حجزنا ود النِّجُومي في "البقرة"، بالمكان الذي أخلاه السيد محمد عبد الكريم وجيشه. وقد باشر التسليم السيد محمد أحمد شيخ إدريس ومعه الشيخ مُضْوّي عبد الرحمن العَالِم المَحَسِي[٢]. أما نحن فلم يدخل أحد منّا سِنّار إلا متفرجاً. وأثناء إقامة جيشنا بسِنّار سافرت لوالدي بكَرْكُوْج، ولكن عندما عدت وجدت الجيش قد رحل إلى أمدرمان، فواصلت سيري راجلاً حتى وصلت الخرطوم، إذ كنا نقيم فيها في تلك الفترة.

---

(١) محمد أحمد إدريس: من أقارب المهدي ممن كانوا ضمن أمراء جيش السيد محمد عبد الكريم لفتح سنار، وقد تولى القيادة بعد كسر رجل السيد محمد عبد الكريم وتم الفتح على يديه في ١٩ أغسطس ١٨٨٥م (شقير، صفحة ٦٦١).

(٢) الشيخ مضوي عبد الرحمن: انظر ملحوظة ١ صفحة ١٧٣.

رؤيـا المـوت:

عاودتني حمي الملاريا التي أنهكت قواي حتى صرت ضعيفاً تحملني الخادم بخيته إلى "المُستُراح"[1] وترجعني كالطفل؛ وانقطعت عن الصلاة في الجامع، وهذا أشد ما كنت أجده من ألم الحمى. في أحد الأيام سمعت الجماعة الراجعين من الجامع يرتلون الشهادتين بأصوات عالية فانتحبت حتى غبت عن وعيي. أثناء غيبوبتي رأيت ثلاثة رجال بيض الوجوه واللحى وأحدهم يحمل سكيناً كبيرة والثاني يحمل ميزاناً والثالث يحمل حبلاً من القِدّ[2]. فجلس الذي بيده السكين في حِجْرِي، والذي بيده الحبل عند رجلي، والذي بيده الميزان عند رأسي. فاستحضرت في نفسي أن هؤلاء ملائكة الرحمة جاءوا لقبض الروح . وكنت قد قرأت وأنا صغير في كتاب أن الإنسان في حالة الإحتضار يُسلَّط عليه العطش ويأتيه الشيطان حاملاً كأساً من الماء ، فيقول له: « إن سجدت لغير الله سَقيّتك » ، أو يقول له: « إن قلت أنت ربي سَقيّتك » . وقد قرأت أيضا في ذلك الكتاب؛ أن من قرأ سورة (لقد جاءكم) يُعصَم عنه الشيطان ، فجعلت أقرأها في سري. وبعد كلام قليل دار بينهم لم أفهم منه شيئا تقدم من بيده السكين وقطع رجلي اليمني من فخذها، فخزت خزة شديدة شعر بها الناس الذين اجتمعوا حولي يلقنونني الشهادة وأنا لا أسمعهم. ثم تحول لرجلي الشمال وتحولت معه بِعينَيّ فقطع رجلي الشمال. ثم جاء من بيده الميزان فوزنهما فرجحت إحداهما ، وأظنها اليمنى على اليسرى رجاحاً واضحاً، فرمى الميزان وأنا أسمع له صوت صليل عالٍ، ثم قطع من بيده السكين يدي اليمنى ثم تحول فقطع اليسرى وفي كل حركة تتبعه عيناي بتحديد شديد يتعجب منه مَنْ حولي. ثم وزن صاحب الميزان يدي فرجحت إحداهما على الأخري أيضا فرماها وأنا أنظر إلى عضلي يرف رفيفا شديداً، فقلت في نفسي: « ياسلام ألهذا السبب الناس يقولون الروح للمحتضر خرجت من رجليه لأجل أنهما يقطعان أولا ». وشعرت أن روحي جاءت في حلقي بعد قطع يدي وصار الرجال

---

(١) المستراح : المرحاض

(٢) القدّ: سيور أو خيوط من جلود الحيوانات.

الثلاثة يتكلمون، وفي أثناء كلامهم رفعت رأسي فرأيت بنتين في السقف بيد إحداهما منديل أبيض وبيد الأخرى كوز[1] شديد البياض وهما بيضاوتان، وشعر كل منهما متدل من السقف وكانتا بارعتي الجمال. فقلت في نفسي هاتان حوريتان تنتظران خروج روحي لتسقيها صاحبة الكوز وتتناولها صاحبة المنديل إلى النعيم المقيم، وسررت جداً واستسلمت لخروج روحي. ولكني سمعت صاحب الميزان يتكلم مع أخويه ـ وهو يفرطق بأصبعيه بعيداً ـ فصعدوا وتبعتهم بنظري فلم أر للبنتين شبحاً، ثم انفتح لهم سقف البيت. وحينما غابوا عن عَينيّ رأيت مَنْ حولي من أهلي وأخواتي يصحن، والحُسْنَى على صدري ووالدتي ممسكة سبحتها تُسبِّح بها. وفي الحال شعرت بنشاط قوي في بدني فقلت بصوت عال: «مَالكُم؟ اعطوني الطريق». فأفسحوا لي وهم في سرور وبشر وعجب. فقمت نشطاً وخرجت ودخلت ولم يشتد المرض بعد ذلك عليّ.

وفي صباح ذلك اليوم شربت من ملح الطعام كمية وبعد قليل شعرت بأن الذي كنت أشعر به في معدتي يصعد نحو حلقي فصرت أتنخم بشدة حتى أحسست به قريباً من فمي. فأدخلت أصبعي ورميت به فإذا هو ثعبان الباطن[2] يتحرك متلويا فتم شفائي، ومازلت إلى اليوم كلما تذكرت حادثة إحتضاري هذه تمنيت أن لو مت آنذاك.

---

(١) كُوْز: إناء للشرب أو يستعمل أيضاً للكيل.

(٢) ثعبان الباطن: الدودة الشريطية.

مَن فَشّ غَبِينتُه إنهدمت مَدِينتُه:(١)

أتذكر أنا وأحد أقربائي المدعو أحمد القويضي الشهير "بجبد"، ذهبنا إلى الخليفة شريف(٢) (عليه رحمة الله) بعد شفائي ليعطينا خادمة نبيعها لضرورة لحقتنا، فقال لنا: «أكتب لكم لأي أمير؟». فقلت: «أكتب لنا لعلي شكاك بالمسلمية». فسافرت ووصلته وأنا محموم من تعب المشي راجلاً، إذ أن حصاني وعبدي كانا عنده. ولما لم ينتبه لي رقدت على برش في غرفة مظلمة وأنا أسمع أنسهم وضحكهم وأتململ من الجوع والحمى. ومن المعروف أن حمى الملاريا لا تمنعنا الأكل وإنما تضعف الحركة، حتى قال والدي ـ حينما رجعنا أنا وعمي علي من المتمة محمومين ـ: «بابكر وعلي شكاك نصيحا جوف ومرضى (مريضا) قوائم».

---

(١) فَشّ: أراح، وغَبِينتُه بمعنى غبنه، والمعنى المقصود هو من أظهر أو نَفس عن غبنه انهدم ما بناه. وفى نفس هذا المعنى تقول الآية الكريمة ﴿فمن عفى وأصلح فأجره على الله﴾.

(٢) الخليفة شريف: هو الخليفة محمد شريف حامد، أحد أقرباء المهدي وكان معه في الجزيرة أبا منذ إعلانه لمهديته (زلفو، صفحة ٢٧٣). وقد عقد له المهدي رغم صغر سنه (ولد عام ١٨٦٨) الخلافة على الراية الحمراء (سلاطين، صفحة ٦٤)، والتي كانت راية أنصار دنقلا وبربر والخرطوم وسنار والجلابة وأولاد البحر (النيل). وكانت الراية الرابعة التي تعتبر أقوى أقسام الجيش بعد الراية الزرقاء، وكان من قوادها عبد الرحمن النجومي ومحمد عبد الكريم ومحمود عبد القادر ومحمد خالد زقل وكرم الله كركساوي. وكان الخليفة محمد غير راضٍ عن تقديم المهدي للخليفة عبد الله عليه وظل يناوئ الخليفة عبد الله منذ وفاة المهدي حتى وصل الخلاف حد الأزمة في ١٨٨٧. ثم دبر هو وعدد من الأشراف من أهل المهدي وغيرهم من قبيلة الدناقلة والجعليين محاولة لأخذ السلطة من الخليفة عبد الله وجهازه الحاكم الذي كان معظمه من قبائل غرب السودان. وتمت المحاولة في ٢٣ نوفمبر ١٨٩١م، ولكنها فشلت وأنهيت سلمياً، ثم جد الاختلاف مرة أخري فسجنه الخليفة عبد الله في ٢ مارس ١٨٩٢م. وبعد فترة أطلق من السجن بعد أن توسط له عدد من الأشخاص منهم الخليفة علي ود حلو ومحمد بن المهدي (شقير، صفحة ٨٢٧ ـ ٨٣١). وفي كرري اشترك برايته، وعند انهزام جيوش المهدية انسحب إلى الجزيرة أبا ومعه اثنين من أبناء المهدي هما الفاضل والبشري، وهناك أسروا ثلاثتهم في ١٥ نوفمبر ١٨٩٨ وأرسلوا إلى سجن حلفا. وبعد قليل أفرج عنهم فرجعوا إلى الشُكَّابة على بعد حوالى أربعين ميلاً من سنار، وفيها بدأ الخليفة محمد شريف في الدعوة للمهدية وحاول الاتصال بالخليفة عبد الله، ولكن الحكومة الإنجليزية المصرية كانت تراقبه، فأرسلت فرقة من الجنود قبضت عليهم وتم إعدامهم بعد محاكمة عسكرية في ٢٧ أغسطس ١٨٩٩ (شقير، صفحة ٦٤١، ٨٣٠، ٩٤٨، ٩٦١؛ سلاطين، صفحة ٢٥٧ ـ ٢٥٨). إلا أن هناك رأياً يقول إنهم أعدموا بدون محاكمة (هولت، صفحة ٢٢٧).

ولما جاء عمر حجازي يرقد على فراشه بعد السهرة من سمرهم وطأني وقال: «من هذا ؟». قلت: «بابكر بدري». فرجع إلى عمي علي وأخبره بحالي فلم يبد حراكا حتي أصبحنا. وللحظ وجدت موسى أخي[1] معه مُستَبنِيه (أي مُتبَنّيه). ولكن موسى لم يعلم بمجيئي لوصولنا مساء وكان هو غائب. فلما أصبحنا تقابلنا فأرسل عمي على أخي موسى للجزار يحضر لهم أقتين كبدة وثلاث أقات[2] لحم ضأن فأحضرها. وكان عمي علي شكاك متزوجا امرأة من غنائم سنار تدعي زينب بنت خير الله، فلما جهز الغداء دخل موسى البيت فوجد عمي علي ومن معه يأكلون وأنا لست بينهم، بل كنت راقداً في جامع علي ود شُمّو بجوار منزله. فاغتاظ موسى وطلب صباح الخير وسالما (عبيدنا) فقال لهما: «شدا الحصان وأتيا به». فلما أحس عمي علي شكاك بذلك أخذ يستعطف موسى، فما بالى به. ثم جرب معه السلطة ليكرهه على ترك الحصان والعبدين، فما استطاع لأن موسى أهاج صباح الخير بأن حكى ما حصل لى. كنت أنا كل هذا الوقت في الجامع لا علم لي بشىء منه. ولو أخذ رأيي لما حركت ساكناً لأننا زاهدون في الدنيا وما فيها ولا يهزنا مدح ولا يغضبنا قدح. والانتقام لا يخطر ببالنا لأن المهدي (عم) يقول: «من فَشَّ غَبِيْنتُه إنهدَمَت مَدِينتُه». فأخذ صباح الخير الحصان وساق سالماً أمامه وجاءوني بالجامع فركبت الحصان وركب موسى حماره وسافرنا في تلك الساعة. في الطريق أخبرت موسى أني جائع فاشترى لنا زاداً وبقيت معه نقود وصّلتنا الخرطوم.

---

(١) موسى بدري هو شقيق المؤلف ويصغره بأربع سنوات، (انظر ملحوظة ٢ صفحة ١١٤).
(٢) الأقة: نوع من الأوزان كانت توزن به الأشياء، يبلغ وزنها أكثر قليلا من اثنين كيلو جرام.

في هذه السفرة اعترفت تماما بأن موسى أخي (رحمه الله) كان أكرم منى وذلك لأننا عندما وصلنا "حلةِ الجديد" وِجدنا في سوقها كِسْرةِ مَجْلُوبة[1] ونحن جياع جداً، فاشترى موسى بكل ما معه طعاماً قليلاً ولكنه أعطى العبدين منه بقدر ما أبقى لنا، وكان بودي أن نزيد عليهما. ثم جاءنا رجل سائل فوددت أن نعطيه شيئاً ونصرفه بكلام طيب، فما كان من موسى إلا أن قال له: «تفضل كُلْ معنا»، فتصاغرت نفسي لدي وأكبرت أخي حد الإكبار.

(١) كِسْرَة مجلوبة: كسرة ـ كما سبق القول ـ هى نوع من الخبز الرفيع يصنع من الذرة ويشيع أكله في السودان، ومجلوبة تعني أحضرت أو جلبت للبيع.

الفصل الثالث

صفحة

في سَرِيّة ود النجـومي: (١)

وصلنا الخرطوم وبعد شهر عُزل عمي علي شكاك، فجائنا فيها بامرأته. وبعد ذلك بأيام سافر جيش ولد النِّجُومي لبَربَر في طريقه إلى دُنقُلا فلحقناه بالمراكب بكل عائلتنا، أما والدي فظل مقيما بكَرْكُوْج. وصلنا بَربَر (حوالى أبريل ١٨٨٦م) ومكثنا بها شهري شعبان ورمضان، وكان الحر من أشد ما رأيت حتى كنا نضطر فى رمضان أن نمكث في ماء النيل الساعة والساعتين وأحيانا حتى الإصفرار . وكنا نري الناس عائدين إلى منازلهم وكأنهم جاءوا من عمل أو سوق. ثم تحولنا إلى أبي حَرْاز بالغرب وهناك حضر لنا مَسَاعد قَيْدُوم(٢) أميراً على أنصار الغرب، وكان مستقلاً تقريباً عن ولد النِّجُومي. حدث ذلك في أواخر سنة ١٣٠٣هـ (صيف ١٨٨٦م)، وهو يعتبر من أوائل التغيرات السياسية في المهدية بعد وفاة المهدي (عم)*.

---

(١) سَرِيّة : فوج من الجنود أو فرقة في الجيش، وسرية ود النِّجُومي كان عدد أفرادها في بداية تحركها حوالى خمسة عشر ألف من المحاربين وأسرَهم.

(٢) مساعد قَيْدُوم (١٨٦١ ـ ١٩٣٤) قائد من قواد المهدية العسكريين وينتمي لقبيلة البَقَّارة. تلقى تعليمه على يد والد الخليفة عبد الله، ثم عينه الخليفة في يوليو ١٨٨٦ مساعداً لعبد الرحمن النِّجُومي وأميراً على قوات الأنصار التي يرجع أصلها إلى قبائل غرب السودان ، الا أن تعيينه يبدو كان بغرض جعله رقيبا على النِّجُومي فنشـأ بين الاثنين خلاف اضطر الخليفة أن يعين يونس الدكيم عاملاً على دنقلا . ولكن ذلك أغضب مساعداً لتوقعه أن يعين هو في مكان يونس، فدب بين هذين خلاف جديد. وفي عام ١٨٩٤ عين قائداً لجيوش الأنصار في شرق السودان بدلا من أبي قرجه، واستمر في ذلك المنصب إلى أن غزا الأيطاليون كسلا في ١٧يوليو ١٨٩٤، فانسحب للقضارف ثم إلى أم درمان. وعند هجوم كتشنر على كرري كان مساعد من المشاركين في الواقعة (شقير، صفحة، ٦٧٣، ٧٧٦، ٧٧٧، ٨٢٠، ٨٤٨، ٩٣٠).

* حاشية للمحقق: يبدو أن التغيرات السياسية التي أجراها الخليفة عبد الله قد سبقت تعيين مساعد قيدوم (في يوليو١٨٨٦م) كشريك للنجومي في قيادة الجيش، ولكن لبُعد المؤلف عن ساحة السياسة ـ كما ذكر ـ فهو لم يدرك تلك التغيرات إلا في هذا الموقف. ومن التغيرات التي تمت بعد وفاة المهدي، إزاحة بعض قادة الانصار خصوصاً أبناء القبائل النيلية وأبدالهم في أحيان كثيرة بأفراد من قبائل غرب السودان. وعلى سبيل المثال استدعى الخليفة القائد محمد عبد الكريم بعد فتحه سنار وجعله يؤدي القسم بالولاء له مرة ثانية (سلاطين صفحة ٢٢٠). ثم استدعى محمد الخير من عمالة دنقلا في أبريل ١٨٨٦م، ونقله إلى عمالة بربر، وما لبث أن عزله وعين عثمان الدكيم بدلاً منه في سبتمبر ١٨٨٦م. كذلك عزل محمد خالد زقل عن إمارة دارفور في يونيو ١٨٨٦م وسجنه، وقبل كل هذا جرد الخليفتين =

ومن الحوادث التي وقعت في أبي حراز حادثة قتل محمد الفحل كبير الفحلاب. وتبياناً لما حدث أن رجلاً يدعى محمد عبد الماجد من أقارب محمد الفحل، ومن معتقدي المهدية المتطرفين، زاره في بيته فأخذ الحديث يدور بخصوص المهدي؛ وكان محمد الفحل مطمئناً لضيفه وقريبه، فقال لمحمد عبد الماجد من باب الجدل: «أسكت المهدي غشانا والخليفة للآن يكذب علينا». فما كان من محمد إلا أن قام من حينه وذهب إلى ولد النِّجُومي وأخبره الخبر كما حصل فأحضروا ولد الفحل من بيته فاعترف. فكتب ولد النِّجُومي بدوره إلى خليفة المهدي فأمر بضرب عنقه، ونُفِّذ قتله في محفل حافل.

هناك طلبني ولد النِّجُومي لأصحب أحد عماله لتحصيل الضرائب من قبيلة المناصير، فبكيت وقلت له: « يا سيدي أما رأيت غيري تقطعه من الله ؟ أرجوك بالله ورسوله والمهدي أن تعفيني». فقال ولد النِّجُومي: « هكذا يكون أصحاب المهدي»، وأرسل غيري. ثم أرسل ولد النِّجُومي من أحضر الجمال من العربان الحسانية والقّريات والهواوير بالغرب، والجِميعَاب والعَبَابدَة والبِشَاريين بالشرق[1] فأحضرت وكان الكثير منها صعبا لم يروض بعد، فَرُوِّضت تحت الحِمل (أي أثناء أداء عملها في نقل وحمل لوازم الجيش).

= محمد شريف وعلي ود حلو من فرق الجِهَاديّة في جيوشهما وأخذ راياتهم وطبولهم الحربية في مارس ١٨٨٦م (شقير، صفحة ٧١٢، ٦٧١). إذاً فالإشارة من بابكر بدري هنا توحي بعدم رضاه عما تم. كما أن الحادثة التالية التي يرويها عن كبير الفحلاب تؤكد ظهور قدر من الاستياء في صفوف الأنصار لما كان يحدث، وإن اختلفت الأسباب لكل منهما.

(١) قبائل المناصير والحسانية والهواوير والجميعاب والعبابدة والبشاريين هي مجموعة من القبائل التي كانت تستوطن مناطق من شمال السودان يسكن بعضها على ضفاف النيل وتقوم بالزراعة كالمناصير؛ وبعضها الآخر يجوب الصحراء شرق وغرب النيل وتشتغل بتربية المواشي كالأبل مثل قبائل الهواوير والعبابدة.

سافرنا بعد ذلك طوائف للشايقية[١] التي وصلناها في أكثر من عشر أيام. وكان الأمير محمد الخير[٢] راجعا من "كَرمة" كأمر خليفة المهدي فقابلناه "بصَنَم" (مَروّى الآن)، ورأيته على حصانه في إستعراض أقامه لمقابلتنا ـ وهو يشبه في هيئته ابنه التجاني في الوقت الحاضر. ثم واصلنا سفرنا بالبر والبحر حتي وصلنا الأرْدِي[٣] (المعروفة باسم دُنقلا المركز) فوجدنا الأمير مصطفي ولد جبارة وضع الديم على شاطيء النيل بقرب المديرية القديمة. ولكن عندما وصل ولد النِّجُومي رفعه من محله الموجودة خرائبه إلى اليوم، والتي سكن بها بعض من العرب بعد ذلك، وأيضاً يوجد بها قبر الأمير محمد الخير، إذ توفي هناك (عام ١٨٨٨) عندما كان راجعاً حسب طلب الخليفة.

كالعادة سكن ولد النِّجُومي شمال الجامع بجماعته وسكن مَسَاعْد قِيدُوم جنوب الجامع بجماعته ثم أخذت سلطة مساعد تعلو وسلطة ولد النِّجُومي تنخفض تدريجياً. ولكن استمر ولد النِّجُومي قائداً فأرسل النُّور الكَنْزِيّ ومعه نحو ثلاثمائة من الأنصار لِصَرَص[٤] فجعلوا بها ديّما (٩ نوفمبر ١٨٨٦م)؛ وأرسل محمد أحمد هاشم إلى صَوَارْدَة[٥] وكنت من جماعته. فأقمنا بها نحو أربعة أشهر وكان غالب أكلنا التمر، أما الذرة فكانت لا تصرف إلا للمرضي.

---

(١) يقصد المؤلف أن جيشهم تقدم شمالاً إلى المنطقة على ضفة النيل التي تسكنها قبيلة الشايقيه المعروفة.

(٢) الأمير محمد الخير: هو محمد الخير عبد الله خوجلي أحد فقهاء الجعليين الذين درس المهدي على أيديهم بين عامي ١٨٦٤ ـ ١٨٦٧م في بربر، وعنده تبلورت شخصية المهدي الصوفية؛ وقد هاجر للمهدي في كردفان عام ١٨٨٤م وعندئذ عينه المهدي عاملاً على بربر ثم على دنقلا. ولكن الخليفة ما لبث أن عزله عنهما أثناء تقدم الحملة التي أعدت لغزو مصر (تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي، صفحة ٤٢).

(٣) الأردي : هي دُنقلا العُرْضيّ أو دنقلا الجديدة. وكلمة «أوردي» كلمة تركية تعني المعسكر أو الجيش، والاسم أطلق عليها لأنها كانت البقعة التي نزل فيها المماليك الذين فروا من محمد علي باشا في مصر عام ١٨١١م.

(٤) ، (٥) هذه أسماء قري شرق وغرب النيل في شمال السودان، حيث تقع صَرَص جنوب حلفا مباشرة، و صَوارْدَة جنوب صَرَص (انظر الخريطة ملحق رقم ١).

من الحوادث المضحكة إنّا أمرنا ابن عم لي اسمه البحاري ليدّعي المرض حتى نتمكن من صرف "مَلوَة" (مقياس للكيل) من الذرة باسمه لنخلط بها مديد (حساء) التمر الذي سئمناها. ولما صرفتَ لنا الذرة باسمه جئناه وأخبرناه، فادّعى علينا المرض لئلا يقوم بما يلزمه من الخدمة، فعدنا نحركه فلا يتحرك ولا يضحك كأنه ميت فلما طبخنا العَصَيدَة[1] وأحضرناها؛ نهض قائماً.

في صَوَارْدَة اتفقنا نحن تسعة أشخاص وتحالفنا على أن نذهب إلى حلفا لنفتحها أو ننال الشهادة. وكان كل زملائي راجلين إلا أنا كان لي حصان ولكني تركته في مراحه خوفا من أن يفتقدوه فيكشفوا خبرنا ويلحقوا بنا. ولكن فاتنا أنني كنت أقرأ الرَّاتِب صباحاً بعد الصلاة فلما غبت ظنوا أنني مريض، فلمّا لم يجدوني إنتبهوا لكشف خبري. كذلك جاءهم رجل من قرية تسمي "مَرْشَد" شمال صَرَص فأخبرهم بأنه رأى تسعة من الأنصار كلهم راجِلين جادين في السير، فأركبوا وراءنا خيلاً فيها صديقي الشيخ عبد الجليل الصادق وأرجعونا حزينين.

---

(١) العَصِيدَة والمَدِيد أو المَدِيدَة هي أنواع من الأكل في السودان يصنع بخلط دقيق الذرة أو التمر الجاف بالماء ثم يُغلي على النار.

بين صَرَص وصَوَارْدَة :

تَمّ في ذلك الحين تعيين عبد الحليم مساعد[1] قائداً عاماً لجيش صَوَارْدَة وصَرَص، فنقل ديم صَوَارْدَة إلى "فَرْكَة" ليكون وسطاً بين العُرْضيّ وصَرَص. وبعد ذلك أقمنا بفركة قليلاً إلى أن بلغ عبد الحليم أنَّ عرب القراريش "بأمْ بَكوْل" ينقلون أخبار الديم للتُّرُك بِحَلفَا، فعين سَرِيّة برئاسة ابن عمه عبد الله محمد شنكولة، وكنت أحد أفرادها لترحيل أولئك العرب. فسرنا بالشرق حتى قابلنا أمْ بَكوْل واختفينا وراء الجبال حتي الثلث الأخير من الليل. عند ذلك اقتحمنا البحر الذي لم نكن نعلم أنه واسع، ولولا هضبة في وسط النيل، ارتّحنا عليها، لكنا من المغرقين. ولا أنكر أني بعد ما كنت ماسكاً لجام حصاني أقوده صرت وراءه ممسكاً بمؤخرة السرج أحياناً، وأحياناً أرتكز على كفله. أما صباح الخير عبدي الشديد المانع فكان يعوم أمامه حتى خرجنا بالجزيرة متفرقين. فلو كان أهلها مستعدين لقتالنا لأكرهونا على إقتحام البحر راجعين، أو لاستأصلونا قتلاً فرادى ومثنى. ولكن الله سلّم، فصبّحناهم وأكثرهم نيام وما نبههم إلا صياحنا المزعج. فاستسلموا لنا وجمعنا الرجال في مكان خارج الحلَّة. ثم أمر العامل[2]

---

(١) عبدالحليم مساعد : من أوائل الأنصار الذين ناصروا المهدي واشتركوا معه في العمليات العسكرية الأولي في كُردُفان. من ذلك اشتراكه مع أبي قرجة والياس أم برير في قيادة الفرقة المرسلة لمناوشة حملة هِكس عند تحركها من الدوَيم إلى كردفان (أكتوبر١٨٨٣م). بعدها تولى قيادات مختلفة أثناء الوقائع التي تلت ذلك وخصوصاً خلال حصار الخرطوم. ينتمي لقبيلة الهَاشْمَاب المشهورة بأمدرمان، وهو جدّ (من جهة الوالد) للدكتور عبد الحليم محمد ـ الطبيب المشهور، وأيضاً لمحمد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان الأسبق. كما أنه كان من كبار قواد جيش ود النُّجُومي وصديقاً له، وقد استشهد معه في واقعة توشكى في ٣ أغسطس ١٨٨٩م، (القدال صفحة ١١١؛ تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي، صفحة ٤٤)، (انظر أيضا الحاشية صفحة ٨٥).

(٢) العامل: انظر ملحوظة ١ صفحة ٦٢ .

الجَهْدَيّة[١] بجمع البهائم بكل أنواعها. ثم اختار ممن يأمنهم منا ليصحب كل اثنين منا رجلاً إلى منزله ليُخْرِج أهله وأولاده مجردين مما يحمل من الأمتعة،ثم يعود بهم إلى المكان الذي جاءوا منه. جمعنا في ظرف أربع ساعات كل ما بحلتهم من الأمتعة والغلال والبهائم، وسلمت النساء ما عندهن من الحلي. كنت كاتب السَّريّة فكتبت لكل منهم ما سلمه من الأمتعة أو النقود أو الحلي تماماً. بعد ذلك رحّلناهم معنا حيث دلونا على خور صغير بغرب الجزيرة فخضناه، حتى الماعز خاضته، فأسفنا لتعبنا سحراً.

أوصلناهم فَرْكَة بالغرب فوجدنا الشيخ عبد الحليم قد أحضر المراكب لنقلهم عبر النيل، ثم طلب الكشف وسَلّم كل أحد ما قيد لاسمه وعين لهم مكاناً شمال ديمنا في «جبل جحا» غرب النيل، ثم فرض على رجالهم ملازمة الصلاة لكل الأوقات بالجامع، ومن تغيب اعتبر جاسوساً يقتل.

رأى عبد الحليم أن يختبر حالة ما وراء "عَقَبة البنات" و"جزيرة كلب"[٢] لأننا لم نكن قد وصلناها لحيلولة عقبة البنات بالبر، ولوجود "شلال دال" بالبحر. فعين الشيخ حاج على وأرسله ليحصّل العُشُور[٣] من النخيل وزرع السواقي، وعينني معه كاتباً. ولكنهم ماخضعوا لنا إلا بواسطة عمدتهم آدم سليمان، فحصرنا النخل شرقاً وغرباً حتي وصلنا جزيرة كلب. هناك وجدت الشيخ محمد صالح هلال العالم الأزهري الجليل فجعلت أكثر مجلسي معه.

---

(١) الجَهْدَيّة: أي الجِهَاديّة أو المجاهدون وهم فرقة من المحاربين في جيش المهدية. والأسم تركي الأصل يطلق على فرق في الجيش المصري التركي كانوا يختارونها من القبائل الزنجية ويدربونها على استعمال الأسلحة النارية؛ وأستمر نفس التقليد خلال المهدية فكوّن المهدي فرقة الجهادية لأول مرة من الأسرى الزنوج ممن أسروا في معارك قدير وشيكان قبل فتح الأبَيّض وكان أول قوادها حمدان أبو عنجة. اشتهروا بالشراسة والشدة لذا كان يستخدمهم العمال او المناديب أو غيرهم في جمع الضرائب أو في إدارة مناطقهم أحياناً (القدال، صفحة ١٠٩).

(٢) عَقَبة البنات : العَقَبة هي الأكمة والأكمة هي المكان المرتفع وهي هنا اسم لقرية. وجزيرة كلب هو أيضا اسم لجزيرة في تلك المنطقة.

(٣) العُشُور : ضريبة مقدارها العُشر من كمية أو قيمة البضاعة أو المحصول.

ووجدت عنده ضمن كتبه كتاب الحرِيفشيِّ(١) في التصوف، فأهداه إليّ. وللكتاب قصة ستأتي.

في أحد الأيام، طلب العامل الشيخ حاج علي من محمد صالح هلال أن يأتيه بمنزل العمدة، الذي يقع بجوار قبة عكاشة، وهناك قام بضربه بجريد النخل بعدما أرقده على الأرض، مع أنه كان يُجلّه. فلما سمعت صراخ الشيخ محمد صالح أسرعت إليه ووقفت عليه وهو راقد وجعلته بين رجليّ، فاستاء العامل مني وكلمني بغلظة وحدة وشممت منه رائحة "الدَّكاى" (مشروب ربما يُسكر). فأخذته جانباً وأسررت في أذنه : «أنك شارب داكياً فانتبه». فدخل بيته بادياً عليه الخجل. ولكن الأهالي لم يتركوا جلد الشيخ يضيع سدىً، بل تحركوا حركة تخشى عاقبتها، فكتبت إلى الشيخ عبد الحليم مساعد لأخبره بما حدث وأرسلت الكتاب مع عبدي صباح الخير. فكتب عبد الحليم طلباً للشيخ بالرجوع بمن معه، وأن يبقيني بعقبة البنات. كذلك أمر صباح الخير بأن ينتظر بفَرْكَة لحينما يعطيه الرد لي. لكنه نسي أن يكتبه لكثرة أعماله المتعددة المتنوعة. فلما وجدت نفسي وحدي وحال الأهالي مضطرب، رحلت إلى داخل سور من الحجر على ربوة شرق قبة عكاشة، وليس معي غير

---

(١) الحرِيفشي : هو أبو مدين شعيب الحريفشي الذي عاش في القرن الرابع عشر وتوفى في سنة ١٣٩٨م، وقد ألف كتاباً في الصوفية أعيدت طباعته خلال القرن التاسع عشر في مصر عدة مرات. ويبدو أنه كان من الكتب الرائجة بين المتعلمين والمثقفين دينياً من السودانيين في القرن التاسع عشر. (تاريخ حياة بابكر بدري. النص الإنجليزي. صفحة ٤٥).

حصاني. وكان يأتيني العمدة بما أحتاجه لي ولحصاني مدة واحد وعشرون يوماً، حتى وصلني عبد الله شنكولة بدل الشيخ حاج علي، فاطمأن البلد وشرع يحبنا ويحسن ظنه بنا حتي صرنا كأننا منهم*.

---

* حاشية للمحقق : لايخفى على القارئ أن جيش ود النِّجُومِي قد تحرك في الأصل للمتمة (١٨٨٥م) لطرد الجيش الإنجليزي الذي جاء لإنقاذ غُردون ولكن الاستراتيجية تغيرت بعد أن قرر قواد ذلك الجيش الانسحاب لموت غُردون وسقوط الخرطوم، فصدر الأمر إلى ود النِّجُومي بمتابعة انسحابه، وبعد ذلك تغيرت الأوامر له مرة أخرى فأمر بالاستمرار شمالاً لغزو مصر.

ومن ناحية أخرى فإن الجيش الإنجليزي المصري المنسحب لم يكن يود أن يُظهر إنسحابه إلا في أحسن الصور خصوصاً وهو قد فشل في هدفه الرئيسي، لذا شرع القواد الإنجليز يواقعون سرية ود النِّجُومي في معارك صغيرة متعددة تعيد لهم من جانب بعض الكرامة التي أهدروها، ومن جانب آخر يؤخروا تقدم ود النِّجُومي حتى يتمكنوا أثناء إنسحابهم من إخلاء بعض القوات الموجودة في شمال السودان منذ زمن الحكومة التركية المصرية السابقة.

كذلك فإن بعض قبائل تلك المناطق من السودان لم تكن قد اعتادت بعد على انتصار المهدية الأمر الذي اضطر جيش ود النِّجُومي لاتخاذ إجراءات عسكرية في بلاد الشايقية أو في صَرَص وفَركَة وصَوَارْدَة لفرض الهيبة والولاء للنظام السياسي الجديد، أو لتحصيل الضرائب أو لتموين الجيش منهم.

لكل هذه الأسباب كان جيش ود النِّجُومي يخوض تلك المعارك التي يذكرها بابكر بدري، وإحداها كانت معركة صرص التي قتل فيها النُّور الكَنْزِيّ في ٢٨ أبريل ١٨٨٧م. أو انها استدعت من النِّجُومي إحداث تغيرات في جيشه مثل تعيين عبد الحليم مساعد (في أوائل ١٨٨٧م) لقيادة الجيش في كل من صواردة وصرص.

«الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم ...»:

بعد رجوعنا إلى فَرْكَة، ذهبت للعُرُضيّ ولا أذكر السبب لذهابي لها، ثم عدت، ولكنني أذكر أنه في إحدى الليالي ضُرِبَ النِّحَاس[1]، فاجتمع الناس فرساناً ورجالاً في ميدان الجامع ينتظرون خروج ولد النِّجُومي من بيته، فإذا هو الذي ضرب النِّحَاس وإذا هو قائم على ظهر غرفة النِّحَاس. فبدأ حديثه بأعلى صوته: «قال الله تعالى: ﴿**الذين قال لهم الناس إن الناس قد جَمعوا لكم فاخْشَوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله. والله ذو فضل عظيم. إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافوني إن كنتم مؤمنين**﴾» (الآيات ١٧٣ ـ ١٧٥ سورة آل عمران). ألقاها بصوت، ليت القارئ كان معنا فسمع صوته ليعلم كيف يكون الإلقاء المقرون بالشجاعة في وقت الخوف، والطمأنينة في وقت المحنة. ثم قال: «جاءت البوستة الآن (٢٨ أبريل ١٨٨٧م) من عبد الحليم مساعد يخبرنا باستشهاد النُّور الكَنْزِيّ ومن معه بصرص جميعهم، ولم ينج منهم إلا حسن ود القُوْز مجروحاً ومقطوعة أصابع يده اليسرى ومجروحاً في وجهه، والآن أريد تعيين جيش ممن يتبرعون بأرواحهم ويكون أميرهم منهم ليذهبوا إلى صرص فيدفنوا الشهداء، ويوغلوا بعد صَرَص لمسافة بعيدة يضعون فيها علامة تدل العدو على وصولهم ذلك المكان ويرجعون إلى فركة حتى يأتيهم أمرنا».

كنت من بين هؤلاء وأمر علينا ولد النِّجُومي محمد عبد الماجد (صاحب قتل ابن عمه محمد الفحل ـ المذكور صفحة ٧٩). ولكنا لما وصلنا فَرْكَة عين عبد الحليم ابن عمه محمد هاشم أميراً مقيماً بصرص، وزيد جيش فركة من العُرُضيّ. وصلنا "سمنة" وعندما كنا بشرق النيل، رأينا جمالاً ترعى بالغرب وحمولها ملقاة، فعين محمد أحمد هاشم عمي محمد أحمد شكاك وأرسلني معه ككاتب له. فلما وصلنا الأحمال وجدناها بضائع ـ سكر، وأقمشة، ودقيق ـ

---

(١) النّحاس: هو طبل يصنع من النحاس عليه جلد، وأقترن هذا النوع من الطبل في التراث السوداني بأنه يقرع في المناسبات الكبرى لتنبيه الناس أو دعوتهم للتجمع.

فأخذنا عُشرها، وأخذنا أصحابها إلى الشرق، فأعطاهم محمد أحمد هاشم وصولات لئلا يأخذوا منهم عُشراً في مكان آخر، وكان هذا نواة بيت مال صَرَص الذي عينت أميناً له. لما وصلنا صرص دَفَنّا الشهداء، ثم توجهت كأمر الأمير مع من توجهوا لوضع العلامات، وهي أعلام صغيرة مكتوب عليها (لا إله إلا الله محمد رسول الله ومحمد المهدي خليفة رسول الله)، وضعناها بين "جِمَيْ" و "عَمْكَة"(١).

كان محمد أحمد هاشم دقيق المعاملة، لايؤثر أحدا على أحد حتى نفسه. وبما أنه لم تكن معنا عائلات كنا نأكل بَلِيلة(٢) الذرة مخلوطة بالتمر؛ وبعد مدة جاءنا قليل من الذرة، فجعله الأمير في غرفة أمسك مفتاحها بنفسه، وصار يصرف لكل شخص قدحين في الأسبوع. فطلب منه الأمراء الذين معه أن يخصهم بشيء فرفض ذلك بتاتاً. عندها قلت المثل الذي شاع «صَرَص جوعها قَرَص وأميرها حَرَص لا يؤثر فارساً ولا فرس». وحينما طال علينا أكل البليلة بحثنا في الجبل فوجدنا حجراً، يصير بإصلاح قليل "مُرْحَاكة"(٣) فأصلحناه وصرنا نطهي بالنوبتجية(٤)، الطحن على أحدنا والخبز على غيره والطبخ على ثالث والملح كان من تراب مالح. كان عليّ الطبخ يوماً فطبخت مُلاَح (أى إدام) لوبيا فوضعت الملح فيه دون أن أحلِه في الماء وأصفّيه فصار طيناً فضحكوا عليّ، وبما أنني ماهر في الطحن والخبز إقتصرت عليهما بعد ذلك.

في فَرْكَة عزمت على الزواج(٥) فاستأذنت الأمير، فسمح لي بعد عناء، وسلم بيت المال لمحمد حمودي الحَضَريّ الذي كان تاجراً. فبنيت بيتاً لعرسي وجعلته مكعباً طوله وعرضه وارتفاعه لايزيد عن مترين ونصف إلا قليلا، أعني

---

(١) جِمَيْ، وعَمكَة: قرى في شمال السودان.

(٢) بَلِيلَة : هي الغلال كالذرة أو غيرها التي تغلي في الماء لتؤكل دون طبخ.

(٣) مُرْحَاكَة : أداة من حجرين يستعملها السودانيون لطحن الذرة، والكلمة من أصل الكلمة العربية الفصحى مِرْهَكَة أسم آلة من رَهَك أي سحق بين حجرين (قاسم، صفحة ٤٤١)

(٤) النوبتجية : أي العمل بالتناوب.

(٥) كان هذا زواج المؤلف للبقيع بنت عثمان الذي تم في حوالي يونيو١٨٨٧م.

كل منها أربعة أذرع. مكثت بعد ذلك نحو شهرين ثم علمت أن أخي سعيداً حضر بالعُرْضي[1] ومعه والدي وزوجته وأولاده، وسعيد سيرجع إلى كَرْكُوْج بمأمورية، فتوجهت إلى الأردي[2] لأحضر والدي إلى فركة. وعند وصولي الأردي طلبت من إلياس أحمد الزين ـ أمين بيت مال ولد النِّجُومي ـ أمراً لكل العمال بالطريق ليساعدونا بالزوامل والزاد، فاستلمت منه الأمر وقمنا. عندما وصلنا بلدة بالمحس غرب دلقو نزلنا بالنخل قرب منزل تاجر يدعى فضل شنبو، فدخل عليه عبدي صباح الخير في منزله ليأخذ منه تمراً يسكت به طفلين كانا معنا، فغضب فضل وصار يسب. عندها دخل عليه والدي فرأى سور منزله الواسع محاطاً كله بالسُوّيبَات[3] الملأى بالذرة والقمح وأنواع التمر والقطاني[4]. فقال له: «أنت يا فضل غضبت من دخول العبد وأخذه ثمرات لإسكات طفلين ولكن حينما يصلكم ولد النِّجُومي بجيشه سينهبون كل ما تملكه». فقال فضل: «والله ما يقدروا يعملوا لي شيئاً مما تقول لأني أقفل بابي وأمسك بندقيتي». فقال له والدي: «هم لا يأتونك من الباب وإنما يكسرون السور عدة كسور يدخلون بها، وحينما يرونك يُكَتّفون يديك ويدخلون ركبتيك بينهما، ويضعون عصا في داخل ركبتيك ويلزّونك (أي يدفعونك) ما تشاء، ثم يأتون دُفَعاً (أي جماعات) حتى آخر دفعة، حيث يأخذون التراب الذي يكون مخلوطاً بشيء مما بقي من الغلال وأنت ملقى لا تفعل شيئا حتي يحلّك أهلك بعد ذهاب الجيش»، فأنكر ذلك. وعندما وصل جيش ود النِّجُومي حدث له ما صوره له والدي تماماً، ولما جاء أهله وحلّوا وثاقه قال لهم: «أنا كان جاءني نبي الله الخضر وأخبرني بكل ما حدث ولكني ما سمعت نصحه، ولو فعلت لكنت دفنت محصولاتي في الأرض بعيداً عن بيتي».

سرنا من عنده وكلما جئنا بلدة بها عمدة طالبناه بتنفيذ أمر بيت المال فكان الكثير منهم يعصون، ولولا قوة صباح الخير لتعبنا مع أغلبهم. وصلنا بلدة

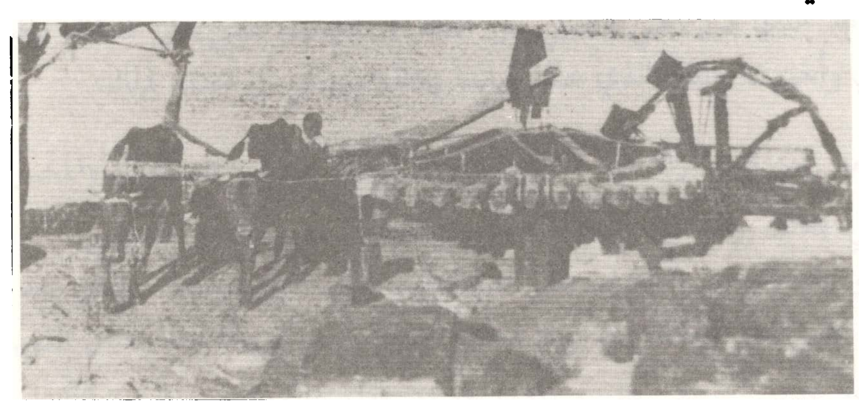
---

(١)، (٢) العُرْضيّ والأردي كلاهما تعني دُنقُلا (انظر ملحوظة ٣ صفحة ٨٠).

(٣) السُوّيبات : مفردها سُوّيبة، وهي إناء فخاري لحفظ الحبوب أو البقول (قاسم، صفحة ٥٧٤).

(٤) القطاني : البقول

"قرقور" ووجدت حمارة ترعى في مربط قرب نَقُّر[١] ساقية وكان والدي ومن معه قد تقدموني حتى وصلوا الحِلَّة ونزلوا في بيت الشيخ. فركبت الحمارة لألحقهم، ولكن جاءني رجل طويل ومتين أنزلني منها، ولما عارضته فيها؛ صفعني فوقعت مغشياً عليّ. وعند تأخري رجع صباح الخير يتعرف خبرى فوجدني ملقى على الأرض. عندما أفقت سألني فأخبرته بما صنع الرجل بي وقلت له: «هنا دربه (أثره)»، فتبعناه حتى وصلناه بساقيتة والحمارة ترعى بجانبه فأخذناها. ولما انتبه الرجل لحقنا عند المكان الذي ضربني فيه وأمسك بحمارته فصفعه صباح الخير صفعة ألقاه بها على الأرض وكتّف يديه إلى ظهره، وساقه معنا بعد أن أركبني الحمارة. عند وصولنا المنزل زاد القيد على الرجل وأدخل فيه عصا وألقاه في الشمس.



الساقية وهي أداة تديرها ثيران تستعمل لسقى الزراعة على شواطئ النيل في السودان الشمالى

هناك سألنا عن أحمد عبدالوهاب الرُّباطابي* وهو عامل الجهة، فقيل لنا: «إنه بالشرق لتَشْهيل[٢] سَريّة من أهل الغرب». نزلنا في منزل إحدي زوجاته، وعندما حضر وجد والد زوجته مكتوفاً وعلم منه أن من كتفوه

---

(١) النَقُّر: هو المجرى الذي يحفر لتوصيل الماء من النيل لمكان الساقية.

* حاشية للمحقق: كما يظهر هنا وفي غير هذا الموقع من الكتاب أن الترابط القبلي كان سمة تحدد العلاقات بين الناس في سودان القرن التاسع عشر. لذا فإن المؤلف كان كثيراً ما يبحث عن أبناء قبيلة الرُّباطاب أو يقيم عندهم دون سواهم في المناطق التي يزورها أو يمرّ بها.

(٢) تشهيل: تجهيز الإمدادات واللوازم من أكل وغيره للجنود.

موجودون داخل بيته. دخل علينا وبعد أن رحّب بنا، أخبرنا أن الرجل المكتوف هو نسيبه (والد زوجته)، فحللناه واعتذر كل منا لصاحبه بعدم المعرفة. بتنا الليلة عندهم وفي الصباح بارحناهم على رواحلهم حتى وصلنا فَرْكَة، ومنها رحلنا بعوائلنا إلى صرص وانتظرنا هناك حتى جاءنا ولد النِّجُومي*.

* حاشية للمحقق: كان النِّجُومي (كعادة القواد) يرسل مقدمة جيشه أولاً إلى المناطق المتقدمة شمالاً بقيادة أحد قواده، ثم يتبعهم بالباقي على دفعات وأخيراً يلحقهم بنفسه بعد أن ينهي كل العمليات المتعلقة بتحريك جيشه.

أوغلنا في أرض الحجر والتحمنا مع التُّرُك:

في صرص رأى عمي علي شكاك أن ننفصل عن راية مكين النور، وعن راية علي حمد السِّيد الرُّباطابي ونتبع راية عبد الحليم مساعد، وفعلاً تبعناه وكان ذلك لأسباب اقتصادية، وفيما بعد صار عمي علي شكاك وكيلا للراية وصرت أنا كاتباً نائباً للشُّونة[١]؛ وأمين الشُّونة يدعي فرح الصاحب محمد والباشكاتب كان بابكر كرم الله عبده. وصرت نسبة لكثرة عائلتي، وقلة الغلال، أختلس كل يوم غلالاً مع من آمنهم حتى جمعت أكثر من أَرْدَب[٢] وجعلته في عدلتين تماريتين[٣] وضعتهما بغرفتي الخاصة بي وزوجتي البقيع بنت عثمان. لكن بعد قليل إشتبه أمين الشونة في أمري واخبر الأمير عبد الحليم مساعد الذي قرر رفتي (فصلي عن العمل). إتهمت عمي علي شكاك بافشاء سري وأخبرت والدي الذي حكم قياساً بخلقه ونهاني أن أعتقد ذلك.

بعد زمن قليل أراد عبد الحليم مساعد إرسال مراكب للسَّكُّوت والمَحَس[٤] لتأتي بغلال وتمر لنا وعلف للخيل، فكتبت اسمي ضمن مَنْدُوبيّ[٥] هذه المأمورية، وعرض الكشف على عبدالحليم الذي أقره مبدئياً. ولكن بعد أن قابله عمي علي شكاك بعد يوم شطب اسمي واسم قريبنا عطا المنان القويضي - وهو عَديل[٦] عمي علي وبينهما خصام. فقام عطا المنان بمعارضة ذلك، وقال للأمير: «أنت ظالم؛ لأنك تسمح لابن أخيك هاشم سنويا أن يَمُرّ على القسمين فيرجع غنياً». أما أنا فلم أتكلم، ولكني أقنعت والدي أن عمي علي هو الذي سعى في هذا التأخير.

---

(١) الشُّونة : مخزن الغلال

(٢) أردب : مكيال للحبوب والغلال يساوي ٢٤ صاعا أو جَوَّالَيْن ويبلغ وزنه ٣٠٠ رطل.

(٣) عدلتين: مفردها عِدْلَة وهي نوع من الجوالات (أنظر ملحوظة ٣ صفحة ٢٠٣) تماريتين : أي تستعمل لحفظ التمر.

(٤) السَّكُّوت والمَحَس : قبيلتان من قبائل النوبة ولهما لغتان غير عربية، تسكنان منطقتين في شمال السودان ويشار لمنطقتيهما باسميهما.

(٥) المَندُوب هو الموظف في المهدية الذى يساعد العامل في جمع الضرائب.

(٦) عَديل : الرجل الذي يتزوج أخت زوجة الآخر.

قبل قيام المراكب توجه عبد الحليم إلى غرفة الهجرة فدخلت معه فيها وصارحته قائلا :«يا عمي عبد الحليم نحن ماخرجنا من راية مكين ولد النور، وفارقنا أهلنا الرُّباطاب الذين بقوا بها إلى الآن؛ إلا لننال منك بعض الراحة في عيشتنا لقدرتك؛ لأنك تعلم أن الدين واحد في كلا الرايتين. وأنت يا عم عبد الحليم رفتّني من الشُّونة والآن شطبت اسمي بعد ماصدقت به مبدئياً، وهذا العمل يشين بسمعتي، زيادة على تضييق عيشي، مع علمك بكثرة من أعولهم. فإذا كنت مصمماً على هذه المعاملة لي، فإني أنصحك بأني وكل من في مَقْدُومِيّة[1] علي شكاك ينفصلون معي حتى شقيقه محمد أحمد شكاك، وأسأله إن شئت». فأرسل لعمي علي وسأله أمامي عن صحة قولي. فقال له عمي علي شكاك: «والده (أي والدي) موجود معنا وهو كبيرنا، فإذا أمرني بأن انفصل منك لا يمكنني أن أخالفه». وخرج عمي علي شكاك فقال لي عبد الحليم: «أنت تسافر في المراكب». قلت: «والآن عائلتي عريانة فاكتب لي من بيت المال كسوة ». فقال لي: «أكتب ورقة من كل نوع قطعة واحدة». فكتبت عشرة أنواع والعادة يكون الأمر بالصرف هكذا: (المحترم أمين بيت مال صرص - أصرف الأشياء الموضحة أعلاه لفلان إزالة ضرر). وعرضت له الورقة فمضاها بخطه وأخذتها وحفظتها إلى آخر يوم تسافر فيه المراكب ليلاً، لتصبح في شلال سمنة صباحاً، ولكني جعلت يمين كل عدد صفراً ومشيت عند الغروب إلى محمد حمودي ببيت المال ومعي صباح الخير، وطلبت منه صرف الإذن. فقال لي: «أنا ماشي للجامع تعال غدا». فقلت له: «لا يمكن أن تتحرك قبل أن تصرف لي». فلما رأى صباح الخير معي وهو وحده، رجع وصار يرمي لنا كل نوع حتى يكمل العدد فيرمي لنا غيره حتي أتممنا الصرف. بعد ذلك ربطت من كل نوع تسعة وسفّرت بها أخي موسى إلى العُرضي لبيعها. فاشترى من ثمنها ناقة حملها غلالاً وجاء بباقي النقود فجعلها رأس مال دخل بها السوق جزاراً مرة، وتاجر فاتورة [2] مرة، أو غلال وهكذا. أما أنا فسافرت سحرا مع جماعتي في مهمتنا للمحس.

---

(١) مَقْدُومِيّة : فرقة صغيرة في الجيش.
(٢) فاتورة : أقمشة.

كان عامل "دَلْقو" محمد الحاج الخضر قيلي من "حيَران"[1] شيخنا الفقيه أحمد الكراس ومن سكان رفاعة، فلما رآني، رحب بي ترحيبا حاراً، وعاملني معاملة جعلتني عنده واسطة خير لمن جاءوا معي. فأعطاني أردّبي غلال وثلاثة أرادب تمراً وأرسلني في المركب التي تصعد شلال "كاجبار" حيث المندوب بها الصّافي ود حاج عبد الله، الذي هو في قيد الحياة بمُشْرَع أبي روف[2] فأعطاني بدوره أردباً تمراً ومائة كُلّيْقَة[3] قصب لحصاني. وعند عودتنا إلى دلقو جعل الجماعة يكلفونني أن أتوسط لهم عند محمد الحاج الخضر، وكان هو يسألني: «أعطه كم ريالا». فأقول: «ريالين.. ثلاثة». فيعطيه. وبعد مرتين قال لي: «سَجَمْ أمّك[4] !». فعلمت أنه يعطيهم مما قرره لي فأمسكت عن الوساطة. بعدها وجدت أن ما بقي لي عنده واحد وعشرون ريالاً من ثلاثين ريالاً كان قررها لي هدية، فأخذت عند رجوعي كل ما أعطيت*.

عند وصولنا بالمراكب من هذه المأمورية حاول عبد الحليم أن يجردنا مما معنا، ولكنا وسّطنا له الشيخ العاقب ـ قاضي السَّرية ـ وقلنا له: «إننا هددنا عبد الحليم بأنا نشتكيه عندك». فنصحه القاضي بقوله: «إنهم إذا اشتكوا لي أحكم لهم ضدك»، فتركنا عبد الحليم وشكرني إخواني على رأيي. ولكن

---

(١) حيرَان : تلاميذ (انظر ملحوظة ١ صفحة ٢٤).

(٢) مُشْرَع : مرفأ، والمؤلف هنا يشير إلى مرفأ المراكب على النيل في حي ابي روف بأمدرمان. والمقصود هو أن الصافي كان على قيد الحياة ويعيش بأمدرمان وقت كتابة المؤلف لهذا الكتاب ـ أي في الأربعينيات من هذا القرن.

(٣) كُلّيْقَة : حزمَة، أو ربطة من القصب.

(٤) سَجَمْ : الرماد أو السَكَنْ المتبقي من الفحم، والعبارة تعني لا خير في أمك في إنجابها لك، (قاسم، صفحة ٥٢٥).

* حاشية المحقق : لابد أن موقف التجهيز والآمدادات للجيش قد تضعضع إلى حد بعيد بعد تقدمه من بربر شمالاً منذ حوالى آخر عام ١٨٨٦م. فكان جنود جيش الأنصار ـ كما يصفهم بابكر بدري ـ يعانون من الجوع والضيق في العيش الأمر الذي أثر كثيراً على روحهم المعنوية وإنعكس سلباً على إنضباطهم الخلقي. وهذا يوضحه التغير في سلوك المؤلف نفسه حيث ذكر أنه رفض باكياً تكليف ود النِّجُومي له بالاشتراك مع جماعات تحصيل الضرائب من قبائل المناصير عام ١٨٨٦م (انظر صفحة ٧٩)، ولكنه اضطر كغيره للاختلاس من بيت المال في صرص في أوائل عام ١٨٨٨م، ثم لجأ إلى الضغط على =

محمد حمودي كان قد شكاني بعد سفرنا بالمراكب لعبد الحليم بأني ضايقته وهددته بعبدي صباح الخير، وأخبره بالأعداد التي إستلمتها منه. فطلبني عبد الحليم وقال لي: «أنت صلّحت الورقة ؟». قلت له: «أنت حينما صدقتها كنت محموماً، وهل مثل عائلتي يكفيها عشرة قطع ؟». وكان القاضي حاضراً وهو رُبَاطابي ويعرف أفراد عائلتنا بالأسماء والذوات. فقال لعبد الحليم: «لايمكن أن تكسو عائلتهم بأقل مما استلم»، وانتهت المسألة.

بعد قليل اشتد الجوع وحصروا أعداد العائلات بدقة فاحتجت إلى عدّلي التمر اللذين اختلستهما حينما كنت بالشُّونة فوجدتهما فارغين. فعلمت أن من أخذهما لا يردهما، ولا أستطيع أن أتهمه ثم أعتذر إليه لأني لا يمكن أن أستغني عنه[١]. في هذا الوقت بلغ الربع المصري[٢] من الغلال أربعة ريالات مجيدي[٣]، ورغماً عن ذلك رأيت بعيني الشريف سليمان العبيد يخرج كل جمعة جوالاً من الغلال، يقسّمه على الناس في الشارع خارج بيته عدة جمع

= القائد عبد الحليم مساعد (صفحة ٩١ ـ ٩٢) لضمه للجماعة التي سترسل جنوباً إلى مناطق السكوت والمحس لإحضار الغلال والتمر للجيش. وكان غرضه هذه المرة أن يجمع خلال ذلك شيئاً منها لنفسه ولأسرته كما أوضحه هو نفسه.

ويؤيد شقير (صفحة ٧٧٤) ما ذكره المؤلف حيث قال: «إن الزاد الذي أتوا به من دنقلا نفد (يقصد الجيش الذي يعسكر في صرص)، ولم يكن في بلاد صرص إلا الحجارة وبعض أشجار النخيل فقطعوا تلك الأشجار وأكلوا جوفها وبعثوا في طلب الزاد من دنقلا فأبطأ عليهم».

وازداد الضيق على الجيش أكثر وأكثر ـ كما سيرد ـ حتى طلب بعض أفراده الإحسان من المحسنين كما يذكره المؤلف هنا، بل إن الضيق والمجاعة أخذت صورة قاسية وشاملة لكل أنحاء السودان عرفت «بمجاعة سنة ستة»، وذلك لأنها حدثت سنة ١٣٠٦هـ (١٨٨٩م). ويرجع سببها لعدة عوامل منها عدم سقوط الأمطار في خريف عام ١٨٨٩م؛ ثم ظهور الجراد الذي أكل ما كان مزروعاً؛ وأخيراً تحريك القبائل لهذه الحرب ولحماية الحكم (كما فعل الخليفة مع قبيلة التعايشة)، وكل هذا أوجد ندرة في المحاصيل.

(١) المقصود هنا زوجة المؤلف البقيع بنت عثمان، وهذا أكده المترجمان يوسف بدري وجورج اسكوت، (تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي، صفحة ٥٤).

(٢) الربع المصري: مقياس لكيل الحبوب كان يستعمل في السودان مقداره حوالى اثنى عشر ونصف رطل.

(٣) الريال المجيدي: هو العملة التي استعملت في السودان خلال الحكم التركي ولفترة في المهدية، وتنسب للسلطان التركي عبد المجيد (١٨٣٩ ـ ١٨٦١)، (تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي، صفحة ١٥٧؛ تاريخ الخرطوم، صفحة ٥٦).

متوالية. ولم أر عليه ازدحاماً من الناس غير إعتيادي مما يؤذي بعضهم بعضاً؛ فجعلت أتعجب من كرمه وقناعتهم البادية في نظامهم.

لتخفيف هذه الضائقة علينا شرع موسى أخي وصباح الخير يأخذان الحمارة والناقة ويتوجهان لجلب رطب التمر لنا. كما كانا كلما سمعا بأن الأهالى يريدون صيد السمك في بعض التُرع يذهبان معهم فيأتيان بسمك كثير نأكل من طريه، ونقدد الباقي لحفظه.

واقعة الجُمّيزة :

خرجت في أحد الأيام سّرِيّة برئاسة عبد الحفيظ شَمّت[١]، لغزو طابية خور موسى باشا وبعد دخولهم القَيْقَر جاء لجيش التُّرك مدد من "عَنكَش" فأخرجوا الأنصار بعد أن قتلوا أكثرهم. وقد رأيت عبد الحفيظ وبه أربعة عشر جرحًا "بالسِّنَج"[٢] وكانوا يداوون جروحه بالسمن المغلي وهو يستأنس مع عُوّاده[٣] كأن السمن المحمي يضعونه على جسم غيره .

لم يسكت عبد الحليم على هذه الحادثة وندب سريّة أخرى برئاسة حسين ولد جبارة ببعض الناس ليكونوا قاعدة يُرجَع إليهم، وإنتدب عثمان أزرق[٤] غازياً. فتحركنا، ولما قربنا من خور موسى باشا، قال قائل منّا: «الأحسن نقلب قضيب السكة الحديد لنحتاط إذا فشلنا لئلا يقطع العدو علينا خط الرجعة». فأخذنا نمسك "الفَلَنك"[٥] فلا نستطيع تحريكه لاتصاله ببعضه وربطه بالقضيب، فلما تعبنا قال لنا عبد الرحيم أحمد الرُّباطابي: «أنا كنت دفنت مفتاحاً يفتح

---

(١) عبد الحفيظ شمت كان من القادة في جيش ود النّجُومي تحت إمرة عبد الحليم مساعد. وكان الأخير كثيراً ما يكلفه بالخروج في حملات للإغارة على معسكرات الجيش المصري على الحدود، أو قُرى جنوب مصر. والغرض كان إما جمع أسلاب لتغذية جيش الأنصار أو لكسب حربي. ومن أبرز هذه المعارك كانت واقعة طابية خور موسى (باشا) في ٢٩ أغسطس ١٨٨٨، التي جرح فيها؛ وواقعة سري في ٩ مايو ١٨٨٩ (شقير، صفحة ٧٧٤ ـ ٧٧٦).

(٢) السّنَج : جمع سَنْجَة وهي النصل أو الرمح الذي يربط في مقدمة البندقية.

(٣) عُوّاده : أي الأشخاص الذين يزورونه أو يعاودونه أثناء مرضه.

(٤) عثمان أزرق (١٨٤٥ ـ ١٨٩٨) هو عثمان محمد عيسى من أصل دنقلاوي ولد في مدينة الأبْيَض وعمل أول الأمر هجاناً في البريد خلال الحكم المصري التركي، ثم انضم للمهدي في قدير تاركاً وظيفته مع الحكومة. برزت صفاته القيادية عندما كان ضمن القواد في جيش ود النّجُومي في شمال السودان. فقاد حوالى مائة غارة داخل الحدود المصرية، ومثلها داخل السودان. منها مثلاً ملاحقته وقبضه على قافلة السلاح المرسل من مصر لناظر الكبابيش لدعمه في معارضته لحكم الخليفة عبد الله. أيضاً أغار على طابية «خور موسى» وقاد حملة على آبار «المُرات» للنيل من العبابده في ١٢ نوفمبر ١٨٩٣. كما كان العامل على صَواردة عام ١٨٩١. وفي بداية الغزو تراجع أمام جيش كتِشْنَر وانضم لجيش محمود ود أحمد واشترك معه في واقعة النخيلَة ضد جيش الغزو. أخيراً قاد فصيلة من جيش الملازمية في واقعة كَرَري في ٢ سبتمبر ١٨٩٨وإستشهد فيها (زلفو. صفحة ٢٦٧ ـ ٢٧٠؛ شقير، صفحة ٨٥١ ـ ٨٥٢، ٩٣٦).

(٥) الفَلَنك : قطع الخشب التي يربط عليها قضيب القطار.

القضيب[١] عن بعضه، فليمش معي خمسة من الفرسان يقفون خلفي لعلي أجده». فمشيت ضمن هذا الحرس، وبعد دقائق رجع لنا عبد الرحيم وبيده المفتاح؛ ففصلنا به قضيبين عن بعضهما، وصرنا نقلب القضيب بسهولة حتى قلبنا نحو ميلين أو أكثر. ثم نزلنا خور موسى باشا، حيث صلينا الصبح أول الفجر، وقرأنا الراتب الصغير، ومشينا حتى طلعت علينا الشمس. وكنا كلما مرت قنبلة فوق رؤوسنا نجري وراءها ونقول «سَلّمِي . . سَلّمِي»، وبعد وقوعها على الأرض يغوص بعضها فنخرجه من الأرض ، ونفك مساميرها بواسطة من يتقنون فكّها منّا، ثم نفرِّغ بارودها ونحفظه؛ ولكنه لم يكن ينفع. بعد ساعة على وقوفنا صفوفاً والخيل ترقص لمسافة وترجع للصف كأننا في عرضة الجمعة، رأينا حركة غير اعتيادية في ناحية "عَنْكَش" فتأكدنا أنه استعداد جيش التُّرُك للخروج علينا فكررنا راجعين. لكننا رجعنا بغير طريق البحر، فُندِبت منّا خيل - كنت من ضمنها - لتسير على طريق البحر الذي جئنا به لربما نجد مريضاً أو فترانًا[٢]، أو خائناً يريد الدخول إلى قيقر التُّرُك، وكان قد صحب جيشنا ليتوصل به لغرضه.

بعدما تعدينا ما قلبناه من السكة الحديد جنوباً، اطمأنينا ووجدنا نخلة بها رطب، ومُشْرعاً سهلاً لسقي الخيل فنزلناه، وطلع صباح الخير النخلة يرمي لنا الرطب ونحن نأكل مطمئنين. أثناء جلوسنا رأيت ذيل حصان أبيض في ثنية جبل فقلت لصباح الخير: «انظر شرقاً ماذا تري ؟». فصاح: «إخوانكم معكم» (وهي جملة مصطلح عليها تنبىء بوصول العدو) فألجمنا خيلنا وركبنا. لما

---

(١) لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يقوم فيها جيش الأنصار بتخريب خط السكة الحديد الذي أقامه الخديوي إسماعيل عام ١٨٧٧م بطول ٥٠ ميلاً من حلفا جنوباً لربط مصر بالسودان. فقد خربه الأمير محمد الخير بين عَكَشَه (عكاشه) وصرص سنة ١٨٨٥م عند إنسحاب الجيش الذي أتى لإنقاذ غردون. ثم خربه النور الكنزي في نوفمبر ١٨٨٦م بين صرص وعبكة عندما كان النور على رأس المقدمة في جيش النِّجُومي المتجه لغزو مصر (شقير، صفحة ٧٧٢). لذا فان حفظ مفتاح القضيب ربما تم في إحدي تلك المرات.

(٢) فتران: تعب جسمه وأصابه الوهن.

تقدمنا قليلاً رأينا السواري والهجانة[١] قريبين منا فالتفتنا إليهم وكررنا عليهم ونحن قليلون فهربوا منا وطلعوا الجبال. طلعنا وراءهم، فأصيب حصان أحدنا ويدعى أبا يزيد إدريس من إخواننا الدّناقلة؛ كسرت رجل حصانه فرفعها وجرى نحو خيل العدو. فأخذ أبو يزيد خمسة من جمال العدو كانت باركة في سفح الجبل وأصحابها بعيدون عنها يحاربوننا. ولما وصلنا سهلاً بين الجبال ضربت أحداً بِحَرْبَتي الكبيرة فانثنى سنانها فرميت بها، كما أن ثوب غطائي وقع على الأرض أثناء المقاتلة مع العدو فرأيت مكانه بقرب الحربة، واشتغلت عنهما بما هو أهم منهما. كنت قبل طلوعنا الجبل طعنت عسكرياً مصرياً، فوقع على جسر السكة الحديد، فلما طلعنا الجبل معهم صار العدو ـ وهو أضعافنا ـ إذا هجمنا عليه يتقهقر وإذا تركناه يقدم علينا؛ ومازال كذلك حتى سمع جيشنا الذي سار بغير الشاطىء صوت السلاح فقدم إلينا. في هذا الكر والفر قتلنا بكباشياً إنجليزياً وأخذنا جمالاً منهم ومازالوا يدرجوننا حتي أوصلونا البيادة[٢] عند رأس السكة الحديد المقطوع فوجدناهم مصطفين. فلما رأونا ورأيناهم قال أحمد أبو سِّن أمير اللّحويين[٣] لعثمان أزرق الأمير العام: «الأحسن أن نقف وراء هذا الجبل ونترك العدو يقدم علينا فنهجم عليه في السهل، فلا نمكِّنه يؤذي الخيل والناس». رد عبد الحفيظ شمّت: «الخيل خيل المهدي تموت في سُنَّة المهدي». فسكت أحمد أبو سن، ووضع رجله على"قَرْبُوس"[٤] حصانه. فلما إستعد العدو رمانا بطلق متحد فهرب عثمان وعبد الحفيظ وغيرهما، وهربت أنا معهم. ولكن بعد ما تقدمت مسافة قليلة إلتفت فرأيت أحمد أبو سن ومعه ابن عمي المدني مصطفي والطاهر إسحاق الزغاوي واقفين مكانهم فرجعت لهم، وقلت لأحمد أبي سن: «لماذا أنت واقف ؟». فقال: «خيل المهدي تموت في المهدي». فأخذت لجام حصانه وقدته ورجعنا، ولكنا في هذه المرة نزلنا بطريق

---

(١) السواري: هم الجنود ممن يركبون الخيل، والهجانة يركبون الجمال.

(٢) البيادة: هم الجنود المشاة.

(٣) اللحويون: فرع من قبيلة الشُكريّة المعروفة في وسط السودان ويسكنون حول النيل الأزرق والبُطانة.

(٤) قربوس: رِكَاب الحصان

البحر، فوجدنا عمي محمد أحمد شكاك ومعه كثير من الرَّجَّالة[١]. عندما وصلنا مكان العسكري المقتول على جسر السكة الحديد قطع عمي محمد أحمد رأسه، وأدخله في مخلاة. ولما قابلت الطريق الذي صعدنا به في الجبل صعدت به، رغم معارضة عمي محمد أحمد، لأخذ ثوبي وحَرْبَتي. صعدت فوجدتهما، ووجدت بجانبهما بَرْنِيطَة بهلالها[٢]. وعند رجوعنا لصرص أرسلت الجمال، ورأس العسكري، وبرنيطة البكباشي، إلى ود النِّجُومي الذي أرسلها بدوره إلى خليفة المهدي. هذه الواقعة تسمي واقعة الجُمّيزة.

بعد قليل عينوا عثمان أزرق أميراً علينا وكنا سواري وبيادة، ومجموعنا أربعمائة رجل، فغزونا بلدة تسمي "سِيْرِي" شمال حلفا بالغرب[٣] (حوالى مايو ١٨٨٩م). دخلنا البلدة عند شروق الشمس، ونهبنا بهائمها ومحصولاتها، وكان بها بصل كثير. هناك تعرض لنا رجل يدعى خليل إبراهيم، أظنه مستخدم حكومة، فرمانا برصاص بندقيته فدخلنا عليه في مكتبه وقبل أن نصله رماه أحد المجاهدين برصاصة فقتله. بعد قليل حضر الوابور يحمل بُلُكَا[٤] من الجيش فواقعناه على بعد بالسلاح ولم نختلط بهم. ولما اشتد الحر قفلنا راجعين قبل أن نتزود من الماء الكافي. وعند الغروب قسموا لنا بصلا خفف علينا وطأة العطش. مضينا سائرين أكثر الليل، حتي وصلنا شُونة الحديد ـ جنوب حلفا بالغرب ـ حيث كان يرابط بعضنا فيها. فشربنا وارتحنا ثم استأنفنا السير إلى صرص حيث قسّم عبد الحليم ما وصلنا به من متاع على الرايات بالتساوي، وهذا لم يرض الأمير حموده إدريس الهباني نائب مساعد قيدوم بصرص. إلا أن عبد الحليم لم يبال فكتب حموده لمساعد قيدوم بالأردي وذاك أرسل بدوره الكتاب إلى خليفة المهدي.

---

(١) الرجالة : الجنود ممن يمشون على أرجلهم او أقدامهم
(٢) بَرنيطَة : قبعة، والهلال هو العلامة الحربية المميزة للجيش المصري.
(٣) بالغرب : أي غرب النيل.
(٤) بُلُك : فوج أو فرقة من العسكر (قاسم، صفحة ١٢٧)

بين خليفة المهدي وولد النِّجُومي:

سبق أن طلب الخليفة عبد الله من عبد الحليم أن يحضر إلي أمدرمان، ومعه ولد النِّجُومي. فسافرا لأمدرمان (في ٢٢ مارس ١٨٨٨م) وهناك عتب خليفة المهدي عليهما. ولّما رجع عبد الحليم إلى صَرَص قال له عمي علي شكاك: «ليتك أخذتني معك لأرى خليفة المهدي». فقال له عبد الحليم: «والله لو مشيت معنا ترجع منكراً فيه مما تسمعه وما تراه من غيره».

قيل إن خليفة المهدي وبّخ ولد النِّجُومي بقوله: «أنت يا ود النِّجومي هوِيَّن[١] إخوانك الذين معك كلهم استشهدوا وأنت إلى متى تحيا خائفاً من الموت ؟ ». وبرجوع ولد النِّجُومي صار الخليفة يرسل له من يسميهم الأمناء، لينظروا في الخلاف الذي بينه وبين مساعد قيدوم، حتى آل الأمر إلى إرسال يونس الدكيم[٢] رئيساً عليهما معاً. وصل يونس إلى الأردي وقُرِىء أمر تعيينه بالجامع في حفل حافل بعد صلاة الظهر. وجاء في الأمر أن يكون كل من ولد النِّجُومي ومساعد قيدوم ليونس «كالميت بين يدي المُغسِّل». فما كان من ولد النِّجُومي تلو إنتهاء القارىء إلا أن تقدم ليونس الذي كان جالساً بالمِحرَاب فسلمه سيفه وحرابه، وقالوا: إنه سحب سكينه من ذراعه الشمال، ووضعها مع ما قدمه من سلاح. فشكره يونس الدكيم بقوله: «بارك الله فيك أنت يا ولد النِّجُومي من أبكار المهدي (عم) ومن أعظم قوادنا المنصورين». ثم تلاه مساعد قيدوم فعمل مثل عمله.

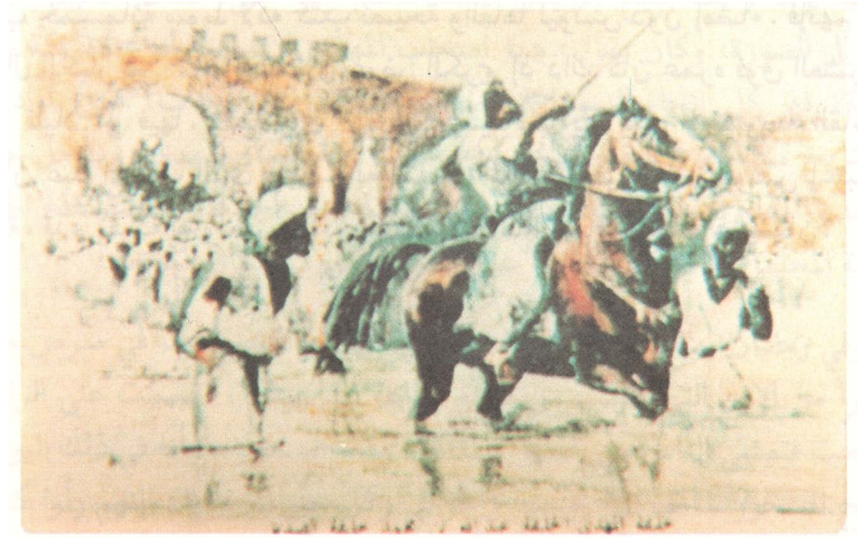
إنقاد ولد النجومي إنقياداً تاماً وترك السياسة تركا باتاً (تاماً)، حتي إنى رأيته يخرج من بيته للصلاة ويرجع منفرداً ؛ مما أدى إلى احترام يونس له. أما

---

(١) هوِيّن: تصغير هيّن أي بسيط، وتستعمل للذم بمعني أن الشخص لا قيمة له.

(٢) يونس الدكيم هو أحد القواد المشهورين في جيش المهدية ومن أقرباء الخليفة عبد الله. كان العامل على القلابات عام ١٨٨٧ وخلفه فيها حمدان أبو عنجة (هولت، ١٩٨٢، صفحة ١٦٤). بعدها عين عام ١٨٨٨م عاملاً على دنقلا ورئيساً للجيش المرسل لغزو مصر، وبذلك أصبح النِّجُومي قائداً للجيش تحت إمرة يونس الدكيم الذي كان يقيم في دنقلا معظم وقته. عاش يونس بعد المهدية فترة طويلة وتوفي بأمدرمان عام ١٩٣٦م (شقير، صفحة ٧٣٦, ٧٧٧، ٨٤٨).

مساعد قيدوم فإني رأيت يونس، في العرضة يوم الجمعة، يناديه قائلا: «مساعد كي أنزل خد لك طلقة». (المعنى: أنزل من حصانك وخذ حربتك وأجرِ برِجّليك مسافة ثم أرجع جارياً دون أن تقف). هكذا يفعل صعاليك القوم. وعندما ينزل مساعد قيدوم ويبعد قليلاً يلتفت يونس إلي من معه قائلاً: «الله عليك ما خَلّيت لك عبَيْد»، سخرية به. وبعد عودة مساعد وركوبه



الخليفة عبد الله فى وداع جيش المهدية المتجه الى شرق السودان (٣١ يناير ١٨٨٧)
لملاقاة القوات الحبشية التى أغارت على القلابات

حصانه يكرر يونس العبارة له مرة ثانية أو مرات.

كان سلاح النار أيام ولد النِّجُومي برئاسة حسن النِّجُومي إبن عمه، فلما جاء يونس عزله عنه وولى عليه أحد عَبِيدَه. ثم أطلق يده فعزل كل عمال ولد النِّجُومي من تحصيل الضرائب وأبدلهم بعبيده في الأماكن الطيبة، والأماكن الأخرى كالمحَس والسَّكُّوت عين فيها من قدم هدية كبيرة، أو خدمة جليلة. وكان إذا عارض بعض عمال ولد النِّجُومي ذلك عزلهم أو سجنهم أو ضربهم وبعضهم جمع لهم كل هذه الأنواع الثلاثة. ومن ضمن من عاقبهم واحد يدعى محمد نور الكتِّيَّابي عامل "الخندق"، فقد أمر بضربه خمسمائة سوط، فضرب

على صلبه حتى تقرح وورم، ثم ضرب على بطنه حتى أصبح يؤتى به منبطحاً على حمار، فنظروا إلى مكان يضرب عليه فلما لم يهتدوا له قال لهم: «أنتم نسيتم لسانى»، وأخرجه لهم فتُمم الضرب على رأسه. كذلك ضُرب الشيخ عوض الكريم ود علي، الذي كان يُدرّس العلم إلى عهد قريب بالمعهد العلمى بأمدرمان، ويؤم بعض المصلين في صلاة المغرب في شارع الأربعين إلى اليوم، ضُرب خمسمائة سوط لأنه كتب نصيحة وألقاها ليونس دون إمضاء. فإتُهم بها العمال الكبار ممن تم عزلهم، لأن عوض الكريم إذ ذاك كان عمره فوق العشرين سنة قليلاً أو فيها، فلما رأى أن غيره سيعاقب بجريمته، وخصوصاً القاضي عثمان عبد المطلب الذي وجهت له التهمة أكثر من غيره، لأن يونس إعتبرها جريمة، قدم نفسه له وأخذ جزاءه. كانت هذه منه شهامة ونبالة عظيمتان.

يونس ود الدِكيَم أميراً عاماً (٢٨ فبراير ١٨٨٩):

في أيام يونس اشتدت علينا وطأة المجاعة بصرص، حتى صار بعض الأنصار يرحلون عنها. لذا اجتمع أمراء الدناقلة عند عبد الحليم، وتحدثوا فيما يرفع الجوع، ولتقرير الهجوم على حلفا فيموت من يموت ويرتاح الحي من هذه الحالة. وقد رأيت شيخ إدريس أحمد هاشم وهو على حصانه الكبير الجسم الجميل الصورة، وكان يقول: «يا أصحاب المهدي إن جيم الجوع مقرونة بجيم الجنة، في كل أنحاء السودان خصوصاً في ثقور الرُّباطاب، فمن أراد أن يستريح من الجوع فليقلع (ينزع) الجِبَّة (أي جِبَّة أنصار المهدي) ويدخل حلفا، أو ما وراءها (أي يسلم نفسه للأعداء) فيرتاح من الجوع». كانت هذه الجملة نهاية المجلس الذي كان معقوداً على ظهور الخيل في مكان العرضة.

وفي رمضان سنة ١٣٠٥هـ (١٨٨٨م) أرسل ولد النِّجُومي لنا في صرص جانباً كبيراً من الإبل التي غنمت من قبيلة "رفاعة أبي روف"، فقُسمتِ على الرايات وذبحت فتعشى الناس من لحمها. ولما جاء وقت السحور ـ وأنا في ذلك اليوم لم أصح للسحور ـ أخبرتني زوجتي وإخواني وكل جيراننا قالوا: إنهم رأوا كهربة تنبعث من اللحم حتي أنك لترى الأكل في فم الماضغ يمضغه كأن الوقت نهار. فما العلة يا ترى في هذه الظاهرة؟ وكيف يُعَلِلُها العلم؟ أما تعليلنا لها في وقت حدوثها فإنا اعتبرناها كَرامَة[1] لنا، كما اعتبرنا من قبل الضوء الذي يلمع من رؤوس الحراب ليلاً والنار التي تأكل أجسام من نقتلهم.

كان من ضمن عمال يونس ولد الدكيم بالمحس، سعيد أخي الأكبر، الذي كان يندبه الأمراء بدنقلا ليحضر لهم الرماح للحراب من كَرْكُوْج. فلما تحقق قرب قيام ولد النِّجُومي من العُرضي لغزو القطر المصري جمعنا والدي وقال لنا: «الأحسن أن تعطوني العائلات أسكن بها مع سعيد بالمحس وأنتم سافروا مع ولد النِّجُومي، إذا قتلتم التُّرك فأحضروا لنا الوابورات البحرية لنصلكم بها وإن هزمتم تكونوا خفافاً ترجعون لنا فنجتمع». وكانت والدتي الصماء العقيدة معنا

---

(١) الكَرامَة: الحدث غير العادي أو الإشارة السماوية التي تؤكد للناس سمو ما يقومون به.

في المجلس، فهجمت على والدي وقبضت على خده وقالت له: «هوي يا دا الراجل الكافر صُدْ بَراك[1] من الله نحْنَ ما صَادّين شى». فضحك والدي ورجع فعلاً إلي سعيد وبقي معه حتي هُزمنا، فرجعت له زوجته الثانية، فأخذها وتوجه إلى كركوج.

كان والدي يقول ذلك وهو على يقينٍ أن جيشنا سيُهزم، ومن أقواله: «إن ولد النّجُومي بليد يسافر بلا مؤونة». فقالت له والدتي: «لا تتكلم في ولد النِّجُومي رابع الخلفاء». واستمرت مؤمنة إلى أن توفيت بأمدرمان وهي تقول: «أحّيَ يارِقيْدَة في ضُل القُبّة»[2].



قبة المهدى بأمدرمان فى صورتها الجديدة التي قام بتجديدها ابنه السيد عبد الرحمن المهدي عام ١٩٤٦ فى آواخر الحكم الثنائى المصرى الإنجليزى للسودان

---

(١) المعني: «يا هذا الرجل صد (عُد أو ارجع) بَراك (بمفردك) أما نحن فلن نرجع عن سبيل الله».
(٢) أحّيَ لفظة للتمني، والعبارة تعني أن والدته تتمنى رِقيْدَة (تصغير رقود) أي تستلقي أو تدفن في ظل قبة المهدي تبركاً وأملاً في الثواب.

كنت في إحدي الليالى أقرأ في كتاب الحِرْيفشي على ضوء عود من خشب الفَلَنك المدهون بالشحم وكان رأسه المضىء لأعلى وزوجتي بجانبي فلما أطلت القراءة أخذت العود وطمسته في التراب وقالت: «كَفَاك قرِاية»، فوضعت الكتاب على الأثافي وقمنا لننام. وفي سحر تلك الليلة بلغنا أن التُّرُك يتحركون إلى صرص، وضُربَ النّحاس لتنبيهنا فركبت حصاني كالعادة وسافرنا لجهة حلفا.

أقمنا في هذه السفرة ثلاثة عشر يوما مافككنا الكَرّابات[١] ولا قلعنا الجبَب وفي كل ليلة لنا خُفَراء؛ ورباطنا[٢] وصل إلي ما بعد حلة "جمَى". ولما لم يأتنا أحد هناك رجعنا فوجدنا أن الديم بصرص تحول غرباً استعداداً للسفر مع ولد النِّجُومي. ولكني في صرص، وجدت منزلي ردم عليه السقف فما استطعت الحصول على كتاب الحِرْيفشي. ولضيق الوقت إنتظرنا ولد النِّجُومي بالغرب وسافرنا معه شمالاً يوم ٢٨ رمضان سنة ١٣٠٦هـ (٢٨ مايو ١٨٨٩م)[٣].

(١) الكرّابات: أربطة سروج الخيل.
(٢) رباطنا: جنودنا المقيمون على الحدود أو النقط المتقدمة للاستكشاف.
(٣) هذا التاريخ حققه المترجمان يوسف بدري وجورج اسكوت في النص الإنجليزي لتاريخ حياة بابكر بدري، ١٩٦٩م، صفحة ٦٢.

واقعة أَرْقِين (٢ يوليو ١٨٨٩م):*

حينما رحل الدّيم من صَرَص إلى الغرب سافر يوسف أخي، وهو وقتئذ تحت البلوغ، ومعه صباح الخير إلى العرضي، ليأتونا بمؤونة؛ فلما رجعا وجدانا قد سافرنا قبل أسبوع من وصولهما. وقد أخبرني يوسف فيما بعد، وهو صادق كما يعلم عارفوه، أنه قال: «لم أقتنع بسفركم حتى عملنا طُوفاً(١) من الفلنك وعبرنا النهر إلى الغرب فدخلت الدّيم ووجدت صاحبي المدعو "وَجَّه الهَدنّدَوي"(٢) ماسكاً رجل شخص ميت معه في البيت وكان يمضغ فيها، فلما قربت منه لم يعرفني فناديته بإسمه فالتفت إليّ ولم يعرفني، فعلمت أنه في غيبوبة وتركته. رجعت بعدها للشرق حيث ذهبت لوالدي بالمحس، ثم إلى أمدرمان».

أما نحن فسافرنا مع ولد النِّجُومي وأميرنا عبد الحليم ولما وصلنا "شُّونة الحديد" قضينا الليلة فيها. وعند السحر ضُرِبَ النّحاس وفي أثناء الاستعداد للسفر طلع الوقت؛ فصلينا الصبح ولم نقرأ الراتب وواصلنا سيرنا. فما طلعت الشمس إلا ونحن قبالة "أَرْقِيْن" ونرى نخلها على مسافة ثلاثة أميال تقريباً. هناك نزلنا البحر ولكنا وجدنا النخل حمله نيىء فقطعناه لأننا جائعون ثم أخذنا الماء للعائلات بالدّيم، ورجعنا لمقابلة العدو الذي ما كان يعلم مكان نزولنا.

---

* واقعة أَرْقِيْن : يصف شقير (٧٧٩ ـ ٧٨١) بلدة أرقين بأنها بلدة ممتدة بطول ثلاثة أميال تحوطها أشجار النخيل وتقع في الضفة الغربية للنيل، شمال حلفا قليلاً. والواقعة التي دارت فيها ضحى الاثنين ٢ يوليو ١٨٨٩م وصفها بتفصيل كبير موضحاً بسالة جيش ود النِّجُومي في حربه التي خاضها وهو جائع ظامىء بعد أن منعه وود هاوس بجيشه عن ماء النيل. ويبدو أن الأنصار جهزوا لهذه الواقعة تجهيزاً كبيراً لذا كانت خسارتهم فيها خسارة موجعة. على إثرها سار ود النِّجُومي بجيشه شمالاً إلى «البلينه» ـ التي يكتبها المؤلف «بلانا» ويكتبها بعض الأنصار «بلاجه» (راجع خطاب النِّجُومي صفحة ١٠٩ أدناه) ـ وهي قرية على الضفة الغربية للنيل تواجه هيكل أبي سنبل. بقي فيها فترة طويلة شن خلالها غارات متعددة وتعرض لقصف من مدفعية الإنجليز ومن البواخر الراسية في وسط النيل. بعدها تحرك شمالاً وخاض معركة توشكي في ٣ أغسطس ١٨٨٩م، كما سيرد.

(١) طُوف: نوع من القوارب (انظر ملحوظة ١ صفحة ٢٥٧).

(٢) هذا الاسم لم يذكر في هذا الموقع في النص العربي للطبعة الأولى ولكنه ورد في النص الإنجليزي للكتاب صفحة ٦٢، كما أنه ذكر في صفحة ١٠٣ من الطبعة العربية الأولى.

كان ترتيب جيشنا كالآتي: ولد النِّجُومي ووزيره عبد الحليم بقيا في الدّيم. حسن جباره بسلاح النار قِبْلِي أرقين بالغرب وقُبالة "التوفيقية". الأمير ولد أبيض بحري (أي شمال) البلد مع الطُبجية والمدافع إستعداداً للوابورات التي تجيء من الشمال، والفرسان والقَرّابة[1] في الوسط. وفي نحو الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، ظهرت الوابورات والبَيَادة[2]، فهجم علينا البيادة. ولما هجمنا عليهم تقهقروا حتى قابلنا الوابورات وصرنا نحن والعساكر الذين رميناهم في شاطىء البحر نتحارب والماء إلى وسط أجسام بعضنا أو أعناق البعض الآخر؛ ومع كل هذا كانت هناك ذرة مزروعة تعوقنا. كذلك علم القائد الإنجليزي[3] بأن لنا مدافع فصوب مدافعه إلى غرفها فهدّت قذائفهم المدافع ومن يستعملها ولم ينج منهم أحد. كنا نظن أن حسن جبارة ينجدنا بسلاح النار، ولكن الإنجليز أرسلوا إليه أورطة[4] ضربته فانقسم جيشه أقساماً بعضهم ماتوا وبعضهم هربوا لِدَّيمِنا، وأكثرهم سلم للأورطَة لأنهم سودانية (أي لأنهم من الجنود السودانيين الذين يحاربون مع الجيش الغازي ـ المحقق). بعد قليل رجعت تلك الأورطة إلينا في جنوب الوابورات وإتحدت مع الأورطة التي كنا نحاربها من بحري (جهة الشمال). وعند حوالى الساعة الخامسة هجمت الفرسان منا على الأورطة الجنوبية. وفي نحو عشر دقائق لم يبق رجل منا أو حصانه سالمين إلا القليل. أما نحن القَرّابة (البيادة) فقد إضطرتنا الوابورات والأورطة الشمالية للتقهقر.

---

(١) و (٢) القَرّابَة والبَيَادة: تعني الجنود المشاة.

(٣) القائد الانجليزي المعني هنا هو وود هاوس (١٨٥٢ـ ١٩٣٠م) قائد الجيش المصري الذي كان يرابط في حلفا خلال حملة ود النِّجُومي لغزو مصر (شقير صفحة ٧٧٩). وبما أن الإنجليز كانوا قد احتلوا مصر بعد ثورة عرابي عام ١٨٨٢م، فقد كانت قيادات الجيش المصري كلها تحت ضباط إنجليز؛ كما أن الجيش المحارب لود النِّجُومي ضم جنوداً إنجليز ومصريين.

(٤) أورطة: من كلمة أورتا وهي تركية وتعني فرقة من الجنود، كانت تستعمل خلال الحكم التركي في السودان، ولا تزال مستعملة (قاسم، صفحة ٤٢).

الكــوز مجيــدي :

سبق فارس ـ يدعى عبد القادر العجب ـ بالخبر لولد النِّجُومي الذي كان ومن معه واقفين خارج الدّيم، فلما قال له عبد القادر: «ناسنا كلهم ماتوا»، رد عليه ود النِّجُومي مغضباً: «أنت مالك ما مُتْ ؟». (أي: لأي سبب أنت لم تمت مثلهم). رجعنا مهزومين إلى الدّيم ليلاً، فبتنا ليلتنا وأصبحنا وما منا أحد له رغبة في الجهاد. ولكن بعض الناس ممن لهم عائلات مثلنا باكروا النهر، فأخذوا الماء قبل أن تحضر الوابورات، التي وصلت نحو الساعة السادسة صباحا ومنعت الناس من أخذ الماء أو التمر النييء. وعند الساعة الثانية عشرة صار كوز الماء بريال مجيدي. في ذلك قال شاعرهم من قبيلة القراريش مظهراً شماتتهم علينا قصيدة أثرت فينا أثراً سيئاً. ولم أحفظ منها غير هذا البيت:

مِهير وود َهاوس أب حيْلَةً شَديْدِي

حَجّر الموية خلّ الكوز مَجِيدِي

وقد رأيت بعيني أحمد عبد الحليم، طلب من موسى أخي ماء يشربه فملأ موسي له الكوز ملئاً. انظر لكرم موسي (رحمه الله) حتي في أضيق الساعات. في تلك الساعة كان إلياس ود أحمد الزين ـ أمين بيت مال ود النِّجُومي ـ في النزع الأخير (أي ينازع الموت)، ووالده الشائب أحمد الزين معه، فدخلت عليهم في خيمتهم ووجدت ولد النِّجُومي معهم يقول لوالده: «يا عمي أحمد.. إلياس الحمد لله مُنح الشهادة. وأنا أستشهد من بني عمي وأولادهم فلان وفلان»، وعَدّد نحو سبعة أشخاص. فرد عليه أحمد الزين: «يا شيخ عبد الرحمن أنا لا أحتاج إلى تسلية، أسكت بارك الله فيك، أنا ماجئت من بلدي لأكسب مالاً، أو جاهاً؛ وانما جئت بأولادي وخرجت من عمارتي للموت». وفي ساعتنا تلك توفي إلياس فجهزناه ودفناه في قبر وحده وليس في جواره قبر؛ فذكرني إبعاده (أي بُعده) البيت الذي يضرب به مثلاً للتعقيد اللفظي في علم البلاغة:

وقَبْرُ حَـرْبٍ بِمكـانٍ قَفْرٍ وليس قُرْبَ قَبْـرِ حَرْبٍ قَبْـرُ

إنعقد في تلك الليلة المجلس الأعلى للحرب، فحَسّن بعضهم الرجوع حيث أنهم هُزِموا في أول موقعة، وأعظم قوتهم ذهبت؛ ورأوا أن تورطهم في بلاد العدو يعتبر انتحارا *. كان من أهل هذا الرأي بعض أقارب ولد النِّجُومي. أما عبد السلام الحاج بلة، والبعض الآخر ومنهم ولد النِّجُومي قرروا الاستمرار في السفر. وفي نفس الليلة رجع بعض ممن حسّنوا الرجوع فألحقهم ولد النِّجُومي من أعادهم مرة أخرى لجيشه.

---

* حاشية للمحقق : ساءت حالة جيش ود النِّجُومي كثيراً بعد واقعة الجميزة (أواخر عام ١٨٨٨م) للقلة الشديدة في الطعام وندرة الإمدادات التي يحتاجونها، كما أن وعورة الصحراء التي يعبرونها وشدة طقسها وعداء سكانها وإخفاءهم المؤن عنهم أضر بصحتهم وأمات الكثيرين منهم وأهلك دوابهم. ومما زاد الحال سوءا هو طول الفترة التي قضوها - وهي تفوق الثلاث سنوات - وهم يحاربون جيشاً لا تنقصه الإمدادات والذخائر مثلهم، بل وكان يمنعهم الماء في تلك الأرض القاحلة. ونتج عن ذلك هروب عدد منهم وإنخفضت روحهم المعنوية، إلا من كان منهم مؤمناً إيماناً قوياً برسالتهم .

ونورد هنا جزءا من الخطاب الذي أرسله الأمير ود النِّجُومي بتاريخ ١٠ يوليو ١٨٨٩م إلى الخليفة عبد الله بأمدرمان، أي بعد واقعة أرقين بأسبوع واحد، لتوضيح الحال الذي ذكره المؤلف؛ ونصه:

(سيدي وملاذي بعد اهداء مزيد السلام نرفع إلى مكارمكم عن أحوالنا وأحوال الأنصار الذين معنا أنه قد مسهم الضرر الشديد الذي ما عليه من مزيد، واشتد بهم الحال وضاق الأمر جداً فإن الجوع الحالّ بهم أضناهم وأذهب قواهم فورّم أجسامهم وغير أحوالهم لأنهم قبل دخول بلد العدو كان قوتهم التمر الأخضر المر ونواه وحتى هذا انقطع عنهم من مدة. ولطول الطريق وكثرة المشقة ضعفوا فدخلوا البلد على حالة ضعيفة. ولشدة الضرر جلسوا جميعا على الأرض وكثيرون منهم ماتوا جوعاً. وأما ضعفاء اليقين منهم فلعدم صبرهم على البأساء والضراء رغبوا في الأعداء. والجهادية والعبيد والخدم لحقوا أيضاً بالأعداء وارتدوا عن الدين ولم يبق منهم إلا النادر. ثم إن الجهادية الذين أرسلوا معنا طوبجية للمدافع من طرف سيدي يونس كانوا خمسة وثلاثين، الجميع رغبوا في الكفرة وهربوا إليهم ولم يبق منهم إلا ثلاثة. وكذلك من سرس انضم إلينا نحو سبعين من الجهادية والجميع دخلوا القياقر ما عدا ستة وما دعاهم لذلك إلا تراكم الضرر الذي ألجأ الناس كافة إلى أكل ما لا يذكر من الحيوانات وغيرها ولم يبق معنا من الأنصار إلا من تداركه الله بلطفه وصبر على البلاء والاختبار وله جلد على ذلك. ولولا لطف الله بنا وجميل نظركم لما قدرنا على الوصول إلى بلاجة (البلينة). والحاصل أن الأنصار تعبوا وضاق بهم الحال وعظم الخطب وطالما صبروا على ذلك لأنهم من عهد ما «صرفوا» بدنقلة لم يجدوا «صرفا» أصلاً ولم يكن معنا ما نعطيهم لسد رمقهم وحفظ أنفسهم وأرجو الله بجاهكم سيدي أن يتولاهم ويصلح شأنهم ويأتيهم بالفتح من عنده. وكذلك الجمال التي كانت عندهم وجمال الجبخانة والخيول والحمير ماتت من شدة المحل وطول السفر ولم يبق منها إلا النادر. وإن الخيل الموجودة بالجيش فهي مايتان بالكشف المعروض لسيدي يونس الدكيم في تعداد الجيش مع أنها كلها هزيلة ولا تقدر على كر أو فزع. والخيل القوية منها لا تزيد على الخمسة عشر حصاناً ولذلك فإن خيل الكفرة دائماً تبدو بنواحي الديم وليس عندنا خيل قوية لمطاردتها غير الخمسة عشر المذكورة. وأن جبخانة الرمنتون التي معنا جميعها=

= وزع على أهل السلاح لعدم القدرة على مشالها دفعة واحدة وكذلك جبخانة المدافع وزعت على الأنصار جلة جلة وخرطوش خرطوش لموت جمالها كافة. وإن من المدافع مدفعاً جرّه الأنصار أولاد العرب على أعناقهم إلى مكان بعيد لعدم وجود جمل يحمله. كذلك بعض الجبخانة والمدافع التي كانت بسرس تركت بجهاتها لعدم وجود الجمال. وجميع الأنصار كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وأنثاهم ماشون على أرجلهم حاملون على رؤوسهم كما شاهد ذلك الإخوان الهجانة الذين أتوا من سيادتكم.

حاشية: إنه لشدة الضرر الحاصل على الأنصار فلو صار قيامنا من المرحلة الأولى فلا يمكن جد السير وقطع مسافة إلى مرحلة أخرى بل ننزل بالقرب منها برأي العين ولا يتلاحق الناس إلا إلى الغروب لعدم القدرة على المشي. ولو صار قيامنا من هذه المرحلة فالمدافع لا يمكن حملها معنا بحال مطلقاً. وقد نوينا أنه لو قمنا ندفنها بالخلاء ونأخذ واحدة منها فقط حتى ينصر الله دينه. وجميع الملازمين الذين معنا ليلة تاريخه لحقوا بالأعداء حتى حامل ركوتنا (١) وما بقي منهم إلا ثلاثة أو أربعة.

أما أهل الريف من معتوقة إلى بلاجة التي وصلنا إليها فكلهم قاموا في عون الكفرة وحزَّبوهم كل التحزب. ومن عهد دخلونا ديارهم إلى الآن لم يأتنا منهم وارد ولا معرج ولا راغب في الدين ولا من يريد تجارة بل الجميع حملوا الأسلحة النارية وحاربونا أشد المحاربة، وما من قرية من قراهم التي بشاطئ البحر الغربي إلا رأينا أهلها قد قَطّعوا أثقالهم بالشرق أو أدخلوها الجزائر وتركوا القرية خالية لتكون حصناً لهم وللكفرة لحرب الأنصار. وتبين أن جميع الجهات التي مرّ الجيش بها من أرض الريف أهلها أعداء وعصاة بل الذين لم نصل جهتهم إلى الآن فالمتراءى من حالهم أنهم كذلك لأننا ناهزنا الوصول إلى بلدهم ولو كانوا راغبين لأتونا فإن المكان ليس ببعيد. أما بوابير الكفرة فما زالت سائرة معنا بالبحر تبيت معنا حيث بتنا وتقيل حيث قلنا وعساكرهم ماشية بالشرق في خيل وجمال لمنع الأنصار ماء البحر ولم يكن شرب الماء إلا بقتال ومضاربة واستهشاد وجراحات وجزى الله الأنصار خيراً وبارك فيهم فإنهم ما زالوا مطمئنين على حالهم وثابتين على محاربة عدوهم لا ينتظرون إلا النصر والظفر بالأعداء أو الفوز بالشهادة. ولقد وصلهم المنشور الكريم الصادر من لدنكم لهم بالمذاكرة والمداولة والتذكير بالله وبأيام الله فتلقوه بقلوب صادقة ونيات صافية وألزموا أنفسهم القيام بذلك حق القيام وزادوا به نشاطاً في الدين وعلو همة لكفاح القوم الكافرين. ولقد رفعنا لسيدي يونس الدكيم ما جرى من هذه الوقائع بالتفصيل ولم نزل نرفع إليه ما يتجدد من الأخبار شيئاً فشيئاً حسب الإشارة... في ١٢ القعدة سنة ١٣٠٦هـ (١٠ يوليو سنة ١٨٨٩م). (شقير صفحة ٧٨٢ ـ ٧٨٤).

(١) الرَكْوة: إبريق الماء المصنوع من الجلد.

في صبيحة اليوم الثالث للموقعة بارحنا أرْقين بعد أن أحرقنا المثقلات، كالخيام، وبعض سروج البهائم التي ماتت، والعنقريبات[١]. ومررنا أثناء سفرنا على جروف[٢] فيها بامية وملوخية، وكنت من المتأخرين، وكان من سبقونا يأكلون البامية وورقها وفروعها، ولما أتينا بعدهم قلعنا العروق ومضغناها؛ نستحلي طعمها ولم نأنف من لزوجتها التي لولا شدة الجوع ما ساغها فم ولما قبلتها معدة. وصلنا "فَرَص" ولكن الجيش لم يكتمل وصوله حتى الساعة الثالثة بعد الظهر، مع أن المسافة لا تزيد على سبعة أميال تقريباً. وُضع الدّيم كالعادة على بعد أربعة أميال من النهر خوفا من سلاح الوابورات وناهيك بأن الزمن كان وقت فيضان والوابور يكشف مشواراً بعيداً.

في ذاك الوقت كان عمي محمد أحمد شكاك مجروحاً في ركبته، والمدني (وهو ابن عمي وزوج شقيقتي الكبرى السَّهوة) مضروباً في إبهام يده اليمنى، فلم يبق معي غير موسى أخي الذي بيني بينه أربع سنوات، ومعنا أيضاً أختي وبناتها ووالدتنا وأختنا الحُسنَى، وعمرها نحو اثنتي عشرة سنة، وأختانا أم طُبول والبتول وزوجة والدي. فعملنا بيتنا من حرَام[٣] وأثواب وسكنّا نحن جميعاً فيه. وفي المساء نزلت البحر وأحضرت الماء على أحد حمارينا. في الصباح قال لي موسى: «إما أن تأتي بالماء وأنا آتي بالتمر أو العكس». اختار موسى الماء ثم رجع فقال لي: «أنا أعرف طلوع النخل إكثر منك، فأذهب أنت للماء وأنا أذهب للتمر». فتوجهنا معاً كلٍ على حمار حتي قربنا من النهر فتوجه موسى نحو النخل ووقفت مكاني أنظر إليه لأنه لا يعرف طرق الحرب، حتي رأيته يطلع النخلة ولم يكن هناك أحد من العدو؛ بعد ذلك ذهبت للماء. وجدت كثيراً من الناس يقفون وراء المنازل، ورأيت وابور البحر وسط النيل، فوضعت سيفي وحرابي عند من أثق به وربطت سرج حماري جيداً وضربته

(١) العَنْقَريبَات : جمع سرير أي الأسِّرَة التي تستعمل للنوم.
(٢) جُرُوف: جمع جَرِف وتعنى المزرعة الصغيرة على شاطئ النهر.
(٣) الحرَام : (البطاطين) أو القماش المصنوع من الصوف.

بالعصا حتى وصلت الشاطىء ولكني وجدته عالياً فحملت الحمار من صُلبه ودحرجته حتى وصلت النهر. وهنا أقول الواقع ولا أحمل الناس على تصديقي فيه حملا، والله يعلم أن ما أقوله وأكتبه هو الواقع. وضعت القِرْبَتَيْن[١] في الماء وجلست بين الرصاص حتى إبتَلّت القربتان، فملأت إحداهما وأوصلتها قرب السهل، خوفا من أن تظهر فيأخذها أحدهم. ثم رجعت للقِرْبَة الثانية فملأتها وبدأت أربطها فانقطع حبلها. ولا أدري ما قطعه ولكني في تلك الساعة تصورت أن الذي قطعه كانت رصاصة لكثرة الرصاص حولي ولكن الله سلّم. أفرغت تلك القِرْبَة وطلعت أكتفي بالأولي. ثم تذكرت أنه يمكن أن أربطها بدِكَة[٢] سروالي، فرجعت إلى النهر وصرت أملأ القربة، فوقف من في الوابور عن ضربي ، ولكن حماري المكتوف أصابته رصاصة في عُرفه. أخرجت القِرْبَة الثانية بجوار أختها ورجعت للحمار وضربته بالعصا فوقف نشطاً؛ فسقيته وطلعت، وحملت عليه القربتين وذهبت مسرعاً. سبقت عند رجوعي موسي أخي، فشرب الناس وبعت من الماء ستة أكواز بستة ريالات مجيدي؛ فاشتريت بهذا المبلغ لحما "جَقُودا" - أى لحم الجمال الهزيلة التي تعبت من المشي. بعدها حضر موسى بالتمر فأخذت السَّهوة تعد لنا الطعام، وكان مركب كالعادة من التمر الأخضر واللحم تطبخهما معاً في قدر من النّحاس.

(١) القِرْبَتَيْن : مفردها قِرْبَة، وهى كيس من الجلد يُحمل فيه الماء.
(٢) دِكَّة : هي التكة أي الحبل الذي يربط به السروال.

في شأن الله والرسول:

قلت إني سبقت موسى أخي فلما جاء شرب، ثم أخليت له مكاني، وجلست بجانبه، وزينب بنت السّهوة جلست في الجانب الآخر. وبينما نحن على تلك الحالة وصلتنا شَّظِية "جُلّة"(١) من المدافع التي نصبها لنا العدو في الشرق؛ فضربت الشَّظِية أخي موسى في صُلبه بعد ما خطفت رأس "البِنَيّة"(٢) زينب، التي ماتت وهي قاعدة لم يحصل منها حركة غير أن صم فمها، أما موسى فكُسر صلبه. بُهِتْنَا جميعاً من رجّتِها إذ كل منا ظن أنه الذي ضُرِب. وبعد ثوان قلت من يكشف الحقيقة غيري، فقمت وهززت بدني فوجدته سالماً ورأيت "البِنَيّة" قد توفيت ورأيت أخي موسى يئن، فالتفت إلى الباقين وقلت لهم: «كلكم سالمون إلا موسى وزينب». فأخذت والدتي حَرْبَة صغيرة كانت بجانبها فهزّتها وقالت: «موسى ولدي وهبته لله تعالى».

دفنت البنت وأصبحنا مقيمين؛ لكثرة الجرحى. وفي الليل أحضرت لموسى "مديدة"(٣) غلال قليلة رقيقة فأطعمته إياها كأني أجرعه ماءً. وحيث لا إسعافات لدينا ولا أطباء أصبحت جراحة متعفنه، وحالة الجريح متغيرة. في تلك الساعة ضُرِب النّحاس وقام الجيش وقام معه المدني، وعمي محمد أحمد وعلي شكاك، والمنصور أبو كوع، وموسى الشامابي، حيث كنا كلنا في تَايّة(٤) واحدة. ركبت السَّهوة معهم على حمار، والحمار الثاني حملوا عليه الأمتعة. بقينا أنا وأمي والحُسْنَى مع موسى فجاءني عثمان أزرق، الذي أسند إليه تنفير الناس من الديم مهما كانت أحوالهم لئلا يؤسروا فيقتلوا، وذلك لأن التُّرُك في أول أمرهم كانوا يقتلون الأسرى. وعندما جاءني عثمان أزرق قال لي: «قم».

---

(١) جُلّة: قذيفة تطلق من مدفع.

(٢) البِنَيَة: البنت الصغيرة.

(٣) مَدِيْدَة: نوع من الأكل (انظر ملحوظة ١ صفحة ٨١).

(٤) تَايّة: المكان الذي تقيم فيه أو تأوى إليه مجموعة من الناس أو الجنود لفترة قصيرة.

قلت: «وهذا ؟» وأشرت إلى موسى المحتضر. فقال لي: «اتركه لله»، قلت: «لماذا لا تترك حاج أحمد أخاك الذي أركبته في شبْرِيّة (هودج) كالعروس؟»، فضحك وفاتنا. بعد ذلك أخذت قِحْفًا[1] ووردت البحر وأتيت بماء سقيت منه أمي وأختي وصرت أنقط الماء لأخي في حلقه حتى فاضت روحه[2]؛ فكفّنته في "فَرْدَتِه" الدَمّور وفَرْوتِه[3] التي ربطتها عليه وحفرت الرمل من خلفه حتى إنهار جسده في الحفرة فقلبته نحو القِبلَة، وهلِت عليه الرمل وودعته بما قرأته له، ومشينا عنه.

لما خرجنا من الدّيم ـ وكنا آخر من خرج ـ لحقنا فارسان من الشايقية، على ما أظن. ولما قربا منا أجلست والدتي على حجر، وكانت ضعيفة البصر، وبَعُدت عنها نحو الفارسين ومددت البندقية نحوهما، فرجعا عنا. فأخذت والدتي ولكنهما عادا فأومأت لهما بالبندقية فرجعا نهائياً. بعدئذ أخذت بيدها، وجعلت أمشي كمشيها، فإذا تعثرت على حجر قالت: «في شأن الله والرسول»، رافعة بها صوتها في حماس. انظر يا قارئي لهذه العقيدة التي تجعلنا لا نشعر بفقد الصديق الشقيق المفيد والذي فُقد في وقت الحاجة إليه. ثم إنه مات ميتة غير إعتيادية، ودفن دفناً رخيصاً بلا أحد يضمه ولا صلاة ولا غُسل ونحن في حالة مجاعة وعدم أمن وفقدان نصر. كل هذا لم يؤثر في عقيدتنا، ولم يضعف من معنوياتي، أو من معنويات أمي. هذه والله هي التعليمات القيمة والقيادة الدينية الخالصة.

مشينا نحو الساعة فارتفع النهار واشتد الحر، وتعبت والدتي. لذلك تركت أمي والحُسْنَى في ظل جبل عال على قارعة الطريق، ومشيت بنفسي فلحقت

---

(١) القِحْفَ: هو جزء مكسور مقعّر من إناء مصنوع من الفخار.

(٢) موسى بدري: هو شقيق بابكر بدري (انظر ملحوظة ١ صفحة ٧٥) وموته هذا حدث في الطريق بين أرقين وبلانا في الضفة الغربية للنيل في أواخر يوليو ١٨٨٩م. أما باقي إخوانه فهم سعيد، أخيه من أمه ويكبره في السن، فشقيقه يوسف، ثم أخويه من أبيه عبد الكريم وخضر وثلاثتهم أصغر منه سناً.

(٣) فَرْدَته: أي ثوبه، وهو ثوب يصنع عادة من قماش سميك ينسجه السودانيون من القطن ويعُرف بالدَمُّور. وفروته: تعنى فروة الخروف التي تستعمل في السودان للصلاة عليها أو للجلوس أو للنوم فوقها.

الجيش ، ووجدته نازلاً قِبْلى حلَّة "بلاّنة" ، شمال "أبي سنبل" بنحو ميل أو أقل. قصدت صديقى (وابن عمتي وابن خالي) عبدالله حاج الحسن قديلاوي، فقلت له : « إني تركت أمى والحُسْنَى أختي في ضُل جبل لعجزهما عن متابعة السير، وجئتك تعطيني جملك أوصلهما به ». قال لي : «اقعد حتى يأتيك الجمل من البحر». بعد قليل حضر الجمل وعليه قربتان مليئتان بالماء ؛ فركبته، ولما وقف بي سمعت والدته تقول له: «يا عبد الله تعطي بابكر الجمل وعليه قربتا ماء ؟ »، فوقفت لأسمع رده عليها. فقال لها : «الجمل إذا سلم بابكر وأوصله البلد، نكون إبتَعنَاه رخيصاً وبعناه بأغلى ثمن». سررت لرده هذا ولكزت الجمل برجلي فانطلق بي حتى وصلت أمي والحُسْنَى. فأركبتهما عليه وقدته حتى وصلنا. لم أسقِ أياً منهما ولا غيرهما من القربتين حتى أنزلتهما بمنزلنا، ثم أدخلت الجمل لصاحبه وقلت لوالدته: «عمتي الحاجة آمنة هذا الجمل وهاتان القربتان لم يُحل وكاؤهما». فانكسفت وقالت لي: «الجمل يا ولدي جملك والماء ماؤك». لم أذكر لها ما قالت وانصرفت شاكراً عبد الله، الذي مكنني الله تعالى من مكافأته حينما إحتاج لي وأنا غني بحمد الله.

أنا والحمار بين الماء والنار:

في المساء في نحو الساعة الرابعة أخذت حمارينا ووضعت عليهما القِرْبَتَين ومشيت للبحر الذي وصلته بعد ثلاث ساعات لضعف الحمير. وجدت الوابور تقف في عرض النهر فربطت الحمارين وأخذت قِرْبَة واحدة، وربطت فمها في رقبتي، وتدحرجت حتى وصلت الماء، فرقدت فيه حتى بُلّ ريقي. ثم شربت وملأت قِرَبتي على مسير التيار، مخافة أن يسمع من في الوابور "الشلبقة"[1] فيضربوني. وبعد أن ملأتها أو كادت ربطت آخرها في صلبي وصعدت حابياً على أربع، دون أن أقف.

لو ترى يا قارئي ما قاسيته من الصعوبة لعجبت. لذلك لم أجرؤ على سقي الحمارين ولا ملء القربة الثانية، وما وصلت الدّيم إلا قرب الفجر، حيث صليت الصبح ونمت قليلاً. عندما صحوت بعت من القربة ستة أكواز من الماء بستة ريالات مجيدي اشتريت بها تمراً أخضر ولحماً جَقُوداً. بعت بعد ذلك أحد الحمارين بخمسة ريالات لمن يذبحونه ويأكلون لحمه؛ لأنه كاد يموت. رجعت مساء ذلك اليوم بالحمار الثاني الذي لم أجرؤ أيضاً على سقيه من البحر، ولكني حينما قعدت في الطريق لصلاة العشاء أعطيته قليلاً من ماء القربة في قرعة. وفي اليوم الثاني بعته هو الآخر بسبعة ريالات لمن يذبحونه. بعدئذ صرت آخذ القربة بنفسي كل يوم نحو الساعة الرابعة والنصف تقريباً؛ وأسير إلى البحر لأملأها بطريقة ربطها في بطني بحيث يكون فمها الذي تملأ منه مما يلي صدري، وفمها الثاني وهو الواسع الدائم الربط إلى صلبي. وكنت دائماً أصل البحر وأجد كثيراً من الناس واقفين خوفاً من الوابور الذي يكون مرابطاً وسط البحر بالقرب من المُشْرَع، فأضع حَرْبَتِي وأتدحرج وأنا راقد حتى أصل الماء الذي أجد برده ألذ ما يكون وأنا بملابسي لتساعدني رطوبتها على ترطيب جسمي المحترق من العطش وتعب المشي وحر الطقس. فإذا بُلّت القربة فَتحْتُ فمها تلقاء التيار وسُقت إليها الماء بلطف كما تقدم لئلا يظهر صوت"جلبقة"[2]

---

(١) شَلبَقة: أصوات تدفق الماء داخل القربة.

(٢) الجَلبَقة: (كالشلبقة) وتعني أصوات تدفق الماء داخل القربة.

الماء فينتبه لي من في الوابور. ثم أصعد ذلك المرتفع على أربع والقِرْبَة تجول فتضربني في حنكي وبين وركيّ، فإذا صعدت قمت وحملتها على كتفي وأخذت حربتي وسرت قليلاً، ثم أستريح قليلاً حتى أصل الدّيم سحراً. وفي مرة وصلته ضحى لأن بعض الأنصار من جماعة الغرب لاقوني في الطريق، وأرادوا أن يغتصبوا مني القربة بمائها، فتأخرت عن ميعادي في منازعتهم فجزع أهلي جزعاً شديداً وحزنوا على ظناً منهم أني قتلت؛ فلما رأوني سرّوا سروراً عظيماً. كنت أبيع كل يوم ستة أكواز بستة ريالات وأشتري بها التمر الأخضر "القَلُوْت" (بلغة أهله) ولحماً جَقُوداً لغذائنا، حيث كانا وجبتنا اليومية. وهكذا دواليك خلال العشرين يوماً التي أقامها الجيش في "بلانا".

حـــــوادث:

أعطتني حماتي[1] يوماً "سِّعْنَاً "[2] صغيراً لأملأه لها ماء، فلما وصلت البحر تدحرجت لأصل الماء بطريقتي المعتادة. وبعد أن ملأت السِّعْن غرزت له الحربة على الشاطئ وربطتها به وهو في الماء، فتحرك الوابور بقرب الشاطئ فإختبأت في حرش قريب مني لئلا يروني. وكانت قِرْبَتّي مربوطة حول بطني لم تملأ، فضرب الموج السِّعْن وقلع الحَرْبة فانساب السعن وغرق في الماء. ولما رجعت لمكاني بعد أن بَعُد الوابور لم أجد السعن ووجدت الحربة ملقاة، فأصابني الخوف من حماتي الصعبة فقلعت جِبَّتي وجعلت أغطس في البحر بلباسي حتى كدت أغرق وما وجدت السعن. فلما وصلت الدّيم وجدت حماتي بمنزلي وابنتها بجانبها تنتظر حضوري بالسعن فأخبرتها بضياعه وسببه وبحثي عنه. فصرفت وجهها المُغَبِّش عني وقالت: «هه.. بِعْتَه بكم ؟ » .. فإضطربت ابنتها كإضطرابي؛ لأنا أحسسنا بشر منها. هرولت حماتي راجعة إلى بيتها، وأخبرت أولادها وبِنتّيها الكبيرتين وطلبت منهما إما أن أترك كل عائلتي وأنقطع لنفقة بنتها أو أطلقها. فراجعها ولدها أحمد فلم تقتنع وصارت تعلي صوتها بسبّ أولادها وسبّنا. فأضطر أحمد أن يأتيني متكلماً معي وهو خارج البيت، لأنه أبى أن يدخل. كنت عند حضوره أضع رأسي على فخذ زوجتي لتخليل شعري من الغبار، فقال لي: «يا بابكر». قلت: «نعم». قال: «الآن صار الناس الذين كانوا في قرية صاروا في مكان بيت كبير والذين كانوا في حوش صاروا في مكان غرفة وغالبهم مكشوفون بلا حواجز ومتقاربون جداً».قلت: «صحيحاً!». قال: «إن أمي صممت على أن تطلّق البَقيع أو تترك كل المتعلقين بك وتنفق عليها وحدها، والأولى ممكنة وأنا جئتك لأخبرك بها؛ أيضاً فقد كثر سبّها لنا ولكم، والسامعون يظنون أنا مكشوفو حال، ولأجل أن نسكتها أنا جئتك طالباً منك طلاقها؛ على شرط ألا يتزوجها غيرك إن حيينا وإن متنا إفترقنا جميعاً». فقلت له: «أما يرضيك غير طلاقها على شرط ألا يتزوجها

---

(١) حماتي: أم زوجته البقيع بنت عثمان.

(٢) سِّعْن: كيس يصنع من الجلد أصغر من القربة لحمل الماء أو السمن.

أحد ؟». قال: «نعم». فرفعت رأسي عن حجرها وقلت له طلّقتها. فبكت وأبكتني ولكن هي بدموع عينيها وأنا بدموع قلبي، وافترقنا إلى اليوم. وسيأتي في مكانه ما حصل بخصوصها من تطور وأخذ ورد. وتذكرت في تلك الساعة كلام صخر خصوصاً البيت المشهور:

فايُّ امرئٍ ساوى بأمٍّ حليلةٍ　　　فما عاش إلا في شَقا وهوانِ

وأنا أهم بالحزم واستطيعه، فأخذها أخوها وبقيت مع أهلي أعولهم.

الهِمَّة عالية والمعدة خالية:

عين ولد النِّجُومي جيشاً برئاسة عبد الحفيظ شَمّت ليغير على قرية "سيْرِي" التي سبق أن غرِنا عليها وعبد الحفيظ شَمّت كان معنا في تلك الموقعة، ولما كنت أتأكد من أنهم لا يأتون بفائدة منها لم أصحبهم فيها. وهنا لي حادثة أحكيها لكم.. وهي أني طلبت من جارنا علي حمد الرفاعي حمارته لأصحب بها السَّرِيّة، وقلت له: «ما آتي به من الثمر عليها يكون بيننا مناصفة». فأعطانيها معتمداً ذلك؛ ولكني أبعدتها عن منزلنا ووضعتها في منزل خالي مصطفى عبد القادر، بجوار منزل عبد الله حاج الحسن قديلاوي، وكتفتها بين حجرين. فظلت راقدة؛ وأنا أجيئ إليها يومياً. وكنت احتاط لئلا يراني علي حمد قبل أن تعود السَّرِية. وكنت كلما أزور الحمارة كان خالي مصطفى يقول لي: «يا بابكر الحمارة دي لا هي ملكك تريد منها فائدة ولا هي لغيرك تخاف الله فيها». أقول: «والله لا هي ملكي أريد منها فائدة ولا هي لغيري أخاف الله فيها». فيقول لي: «الكلام ده أنا ما فاهم فيه شيئاً» - أي كلامك هذا غير معقول.

وبعد أيام رجعت السَّرِيّة بخفي حنين، فظهرت لعلي حمد الذي سألني عن حمارته فقلت له إنها فترت (تعبت) وتركتها وراء ذلك الجبل، فصدقني واقتنع بكلامي. ولكن أهله حرّضوه على أن يشتكيني للقاضي، وفعلاً شكاني له. فأخبرت القاضي بما قلته لعلي. فطلب علي حمد من القاضي أن يلزمني بالذهاب إليها فإذا وجدتها حية أدرجها، وإن وجدتها ميتة أجئ له برأسها. فطلبت منه ماءً وزاداً يوصلني إلى الجبل ويرجعني، ونويت إذا أعطاني الماء والزاد أبيع الحمارة لمن يذبحونها وأخرج رأسها من البيع وأحضره له. فقال للقاضي: «ما عندي ماء ولا زاد له». فقال له القاضي: «وهو غير ملزوم أن يخاطر بنفسه في الحصول عليها». فاقتنع وبعت الحمارة بستة ريالات. ولننتظر لننظر ما حصل بيني وبين علي حمد في أمدرمان سنة ١٣١٤هـ.

في ذلك الوقت نفسه كان لنا جار عنده ناقة، وما عنده قربة للماء؛ فقلت له: «أعطني ناقتك أسقها وأحمل عليها الماء بالنصف». فأعطاني إياها وصرت

أجلب عليها الماء أياماً. وفي يوم بَركَت في الطريق وتمرغت على القِرْبَتَيْن فوصلت الدّيم بماء قليل. مشيت بعدها إلى عمي[١] عبد الحليم مساعد وطلبت منه قِرْبَتَين بالنصف فأعطاني إياهما. فلما علمت والدتي ذلك قالت لي: «الناقة لهاالنصف والقِرْبَتان لهما النصف.. وأنت تدلّك[٢] الدرب!»، وذلك لأنها ما علمت حيلتي التي نويت عليها. علقت قِربَتيّ المخرقتين في عمد البيت وجعلت خروقها إلى أعلى، وصرت عندما آتي من البحر سحراً أغشى بيتنا أولاً فأفرغ إحدى القربتين في قربتي والباقي في المواعين[٣]. ثم أجعل في كل قربة من قِرْبَتيّ عمي عبد الحليم نصفهما، وأظهر له ولصاحب الناقة أني لا أستطيع حمل القربة ملأى ولذا تأتي ناقصة. بعد أيام ماتت الناقة وكان ذلك قبل قيام الجيش بيومين[٤]. وعندما أردت أن أرجع القربتين إلى عمي عبد الحليم حلف المدني مصطفى طلاقاً لا أرجعهما له بل نبيعهما وننفق ثمنها طعام يوم. فعلاً بعناهما وقلت لعمي عبد الحليم، الذي لم يعلم بموت الناقة، إنني عندما جعلت الماء في القربتين غرقتا من ضرب الموج للشاطئ. أخذت هذه الحيلة من غرق السِّعِن المشئوم؛ فاقتنع بذلك وقال: «فدتك القربتان والحمد لله».

وفي اليوم الذي تلاه أصبحت مهموماً كيف أطعم هؤلاء الناس، فأرسل لي عبد الله الحاج حسن، فمشيت له حالاً فقال لي: «خذ فرسي هذه وبِعهَا بالسوق». وكانت فرسه حرة جميلة، أعطِي فيها في بربر مائتي ريال وما رضي بيعها، لأنها مولودة عنده وعزيزة عليه. أخذتها إلى السوق فعارضني أحمد ولد بشارة ألا أبيعها، كأمر ولد النِّجُومي الذي يعرف الفرس جيداً ويعرف عدم حاجة عبد الله لثمنها؛ وذلك لأن ولد النِّجُومي كانت من ضمن زوجاته كلثوم بنت حاج الحسن شقيقة عبد الله. فقلت له: «يا سيدي.. عبد الله إذا ما هزلت الفرس لدرجة عدم النفع لا يرضى أن يبيعها». وركبتها أمامه ولززتها برجليّ

---

(١) عمي هنا يستعملها المؤلف للتعظيم للقائد الأمير عبد الحليم مساعد وليس للدلالة على صلة دم بينهما.

(٢) تُدلّك: من التدليك، أي تذهب وتجيء دون فائدة.

(٣) المواعين: الأواني.

(٤) تحرك الجيش من بلانا شمالاً في إتجاه توشكى يوم ٢٨ يوليو ١٨٨٩م.

الاثنين فما نهضت، بل طأطأت رأسها، ولوحت ذنبها، فصادق على بيعها. فبعتها بثمانية عشر ريالاً فأعطاني منها ستة ريالات. فقلت هذا رزق المساكين.

بعد أن مضى عليّ سبعة وعشرون يوماً لم أذق فيها طعام العيش[١] ضعف بدني، رغم نشاط همتي وهمي بأهلي. ولكني كنت أشعر بالوهن أكثر بعد العصر حيث كنت أزحف "لقطع الجُمَار"[٢] الخفيف بعيداً عن النساء، وأرجع زاحفاً وأتيمم وأصلي. كان تكبيري أنيناً، ومع ذلك إذا عرض لي المصحف أحلف عليه إنا نفتح مصر !!.. انظر لهذه الروح المعنوية وأنسبها إن شئت للعقيدة أو للطيش أو الجنون لأنك لا تستطيع أن تنكر وجودها.

وفي يوم كنت جالساً كعادتي أمام منزلنا[٣] الذي يمر الطريق شرقه فجاء ولد النِّجُومي ومعه نفر قليل فأدركتهم صلاة المغرب أمام منزلنا، فأمّهم ولد النِّجُومي وبعد أن كبّر أصابه دوران وأظنه من الجوع فجلس على الأرض بعد أن سَلّم. فقلت له: «الله يعزّك يا ولد النِّجُومي بعد هذا الذل !». قلتها ثلاث مرات بأعلى صوتي. فالتفت إليّ ووضع يده على فمه وتبسم، ثم نهض قائماً بعزم وكبّر بأعلى صوته وصلى وتم صلاته بأحسن ما يكون.

ومن الحوادث أن بعض النساء صرن يجمعن بذرة القرظ ويغلينها حتى تلين فيحمصنها ويبعنها في السوق فكان ملء الفنجان بقرش صاغ. وقد رأيت أحد الأمراء الممتازين، وكان من أعقلهم وأعظمهم وأشهمهم، جالساً وسط النساء اشترى فنجاناً منهن فأكله. ومن الحوادث أني اشتريت يوماً لحماً من السوق

---

(١) ذكر المؤلف فيما سبق (صفحة ٨٧، ١١٢، ١١٧) أن طعامهم كان قليلاً ويتحصلونه بمشقة ومعظمه من التمر الأخضر ولحم الإبل الهزيلة وليس فيه عيش (أي دقيق الذرة) ونتيجة لذلك وهنت أجسامهم، كما يذكر هنا.

(٢) قطع الجمار: التبول أو الاستنجاء.

(٣) المنزل: يعني به المؤلف الستار أو الخيمة التي يصنعونها من الثياب لسترهم عن جيرانهم في المعسكر.

ولما طبخوه وجدنا له خيوطاً لم نألفها في لحم الإبل وبالسؤال علمت أنه لحم حصان فلم أشترِ بعدها لحماً إلا سَهماً [١] من جمل. رغماً عن ذلك سررت حيث أني ذقت لحم الخيل في عمري.

ومن الحوادث أيضا أني فقدت أختي من أبي وكان عمرها نحو خمس سنوات، وما فَقدتّها أمها حتى وقت الغذاء فأخبرتني عنها. فقمت بالبحث عنها وسِرتُ حتى وصلت بعد أبي سنبِل، حيث وصلته حراناً متعباً فرقدت في ظله على الرملة الباردة حتي كدت أنام. ثم رجعت بطريق آخر فوجدت البِنَيّة ميتة فدفنتها من غير غسل ولا صلاة ورجعت وأخبرت والدتها التي لم تبد أي تأثير فقلت: «لله در الشدة، هذا من فوائدها؛ كما قال المثل السوداني: إن جَاتك في أم سَمْبُوك تَنَسّيْك أمّك وأبوك». أي اذا أصابتك الشدة في ذاتك تلهيك عن غيرك.



معبد أبو سنبل الذى وصله المؤلف خلال بحثه عن اخته أثناء الحملة لغزو مصر.

---

(١) سهماً: جزءاً كبيراً أو قسماً من أنصبة أو أسهم.

لا تجدوا عندنا إلاَّ جبِةَّ مَتْرُوْزَة وحَرْبَة مَرْكُوْزَة:

جاء في هذا الدَّيم لولد النِّجُومي كتاب من قائد الجيش الإنجليزي يقول له ما معناه : إن الخليفة عبد الله عزلك وولي ابن عمه يونس مكانك وأرسلك بلا ذخيرة ولا مؤونة وغرضه يرتاح منك ومن جيشك لأنكم قوة يخشى بأسها، فإني أنصح لك أن تسلم فستجد منا ما يسرك؛ وعدد له أشياء تغري غير ود النِّجومي. وأخبرني محمد نور كاتب تحريره (وهو جد مكاوي أفندي سليمان المصري لأمه) أنه ـ أي ولد النِّجُومي ـ قال له: «أكتب له فقل له أنا بايعت المهدي وخليفته على الجهاد وسأستمر مجاهداً فإن قتلناكم نجد عندكم ما حكيته لنا في كتابك وإن قتلتمونا لا تجدوا عندنا إلاَّ جبِّة مَتْرُوْزَة وحَرْبة مَرْكُوْزَة[1]».



«الجبة المَتْرُوزَة و الحَرْبَة المَرْكُوزَة»

(١) الجبَّة هي الجَلاَّبِية (الجلباب) القصيرة، والمَتْرُوْزَة أي المُرقّعة التي يلبسها الأنصار، ومعنى الجملة هو أن الأنصار لزهدهم في الدنيا ليس لديهم غير تلك الجبة والحربة التي يحاربون بها، لذا فلن يجد الجيش الإنجليزي غيرهما لديهم.

وفي هذا الدّيم جاءنا عبدالله ود سعد والعباس العِبَيْد[1] مددا بجماعتهم. ومن الحوادث أن ولد النِّجُومي جمع الأمراء يوما في ظل جبل شرق الدّيم وسمعته يقول لهم وهو واقف: «من أراد الرجوع منكم فليرجع فاني لا أمنعه، أما أنا فاني بايعت المهدي (عم) على الجهاد في سبيل الله حتى الموت، وسأموت شهيدا حيث لا أمل لنا في النصر، واني أنصحكم أجمعين الا ترجعوا، فوالله من رجع لا يكون له عائلة ولا مجاهد» - أي يعامل معاملة الذُل ولا يمكنه أن يدفع عن نفسه. هذا سمعته من لسانه (رحمة الله عليه) فذكّرني كلام عبد الحليم مساعد لعمي علي شكاك بصرص . . «إذا مشيت معنا ترجع مُنكِرا».

رجع من هذا الدّيم عمي علي شكاك وترك امرأته وأخاه جريحا، وأيضا موسى ولد الشامابي ترك زوجته ووالدته، اللتين رجعتا معا مع المنصور ولد أبي كوع، الذي حمل خادمته على جمله وركب هو حماره، أما المرأتان فقد سارتا على أرجلهما. وعلمت أنهم عندما وصلوا "شُونة الحديد" هزل الجمل فذبحوه قُبالَة "خور موسى باشا" بالغرب. وفي المساء أكلوا دمه أولا بعد أن نضجته[2] لهم الخادمة وباتوا يشوون ويأكلون من لحم الجمل حتى أصبحوا، فحملوا ما تبقى منه حتى جلده وعظامه فصدق عليهم المثل القائل: «أربعة شالوا (أي حملوا) الجمل والجمل ما شالهم».

---

(١) عبد الله سعد فرح كان الناظر لقبيلة الجَعَليِّين في شندي بعد أخيه علي، وقد هاجر للمهدي بكردفان عام ١٨٨٤م. وهنا أرسله الخليفة عبد الله عام ١٨٨٩ على رأس جنود من الجعليين لدعم جيش ود النِّجُومي. ولكنه فيما بعد (عام ١٨٩٧م) رفض طلب الخليفة له باخلاء مدينة شندي عند بدء حملة كتشنر لإعادة غزو السودان فأمر الخليفة جيش محمود ود أحمد بالإستيلاء على شندي عنوة وقتل عبد الله ود سعد (شقير، صفحة ٨٨١ - ٨٨٢). أما العباس العِبَيْد فهو ابن الفكي (الفقيه) العبيد ود بدر أحد الفقهاء المشهورين في إقليم النيل الأزرق ووسط السودان (انظر ملحوظة ٢ صفحة ٤٢). وكان العباس يشارك أباه في مناصرة المهدية وقاد معه واقعة الحلفاية في ١٣ مارس ١٨٨٤م في بداية حصار الخرطوم. وهنا فقد أرسله الخليفة مع عبد الله ود سعد لدعم قوات ود النِّجُومي، وكان وصولهما "ببلانا" يوم ٢٥ يوليو ١٨٨٩م.

(٢) نضجته: أى أنضجته، أى طبخته

بعد خطبة ولد النِّجُومي أخذ الناس يرجعون، وممن رجع منا البتول أختي وزينب بنت شيقوق زوجة والدي فنجيتا من الأسر. تحرك الجيش من بلانا بعد عشرين يوما بحالة نهائية من الضعف. من ذلك أني أعرف رجلين وزوجاتهما تركوا ولديهما الهزيلين لعدم استطاعة الولدين على المشي وعدم إستطاعة الرجل وامرأته على حمل ولديهما لأن عمر كل من الولدين كان بين السابعة والعاشرة ـ ولا أعلم بالضبط عمريهما ـ فأخذ الولدان يصيحان : «يا أمي يا أبي تركتمونا وهل تلدون أكبر منا ؟»، والوالدان كأن لم يسمعا حديث ولديهما. يا ترى على من يقع إثم موت هذين الطفلين البريئين ؟.

صار السير بطيئا، وقد تَرَك التُّرُك قتل الأسرى، فلما تأكد الناس من هذا الخبر، صار كثير منهم يتعرض للأسر إما رغبة فيه أو ينزل لجلب الماء أو للنخيل للتمر فيؤسر. وكنت أنا والمدني مصطفى نأتي بالتمر من النخيل، الذي صار الجيش يقطعه ويكدسه على الشاطىء ويخبىء العساكر على بُعد منه؛ فاذا حمل الأنصار التمر وكروا راجعين ظهر لهم هؤلاء فأسروهم. وفي مرة حملنا التمر ورجعنا، ومعنا أربعة آخرون، فلما أشرقت الشمس أحاط بنا نحو عشرون عسكرياً سودانيين[١] وبأيديهم بنادقهم، فلما رأيناهم على بعد جلسنا على الأرض علامة التسليم، هذا لأنا لا نستطيع الجري منهم، فضلا عن الهجوم عليهم، فأسرونا[٢]، ومن العجيب لم يأمرونا برمي السلاح والابتعاد عنه هواناً بنا. فأرسلوا معنا أربعة منهم ونحن ستة فأبحروا بنا[٣] حتى وصلنا محل الأسري. هناك أدخلونا على ضابط يدعى خير الله أفندي وهو مصري برتبة بكباشى، فأمر لنا برغيف يابس. فلما مُدّ لي نصيبي قلت لهم لا أريد طعاما وذلك لأن بالى كله كان مشغولاً بوالدتي التي تركتها في الخلاء وشقيقاتي والطفلين. فقال الضابط: « أتركوه، هذا لا يأكل طعام الكفار». قلت له: «أنتم

---

(١) انظر ملحوظة ٤ صفحة ٥٢.

(٢) يبدو أن المؤلف أسّر في آخر يوم من يوليو ١٨٨٩م، لأن معركة توشكى حدثت في ٣ أغسطس أي بعد ثلاثة أيام من أسّره .

(٣) فأبحروا : أي ساروا بنا في اتجاه الشمال.

لستم بكفار وإذا كنتم كفارا فطعامكم حلال لنا، فقد قال الله تعالى: ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم﴾» . فقال لي: «أنت تحفظ القرآن ؟». قلت: «نعم». قال: «اقرأ لِنا ربعاً». فبدأت من أول سورة البقرة فلما وصلت ﴿إن الله لا يستحي﴾ قال الضابط: «صدق الله العظيم»، ثم نادى: « يا أمباشي عفيفي . . هذا الرجل ينزل البحر ويأخذ البلح ويتنقل في المعسكر كما شاء ولا يحجز إلا إذا مشى للدراويش»؛ فنفعني القرآن العظيم. وتذكرت بهذا الموقف قول الرجل الذي صحبته إلى مدني حيث قال: «القرآن لا يرميك واذا رماك يرميك على برِش».

ثم خرجنا من عنده إلى المعسكر، فوجدنا كثيراً ممن عرفنا، وكنا ظننا أنهم ماتوا. في تلك الساعة قال لي المدني ـ الذي ترك زوجته وبناته بالجبل ولا يعلم عنهن شيئاً ـ بإلحاح أن أحضر له تمراً من الكوم الذي بالقرب منا. فذهبت وأحضرت له التمر، ولما رآني لا آكل صار يلح علي في الأكل قائلاً: «يازُوْل أنت كافر، الزُوْل يموت والده ووالدته ولا يبطّل الأكل». وأخيراً حلف عليَّ طلاقا فأكلت قليلا بلا نفس.

وفي عصر ذلك اليوم جاء حسن حبشي ـ صهر عبد الحليم[1] ـ وبسط للقائد الانجليزي «وود هاوس» حالة الجيش، وكان اليوم يوم الخميس، فاستعدوا في يوم الجمعة، وفي يوم السبت (٣ أغسطس ١٨٨٩م) سحراً تقدموا. ولما صارت الساعة نحو الرابعة مساء، جيء بجنازة ود النِّجُومي لنا في الأسر، وعُرِضت للتأكد من شخصيته. وكان مما ظهر لنا بجسمه ضربة جَلَفَّة[2] في ساقه لأنه كان لابسا جِبَّته، والغبار بلحيته الجميلة كان يبدو وكأنه رجع من العَرْضَة ولم

---

(١) حسن حبشي : كان من أوائل الكُتّاب في المهدية وعمل كاتباً مع عبد الحليم مساعد منذ حروب المهدية الأولى مثل شيكان وأيضاً أثناء الحملة لغزو مصر، وكان صهره في الوقت نفسه. لكنه فَرّ من جيش ود النِّجُومي ولجأ للجيش التركي المصري في ٢٢ يوليو ١٨٨٩م وأخبرهم بالحال في جيش الأنصار مما عجل بإنهزام ود النِّجُومي في واقعة توشكى في يوم السبت ٣ أغسطس ١٨٨٩م (شقير، صفحة ٧٨٨).

(٢) جَلَفَّه : جرح غير عميق.

تظهر عليه كآبة الموت، رحمه الله رحمة واسعة. وقد قال شاعرهم بعد موت ولد النِّجُومي شعراً كثيراً أذكر منه بيتاً واحداً:

ولد النِّجُومي التي كانت مصيبتنا

الله مَوّتَه في طوشكى يا أخينا

ولا تسأل عما أصابه هذا الشعر في نفوسنا ولو كنا نستطيع دفاعاً أو إجابة ما تأخرنا.



لوحة مرسومة لعبد الرحمن النِّجُومي
بعد مقتله فى واقعة توشكى قام برسمها أحد الجنود الأنجليز

الفصل الرابع

صفحة

أسـرى بمصـر:

في صباح اليوم الثاني لوصولنا للمعسكر (الأحد ٤ أغسطس ١٨٨٩م) جاء عسكري مصري فأمسك بيد ستّنا زوجة الأمين إدريس الرُّباطابي، وكانت جميلة بقيافتها لحضورها في السَّرِيّة[١] الأخيرة؛ فأتّبعها زوجها وسرنا معه أنا وأولاد إلياس وأولاد رحمه ولد الحِميلي، حتى وصلنا باب السور المحيط بصيوان الضابط الكبير. فصار العسكري قابضاً على يدها الشمال، وزوجها يمسكها بيدها اليمين، والعسكري يريد إدخالها السور ونحن وزوجها نَجْبِدها[٢] للخارج. فلما رأى الضابط منازعتنا العسكري خرج لابساً قميصاً ورداء ورأيناه كلنا منعظاً. فلما وصل لنا قال بلهجة قوية: «أطلقوها»، فأطلقناها كلنا إلا زوجها لم يطلقها، فرجعنا وأمسكناها معه. فقال الضابط لزوجها: «مثلك لا يتزوج مثلها». فقالت له: «والله هو زوجي وابن عمي». وفي أثناء هذه المحادثة، رأينا وود هاوس باشا (القائد الإنجليزي) قادماً على جمله، إلا أن الضابط لم يره لاتجاهه عكس الجهة القادم منها. فلما رآه الضابط ترك البنت وجرى ليلبس لبسه الرسمي. ولما حضر، وجد وود هاوس باشا قد عرف القصة منّا كاملة. وبعد أن قدم التعظيم الرسمي قال وود هاوس باشا له: «أنت البكباشا[٣] وأنا اللواء». ثم أمر الرجل بالإنصراف وتوجه معنا وجعل للنساء موضعاً خاصاً منعزلاً عن مكان الرجال وأمر ألا يصلهن رجل قط.

وفي صباح الغد إمتلأ المعسكر بالأسرى فأمروا بنقلنا إلى الشرق، وكان العسكري الخفير علينا في المَعْدِيّة ينظر إليّ كلما رفعت رأسي له، ثم إنتقل بجانبي وقال لي: «ما جنسك ؟». فقلت: «رُبَاطابي». قال: «من أبوك ؟». قلت: «ود بدري». قال لي: «أنت بابكر ؟». قلت: «نعم». قال: «هل

---

(١) السَّرِيّة: كما مشروح في (ملحوظة ١ صفحة ٧٨) هي الفوج من الجنود. وبما أن جيوش المهدية كانت تتكون من المحاربين وأسرهم فإن ستّنا هذه وصلت مع أحد هذه الأفواج الأخيرة التي أتت للانضمام لجيش ولد النُّجومي، لذا إحتفظت بجمالها (وقيافتها) لأنها لم تتعرض للجوع والمشاق مثل باقي النساء ممن فقدن جمالهن بسبب طول اشتراكهن في الرحلة لذلك الغزو.

(٢) نَجْبِدها: أي نجذبها وقد حصل فيها قلب كما في اللغة العربية (ضرار).

(٣) بكباشي: رتبة عسكرية تعادل حالياً المقدم.

عرفتني ؟». قلت: «لا». قال: «أنا العسكري الذي أخرجني والدك من "قَيْقَر صالح"[1] وأقمت معكم، وكنت يوماً حلفت بسيدي الحسن وأنت قلت تضربني حق الله». قلت له: «أنت أحمد ود علي». قال: «نعم». قلت: «الحمد لله لأني في غاية الحاجة إليك». قال: «هل معك أحد من أهلك ؟». قلت: «ذاك المدني مصطفى». فذهب له وسلم عليه ثم رجع لي؛ فلما خرجنا بالشرق في المعسكر جاءني وقال: «أنا أمرت أن أذهب إلى سجن حلفا بالبوستة[2] اليوم فهل لكم حاجة بحلفا ؟». قلت له: «لنا حاجة بين هذا المعسكر وحلفا وهي أن يكون طريقك بالغرب فتسأل عن أمي والسَّهْوَة وأم طُبول ومن معهن، وإذا وجدتهن فأعمل اللازم في تعديتهن إلى الشرق بكل وسيلة وأخبرهن إني والمدني هنا، وسر في طريقك فإذا رجعت من حلفا بالشرق فتمكن من وصولهن لنا». فسافر بالغرب ولما إجتمع بهن أوصلهن إلى الشرق وأعطاهن عَلُوْق[3] جمله. فسرن تحت الظلام حتى وصلن حلة "أشكيت" حيث حللن على العمدة دهب، الذي سمح لهن بأخذ الزعف من النخيل؛ فصرن يعملن مقاطف ويحملنها على رؤوسهن إلى "التوفيقية" يبعنها فيشترين بها الطعام والأدام وهكذا.

---

(١) انظر وقائع تلك المعركة في الفصل الأول صفحة ٤١ ـ ٤٢.

(٢) البوستة: يقصد أنه أمر أن يسافر حاملاً البوسطة أو البريد.

(٣) عَلُوْق: الذرة التي تقدم لإطعام الحيوان.

إلى سجن الشَّلاَّل:

أما نحن فقد أرسلونا صبيحة يوم سفر أحمد علي إلى سجن "الشَّلاَّل" في مركب الحوادث التي تسافر بين المعسكر والشَّلاَّل. لما وصلنا بلدة قبل "كُورُسكُو" بها نخيل يحمل رطباً، جاءني العسكري الخفير علينا، وهو من المصريين، وأمرني أن أطلع أحدى النّخلات وآتيه منها برطب، وأعطاني منديله. ولما وصلت الرطب طلبت مني بنات، كن جالسات تحت النخلة، أن أرمي لهن رطباً. فصرت أرمي لهن تارة وأجعل في منديل العسكري أخرى. فرآني الضابط - الرئيس الأعلى على الأسرى - فصاح عليّ أن أنزل. فأخذت في النزول، وأثناء نزولي من النخلة أوسعني ضرباً بسوط عنج كان في يده. ولما وصلت الأرض قال لي أشبُط[١] النخلة وكان صدري عارياً فشبطت النخلة وصار يضربني حتى أدمى ظهري. ولما تركني قلت له: «أنا مظلوم»، فصفعني على خدي. فكررت له: «أنا مظلوم». فقال لي: «من ظلمك ؟»، فقلت: «ضربتني قبل أن تسألني». قال: «رأيتك بالنخلة». قلت: «أمرني العسكري»؛ فأنكر العسكري أنه قد أمرني. فقلت للضابط: «هل أنا عندي منديل ؟.. هذا منديله !». فاقتنع وأمر بحبسه قِشْلاَقاً[٢]. هذا الضابط كان هو علي أفندي بن حسن باشا الجويسر[٣] الذي كان مديراً لكُرْدُفَان في التركية السابقة[٤].

في أثناء الرحلة، ونحن لا زلنا بالمركب، إتحد عمي محمد أحمد شكاك مع آمنة زوجة أخيه علي شكاك - الذي هرب منها - وتزوجها عمي محمد أحمد

---

(١) أشبُط: أي أقف واضعاً صدري على جذع النخلة وأمد ذراعي حولها.

(٢) قِشْلاَق: معسكر الجيش، وحبسه قِشْلاَقاً يعني أنه بقي حبيس المعسكر.

(٣) حسن باشا الجويسر هو ضابط من أصل تركي شغل منصب حاكم مديرية كُردُفَان لفترتين خلال الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر (تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي، ١٩٦٩، صفحة ٨١).

(٤) التُركية السابقة: إصطلاح يعني الحكم التُركي للسودان منذ بداية غزوة الأول بواسطة جيوش محمد علي باشا في عام ١٨٢١م إلى بداية الثورة المهدية عام ١٨٨٥م.

فعلاً. لما وصلنا كُوْرُسكُو أعطاني الشيخ العاقب (الذي كان قاضي السَّرِيِّة) ريالاً كبيراً [١]، وقال لي: «إشتر لنا منه زاداً من السوق». شهد عمي محمد أحمد الريال فأخذه مني وحلف طلاقاً أن لا يرجعه لي، فرجعت إلى الشيخ العاقب وقلت له: «الريال ضاع مني»، فسكت؛ ولكن ظهر على وجهه أنه اتهمني بسرقته. ثم قال لي: «أنت ولد بدري ماذا أقول لك ؟». انظر ما آل إليه أمر شيخ العاقب فيما بعد كُوْرسكُو.

جاءنا خلال تلك الفترة موسى الشّامابي الذي ترك زوجته وولدها ووالدته معنا "ببلانا"، جاء من السودان لأجلها فوجدها تزوجت برجل من كُرُوسكُو قبل يومين فقط من وصوله، وولدها منه توفي. فقابلته حماته عائشة بنت قِشّلابي وأخبرته بما حصل، فجاء إلى أمي ليوسِّطها لعائشة وبنتها لرجوع زوجته إليه دون الزوج الجديد، لكنها رفضت التوسط له.

---

(١) الريال الكبير يساوي عشرين قرشاً أي ضعف قيمة الريال العادي، واستمر كل منهما مستعملاً في السودان حتى الاستقلال عام ١٩٥٧م.

في سجن الشَّلاَّل:

وصلنا الشَّلاَّل نحو الساعة الرابعة مساء، فورد علينا الأهالى وكل يحمل بيده ما يؤكل وأكثره رغيف قمح طازج، وصاروا يرمون ما عندهم في النهر لأن المركب بعيدة عن البر ولا سَقَايِّل[1] عليها. فجعل المساجين من الأسري يعومون في البحر ويلتقطون ما يرمى إليهم. كنت أجلس مع الشيخ العاقب على السطح في مؤخر المركب "البطونة"[2]، ورأينا محمد الفضل ومعه آخر بينهما رغيف، فإذا أخذ الرغيف الشخص الآخر، يغطِّسه محمد الفضل فيطلق الرجل الرغيف من يده فإذا طفى الرغيف ورفع محمد الفضل يده من عنقه، أسرع فقبض ذاك الشخص الرغيف قبل محمد الفضل وهكذا. فقال لي شيخنا العاقب: «قم آتنا برغيف نأكله نحن جائعون». فقلت له: «يامولانا إذا جئتك برغيف بهده الحالة (وأشرت إلى محمد وصاحبه) أأنت تأكله مطمئناً ؟». فقال لي بشهامة: «لا والله لا آكله»، وأضاف: «شائب أخطأ وشاب أصاب». فما برحنا مكاننا وإذا بمنديل به رغيف ورُطَب رماه صاحبه فوقع بيننا فأكلناه، ثم صلينا المغرب في مكاننا.

أدخلونا بعد وصولنا الشَّلاَّل السجن وهو سور مربع لم يكن به ما يُظلِ غير مكتب الحرس، فجعلوا النساء في سور آخر به غرف ومظلات والرجال في السور الكاشف. دخلنا السجن ووجدنا غذاءنا الذرة اليابسة لكل شخص كوز قدر رطل في الضحى بعد مأمورية الصبح في الخدمات المتنوعة، وكوز عند غروب الشمس نأكله عليقة كعليقة البهائم. أما المجروحون والمرضى يصرف لهم "بُكسُمَات"[3] وطبيخ؛ وطال بنا مضغ الذرة. ثم عينوني لرش بيوت الجيران، فأعطاني صاحب أحد المنازل قرشاً اشتريت به سكراً من دكان بقرب السجن. والسبب الذي جعلني أشتري السكر هو أن العسكر المعينين لحراستنا

---

(١) سَقَايِّل: ممرات من الخشب أو الحديد للوصول من شاطئ النهر إلى القارب.

(٢) بطونه: الباخرة الصغيرة التي تستعمل في نقل الركاب والأشياء بين شاطئي النيل أو لمسافات قصيرة فيه.

(٣) بُكسُمَات: بسكويت أو خبز ناشف.

كانوا يسألوننا عما إذا كان معنا "عِرق مَحَبَّة"[١]، ويصفوه لنا بأنه حلو الطعم. فجئت بالسكر وجعلته في كوز، وأخذت عروقاً من جُمّيزة واقعة عند باب السجن ووضعتها في الكوز طوال الليل، ثم أخرجتها حتى يبست. وكان عندي جُراب[٢] صغير قديم فقطعت من فم الجُراب قطعة صغيرة من الجلد أخرزها[٣] حول العِرق وأحك جانباً من الجلد على شئ خشن مثل حجر، أو على ظهر قدح خشبي، حتى يبدو طرف العِرق ليُذاق طعمه. وجعلت عمي محمد أحمد شكاك سمسار يدلهم عليّ، فصرت أبيع العِرق بقرشين إلى أربعة قروش، وبها نشتري الرغيف من الخارج تارة ومن طباخ السجن تارة.

اتفق أن اشترى مني عسكري يدعى إبراهيم بحيري عِرقاً بأربعة قروش، وظلمني فيها فاشتكيته إلى الجاويش الذي وبّخه وأجبره على الدفع فحقد عليّ. ولما جاء يوم عاشوراء طلبني وأوقفني في ميدان المجرمين أمام الحجارة الكبيرة التي يرفعونها ويضعونها كعقوبة، وقال لي: «بِير»، (كلمة تركية بمعنى واحد) لأرفع الحجر فما قدرت على رفعه. وصار يضربني بكفه حتى سال الدم من أذنيّ الاثنين على عنقي، فجاءه الشيخ العاقب وعاتبه عتاباً شديداً وهدده. فلما جلست بمكاني، ملأ مقطفاً كبيراً من البَليلَة التي عملت للنساء ذلك اليوم، ملأه من القدر مباشرة وأمرني بحمله، فحملته وسار ورائي حتى دخلنا سور النساء. فجعل يأخذ لكل امرأة كوزاً من البليلة وهي على رأسي وأحس بغليانها في مخي لشدة حرِّها حتى فرغت كلها. كان يريد أن يعذبني بها ولكن الله أرادها لي علاجاً حيث إنني لم أشعر ألماً في أذني بعدها. ولكن يحدث إذا عُمت في البحر مدة طويلة يخرج الدم من أذني يابساً لفترة ثم ينقطع.

---

(١) عِرق المَحَبَّة: هو عرق شجر يعتقد العامة أنه إذا عينه عارف يمكن به أسر قلوب من يحبونهم.
(٢) جُراب: حقيبة أو كيس بسيط يصنع من الجلد لحمل الطعام أو الأشياء فيه.
(٣) أخرزها: أخيطها، أي أنه يقطع قطعة من جلد الجراب ويلفها حول عِرق الشجرة الصغير ويخيطها.

في هذا السجن مرض عمنا الفضل الصادق ومات به ليلاً، فأصبح إلى الظهر حتى سمعت به. فتوجهت إلى أولاده وقمنا أنا وعمي محمد أحمد شكاك وأحمد عثمان بحمل الجنازة لدفنها خارج السور. فحفرنا الحفرة وأردنا أن نعمل "اللّحد" فقال لنا العسكري الخفير علينا: «أدفنوه»، وكاد من معي أن ينصرفوا فحبستهم حتى صلّيت عليه وهو في قبره.

قلت كنا نأكل الذرة عَلِيْقَة، ولكن كلما زار ماهر بك أو وود هاوس باشا السجن ـ وكنا نعرف يوم زيارة أحدهما ـ فإن العساكر ينزلوننا البحر نغتسل ويحضروا لنا طعاماً غير الذرة. فما نشرع في الأكل حتى نسمع "الكَرَكُوْن"[١] يقول: «كَرَكُوْن سلاح»، فيدخل ماهر بك أو اللواء وود هاوس باشا فيجدنا نأكل البُكْسُمَات، ونأكله غالباً بالطبيخ. وفي مرة شكونا لماهر بك بخصوص الصلاة على أمواتنا، فوافق على الصلاة والكفن والغسيل.

كنت دائماً من المتقدمين الأوائل للخدمة لإحضار الماء أو الفحم أو غيره من الخدمة العادية. وفي أحد الأيام تأخرت عمداً ظناً مني أن من يتأخر يرتح، ولكن طُلب مني أن أحمل العَذْرَة بسور النساء، فلما علمت ذلك ـ ولا يسعني إلا الطاعة ـ ندمت. ولكن حدث وأنا أمشي وأنظر يميناً وشمالاً أبحث عن آلة آخذ بها العذرة من الأرض، لقيت قطعة صفيح حملتها مع القصرية[٢] وجلست بعيداً والعساكر الثلاثة الحُرَّاس يقفون بعيداً بعكس جهة الريح وجماعتنا وضعوا قصرياتهم يتذمرون، فناديت أحمد عثمان من بينهم وأعطيته الصفيحة وقلت له: «إملأ قصريتك بهذه قبل أن يأتي العساكر»، فعمل بمشورتي. وعلى حين غفلة بدأ العساكر يصرخون فصار كل واحد من جماعتي يأخذ العذرة بيده ويضعها في قصريته، أما نحن فحملنا قصرياتنا أمامهم للمكان المعد لوضعها ونزلنا البحر واغتسلنا ثم رجعنا إلى السجن. ومن ذلك اليوم صرت أبادر لأخذ

---

(١) الكَرَكُوْن: من كلمة قراغول التركية التي تعني الخفراء أو الحراس المرابطون عند الباب الخارجي للمعسكر أو السجن.
(٢) القَصْرِيّة: إناء لحمل العذرة.

الجردل لجلب الماء حتى نُقلت إلى سجن أسْوَان[١].

كان بجزيرة أصْوَان[٢] الملك طَمبّل[٣] وهو من ملوك "أرقو"[٤] وعبد النعيم ـ الذي يسميه الأنصار عبد القيوم ـ وهو من "كيِمُتو"[٥] بالمَحَس، والاثنان كانا قد هاجرا من السودان مع مصطفى باشا ياور[٦] في صُلب الجيش الإنجليزي. فأرسل الملك طَمْبَل ولده ليخرج أسرى الدناقلة بضمانته، وكذلك عبد النعيم أرسل ولده لأسرى المَحَس. وكان الكاتب المقرر بالشَّلاَّل هو أحمد الحكيم، وهو من الأسرى وكان صديقي، فقدمت نفسي مع الدناقلة وكتبت اسمي عنده؛ فنُقلنا أجمعين إلى شُونة أصوان. في العصر جاء ماهر بك ليصدق أسماء وأجناس وصفات كل واحد من الأسرى، لتدوّن في الدفتر الخاص بالأسرى ممن سيتم فَكّهم بالضمانة، وأسماء من سيضمنونهم. فلما دخل قال لصالح بن عبد النعيم: «أين جماعتك ؟». فتقدموا له وكانوا قليلي العدد فسمح بهم. ثم قال لابن الملك طَمبّل: «أين جماعتك ؟». فاصطففنا صفوفاً، ولما رأى كثرة عددنا التفت إلى ابن الملك طَمْبَل وقال له: «أبوك ماهيته ثلاثون جنيهاً، يسكر بعلمي في الشهر بسبعة عشر جنيهاً، كيف يؤكل هؤلاء بالباقي ؟» وأومأ إليه "بمِنَش" [٧] كان في يده ثم انطلق جارياً، فردّونا إلى الشونة ليَضمنّا أصحاب المروءة.

---

(١) و (٢) أسوان أو أصوان هي المدينة المعروفة في جنوب مصر.

(٣) قال لي خضر بدري أخ المؤلف في يناير ١٩٨٩م إن الملك طمبل هو ابن عم الزبير حمد الملك شيخ قبيلة الدناقلة المشهورة في شمال السودان. والذى توفى فى عام ١٩٨٩ عن عمر يقل قليلا عن التسعين سنة

(٤) و(٥) أسماء قرى في شمال السودان (انظر الخريطة ملحق ١).

(٦) مصطفى باشا ياور كان ضابطاً في الجيش المصري وهو من أصل شركسي، وعمل حاكماً لبربر ودنقلا في بداية المهدية؛ وقد حاول المهدي إستمالته إليه ولكنه بقي مواليا للنظام المصري التركي وانسحب عام ١٨٨٥م مع الجيش الذي جاء لإنقاذ غردون. (تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي، صفحة ٨٤).

(٧) مِنَش: مضرب مكون من عصا في آخره خصلة من الشعر يستعمل لطرد الحشرات والذباب.



السيد خضر بدرى أخ المؤلف الأصغر

اضطجعت على ظهري بعدها وصرت أقرأ القرآن، فمرّ بي ماهر بك ووقف قليلاً وسمع قراءتي فتحول لوجهي. قمت مسرعاً فقال لي: «أتحفظ القرآن كله؟» قلت: «نعم والحمد لله». فقال لي: «أتحب أن أرسلك مصر إلى منزلي وتقرأ في الجامع الأزهر وتعيش مع أولادي ؟». قلت: «كان هذا خيراً سعادتك ولكني تركت والدتي وشقيقاتي في الجبل، وأريد أن أخرج من هنا لأتحسس خبرهن، إذا وجدتهن قد مُتن أتخير في أمري، وإذا كنّ في مكان ما بالقطر المصري أسعى في اجتماعي بهن . وإذا رجعن إلي السودان أطمئن عليهن؛ لأن والدي وأخي الأكبر موجودان هناك». سُرَّ من حديثي معه وقال: «جميل والله يجمعك بهن».

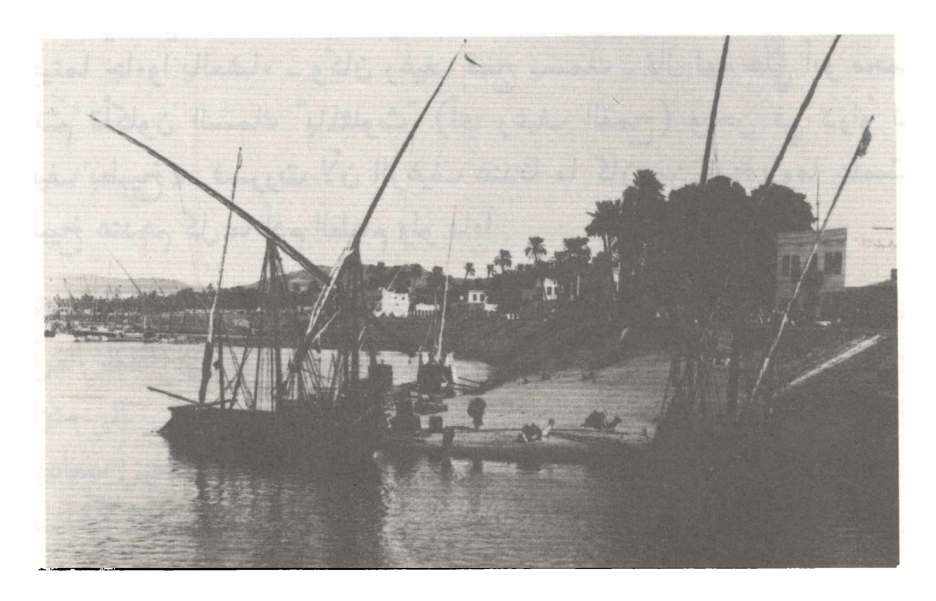
دخل الناس الراغبون في أخذ الأسرى بالضمان فجاء رجل يدعى علي أبو محمود من جَعَافِرَة[١] "دَرَاو"[٢] ورغب في أخذي بالضمان. وعندما عُرِض اسمي على ماهر بك قال لعلي أبو محمود: «هذا يحفظ كتاب الله وأنت وعمك موسى تَخدِمُونه في المَزارع»، فقال علي لماهر بك: «نتركه يعلم أولادنا». قال ماهر بك: «أنا سآتي بِدَرَاوْ إذا وجدته متعباً أقصم ظهرك» (بهذه العبارة). فقال على أبو محمود: «حاضر يا سعادة المدير».

أخذني علي وليته لم يأخذني. بتنا تلك الليلة بأصوان عند أحد معارفه، وحينما جاءوا بالعشاء ـ وكان رغيف قمح بسمك ـ قال لهم علي أبو محمود: «أنتم تأكلون السمك "بالمثلوث" (أي رغيف القمح) ونحن في دَرَاوْ نأكل رغيف بطبيخ». فسررت لأن الرغيف عندنا ما كان من قمح؛ وما علمت أن الطبيخ عندهم كل ما أدم الطعام ولو ماءاً.

---

(١) جعافرة: اسم قبيلة تسكن صعيد مصر ولها فرع يقيم في السودان.
(٢) دَرَاوْ: قرية صغيرة في جنوب مصر.

كان صاحبنا في رحلتنا من أصْوَان إلى دَرَاوْ الميرلاي فرج بك أبو زيد[1] وكان راكباً جمله، وكان إذ ذاك بوظيفة ملازم أول. فلما آلمني المشي لبعد عهدي به شرعت أقص (لهما) غزوة بدر وأكلف نفسي السعي مع زاملتيهما، وكانت حجارة العَقَبَة تضرب أقدامي حتى أكاد أقع على وجهي، ورغم ذلك لم أقطع حديثي. فلما صار صوتي يتقطع تبعاً لنهوضي المتكلف، رقّ بي فرج بك، حيث أوقف جمله، وتناولني من ذراعي بيده وأردفني خلفه وهو على جمله لم ينخه.



مدينة أصوان فى صعيد مصر فى نهاية القرن التاسع عشر

(١) أخبرني خضر بدري في يناير ١٩٨٩م أن علاقة فرج أبو زيد وأسرته بأسرة المؤلف ظلت وشيجة إذ زامل هو ابنيه عبد القادر وعبد الجليل في الدراسة بكلية غردون في الخرطوم في العشرينيات من القرن الحالي.

وصلنا دَرَاو ليلاً فلما أصبحنا صار الناس يأتون أفواجاً وكل متفرج منهم يقول لعلي أبو محمود : « جبتَ ليك وحيدة ؟ » فيجيبهم : « نعم » . يقولون : « وين هو عاد ؟ » . فيناديني : « يا بابكر تعال سلم على أبوك » ، ولو كان طفلاً . وتدور محاورتهم معي كالآتي :

الزائر : « اسمك مين ؟ » .

أنـــا : « اسمي بابكر » .

الزائر : « بابكر .. مبروك عاد يا بابكر إلّفِيه خير يبدي » .

ومعنى هذه المحادثة باللغة الفصحى هي : الزائر : يا شيخ علي هل أتيت بأحد الأسرى ؟ . يقول : نعم . يقولون : أين هو؟ . فيناديني : يا بابكر تعال أقبل لتحية أبوك . وحينما أقابله يسألني : ما اسمك ؟ أقول : اسمي بابكر . يقولون : بابكر إن شاء الله تكون مباركاً ، والذي فيه خير يظهر .

مكثت معهم ثلاثة أيام لا عمل لي ، وطعامي قليل وغير منتظم المواعيد ، فقلت لامرأته : « يا مدينة ، أين الأولاد الذين أعلمهم ؟ » .

قالت : « الأولاد يقرو عند أحمد أبْعَطَ الله شي » .

قلت : « وأنا أعمل أي شئ » .

قالت : « أنا عارفنك . الرجال ما في الخلا شي » .

قلت : « لكن أنا جئ بي لأعلم الأولاد القراءة » .

قالت : « بيه الولد عند أحمد أبْعَطَ الله انت رُوْح الغيط » .

ومعنى هذه المحادثة باللغة الفصحى .

قلت لامرأته : أين الأولاد الذين أعلمهم ؟

فقالت : الأولاد يعلمهم أحمد أبو عطا الله ولا يمكن أن يخرجوا منه . أنت اذهب إلى الغيط أعمل به كالرجال .

ومن ذلك الحين انقطع مني الطعام ، وأمرت أن آتي بالماء من الترعة وهي علي مسافة نصف ميل علي الأقل . أجيء في كل يوم بأربعة عشر "قَادُوسَا"[١] علي

---

(١) القادوس : هو وعاء غالبا ما يصنع من الفخار و تربط مجموعة منها في الساقية لرفع الماء من النهر .

كتفي، واذا طلبت الأكل قبل الذهاب للماء تقول لي : «يا بابكر ما حميناش»، أي ما أوقدنا النار في الفرن الآن. واذا جئت بعد كمالة الماء، تقول لي : « يا بابكر ما تتقدم شي يا ود الناس العيش خلص».

وفي أحيان يأتي زوجها وينادي : «مديني»[1].

تقول مدينة : «نعم».

يسألها قائلا : «بابكر إتعش».

مدينة : «ما عارفنه كيه».

أبو محمود : « ما عارفنه شي !».

مدينة : «ضُلّك ما فضل شي غير عيش عَاشّه (عائشة)».

أبو محمود : «هاتي له رغيف عاشه».

فتقوم ومفرقها[2] له صوت وغبار وترميني ببتاوة[3].

أبو محمود : «بتاوة صغيرة تفطر بها عاشه العظيمه. ضُلّك يأكلها بـإيه ؟».

مدينه : «مافيش طبيخ بار[4] أنا عارفه».

أبو محمود : «جيبيله راس[5] بصل».

فقامت مدينه ورمتني ببصلة واحدة. فقلت الحمد لله.

ومعني هذه المحادثة أنها كانت تقول لي عندما أطلب الأكل قبل الذهاب إلى الماء : بابكر الآن لم نوقد النار في الفرن للخبز. أمش انقل الأربعة عشر قادوسا وأحضرها. وعند عودتي تقول لي أنت تأخرت والأكل توزع للآكلين ولم يبقِ لك منه شيء، فأطوي.

وفي أحد الأيام حصلت بينها وبين زوجها المحاورة الآتية التي أكتبها بلغتهم، حينما جاء من الغيط فوجدني عند الباب راقداً علي الطوبات التي أرقد عادة عليها؛ فقال لي : «تَعبِتَ ؟». قلت : «لا». وما كان يسألني ولا يسأل عني

---

(١) مَدِينَيْ : أي مدينة. وقد كتبها المؤلف بهذه الطريقة ـ كما كتب كل المحادثات السابقة واللاحقة ـ ليوضح اللهجة المصرية الصعيدية التي جرى بها الحوار.

(٢) مَفْرَقها : ثوبها.

(٣) بتاوة : الخبز الجاف وهو مصنوع من دقيق الشعير.

(٤) بار: كسد أو بقي ولم يؤكل.

(٥) راس: أي رأس وقد خففت الهمزة كقولهم في لا بأس لا باس.

فلما وصل في المحاورة الي قوله: « ... له راس بصل » . قلت في نفسي: يريد أن يُرسلني برأس البصل إلى "النَّبَرُو"[١] (لأن كلمة رأس عندنا معناها ما يستطيع حمله الإنسان). فلما كانت النتيجة بصلة واحدة، سررت لئلا أمش ليلا وأنا حامل البصل إلى النبرو. كان هذا هو اليوم الوحيد الذي سأل عني فيه. ولكن لما اشتد عليّ الجوع ذهبت معهم إلى النبرو للعمل هناك. وعندما ابتدأت قال لي أحدهم : « أمْش أفتح الماء في الحوض » ، ففعلت ولكن الماء ملأ الحوض وانكسر عند النبرو. فلما رأى الماء قال لي : « يا وَقْعَتَ الشُّوم » . وجروا كلهم فسدّوا الماء.

رضخت تحت ضغط الجوع لأخدم أي خدمة توصلني للأكل، وقلت لنفسي اذا كانوا هم أنفسهم متعبين فكيف أطالبهم بأن يطعموني دون أن أعمل معهم مثل ما يعملون. وفي أحد الأيام أمروني بأن أرحل البُوص (قصب الذرة) من النبرو إلى قطيع[٢] بآخر السور. فأخذت جملا من النبرو حمّلوه لي قصبا فإذا أوصلته باب السور أنقله علي كتفي للشُّونة، والمسافة لا تقل عن مائة متر. فلما رَحّلت خمسة جمال وأدخلتها الشونة ـ وكنت قبلها ملأت الأربعة عشر قَادُوْسًا ـ اضطرب جسمي من الجوع والتعب. فدخلت على "ست مدينة" طالبا الغذاء، لأني صرت مستحقا له بما قدمته من الخدمه. فكان الجواب : « ما تتقدمش يا ود الناس » . حينئذ بلغت الرُّوح الحَلْقُوم، فرجعت بالجمل ورَحّلت جملين، سددت بهما باب المنزلين المتقابلين لأمنع كل داخل من الدخول، وخصوصا الرجل الكبير موسى أبو محمد علي (والد ست مدينة) الذي يأتي دائما بعد الغروب علي حماره. سددت البابين وجلست جانبا؛ فلما جاء الشيخ موسي وجد البابين مقفولين، فقال وهو على حماره : « من جاب دهنا ؟ » .
بابكر : « أنا بابكر » .
موسي : « بابكر الاه (أي لماذا) ما دخلته يا ولدي عاد ؟ » .

---

(١) النَّبَرَو : (أو الشادوف) هي الآله التي تقام علي حافة النهر لرفع الماء منه لسقي الزراعة ويطلق الاسم أيضا علي مكان وجود الآلة.
(٢) قَطيع : مكان مخصوص داخل زريبة الحيوانات لحفظ العلف.

ب : « ما بَقْدَر » .

م : « بس تَدْرُس (تأكل) البتاو ! » .

ب : « أنا لاقي بتاوة أدرسها ؟ » .

م : « لاه عائشتك بلا خدمة » . (أي هل سأعيشك بلا خدمة ؟) .

ب : « أنا راضي أخدم » .

م : « تَسُوق العود؟ » . (أي هل تدير الشَادُوف)[١] .

ب : « مابَقْدَر » .

م : « تحول المَيّه ؟ » .

ب : « ما بَعْرِف » .

م : « تحرث الأرض ؟ » .

ب : « ما بَقْدَر » .

م : « بس تَحَلّل لقُمَتك بيه (بماذا) عاد ؟ » .

ب : « يا عمي موسى أتركوني أمشي السوق وأشتغل صنعة وأعيش وأبِيت عندكم » .

م : ياك نحن مُسْتَيسرِنَّك !.. أنت شجار؟ . (أي أتظن نحن نستضيفك لنطعمك؟ .. هل تستطيع قطع الشجر؟) .

ب : « لا » .

م : « جلاّد؟ » . (هل تعرف مهنة الجلاده؟) .

ب : « لا » .

م : « خيّاط؟ » .

ب : « لا » .

م : « تَشْتَغِل إيه عاد؟ » .

ب : « عيني فاتحة كل البَشُوفُه أعمله » .

م : « حد عينه مَقْدُودَة ما كل الناس عينها قايدنهاش » .

ب : « أنتم بس خلوني أنا بعيش نفسي » .

---

(١) العُود : هو الشادوف وهي آلة يدوية لرفع المياه من النيل لسقي الزرع وتستعمل كثيرا في صعيد مصر وشمال السودان.

م :« ياك نحن مُسْتَيسرِنَّك ! ».
بعد هذا حضر خدمه من الغيط، فأدخلوا القصب وفسحوا له الطريق ودخل بيته، ولم أقف له على أثر بعدها.

مَن يئِسَ نَكسَ :

جاء بعده علي أبو محمود الذي كرر الفصل السابق نفسه مع زوجته، ولم تسمح لي برغيف عيش. بعد ذلك رقدت علي طوباتي ثم تذكرت كلام يوسف أخي بخصوص صديقه "وَجّه" الذي وجده يمضغ في رجل جاره الميت، فقالت لي نفسي: أهرب مثل العبد؛ ولكن قلت لنفسي: هذه بلد أجهلها فيلحقوني ويرجعوني ويضربوني. ثم قالت لي نفسي : قم ليلا فاشحذ الطعام من البيوت. فقلت لنفسي : لا يمكن ذلك، ربما أتوطن بينهم وأتزوج منهم، فيسبّون أولادي في المستقبل بقولهم : «يا أولاد الشحاذ». قلت لنفسي: الأحسن أن تصبري وتضيفي هذه الأيام علي أيام بَلاّنا، حيث لم تذوقي طعم العيش سبعة وعشرين يوما، وأنت مكلفة بمعيشة من تعرفينهم. فرقدت تلك الليلة تنازعني ثلاثة عوامل ـ أي واحد منها يكفي لهذا الجلد ـ أولها؛ ولوعي بوالدتي وشقيقاتي، الذي والله كان يلازمني في كل حالة، ويطغى على كل مشقة أو يكافئها. والثاني؛ تباريح الجوع الذي أحس أن أمعائي ومعدتي يصعدان ويهبطان بسببه. والثالث؛ موقفي الأخير بين الأمل والخيبة حينما أصبح؛ هل يتركنى أبو محمود وجماعته أسعى لرزقي أم يمنعونني. وإذا رفضت البقاء معهم؛ هل يرجعوني للسجن أم يخلون سبيلي، وكيف يخلون سبيلي وهم واضعوا ضمانتي في الحكومة. هذه الوساوس لم تجعل للنوم سبيلا لعيني.

قبل الفجر بقليل، ذهبت إلى الترعة، وتوضأت وصليت، وجعلت أقرأ في الراتب. هناك مرّ بي أحد أخبرني أن السيد عشريا ـ الذي أعرفه ـ جاء البارحة من "الغابة"[(١)] ونزل عند ابن أخته سلامة أفندي. فقمت من وقتي وعبرت الترعة، وذهبت إلى الغابة، قبل أن أجلب الماء ـ كالعادة ـ وذلك لأجس نبضهم: هل يسعون خلفي ؟ أم يتمسكون بي ؟ أو يهملونني ويَردُون مياه شربهم بغيري ؟ فلما وصلت السيد عشريا؛ وبعد إمهاله قليلا قلت له: «أنا جائع».

---

(١) الغابة : اسم قرية قرب دَرَاو.

فأمر لي بأكل فجيء لي بطَّبلِيةِ[1] عليها ستة أرغفة وفي وسطها "أنجري"[2] به "مشِ ّ"[3] فأشرت له بأن يخلي لي المكان فوزّع الأولاد بعد أن جيء لي بالماء. ولا أكتمك أيها القارىء أني أكلت حتى كلّ فمي من المضغ وبطني لم تشبع، فجعلت أستريح قليلا من المضغ، ثم أعود إليه حتى أكملت الستة أرغفة. فقال لي السيد عشريا: «لا بارك الله فيمن أجاعوك هذا الجوع». فرجعت منه وعمّت الترعة، وذهبت إلى المنزل المشئوم؛ ولكن الله أتى لي بالفرج منهم.

اضجعت يوما في الضحي وكالمعتاد شرعت أقرأ القرآن ـ وأذكر أني كنت أقرأ في آية ﴿إذا جاءك المنافقون﴾ ـ عندئذ مرّ بي ولد يدعي نور الهدى، ما رأيته قبل ذلك، فوقف قليلا ثم قال لي: «بَاك أنت حافظ القرآن ؟». قلت: «نعم». قال لي ما معناه لماذا لا تزور الكُتَّاب ؟ (الكُتَّاب في إصطلاحنا جمع كاتب). فقلت له: «وما الكُتَّاب ؟». قال: «المكان الذي يقرأ فيه الأولاد». قلت: «أرنيه». فمشي معي حيث وجدت الأولاد يكتبون ألواحهم، فتناولت لوح أحدهم لأكتبه له، علامة للفقيه ـ الذي لم أجده وقتئذ ـ ليعلم من كتابتي زيارتي وانتظر ماذا يصنع. أيأتيني فأعيد له الزيارة ؟ أم لا يعتني به فأقتصر منه. فوجدت في اللوح ﴿إن الله تعالي يدفع عن الذين آمنوا﴾ في سورة الحج، فكتبته وشكّلته ولكن برواية علي لا عمر، وهم يقرءون برواية حفص. فكانت علامة ثانية ورجعت إلي مكاني. فإذا الفقيه أحمد عطا الله؛ يلحق بي ليأخذني الي كُتّابه. وهناك جاء لي برغيف وبيض مما يجلبه له الأولاد عادة. فأكلت منه رغم أكلي الكثير بمنزل سلامة أفندي. فلما فرغنا من الأكل، حكى لي قصته، فقال: إنه ومعه شخصان من أهله كانوا "بققرة الأُبَيِّض"[4] وقد هربوا

---

(١) طَبْلِيَّة: طاولة، منضدة (تربيزة) تكون أحياناً مستديرة أو مربعة، ولكنها غالباً قصيرة.

(٢) أنجري: صحن كبير.

(٣) مشّ: حليب مختمر مضاف إليه بعض أنواع البهار.

(٤) قَقَرة الأبيِّض: هو معسكر الجيش المصري بمدينة الأبيِّض عاصمة اقليم كُرْدُفَان. وقد حاصره المهدي بجيوشه من ٨ سبتمبر ١٨٨٢م إلى أن فتح المدينة في ١٩ يناير ١٨٨٣م وأخذ المعسكر.

عند حصارها ليصلوا الخرطوم فقبض عليهم أحد عُمَد[1] النّيل الأبْيَض، وقيّدهم بالحديد ووضعهم في زراعته، حيث زرعوا غلال الصفراء[2]. ولما رأى إخلاصهم في الخدمة، فكّ قيودهم فبقوا معه حتي نضج الزرع، حيث تزودوا منه وهربوا إلى الخرطوم. وختم كلامه بأنه ذاق مثلما أنا فيه الآن، وألحّ عليَّ ألا أستحي منه ودعاني للفطور معه كل يوم. كذلك وعدني أنه سيجمعني بالشيخ حسن ود علي أبو حاج، عمدة دَرَاوْ. وقال أنه ـ أي حسن ـ يحب المساكين أمثالك، خصوصا إذا انتسبوا للدين لأنه دَيِّن. فتنسمت الفرج من الله الذي لا يتركني لأولئك اللئام وأنا مهاجر في طاعته.

أول مرة أرى فيها الشيخ حسن أبا حاج كان يوم جمعة، حيث صليت لأول مرة الجمعة بالجامع، وكنت أقف خلف الصفوف؛ لأن جبّتي لم يزل عليها أثر مخ رأس البِنَيّة ودم موسى أخي، فخفت أن يستقذرني الناس. فجاء الشيخ حسن ولد علي أبو حاج متأخرا، وجلس بجانبي وبعد أن سلّم الإمام؛ أسرعت بـــالقيـــام لأني لا أعرف حسناً.

وفي يوم آخر، زرت السيد عشريا عابرا الترعة سباحة، وحينما خرجت منها رأيت جملا يحمل بوصا متجها نحو "نَجْع العرب"[3] فقلت يلزم أن يكون على الترعة قنطرة يمرّ عليها هذا الجمل فأمُرّ منها وأرتاح من سباحة الترعة. فتبعت الجمل ولحظّي لما وصل القنطرة توقف عن المرور عليها ورمى القصب، فاشتغلوا في رفعه عليه حتى وصلتهم.

كان الشيخ حسن مع هؤلاء الأشخاص، فلما رآني سلّم عليّ ببشاشة، وأنا بدوري بادلته طبعا البشاشة لأني محتاج لها لصالحي، وهنا عرفت أنه الرجل الذي صلى الجمعة الماضية بجانبي. وبعد تبادل التحية قال لي: «أنت من جماعة ولد النجومي؟». قلت: «نعم». فقال: « بلغني أن أحدهم عند علي أبو محمود

---

(١) عُمَد : جمع عُمدَة، وهي وظيفة إدارية محلية لمن يختارونه الأهالي، أو تختاره الحكومة، رئيسا عليهم.

(٢) غلال الصفراء : نوع من أنواع الذرة مما يزرع في السودان .

(٣) نجع : هو حيّ في القرية أو في المدينة أو القرية الصغيرة، و«نجع العرب» اسم قرية قرب دَرَاوْ.

وأنا أريد أن أقابله». فقلت: «أنا هو». فقال لي: «ما اسمك ؟». قلت: «اسمي بابكر بدري». قال: «نعم أنت هو، ومن أين أتيت الآن ؟». قلت: «لي صديق قديم اسمه السيد عشريا نازل عند سلامة أفندي». قال: «اركب خلفي علي الحمارة». فركبت وأخذ يسألني عن كيفية قتل جيش ولد النجومي فحكيت له الأسباب التي سمح لي الوقت والمكان بسردها له.

كنت فيما قبل أعتقد أن بيت حسن ولد علي أبي حاج عند جامعه وكُتّابه، فلما مال بي إلى أحد الشوارع، وسلكه مغرّبا حتي وصلنا منزلا أناخ جمله عنده ـ وكان البعض يدخلون قصبا في شونته ـ داخلني الشك في أنه حسن المَغْنِي. ثم جاءت والدته وقال لها: «يا مدينة هذا بابكر من جماعة ود النجومي إذا جاءكم صباحاً أو ظهراً أو ليلا، أو في أي وقت قدموا له طعاما، وإذا ماعندكم اشتروه من السوق، وإن لم تجدوه في السوق أشحتوه من الجيران، والآن هاتوا ما عندكم». فذهبت وجاءت برطب ورغاف قمح فأكلنا. ثم قام وسرنا بأرجلنا وقال لي: «هذا منزل والدتي وزوجتي الكبرى معها، أما بيتنا الكبير فنُرِيكه الآن». مشينا حتى وصلنا فإذا هو البيت الذي عرفته ببيت العمدة، فأدخلني الحوش (فناء المنزل) وأراني غرفة عند بابه وقال: «تنام هنا، فإذا جاء العبابدة أو غيرهم من الضيوف العاديين فاتركها لهم وادخل نام في ديوان[١] جلوس والدي»، وسلمني مفاتحه.

ذهبت إلى الفقيه أحمد أبي عطا الله ـ الذي كان قد أوصي شيخ حسن بي ـ وبعد أن شكرته قلت له: «إني أخاف إن بقيت مع حسن عقاب موسى أبي محمد علي، وابن أخيه علي أبي محمود». فقال لي: «لا تخف هذا سيدهم لا يستطيعون معارضته». ولما جاء الليل جلس العمدة علي دَكّته، وجاء الأعيان من أهله وجلسوا أمامه، وأخذوا في الحديث، وأنا وحسن جلسنا علي مسطبة الجامع حيث صلينا المغرب حتي وضع الخادم الطعام كعادته، ثم ناداني: «يا بابكر تعال»، فقمت له فوضع لي كرسيا وقال لي: «اجلس وتعش». فجلست

---

(١) ديوان : غرفة استقبال الضيوف في المنزل.

وأكلت مع والده، الذي لم يخاطبني كأنه لم يشعر بوجودي. فلما رفع يده من الطعام نهضت قائما وبودي لو طال الزمن. ولكنه لم يلتفت إليّ، واستمر علي هذه الحالة يومين آكل معه الوجبات الثلاث. وفي عشاء اليوم الثالث، وبعد أن أكلنا قليلا ـ وكان سيدي[١] موسي أبو محمد علي ضمن الجالسين أمامه ـ إلتفت إليّ العمدة قائلا: «من هذا ؟». قلت: «بابكر». قال: «بابكر.. ! من وين ده ؟». قلت : «من جماعة ود النِّجُوميَ.» قال: «من جاء بك ؟». فاضطربت وتمنيت أني بقيت في جوعي ذاك وقلت بصوت خافت: «جاء بي حسن». فقال مفتخراً: «حسن ولدي ؟». قلت: «نعم». ثم إلتفت إلى حسن وقال: «من جاء بهذا يا حسن ؟». قال: «جئت به أنا». قال: «لأي شيء ؟». فقال: «ليأكل معاك». قال وهو رافع رأسه ورفع يده: «أنا ياحسن عبد الرحيم دبلون ما يأكل عماي (أي معي)، وطه أبو محمود ما يأكل عماي، وأبو سيف أبو حاج ما يأكل عماي، وموسي أبو محمد علي ما يأكل عماي، يأكل عَمَاي بابكر بدلِيْقينَاتُه دَيْل ؟[٢]». قال حسن: «نعم». فصفق العمدة يديه على بعضهما وقال: «حي.. حي أنا عندي بئر حلوة (عزبة) وعندي ولد صالح»، ثم إلتفت إليّ وقال: «يا بابكر حسن مو صالح شي ؟ إذا كان حسن مو صالح الزَّيَّك أنت (أي الذي مثلك) يقبله أحد بدليقيناته ديل ؟». بعدها رفع يده من الأكل فنهضت كعادتي. ثم نادى قائلا : «يا نسيم هات لبابكر سمن يشربه المتِل بابكر ده لا يشبَع بس يستحي.. جيب له سمن». فجاءني بفنجان شاى ملآن بالسمن فشربته، فصار راتبا لي كل ليلة حتي قنعت معدتي من كثرة الأكل وصارت إعتيادية فأوقفته برفضي له. ثم صار يقول لي : «كُل يا بابكر لا بارك الله في بيت لا يأكلك ولا في خير لا يسعك، أنت يا بابكر لا يأكلونك لأنك ود ناس تكافيء؟ ولا يأكلونك لله ؟ ولا يأكلونك لأنك لا تمدح في

---

(١) سيدي : استعملها المؤلف عند الإشارة إلى موسى أبو محمد علي احتراماً له لأنه كان عم الرجل الذي تعهد بضمانته لفكه من أسر الحكومة.

(٢) بدلِيْقِينَاتُه دَيْل : أي بثيابه هذه. ودليقِينَات تصغير لكلمة دَلاقين التي مفردها دُلقَان، وهو قطعة القماش القديم المهترىء.

المجالس؟ كُل يا بابكر». ثم قال: «يا بابكر الكَبَاب عندكم في (أي موجود) ؟». قلت: «لا»؛ وعدد أطعمة العشاء. فجاء في بالي أنه يريد موسى أبا محمد علي، الذي عجز أن يطعمني البتاوة بعيدا عن مجلسه، وهذا يطعمني من الأطعمة علي مائدته. وصدق ظني وصرت آكل معه كل الوجبات، واذا أردت أن أتحلل منه يزيدني تأكيدا بالاستمرار في الأكل معه. ولم يجرؤ موسى ولا ابن أخيه علي التكلم معي ولا مع غيري بخصوصي.

في يوم الثلاثاء - وهو يوم السوق الجامع - قال حسن: «نمشي السوق معا»، وفي الطريق قال لي: «معنى كلام والدي عنك "بدلِيقينَاته دَيْل" يقصد بها أني أكسُوك». فلما وصلنا السوق اشترى لي لباسا وقميصا عربيا - أي قميصا مفتوحا كبيرا يُلبس فوق العَرّاقي[1] الذي يلي الجسد، وهم يسمون القميص الكبير "العرِي". كما اشترى لي ثوبا ومركوبا وعمامة.

بعد أيام مشيت الي منزل علي أبي محمود، وكانت حماته وتسمي "رَنَي" تسكن معه بمنزل واحد، ولما زرتها اندهشت عندما رأتني، وقالت لي: «من كساك هذه الملابس يا بابكر ؟». قلت: «كسانيها حسن ولد أبي حاج»، قالت: «حسن صالح، إذا كنت للآن مع موسى هل يكسوك ؟ مايكسيك شي (شيئا) !». ثم قالت: «بابكر تعرف مدينة بت موسي، وركابي ود موسى، وعلي ود موسى، وسيدة بت موسى، وخديجة بت موسى ؟» - تعني أولادها. قلت : «أعرفهم جيدا». قالت: «أكتب لي موسى يرجع لبيته الكبير وأنا أعطيك نصف بيَنْتُو[2]». قلت: «الأحسن يا عمتي رني أن نتصارح. يا عمتي رني أنا لا أعرف الكتابة من هذا النوع وإذا كنت أعرفها كنت أكتب موسى لنفسي، وانت ما عندك نصف بيَنْتُو تعطيني إياه واذا كان عندك فأكسى بيه بناتك رُحَاطَة[3]»، وانصرفت عنها. فذاعت هذه الحكاية في نجع العرب،

---

(١) العَرّاقِي : هو القميص الداخلي الذي يُلبَس تحت الجلباب.

(٢) بيَنْتُو: عملة فرنسية كانت تستعمل في مصر مقدارها جنيه مصري واحد. (تاريخ الخرطوم، صفحة ٥٤).

(٣) رُحَاطَه : جمع رَحطَ، وهو إذار تلبسه النساء تحت الفستان ويصنع من شرائح الجلد الرقيقة.

وشهرتني عند من أعرفهم، حتي صاروا يأتونني أو يلقونني في الطريق؛ فيسألونني عنها مع أني لم أخبر بها أحدا، ولا كانت لها قيمة عندي.

صرت أركب مع الشيخ حسن، وأجلس معه لنقرأ في الكتب، وفي مرة دخل العمدة علي أبو حاج فوجدني جمعت بَعَر حصانه في طبق؛ لأضعه على شونة الزبالة فقبض على الطبق بيديه وقال لي مغضبا : «لاه.. لاه (لأي سبب) تحرق يا بابكر بيتي بالنار ! أنت تحفظ القرآن، وتعرف العلم، تنقل بعر حصاني؟»، واستلم مني الطبق وشَتّت البَعَر بيديه كما كان ثم غسل يديه.

وفي يوم آخر جاءني ابنه الكبير محمد سحرا، وقال لي : «امش مع جماعتنا لتقلعوا مركب الجزيرة التي غرقت». فقمت ووقفت مع الجماعة استعدادا للمشي فجاء حسن ووجدني واقفاً معهم فقال لي: «لمــاذا أنت واقف هنا ؟». قلت: «لأمشي مع الجماعة لنقلع المركب». قال: «ومن أمرك بهذا ؟» قلت: «محمد أخوك». فدخل على والده وأخبره فجاء العمدة يجر توبه، ووجد محمدا واقفا فقال له مغضبا: «أنت قلت لبابكر أقلع المركب مع أولاد حجازي ؟». فقال : «وماله ؟». فقال له العمدة: «مَلّة في جنبك، بابكر يَدنْقِر "كِه"[1] (وهو يشخص ـ أي يقلد الحركات) ويقلع المركب مع أولاد حجازي. بابكر اذا أهله يُقْلّعونَه المركب حفظ القرآن وهُو "كِه" ! وحفظ العلم وهُو "كِه"! (أي بهذا الحجم)». إشارة إلى أني حفظت القرآن صغيرا. ثم قال : «يا محمد ماك مبسوط من بابكر وقراءته عم حسن (أي مع حسن)، وركوبة عم حسن، ومن صلاته عم حسن؟»، ثم إلتفت إليّ وقال أمش الجامع. فذهب محمد بباقي جماعته ولم يطلب مني بعدها أية خدمة.

رأيت مرة رجلا فقيرا رث الثياب، جاء من السودان، وأظنه من المحَس، فوجد العمدة جالسا على مصطبته فقال له: «أنا عريان والوقت برد والناس كلهم يقولون لي من حلفا إذا وصلت عمدة دَرَاوْ يكسوك، فجئتك لكسوتي

---

(١) كه : أي هكذا.

الله يطوّل عمرك». فرأيت العمدة ارتجف أريحية وقال له: «من حلفا الناس تقول لك عمدة دَرَاوْ يكسيك ؟». قال الرجل: «نعم والله». فقلع ظَعْبُوطه[1]، الذي لا يقل ثمنه عن خمسة جنيهات، وأعطاه إياه فدعا له ومشى به. فسمع ولده محمد بهذا فأعطى الرجل ظعْبُوطا من نسج وصوف دَرَاوْ وقيمته جنيه وأخذ منه ظعبوت والده، فرجع الرجل الى العمدة وأخبره بما حصل. في الحال طلب العمدة ولده محمداً وقال له: «يا محمد كان أبي يعطي وأنا أسرق وأعطي مثله، وأنت يا محمد أنا أعطي وأنت تقلع (تسترد)، يا محمد ظعبوتي ما مالكنه عَمَاك (أي ظعبوتي الذي على جسمي لا أملكه معك)، يا محمد خليني أموت وأستلم كل شيء، هات الظعبوت». فجاء به فضمه للظعبوت الرخيص الذي سلمه إياه الرجل ومَدّهما الأثنين له وقال لمحمد: «أمش اشتر زعبوط لرقبتك (لنفسك) وظعبوط لِبَيّك (لأبيك بالتصغير)». فأخذ الرجل الظعبوطين وذهب لطريقه.

حصلت بين إبراهيم السلواوي ومحمود بك ابن حسين باشا خليفة[2] قضية في طين، ربحها محمود بك بعد زمن كبير ومصاريف باهظة من الأثنين؛ فاجتمع كبار نَجْع العرب في ندوتهم وقرروا أن ينتصروا لإبن عمهم إبراهيم السلواوي، وذلك بأن يدّعوا أرض الغابة التي يسكنها أولاد حسين باشا بأنها ملكهم من آبائهم ويطلبون من الحكومة ردها إليهم، وطلبوا من العمدة موافقتهم على ذلك. فقال لهم العمدة: «أكتبوا الطلب لأسمع حجتكم فيه». فعيّن هؤلاء

---

(١) ظَعْبُوت أو ظَعْبُوط: عباءة.

(٢) محمود بك وأبوه حسين باشا خليفة من أعيان قبيلة العَبَابدة التي تقيم في منطقة الحدود بين مصر والسودان ومركزهم بربر. وكان حسين مديرا عليها عند فتحها بواسطة جيش المهدي بقيادة محمد الخير عبد الله خوجلي (أستاذ المهدي) عام ١٨٨٤م. والعبابدة كانوا يسيطرون علي الطريق الذي يربط بين مصر والسودان شرق النيل (تاريخ حياة بابكر بدري النص الإنجليزي ١٩٦٩م، صفحة ٩٧؛ محمد محجوب مالك، صفحة ١٠٥).

أيضا أخبرني خضر بدري أن علاقة هؤلاء وعلاقة أسرة حسن علي أبو حاج استمرت وطيدة، وقد زارهم خضر في دراو عام ١٩٥٥ـ أي بعد أكثر من ستين سنة من الأحداث التي يرويها بابكر بدري هنا ـ فرحبوا به. كما زار حسن نفسه بابكر بدري في رفاعة عام ١٩١٧ ولكنه توفي في نفس السنة بعد عودته إلى مصر (انظر ملحق رقم ٦).

الشيخ محمد علي الأزهري ليكتب لهم الطلب، ولما قرأه الكاتب للعمدة قام العمدة وصعد على سلالم في الندوة التي يستعملونها للخطابة؛ وقال: «أحّي يا دَرَاوْ ما فيك إلا جمل واحد، والباقي نِياق. دا الوكيت[1] كتبتم للحكومة تعطيكم الغابة لأنها ملك آبائكم وأجدادكم .. طلبكم هذا منقوض من وجوه عدة. الأول انكم بطلبكم هذا نقضتم تصرفات آبائكم وأجدادكم وهذا يَفْضَحكُم عند القبائل، هذا إذا نجح طلبكم. ثانياً أنهم (أي العَبَابْدَه) مكثوا أكبر مدة يعتبرها القانون مبرر للتمليك. ثالثاً لو سلمنا جدلا أن الحكومة حكمت لكم فهل تقولوا للعَبَابْدَة الساكنين فيها نحو مائة سنة خذوا أشياءكم (أنقاض منازلكم) وقوموا ؟ وإلا مع المجاملة لهم تقولوا أعطوهم خسائرهم ؟.. ومن يشتري منزل محمود بك ؟ يشتريه موسى أبو محمد علي ليأكل فيه البطيخ قرداحا ؟ أنا عندي لكم رأي أحسن من رأيكم، وهو أن تدفعوا لهم ثمن الأرض وعَليّ أن أراضِي[2] محمود بك ليأخذ القيمة ويعطي إبراهيم الأرض». إنفض المجتمعون عندما سمعوا دفع قيمة الأرض. انظر لهذا الرأي من رجل أمي لا يُحسنِ الكتابة ولا القراءة.

جرت العادة أن يوكل للعمدة تطهير الترعة في دَرَاو، ولكن حدث في سنة سبعة عربي (١٣٠٧هـ - ١٨٨٩/ ١٨٩٠م) أن اتفق المأمور علي شوقي مع أحمد بك خليفة أن يتولى هو تطهير الترعة. فلمّا بلغ العُمدَة ذلك ركب حصانه وسار إلى الترعة فأخرج الناس من العملِ في التطهير وأمرهم أن يعودوا إلى الغيط. فلمّا سمع أحمد بك بذلك أخبر علي شوقي فأخبر هذا بدوره المحافظ ماهر بك بأسوان. فجاء ماهر بك وطلب العمدة بالضَابطِّية[3] وسأله لماذا منع الناس من تطهير الترعة بواسطة أحمد بك مندوب الحكومة ؟ فقال له: «إني أرى العمدة هو المسئول للحكومة عن الجماعات والأمن والأمراض الوبائية، وهو

---

(١) دا الوكيت: أصلها ذا الوقت، وبعض القبائل العربية تنطق القاف كافاً. ثم مدت الكاف وكسرت، وهذا يشبه لغة حمِيّر في اليمن (ضرار).

(٢) أراضِي : أرْضِي، أقنع

(٣) الضَابطّية: مقر السلطة الإدارية.

الذي يعرف رعيته، المحتاج منهم والمريض، وهو الذي يجب أن يباشر عملية تطهير الترعة، وكل عمل تحتاجه الحكومة». وأضاف: «على كل حال أنا لي رأي في عملية التطهير، وهو أن يُجعل علي كل فدان قرشين يدفعها صاحب كل فدان يُروى بالترعة، ويُجعل للناس منه أجرة يومية قدرها سبعة قروش صاغ، بذلك يأتي الرجل طائعا مختارا في وقت فراغه من عمله في زرعه، ومعه أدوات الحفر والغرف، ويرجع ليلا لأولاده حاملا لهم مؤونة يومهم؛ والمنتفعون بالماء يدفعون النقود مقابل نفعهم. أما طريقة السُّخرَة بالنَّوْبة[1] فلا تخلو من نوع من الظلم حتى بواسطتي.. أما أحمد بك فلا يعرف الناس الذين يطهرون الترعة فكيف ينظم نوباتهم، وإن أدّعَي معرفتهم فليذكر عشرة من الناس الذين حفروا بالأمس وهم كثيرون». وافق ماهر بك على هذه الفكرة وكَتب بها للداخلية وصُودق عليها، وجرى العمل بها حتى توفي العمدة سنة ١٣٠٩هـ (١٨٩١ ـ ١٨٩٢م).

غزا الأمير الحسن سعد العبادي[2] أرض العبابدة فهربوا الي النيل وكثير منهم جاء لبلدة دَرَاو. وكان أكثرهم يأتي إلى خيمة العمدة علي أبو حاج لِيُقسَّم البتّاو والبطيخ عليهم للعشاء. فكثر الموت فيهم وألزمت الحكومة أحمد بك بدفن من يموت منهم، على أن تصرف له أكفانهم. ولما تعب أحمد بك من ذلك، طلب من علي أفندي (المأمور) أن يمشي معه إلى العمدة ليشكو له تضرره من وجود العبابدة بدراو، ويطلب ترحيلهم إلى مكان أوسع. فزار أحمد بك ومعه المأمور العمدة بمنزله، وبعد القهوة خرج معهم وكان المأمور والعمدة متماسكي اليدين، فقال المأمور للعمدة: «ما سألتنا عن سبب مجيئنا إليك». فقال: «جئتما زائرين؟». قال: «نعم ولكن عندنا غرض بسيط عندك». قال

---

(١) السُّخرَة: العمل الإجباري. النَّوبة: الدور، أو التتابع.

(٢) حسن سعد العبادي: (١٨٤٤ ـ ١٩٠٧) كان من قواد المهدية كما كان له نفوذ ديني. أما الحملة المذكورة هنا فهي إحدي الوقائع التي استمر جيش المهديه يشنها على صعيد مصر بعد توشكى حتى بداية غزو الجيش المصري للسودان عام ١٨٩٦م. وقد كتب حسن في بداية المهدية رسالة يمدح فيها المهدية ويحث الناس للإنضمام إليها (محمد محجوب مالك، صفحة ١٣١). وبعد الغزو عينته الحكومة الجديدة قاضيا شرعيا (تاريخ حياة بابكر بدري، ١٩٦٩، النص الإنجليزي، صفحة ٩٨).

له: «غرضكما مَقْضِّي». قال: «نريد أن تكتب للمدير وتطلب منه ترحيل العبابدة لمكان أوسع من دَرَاوْ، لأن المصابين منهم كثروا وكَثُر الموتى، وهذا يسبب العَدّوة للوطنيين». فنفض العمدة يده من المأمور وضرب بها على صدره وقال له: «أنا جعفري يا شوقي أفندي»، ورجع منهما. فسأل علي شوقي أحمد بك عن معني «أنا جعفري»، ففسرها له: «بأني لا أطرد ضيفي مثلك أنت». فاعتبر علي شوقي هذه إهانة له وقدمها لماهر بك الذي حضر وطلب مُعرِّفين يفسرون هذه الجملة. فلما إدّعى علي شوقي أمام الحاضرين، قال العمدة: «أمانة في ذمتكم يا أيها الحضور أنا مَاني جعفري شي؟». قالوا: «جعفري تمام». فقال علي شوقي: «تقصد أنا لا أطرد ضيفي مثلك!». قال له: «سمعتها مني؟». قال: «لا.. ولكن فسّرها لي أحمد بك، وقال أنك تقصدني أنا يا أهبل». فقال له العمدة: «نحن شيّاب نَتْنَابذ مِتْل النِّسوان فلنفخر مِتْل العرب.. قوم أذكر محاسنك». فقال بعض الجالسين للعمدة: «قم أنت ياشيخ العرب»، فقام وكَفْكَفْ يدي قميصه وأخذ عصاه فبرمها وخطا خطوات وقال: «أنت مِتْلِي أنا يا أحمد بيك أنا طَابُونْتي[١] تحمي[٢] وقدْرِي[٣] يَهْدُر والذي يجيء في بيتي أقل ما يجد طبيخ بي رغيف. العبابدة الذين تطلب مني طردهم أهلي ولا أهلك؟ أنا أعطيتهم الأكل وأنت عاجز عن دفن الميت الذي تصرف لك الحكومة كَفْنَه. أنت مثلي أنا يا أحمد بك؟ جدّك الحاج محمد لما كَتَل[٤] الرقبة في العبابدة وهرب للنيل جَيْ لي، جدي عيسى أعطاه أرض الشطب عَمل فيها بيوته ولما نزلت بهايمه "لكوم أمبو"[٥] الجعافرة قطعوا آذانها وأذنابها، فشكا لجدي عيسى فأعطاه فدانا يرعي فيه بهائمه. غير هذا الفدان هل لكم طين قِبْلِيه[٦]؟ لكم طين غربيه؟ لكم طين بحريه[٧]؟ لكم طين شرقيه؟ لكم طين؟! وبَعْدَّه

---

(١) طَابُونتي: مخبزي وهذه عادة تكون في هيئة فرن صغير داخل المنزل لتجهيز الخبز لأصحابه فقط وهي منتشرة كثيراً في جنوب مصر وشمال السودان.

(٢) تحمي: ناره موقدة.

(٣) قِدْري: القدر الذي يطبخ فيه الطعام.

(٤) كَتَل: قتل، وتنطق بلغة حِميّر بالكاف كما مذكور في صفحة ١٥٤ ملحوظة ١ أعلاه (ضرار).

(٥) كوم أمبو: مدينة صغيرة في صعيد مصر.

(٦) قِبْلِيه: ناحية الجنوب.

(٧) بَحريّه: ناحية الشمال.

جاء جدّك خليفة لعمي بدوي أعطاه أرض الغابة بنى فيها صفين»، ثم سكت؛ وكان الناس معجبون بفخره . عندها إلتفت إلى أحمد وقال: «يا أحمد بك قم وأفخر». فرد أحمد: «لا أفخر مع أهبل مثلك»، فضحك الناس حتى ماهر بك، وانفض المجلس. كان العمدة دائما يبدأ فخره بقوله: «أنا بحاج (أبو حاج) أنا عمدة دَرَاو أنا سيد البلد .. أقلِبُه جَاي.. وأقلِبُه جَاي»، ويقلب يديه.

سبق أن قدمت شيئا عن حَسن علي بحاج وكريم معاملته لي؛ وقد إستمرينا في الإخاء حتى وصلنا لدرجة رفع الكلفة وصدق الألفة، ولكني لا يمكن أن يخلو ضميري من وخزة فقدان شقيقاتي وأمي. وفي ذات يوم كان عنده ضيوف ولمّا جاء الغذاء وكُشف غطاؤه فاحت منه رائحة بخار الديك الرومي، فغلبتني دموعي حينما تذكرت أني آكل مثل هذه الطيبات من الطعام وأمي مجهولة الحال، فغطى الخادم الأكل وأزيح من مكانه فخجلت ووبخت نفسي على سوء معاملتي لمن أحسن إليّ. ثم توضأت وصليت ركعتين وتكلفت البسط ودخلت عليهم فقدموا الطعام.

بعد انصراف الضيوف رفع حسن يديه وقرأ الفاتحة وقال: «إن شاء الله بركة الشيخ إسماعيل النقشبندي تَجِد في هذا اليوم خبرا عن أمك». أمّنت على دعائه وتوجّهنا الى السوق. في طرف السوق لقيت رجلا يدعى عبد الحليم خيري من الأسرى، ولكن كان بفمه تُنبَاك[1]، فسَلّمت عليه سلاماً فيه جفاء. فسألني: «لقيت خبر أمك وأخواتك ؟». قلت: «لا». قال: «هن ببلدة "أشكيت" عند العمدة دهب». فأقبلت عليه بغير ذلك الوجه ورأيته في غير تلك الصورة ووددت لو قَبّلت فمه بتنباكه. فلما سمع حسن كلامه، كتب خطابا للعمدة دهب وأرسل داخل الخطاب بنكنوت جنيه مصري، وطلب منه إرسالهن بمركبه، على أن يكتب لنا جوابا بالبوسته عند سفرهن منه. ولكن بعد زمن قصير حوّل دهب الجنيه راجعا وقال: «صحيحا أن هؤلاء النسوة كانوا عندنا ولكنهن بارحننا منذ شهر ولم نعرف لهن خبرا» . فرجعنا لإرتباكنا ـ أي حسن وأنا ـ لكن لدرجة أخف لضماننا حياتهن وكونهن في القطر المصري ومطلوقات التصرف.

وفي شهر ربيع الأول (حوالي نوفمبر ١٨٨٩م) مشّيّنَا السوق نشتري بهائم المولد،[2] فلقيت إبراهيم عوض الكريم القرشي جاء من حلفا، فأخبرني أن

(١) كان المهدي يمنع أنصاره من التدخين والتُنباك لذلك فالمؤلف يستنكر على ذلك الرجل إستعماله للتنباك.

(٢) المَوْلِد: أي عيد ميلاد الرسول (صلى الله عليه وسلم).

والدتي وأخواتي بالتوفيقية بحلفا. فكتب حسن لصالح مُنْقَاش وأنا كتبت لمالك العربي وأرسلت له نسخة من قصيدة مدحت بها الزبير باشا وعبد الله بك حمزه ومحمد صالح ثروة وصالح مُنْقَاش، فعرضها مالك العربى على صالح مُنْقَاش. هؤلاء الأربعة كانوا من أغنياء السودانيين بمصر ممن خدموا الأسرى. فأسرع صالح بإرسالهن بمركب، وأرسل هو ومالك جوابا بقيامهن، فأصبحت في الإنتظار على مثل جمر الغضا.

ذات يوم سافر العمدة إلى أسْوَان، ولمّا رجع أخذت الحمار وقابلته في المُشْرَع، فقال لي: «أين جماعتنا ؟». قلت: «كلهم في الخارج للزرع». فأركبني خلفه، ثم إلتفت إليّ وقال لي: «جئتني بالحمار ؟». قلت: «نعم». قال: «أنا جئت لك بخبر ناس أمك». فاضطربت من الفرح واستمر قائلا: «جاءتني أختك الكبيرة ومعها أبنة عمك وأخبرتاني أن أمك وباقي العائلة في بيت بعيد لا يمكن لحاقهن والوابور يصفِّر للقيام، فطلبت أولاد حجازي وأكدت عليهم بأخذهن بمركبهم بحيث يَصِلن دَرَاوْ قبل شروق الشمس وإلا أقصم ظهرهم، فإن شاء الله يصلن فِي الميعاد». فلما وصلت البيت أخبرت حسنا فسر جداً. قمنا في اليوم التالي سحرا كعادتنا فلما صلينا الصبح أعطاني حسن حمارته وقال لي: «أمش البحر إذا وجدتهن فالحمد لله وإلا أصلهن بأسوان وشَهّلهن بمعرفتك». ولما وصلت السوق، رأيت السَّهْوَة أختي الكبرى التي لم أعرفها لولا أني رأيت أمي تقودها الحُسنى، وبقية أخواتي؛ لأنها تغيرت كثيراً من التعب إذ صارت رقيقة سوداء وانطمست شُلُوخها[١]. دهشت وصمتّ ولم أدر ذلك الصمت أمِن السرور، أم لِمَا رأيته من أثر التعب عليهن. وعندما وصلنا البيت وجدنا حسنا أخرج والدته من بيتها، فأدخلهن فيه وأحضر لهن أردب غلال وخروفين؛ بارك الله فيه حيا ورحمه رحمة واسعة ميتاً.

وردت في مرة للجُرُوف[٢] وكان معي حسن، وعند رجوعنا رأيت منصوراً

---

(١) الشُلُوخ: مفردها شَلخ وهى خطوط ترسم بالقطع بالموسى على الوجه للتجميل أو لتمييز أفراد القبائل فى السودان (قاسم، صفحة ٦٢٨)

(٢) الجُرُوف: حقول الزراعة الممتدة على شاطىء النيل.

الجميلابي ومعه جماعة من أهله وهم من قبيلة الرُّباطاب، فنزلت وسلّمت عليه، فلما وصلنا حسنا سألني: «أهؤلاء من أهلك ؟». قلت: «لا». فتأخر عني ـ كأنه يقضي حاجة الإنسان ـ مائلاً عن الطريق حتى وصله منصور ومن معه فسألهم عني، فقالوا له: «قريبنا». فقال: «ما جنسكم ؟». قالوا: «رُّباطاب»، فجاءني وسألني عن جنسي ولم يسألني قبل عنه فقلت له: «رُّباطابي». فعاتبني على إنكاري لمعرفة منصور ومن معه، وصار يسير على سيرهم حتى وصلوا بيت والده فأدخلهم وأكرمهم مدة إقامتهم.

وفي مرة ثانية إجتمعت بفاطمة بنت منصور المشهورة «بالنَّيَّة»، وكانت أمها رُباطابية وأبوها أصوَاني، ومعها بتول زوجة المرحوم التوم أخو النَّيَّة. فصرت أزورهن حيث لا يوجد في نجع العرب من الأسرى غيري وهما. وكنت لا أزورهما إلا بعد المغرب لكثرة ملازمتي لحسن، ولما أخرج عنهما يقدماني حتى نَصِل إلى خارج الحُوش ويرجعن. فجئتهما مرة كعادتي ولما قمت قامت معي النَّيَّة وحدها، فلما جئنا في الدهليز المظلم ارتجفت وقَبَّلتني فضربتها بكل كفي ضربة مؤلمة فمسكت رأسها وجلست على الأرض، وسرت في طريقي. بعدها إنقطعت عنهما زمنا طويلا ثم عاودتهما فلم أجد للحادثة أثراً عندهما ولا عندي والحمد لله.

رأيت في تلك الأيام أن والدتي تحتاج إلى ثوب، فذهبت إلي الشيخ حسين أبي أحمد ـ التاجر بدَرَاوْ ـ فطلبت منه أربعة عشر ذراعا ولِاَيّة[١] بالقيمة وأقسطها له لأني أصبحت مرة خياطاً ومرة جلاداً. فذرع[٢] لي الأربعة عشر ذراعاً وطَبقّها ورماها لي وقال: «اعطيكها لوجه الله». فرددتها عليه وقلت لا أقبلها صدقة، ومشيت منه. فأرسل خلفي وبحكم الضرورة رجعت له فقال: «خذها وقسّط ثمنها كما تحب». قلت: «في كل سوق أسبوعي أدفع قرشين». قال: «جميل»، فدفعت له الثمن كالإتفاق فله الشكر.

---

(١) ولِاَيّة: قماش من القطن رخيص الثمن.

(٢) ذرع: قاس القماش بالذراع.

في الرَّمَادي[1]

أرسل لي عبد الله بك حمزة خطابا من "الرَمَادي" لأنتقل اليه بعائلتي، ولكن لما كوّنته من علاقات بدَرَاو، حيث إني أصبحت صناعي أطلَب وأطَالِب فما رددت عليه. لكنه خاطبنى ثانية بنفسه، وأمر من يعرفني أو بعضا من أرحامي ممن معه في كنفه أن يكتبوا لي، فاقتنعت بالتوجه له؛ خصوصا أني وجدت في نفسي ميلاً عظيماً تجدد عندي بعد اجتماعي بأمي وشقيقاتي بالنزوع الروحي إلى مراجعة زوجتي[2]، التي أحبها والتي أخذت من بين فَكَّيّ. ايضا فقد علمت أن أمها توفيت؛ عليه فما بقى لي من السعي اليها إلا أن أطمئن على من معي في معيشتهن وصيانتهن. وما دام الفقيه محمد المدني[3]، وبابكر كرم الله، وغيرهما من الرُّبَاطَاب، وكثيرا غيرهم من الأسرى الذين أعرفهم وآمنهم هناك بالرَّمَادي؛ فلا مانع أن أتساهل فيما أطلبه من غيري من نقود، وأضحّي بما عندي، لأدفع ما عليّ وأنتقل الى الرَّمَادي. هذا هو الرأي الدافع الى الإنتقال يقابله الرأي المانع وهو أني قد عُرِفت بدَرَاو ووجدت كنف العمدة القادر المخلص لي وصداقة ولده حسن الذي لا يبخل عليّ بماله ولا بباله. كما أن دَرَاو بها سوق كبير يوم في الأسبوع وصغير في كل باقي الأيام، وبها تجار مثرين من مهاجرى دنقلا أمثال منزلاوي، ويمكنني بسهولة بعد سنة أو سنتين أن أنتقل من الصناعة الى التجارة. كذلك فإن دَرَاو بها العبابدة المتصلون بالسودان وبقاؤنا يجعل لنا فرصة في معرفة أخبار أهلنا وهي ثغر سهل الوصول للسودان اذا أمكننا ذلك. وأنا في الترجيح بين الرأيين إذ عبد الله بك يرسل لنا ولده حمزه بنفسه؛ لينقلنا بِمُركَبه التى كانت في طريقها إلى أسوان لترحيل محصوله

---

(١) الرَّمَادي: قرية صغيرة في صعيد مصر تبعد عن دراو حوالي ٤٠ كيلو متراً.
(٢) زوجته هي البقيع بنت عثمان ـ راجع قصة طلاقها منه صفحة ١١٨ ـ ١١٩ الفصل ٣.
(٣) محمد المدني هو والد مدني أبشر التاجر المعروف في الخمسينيات بأمدرمان وجَدّ مصطفى مدني أبّشر السفير بوزارة الخارجية، وجميعهم من قبيلة النميّاب المشهورة في أمدرمان.

لبيعه، وبرجوعه يأخذنا بالمركب، فوافقته. كان معي بالغابة بالقرب من دَرَاو رحمة الله وأبشر - ولدا إلياس عمر الرباطابي - فحضر لهما الفقيه محمد المدني - صهرهما وابن عمهما - من الرَمَادي فشجعّني على الذهاب إلى الرمادي.

بالرغم من كل هذا فقد أخذت بالحيطة فمشيت ومعي السَّهْوة أختي إلى الرمادي قبل مجيء حمزه، لأنظر حالة الرجال وسُبل المعيشة غير الإتكالية على عبد الله بك في المستقبل - قريبا أو بعيدا - لأن دوام الحال من المحال. كنت أخاف إما أن تأنف نفسي من كلمة أسمعها، أو حالة أراها فأرفض دمجي فيها، أو أن يملّ هو استمرار الصرف على الناس الذين لا علاقة له بهم الا الوطنية الواسعة. أخذت السَّهوة وبتّنَا يومنا ذاك بحلّة "سَلْوَة"(١) عند رجل رُباطابي يدعى أحمد عبد الله، مولود هناك وله أولاد وخيمة ضيوف. عرفنا أحد أولاده فلما أخبره جاءنا، وبعد التحية سألنا عن بلدنا وجنسنا وعَرفّنا في الحال أنه رباطابي سِّنْجِرابي. وسِّنجِرِ كما يقول النَّسّابون هو أكبر أولاد رُبَاط(٢) وله قصة طويلة يروونها ويزعمون أن له أولاداً في "أدفو"(٣).

أخذني الرجل وأدخلني في بيته مع أولاده وأختي مع بناته، فلما جاء العشاء أمسك بصحن اللحم في حِجرهِ وترك الطّبْلِية(٤). فلما فرغنا من أكل الطعام أخذ يقسِّم اللحم بيده ويمد لكل واحد نصيبه ومدّ لي بأكبر نصيب. ولما كنت ما رأيت هذه العادة الا عند شيخنا الفقيه أحمد الكراس، وكنت أراها هي الوحيدة التي تعلم الدناءة في معاملته لنا وأنا طفل؛ عليه رفضت أخذ نصيبي من اللحم منه. فألح ما ألح عليّ وشرح ما شرح وحَسّن ما حَسّن ولكن نفسي لم تقبل أكله، ولكني أخذته منه أخيرا لِحُرْمَتُه عليّ(٥) ثم أعدته في مكانه فضحك وتركني.

---

(١) سَلْوَة: قرية صغيرة في صعيد مصر تبعد عن مدينة دَراو حوالي ٢٥ كيلو متراً.

(٢) رُباط: هو رُباط بن غلام بن عائذ اليمنى الذى تُنسب إليه قبيلة الرُباطاب وتأخذ إسمها منه (قاسم، صفحة ٤٣٢).

(٣) ادفو: مدينة فى صعيد مصر تابعة لمديرية أسوان وتبعد عن دراو حوالي ٥٥ كيلو متراً.

(٤) طَبْلِية: منضدة (انظر ملحوظة ١ صفحة ١٤٧)

(٥) لِحرمَتُه عليّ: أي لإستحيائي منه لأني كنت ضيفه.

قُمّنا صباحا من سَلْوَة، وعبرنا النهر ومشينا فوصلنا الرمادي نحو الساعة الثالثة بعد الظهر، فدخلت السَّهْوَة على نساء الأسرى ودخلت أنا على عبد الله بك حمزة بوكالته. وجدت معه جماعة ممن يميزهم من الأسرى ومن أهل الرمادي، منهم الأمين ولد العمدة أبو مِشالي. فلما فرغنا من التحية والتعارف أخذ عبد الله بك يسألني عن أثمان بعض البضائع بدراو، فأرد عليه بما أعلم وبالسكوت عما أجهل. فاقتحمني الأمين أبو مِشالي بسؤال عن النساء فقلت: «لا أعلم»، فقال: «اطلب أختك يمكن تعرفه». لم يرد عليه عمي عبد الله بك، الذي كنت أنتظره أن يرد، فلما كرر لي السؤال قلت له: « نحن أخواتنا لا يعرفن مثلما نعرف فضلاً عما نجهل، بل أخواتكم هن اللاتي يعرفن ما تعرفون وما تجهلون». فقال لي: «أطلبها نسألها». قلت: «أطلبوها فإن جاءتكم فهي كما تقول». فأرسل لها عمي عبد الله بك خادمة له، فلم تأت. ثم أرجعها لها فلم تأت، فأرجعها ثالثة فرجعت الخادمة ثالثة قائلة له: « إن المرأة أخذت مقطفها على رأسها وخرجت من البيت، وقالت لي: قولي لأخي يلحقني بالطريق فإني راجعة لدِرَاو». فضحك عمي عبد الله بك وقال للأمين: «هذه نساء السودان الحُرّات[1]»، وأرسل لها بابكر كرم الله الذي كان من الجالسين، وهو ابن عمنا، فأرجعها بعد أخذ وردّ. بِتّنا ليلتنا تلك وفي الصباح رجعنا لدراو، فوصلناها في فتور شديد بعد أن قطعنا المسافة مشيا على أقدامنا.

وجدت صعوبة في اقناع السَّهْوَة في بداية الأمر بالعودة إلى الرمادي. ولا أكتمك أيها القارئ أني ما كنت أرجح العودة للرمادي لولا أملي القوي وغرضي المُلح في مراجعة زوجتي. ولكن بعد أيام جاءنا حمزة وأخذنا بالمركب حيث تركنا غالب أهل دراو آسفون لفراقنا، خصوصا حسن الرجل الصالح ووالدته مدينة. وصلنا الرمادي في أوائل شعبان (حوالي مارس ١٨٩٠م). وهناك وجدت أن عبد الله لم يكن يطالب الأسرى بخدمة قط، بل كان يصرف لكل شخص كبير أو طفل، ولو وضع بيومه، ثلاثة أرباع مصرية (أي ٣٧٫٥ رطلا) من

(١) الحُرّات : الحرائر.

الذرة في الشهر، وهذا يكفي لمعيشتهم. كما كان يصرف على عائلته الكبيرة وخيوله الكثيرة؛ ولكن محصوله من ساقيته وأطيانه لم يكن يكفي لذا كان يشتري مؤونته السنوية من كل نوع في موسم حصاده أو كساده، ويحفظها في مخازن وكالته المعدة لحفظ تجارته ومؤونته.

اعتدت أن أقرأ لعبد الله بك في «مقدمة ابن خلدون» التي كان يحبها كثيرا، كما أنه كان يحسن معاملتي حتى يهذر (يمزح) معي أحيانا، وكنت أرد عليه بجرأة فلا يغضب حالا ولا يترك هذاري مآلا. وفي مرة كنت أقرأ له وضممت الكتاب لأقوم فأشرب من الزير[1]، فقال لي: «اشرب من قُلَّلِي في الصينية[2] ولا تقطع القراءة». فرفعت قُلَّة لأشرب منها فقال: «اشرب من الثانية الوسطى»، فشربت منها شرابا أشبه بالسُوبِية فاذا هو العَسَلِّيَة[3]. ولما رجعت أحسست بدبيب خدر في رأسي وزوغان في عيني، حتى صرت أقرأ سطرا وأترك سطرا، فلما ضحك عمي عرفت ما مكره بي فتركت الكتاب وخرجت. ولما وصلت الشارع الموصل بين الوكالة وبيتنا صرت كلما رأيت أحدا، وان كنت أميز شخصه، لكنني أراه صغيرا جدا في عيني، وتحدثني نفسي أني اذا أمسكته يمكنني أن أكسره. ولما وصلت والدتي قلت لها: «أنا سكران». فخرجت وقالت: «الله يكفينا شر السَّلب بعد العطاء». فقلت لها: «أتركوني أنام ولا توقظوني للغداء»، فنمت الى العصر وصحوت عاقلا. وحينما رآني عبد الله بك ضحك مني وقال: «مَاعُونَك ضَيِّق» - أي ان ما شربته غير مُسكر.

في أحد الأيام إنتخب عبد الله بك من الأسرى الموجودين لديه مكي البريابي لتدريب خيله وترويضها، فبدأ مكي بركوب مُهراً وطرده؛ ولما سمع العم عبد الله بذلك غضب وقال له: «لا تطرد الخيل فتتعبها». وبعد قليل انتخب

---

(١) الزير: إناء كبير من الفخار يحفظ فيه ماء الشرب ليبرد.

(٢) قُلّلِي: جمع قُلّة، وهي إناء صغير من الفخار يحفظ فيه ماء الشرب وهي في هيئة زير صغير. والصينية هي إناء من المعدن توضع عليه القلل.

(٣) السُوبية والعَسَلّية: خمور تصنع من مواد محلية معروفة في السودان.

رجلاً آخر هو الفقيه ولد المجذوب ليدرِّس أولاده القرآن. وفي يوم ضرب الفقيه ولده آدم، فطلبه وقال له: «لا تضرب الأولاد وتنفرهم». فقلت له: «يا عمي عبد الله بك أنت عجيب خيلك تُؤدب بلا طرد ! وولدك يُعلم بلا ضرب !». فضحك جدا وقال للفقيه أضربهم، وقال لمكي أطرد الخيل، ثم التفت إليّ وقال لي: « أنت حكيم».

وفي مرة أخرى أراد أن يعمل بساقيته سياجا ببناء مؤقت من اللبن (الطين) وكتل التراب القديمة ولم يجد العمال لبنائه، فقررنا نحن الأسرى وأولاده القيام بالبناء. وكان معي الفقيه محمد المدني وولده أبكر؛ حيث كان محمد يأتي باللبِن والكتل، وأبكر يعمل الطين، وأنا أبني. وعندما جاء عبد الله بك ينظر عملنا هدم ما بنيته ووقف كالغاضب والمتحير. وعند مجيء المدني باللبن وجد البناء مهدوما فقال بحدة: «من هدم هذا ؟». رد عليه عمي عبد الله بك بقوله: «أنا هدمته»، فقال محمد: « لماذا ؟». فقال له: «من بناه ؟»، قال: «بناه بابكر». قال العم: «ليه يبنيه معوجا ؟»، رد عليه: « هل كان عند أهله بناء؟». قال العم: « كان مَلكاً !». قال محمد متهكما: «الإنسان أما أن يكون مَلِكاً وأما أن يكون بناء، ألا توجد درجة وسطى يعيش فيها ؟». فضحك العم حتى جلس على الأرض وقال لي: «أبن يا سيدي»، ورجع العم عبد الله عن باقي مروره وأعدنا البناء حتي أتممنا السيَاج ولم يعد إليه بعد ذلك.

سفري إلى القاهرة:

بعد أن إطمأننت على أهلي عزمت على السفر إلى مصر وذلك بناء على آخر جواب وصلني وكان تاريخه يوم ٤ شعبان ١٣٠٧هـ (٢٦ مارس ١٨٩٠م)، وكان مكتوبا بخط أحمد عثمان (أخ البقيع مطلقتي). قال لي فيه: «أحضر لترجع زوجتك، وبرجوعك نصحبك أنا والحسن أخي لأتزوج أنا أم طبول، ويتزوج الحسن الحُسنى، ونعيش معا كما كنا». وأخبرني كذلك أن المدني مصطفى زوج أختي الكبرى وعمي محمد أحمد شكاك معهم بمصر، وأن والدتهم توفيت. كل هذه العوامل الدافعة عجلت بي للقيام. ومما شجعني أيضا أن مركب عبد الله بك كانت مسافرة لمصر، وكان سيرافقني فيها عمي حجازي، وأبو شمة (صديق عمي علي شكاك حينما كان عاملا بالمسلمية). فنزلنا على بركة الله ونيتي نَسيَّت ما وراءها وتوجهت لمن هو أمامها. اشتدت بي خلال رحلتي الصبابة والحلم الحلو والأمل المُسَلّي، فصرت أتمثل بمجنون ليلى وما نسب إليه حتى قلت على وزن يائيته قصيدة أذكر منها:

تذكّرتُ أياماً لنا ولياليا
مضتْ بهناء وسرور تواليا
وحين عيون الحاسدين غوامض
تَلهّيّت بما قد كان فيه تلاهيا
إلى الله أشكو ما ألاقي من النّوى
بفقد حبيب كان للود راعيا

ومنها:

وجودي يا بقيع بزورةٍ
لتشفي مسقوما له فقدكم أعيا
وأن الذي أرجوه يا سيدة النساء
أن توصلي حبلي وإن كان واهيا

ولا تعتبي ستي بما قد جنيته
فقد قَلّ ما دام الوداد تصافيا

ومنهـــا :
فيارب سوِّ الحب شطرين بيننا
لتصلي بنار الحب كي تدري ما بيا
ويارب يبقى العمر ما قد كتبته
وعند (بقيع عثمان) تبقي وفاتيا

ولكن خاب الأمل وانقلب الحب الحلو مراً وأصبح بعد التسلية حزناً، لأننا حينما وصلنا أسيوط[1] لقينا بها من الأسري من أخبرني أن البقيع تزوجها



الزبير رحمة باشا منصور الجميعابي

---

(١) مدينة كبيرة في منتصف صعيد مصر، تبعد عن مدينة القاهرة حوالي ٥٠٠ كيلو متر.

الزبير باشا[1] نفسه في يوم ٢٧ رجب ١٣٠٧هـ (الموافق ١٩ مارس ١٨٩٠م)، أي قبل تاريخ خطابهما لي بسبعة أيام[2]. فأشار عليّ رفيقاي بالرجوع للرمادي ولكني رأيت هذا إظهاراً للجزع وفواتا لأداء واجب العزم.

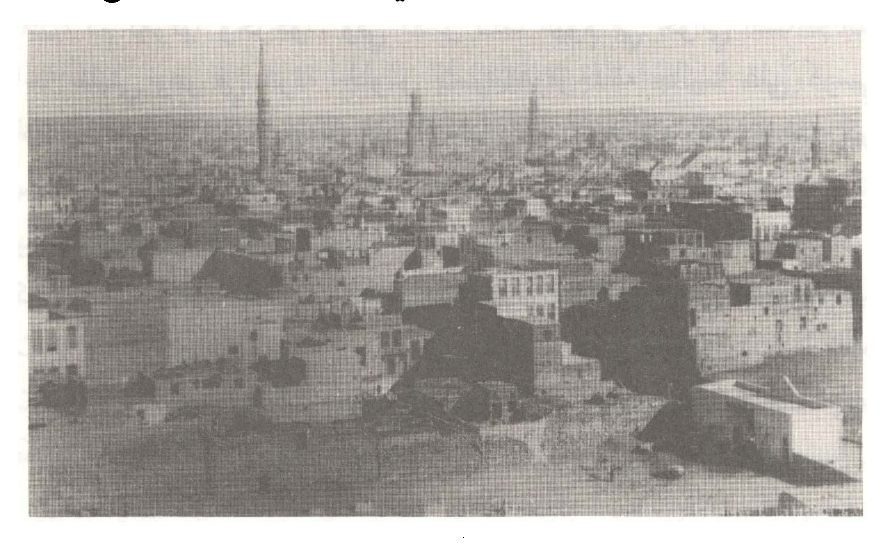
---

(١) الزبير باشا: هو الزبير رحمة منصور الجِميعَابي من قبيلة الجَعليين ولد في ٨ يوليو ١٨٣١م وتعلم في الخرطوم ثم امتهن التجارة وعمل منذ عام ١٨٥٦م مع أحد التجار المصريين ممن كانوا يعملون في تجارة العاج والرقيق في إقليم بحر الغزال في جنوب السودان، وهناك قوي بأسه مما جمعه من مال ورجال. وأصبح حاكما لجزء كبير من ذلك الإقليم في عام ١٨٦٥م، وكانت عاصمته هي ديم الزبير. وكان الزبير باشا يحكم تلك المنطقة باعتراف ومساندة الخديوي في مصر إذ أن تجارته كانت معها. ولكن حدث خلاف بينه وبين حاكم السودان العام إسماعيل باشا أيوب حول إدارة إقليم دار فُوْر الذي فتحه الزبير باسم الخديوي، فسافر عام ١٨٧٥م إلى مصر لعرض موضوع الخلاف على الخديوي إسماعيل باشا، ولكن الخديوي إستبقاه هناك فترة طويلة عاش جزءً منها في ضيافة الحكومة والجزء الكبير منها في بحبوحة من ماله الخاص. وأثناء ذلك كلفته الحكومة المصرية ببعض الأعمال منها مرافقة النجدة المصرية للجيش التركي في حربه ضد روسيا عام ١٨٧٧م. وفي عام ١٨٨٥ أتهم بمساندة الثورة المهدية وحُبس في جبل طارق لمدة ثلاثين شهرا ثم أفرج عنه عام ١٨٨٧م. وعند إعادة غزو السودان عام ١٨٩٩م أعيدت له أمواله وأملاكه وسمح له بالذهاب إلى السودان ولكنه استمر يقيم تارة بالسودان وتارة بمصر إلى أن توفي عام ١٩١٣م (شقير صفحة ٢٥٨ ـ ٢٨٧؛ تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي صفحة ١٠١).

(٢) في الوهلة الأولي يبدو أن هناك خطأ في تاريخ الزواج وتاريخ جواب أحمد عثمان (أخ البقيع) المذكور في صفحة ١٦٦، إذ من غير المعقول أن يكتب أحمد ليدعو بابكر ليحضر لمراجعة مطلقته بعد أن يكون الزبير قد تزوجها، ولكن تأكيد المؤلف للتاريخين ينفي هذا التفسير. وبمناقشة هذا الرأي مع يوسف بدري ـ إبن المؤلف ومترجم النص الإنجليزي ـ أكد ما قاله بابكر بدري بأن زواج البقيع للزبير باشا تمّ قبل كتابة أحمد للخطاب. كما أضاف يوسف أيضا بأن أهلها لابد من أنهم نووا أمرا من إحضار بابكر للقاهرة، ولو أن يوسف نفسه لا يعرفه. ومما يزيد الموقف غموضا فإن هناك خطابات عُرضت على الزبير قبل زواجه للبقيع ـ كما ورد في المحادثة بين بابكر والزبير صفحة ١٧٠ ـ ١٧٣. وقد يكون ضمنها ذلك الجواب أو لا يكون. فإن كان الزبير قد اضطلع عليه يصبح متفقا مع أحمد في كل هذا التخطيط. وفي كل الأحوال هناك تفسير أخير لإحضار بابكر لمصر وهو أن أحمد كان تحت ضغط من الزبير لتزويجه البقيع، فزوجها له. وفي الوقت نفسه كان يريد لنفسه أن يتزوج أخت بابكر فاعتقد أن الزبير سيضغط بابكر بعدما يصل ليقبل طلب أحمد. وهذا يبدو تفسيراً معقولاً.

صممت على وصول القاهرة وعالجت نفسي في الطريق حتى سلّيتها تماما. وصلت القاهرة بحالة هادئة وفكرة واعية، والفضل في ذلك يرجع لتربية المهدي (عم)، الذي كان يفسر قوله تعالي: ﴿**لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم**﴾، بقول يدخل في القلوب فتضمه حواشيه قبل أن يدخل في الآذان. ولما دخلنا مصر أشار عمي حجازي بأن ننزل عند حميد باشا وكيل دائرة حيدر باشا. فرفضت أن أنزل في غير بيت الزبير باشا لأن نزولي عند غيره من مظاهر الحزن والجزع اللذين لا أحب حينذاك أن يُرى أحدهما عليّ فيزداد الشامت شماته. وقرأت البيت الهذلي التالي لمواساة نفسي:

وتجلّدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع



مدينة القاهرة فى حوالى نهاية القرن التاسع عشر وقت زيارة المؤلف لها عام ١٨٩٠م

دخلنا منزل الزبير باشا وقابلناه نحو الساعة الخامسة مساء، فرحب بنا وأولاني بعض العناية الخاصة. ثم خرجنا حيث صلينا المغرب في مسجد السيدة زينب ورجعنا، وصرت بعد ذلك أصلي الأوقات كلها في الجامع. وفي اليوم الرابع صليت الصبح فلقيني الزبير باشا عند باب الجامع فخرجنا معا وهو لابس بنطلوناً وكبوتاً ومكاويه على رأسه بعمامتها، وبيده سوط يضرب به رجله، ويده اليسري ممسكة بيدي اليمنى حتى دخلنا بيته. هناك وجدنا بعضا من

الأسري نائمين في غرفة خارجية، فصار الباشا يضربهم بالسوط فهبوا كالحيران. ولما رأوا الباشا خرجوا من الغرف، فجلس في برندة السراية وطلبهم فاجتمعوا حوله وأنا معه. فقال لهم موبخا: «الزبير باشا عمل لكم المصاريف ختى الفحم وأجّر لكم بيوتاً بالجيزة بعائلاتكم. الزبير باشا إلى متى هو حيّ لكم ؟ يا ناس كفيتكم همّ المعيشة ما تشبِّعوا لي بنات عمي (...) ؟ يا ناس ما تسعوا في حرَف تعيشون منها». فرد عليه بابكر كرم الله عبد الله فقال: «يا سعادة الباشا الحرَف في مصر كلها تحتاج الى مفتاح وضمان ورأس مال .. كل هذا ما عندنا». فكان رد الباشا عليه: «أنا عارف لكم حرفة لا تتطلب واحدة من هذه». فقالوا: «ما هي يا سعادة الباشا ؟». قال: «الواحد منكم يمشي حارة اليهود يوم السبت (...) ويعطونه قرشين». فخرجت من بينهم وهم يضحكون مما قال، ثم تفرقوا وخرجوا. وفي نفس ذلك اليوم في حوالي الساعة الثامنة صباحا طلبني وهو في غرفة الجلوس بسرايته فوجدته جالسا على كرسي له عجلات، إذا اتكأ عليه يجري على البلاط؛ فأشار عليّ بالجلوس علي كرسي مقابل له فجلست وبدأت بيننا المحاورة التالية:

الزبير ـ لأي سبب جئت إلى مصر ؟

بابكر ـ أنت يا سعادة الباشا الناس يتزودون ويخاطرون في المخاوف ليروك وأنت في السودان، فلما كُتِب علينا أن نسكن القطر المصري لمدة لا نعلمها، جئت لأراك وتعرفني بشخصي وإسمي حتى إذا ما داهمني ما أحتاج لمساعدتك فيه كتبت لسعادتك كتاب من تعرفه.

ز ـ ثم ما السبب ؟

ب ـ أولاد عثمان أولاد خالي واخواني ووالدتهم توفيت جئت أعزيهم.

ز ـ ثم ماذا ؟

ب ـ المدني ابن عمي وصهري.. زوجته وأولاده معي، ومحمد أحمد شكاك عمي جئت أبحث عنهما.

ز ـ ثم ماذا ؟

ب ـ جئت أزور السيد الحسين وآله.

ز ـ ثم ماذا ؟

ب ـ لا شيء.

ز ـ (إنتصب بعد اتكاءة خفيفة ثم قال لي): إن المرأة التي تزوجتها قالوا امرأتك.

ب ـ بل مطلقتي.

ز ـ لا امرأتك.

ب ـ سبحان الله ياسعادة الباشا أنا الزوج الأول أعترف بالطلاق وأنت الزوج الثاني تدّعي ضده فهذا معكوس!

ز ـ اسمع يا بابكر أنت قلت جئت لكل من ذكرت والحقيقة أنت جئت لامرأتك أو لرجوع مطلقتك.

ب ـ من أين أخذت هذا يا سعادة الباشا؟

ز ـ أنا رأيت كتابتك التي جاءت منك بالرغبة ورأيت الجوابات التي راحت لك بالإجابة.

ب ـ لما رأيت كل هذا لماذا تزوجتها؟

ز ـ (متهيجا): يا ولد ضحوي يا رضوان يا ود المجذوب تعالوا اسمعوا هذا الكلام من هذا الولد الذي تقولون صغيرا لا يُعبأ به، أنا والله منذ كنت الزبير ما سمعت مثل هذا الكلام، ما هذه البَلادة (.. شفت كتابتك).. (.. عرستها ليه لما شفتها؟) دي ما بلادة!. أشهد على نفسي.

وبعد أن خرج الجماعة الثلاثة التفت إليّ وقال:

ز ـ إسمع يا بابكر المرأة دي أنا صرفت عليها نحو ثلاثمائة جنيه من مصاغ إلى لباس إلى فراش، شيء يليق بمقامي أنا، والآن عزمت أن أطلقها وتبقى معي حتى تَستَعِد[1] وأرجعها لك بما عملته لها .. أنا الزبير سأعمل كل هذا لك.

ب ـ (متحمسا): ليس هذا والله لك بفخر.

ز ـ أنت تعمله؟

ب ـ نعم لكن أنا ما عندي مال، فإذا تكتب لي خطابا تطلب مني طلاق زوجتي وإرسالها لك أفعل، فانظر أنت أصعب الزوجة أو المال؟

ز ـ (سكت مليا ثم قال لي): إن كنت تجبر خاطري وتعتبرني كوالدك تقبل

---

(١) تَستَعِد: أى تكمل أشهر العدة.

مني طلاقها ورجوعها لك لأتدارك غلطتي.

ب ـ ياسعادة الباشا؛ هذه البنت كانت ترى بيتنا أكثر من بيت أبيها والآن صارت في بيت الباشا وهو أكبر بيت سوداني الآن، فهي لذلك لا ترضى بي.

ز ـ عليّ الطلاق راضية بك لأني حينما أخبرتها بوجودك جرت مدامعها وبدا عليها أثر الحزن.

ب ـ يا سعادة الباشا نحن الآن في أسر ولا غرض لنا في النساء. واذا رغبنا الزواج بعد حين فالسودانيات موجودات عند الإغريق وعند العبيد(١)، وكثير منهن مكتعبتات (أي صابرات) علي حرارتهن فلنتزوج من بعضهن لتخلص من تخلص وتبقى الحرة على حرارتها، أما النساء اللاتي دخلن بيتك فهؤلاء حفظن ويأكلن منك الطعام ويضمنّ الكسوة، فضلا عمن صارت زوجتك. فإني أقول لسعادتك هذه المرأة التي تراودني عليها لا أتحمل من شأنها هذه المِنّة منك ومن اخوانها وما لها في قلبي ما يضطرني لتحمل هذا. وأنا أقول لسعادتك إذا كانت كحواء وكنت كآدم يتوقف على اجتماعنا ـ كزوجين ـ حفظ النسل البشري فأنا محرمها وإن حلت لي.

ز ـ (وضع يديه علي رأسه كالعمامة وقال): أعوذ بالله من هذه الجرأة!. ثم نادى أحمد عثمان ـ أخوها الكبير ـ وقال له: «يا أحمد أسمع؛ بابكر قال إنه جاء يراني ويعرفني وهو كذاب، (ثم كرر كل كلامي الذي قدمته له سببا). ويقول ـ وهو كاذب ـ ما جاء لامرأته يرجعها». (حتى قال في النهاية): «أنا الآن عزمت أن أطلقها فتَستَعِد ونرجعها له بما معها من أمتعة».

فأجاب أحمد: «يا سعادة الباشا؛ حينما طلبت أنت زواجها ما تجاهلنا بابكر، عرضنا عليك الكتابات التي دارت بيننا، وسعادتك سمعت كلام غيرنا، وقلت رغم هذا زوجونيها فنفذنا إرادتك، الآن وقد حضر بابكر للغرض الذي ذكرته، وعزمك الذي عزمته فنحن لا نوافق عليه. بابكر إذا كان بحاله السابق الذي نعرفه عنه اذا طلقتها له فمحال أن يتزوجها. واذا تغيّر عن حاله فنحن لا

---

(١) أي أن السودانيات كن يعملن في بيوت الأسر الإغريقية وغيرها في مصر.

نبالي به يغضب أو يرضى. فاذا كنت سعادتك قنعت منها فطلقها تعيش في بيتك كأخواتها ».
ز ـ عليّ الطلاق كلام بـابكر أحسن من كلامك وهو أرّجل منك وأعقل منك.
ب ـ يا سعادة الباشا؛ آباؤنا وآباؤهم جيران في بلدنا، نحن تزوجنا منهم ثمان نسوان وهم لم يتزوجوا منا امرأة واحدة فلهم الفضل علينا في سابقتهم، فأتركنا يا سعادة الباشا لئلا نجفو بعضنا.. أما أنا وسعادتك فعلى قرارنا.
ز ـ أمش عاد لأرى رأيي.

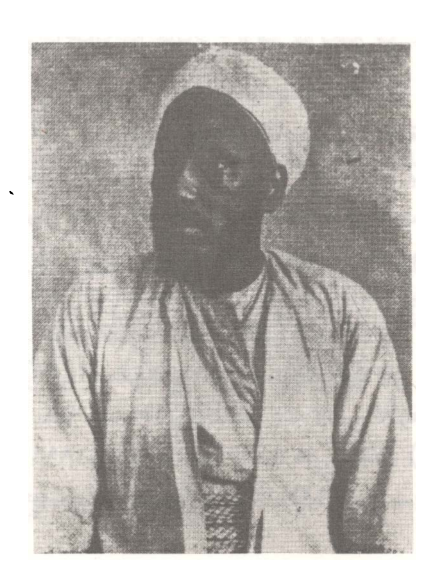
خرجت منه، وبعد أيام بلغني أنه عزم على طلاقها. وفي صدفة أخرى إجتمع عنده الشيخ مضوي [١] ووالدنا الشيخ العاقب (أحد الأسرى مع المؤلف انظر قصته صفحة ١٣٣ ـ ١٣٤) عصراً فقلت لهما: «أخبرا سعادة الباشا أنا بيدي نقود أصرف منها على نفسي حينما نزلت بيته. فإذا طلق البقيع أنا أرحل من بيته أو أسافر اليوم من مصر قبل العيد». فلما أخبراه طلبني وقال لي: «بلغتني وصيتك ورجعت عما عزمت عليه، ولكني رأيت في كتاب كتبه لك أحمد عثمان أن تأتي بأختيك يتزوج أحمد واحدة والحسن الثانية، فإني أطلب منك أن تنفذ هذا، وأنت تتزوج أختهما آمنة وتعيشون في كنفي». أزعجني قوله «كنفي». فقربت منه وهمست في أذنه: «أني لا أستطيع الذهاب لحارة اليهود يوم السبت»، فضحك وقال لي (همسا): «أسألهم هل ترى أحدا منهم يذكرها؟». قلت همسا: «أظنك يا سعادة الباشا أكثرت من أمثالها عليهم حتى ألِفُوها». فضحك ورجع إلى الجماعة قائلا: «ما قولكم في أنه يتزوج أختها ؟».

---

(١) الشيخ مضوي الرحمن: هو أحد كبار فقهاء الطريقة القَادرية في منطقة الجزيرة، ومن سلالة الشيخ إدريس ود الأرْبَاب. كانت له خَلْوة لتدريس القرآن في كَركُوج أقامها بعد أن عاد من الدراسة في الأزهر. وبعد ظهور المهدي وتكرار إنتصاراته هاجر إلى معسكره في قَديـر، وبعدها عاد واشترك في حصار الخرطوم مع الفكي العبِيد ود بَدُر. واستمر مشايعا للمهدية حتى وفاة المهدي، وبعد ذلك أخذ إيمانه بها يتناقص خصوصا بعد التغيرات السياسية التى أحدثها الخليفة عبدالله وتقليله لمرتبة الخليفتين محمد شريف وعلي ود حلو. وقد حاول الشيخ المضوي تأليب الأشراف ضد الخليفة عبد الله ولكنه عندما أحس باحتمال انكشاف أمره فرّ إلى الحبشة عام ١٨٨٦م، وبقى فيها إلى عام ١٨٨٩م. ثم سافر منها إلى مصر حيث توسط له الزبير باشا عند الخديوي للعفو عنه فإنضم للأزهر مرة أخرى وبقى فيه حتى بداية إعادة غزو السودان عام ١٨٩٦م وعندها عُين قاضيا علي دُنقُلا. (شقير، صفحة ٣٥٦، ٤٤٢، ٤٤٩، ٦٧١، ٦٧٢؛ محمد محجوب مالك، صفحة ١٣٤ - ١٣٧).

فقلت: «يا سعادة الباشا إن صح شرعا فلا يصح عُرفا». فحكى أنه رأى قبيلة في دار فُوْر تكونت من رجلين من الأشراف نزحا إلي دار فُوْر بزوجتيهما فتوفي أحدهما عن ولد واحد، والثاني توفي عن سبع بنات؛ فتزوجت البنت الكبيرة ابن عمها حتى حملت منه فطلقته، ثم تزوجته الثانية حتى حملت منه، فتزوجته الثالثة حتى دار عليهم ثلاث مرات. فقلت: «كيف كونوا قبيلة إن لم يدخلوا غريبا بينهم وهم كلهم أخوان من أب واحد؟». فالتفت اليّ سعادة الباشا وقال: «والله يا ولد الحرام ما انتبهت لهذا الإنتقاد فاسألهم عنه». ثم قلت له: «هؤلاء اضطرهم عدم جنسهم ولكنا بحمد الله عندنا نساء عند الإغريق والعبيد»، وكررت العبارة التى قلتها له، فلما رأى عزيمتى سكت.

بعد هنيهة سألني الشيخ مضوي عبد الرحمن: «هل تعتقد أن المهدي هو المهدي؟». قلت: «وأنت ألا تعتقده؟ وأنت الذي قبضت على لحيتك وقلت لأهلك ولغيرهم بكركوج والعْيلَفُون، إذا لم يكن هو المهدي فاقبضوا على لحيتى هذه هكذا وقولوا: والله غشنا مضوي». قال لي: «نعم قلت هذا حينما رأيته بقَديـر قائما دين الله تماما، فلما توفي ورأيت التغير أنكرت». قلت: «يا مولاي هل أخبرت الناس الذين آمنوا بايمانك أن يرجعوا برجوعك؟». قال: «لا». وضحك الزبير باشا حتى ضرب على أوراكه وقال: «ولد الحرام ده من وين؟». فقال له الشيخ العاقب: «هذا بعض من ذكاء والده»، وانصرفنا.



الشيخ المضوي عبدالرحمن

فلما كانت الجمعة اليتيمة من رمضان وخرج الخديوي توفيق[1] بأُبهة عظيمة للصلاة في الجامع العمري، ذهبت أنا كذلك للصلاة به. وبعدما صلينا خرجت فرأيت تلك الأبهة والعظمة من السلاح والرجال. كان اعتقادي أن جيشنا الذي يأتي بعدنا سيفتح مصر ويخلصنا من الأسر، وكان هذا أقرب عندي من أن نرجع السودان بدون تدخله. وهذا الاعتقاد لا شك كان عندي من أثر عقيدتي الصماء.



الخديوي توفيق باشا



الخديوي إسماعيل باشا

عند حضوري إلى القاهرة كنت أحمل جواباً من عمي علي شكاك ـ أرسله لي بيد أحد لا أذكر اسمه ـ يخبرني فيه بأنه سيحضر إلى القطر المصري مع المنصور أبو كوع ليرحّل زوجته التي تركها ببلانا. وبوصولي مصر وجدت شقيقه محمد أحمد شكاك لازال متزوجا بها[2]، فلما عرضت عليه الجواب

(١) الخديوي توفيق باشا: هو ابن اسماعيل باشا ابن إبراهيم ابن محمد علي باشا وقد تولى الحكم على مصر بعد أن أقيل أباه إسماعيل عن الحكم في ٥ يونيو ١٨٧٩م لسوء إدارته للبلاد وكثرة تبديده لمواردها خصوصا في حفر قناة السويس (شبيكه، صفحة، ٥٦١، ٥٦٦).
(٢) انظر هذا الموضوع في صفحة ١٣٢ أعلاه.

إنفصلا عن بعضهما فتزوجت هي أحمد عثمان، الذي يئس من أختي، وتزوج محمد أحمد آمنة عثمان التي عرضها الزبير باشا عليّ.

عودتي إلى الرَّمَادي:

صممت منذ ذلك الحين على السفر إلى الرَّمَادى بعد العيد مباشرة (شوال ١٣٠٧هـ)، ولّما ودعت سعادة الزبير باشا كان الناس يتنبئون لي بهدية عظيمة منه ولكنه أمر لي بنصف ثوب دَبَلان(١) واثنين جنيه فأخذتهما. وحسب ظنّى أن صراحتي معه بما لم يسمعه من غيري أثرت في نفسه. سافرت بمركب، وسافر معي المدني ابن عمي ومعه زوجته الثانيه بنت الكلاني. وقبل سفري كنت أعلم، من أولاد عثمان أن بنت خالتهم فاطمة بنت الفضل، وولدها دفع الله شبيكة (الصغير)، ومريم أرملة أبيها الفضل الصادق، الذي مات بالشلال، (انظر تفصيله في صفحة ١٣٦)، موجودون عند أولاد أبي ستيت في ضواحي مدينة "البلينا"(٢). وعند وصولنا البلينا طلبت من ريّس المركب أن ينتظرنا حتى نرجع من أولاد أبي ستيت، فوافق. فوصلتهم وطلبت منهم السفر معي فامتنعوا؛ ولكن لما أخبرت مريم بأن ابنتها حفصة(٣) بِأسوان، وأني رأيتها مع سرِيَّه(٤) خالها أحمد عمر (التي تزوجت بباتين الشاعر)(٥)، قالت لي: «سألحقكم»، فعدت وواصلت سفري.

في طريقنا أخبرني بعض الأسرى أنهم رأوا الروضة بنت محمد ـ ابن عمنا ـ ومعها أمها فاطمة بنت حاج الحسن قديلاوي، بأصوان. وأخبروني أن الروضة تزوجت بأحد الجنود السود؛ فصممت على أن أتوجه اليها. فلما وصلت الرَّمادي ذهبت للسلام على عمي عبد الله بك حمزه قبل سفري لأصوان، فسألني ماذا أريد من أصوان؛ فحكيت له غرضي. عندها قال لي: «البنت لا

---

(١) دَبَلان: نوع من القماش المصنوع من القطن.
(٢) مدينة تابعة لمديرية سوهاج وتقع في وسط صعيد مصر.
(٣) حفصة: هي زوجة بابكر بدري التي تزوجها في حوالي صفر ١٣٠٨هـ (الموافق نوفمبر ١٨٩٠م). وسيأتي تفصيله في صفحة ١٨٤.
(٤) سرِيَّة: هي الجارية، أي المرأة التي تشترى ثم تعامل معاملة الزوجة.
(٥) باتين: هو شاعر من قبيلة الرُباطاب وشعره باللهجة العامية السودانية.

تأتي معك». قلت له: «ستأتي». فكرر النفي وكررت الإيجاب. أخذت معي عند سفري آمنة بنت الحرم النِمياّبيّة - والدة الجزولي والشاذلي - لتكون همزة إتصال بيني وبين الروضة؛ وفعلا جاءتني بها فوعدتنا الروضة أن تمشي معنا وعداً جعلني أطمئن. ثم جاءتنا غدا وطلبت مِنّا أن نمشي معها إلى بيتها نتغدى معها، ففعلنا. وعندما كانت فى المطبخ دخل عليها زوجها العبد، وكانت آمنة بنت الحرم وراء المطبخ فسمعته يقول لزوجته: «أنا أخبرت الباشا وسيضعهما في السجن.. الرجل والمرأة». فخرجت آمنة من مكانها ذاك في البيت وسارت الى البحر حيث وجدت مركبا مسافرا فدخلت فيه. ولما وصلت الرَّمادي أخبرتهم أني في السجن. وبينما أنا في انتظار الغداء جاءني بوليس وقال لي: «وود هاوس باشا طالبك والمرأة التي معك والبنت الروضة». بحثنا عن آمنة فلم نجدها فتوجهنا أنا والروضة حيث وجدنا زوجها بخيت موافي[1] مع الباشا. فوقفنا معه فقال لي الباشا بلسان عربي: «أنت جئت للبنت ده ؟». قلت: «نعم، لأن أباها ابن عمي وأمها بنت خالي». فسألها: «صحيح هو عمك ؟» قالت: «نعم وصاحب خالي كمان»، فقال لها: «تمشي معه أو تبقي مع زوجك؟». قالت: «أبقى مع زوجي». فضحك وقال: «هي مش عاوزاك». قلت: «أنا مش عاوزها»، وأخذها زوجها بيدها وفارقاني. فقصدت البحر لأبحث لي عن مركب أسافر بها مكسوفاً.

عندما وصلت الرَّمادي دخلت على عمي عبد الله بك ووجدته يقرأ في جريدة فأمسك بيدي ومجلسه حافل وقال لي: «من هذا ؟» تهكماً، قلت: «بابكر». قال: «البنت جاءت معك ؟». قلت: «لم تأت»، قال: «أنت مجنون البنت وجدت حق العبد الأخرش تخليه وتتبعك». جاءتني لكلامه نوبة صراحة فقلت له: «البنت حق العبد هي مخلوقة له وهو مخلوق لها وهي صغيرة وأُخِذت قهرا، لها أعذار[2]». فأخذ يقرأ حتى إنصرف عنه الناس فطلبني، وعندما جئته

---

(١) بخيت موافي: سيجيء ذكره فيما بعد ضمن الأحداث التي تلت واقعة كرري (انظر صفحة ٣١٤).
(٢) وردت في الترجمة الإنجليزية تكملة لهذه المحادثة، وقد أغفلت في الطبعة العربية الأولى (١٩٥٩) ونصها كان كالآتي:.. وأسوأ من حال البنت ما سمعته عن قريبك الذي يمخر شوارع أصوان ليلا كالنساء!». (تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي ١٩٦٩ صفحة ١١٨).

قال لي: «يا بابكر تعيّرني أمام ناس البلد يحفظون عليّ ماقلته لي ؟!». قلت: «أنت الغني الموظف الكبير في سنك وفي مقامك، وثروتك تزيدك شرفا على شرف، ونحن الأسرى الضعفاء والفقراء تزيدنا إحتقارا على إحتقار.. هذا لا تجده عندي». إنصرفت عنه، وجلست على جدول ساقية خارج الوكالة فجاءني الأسرى الذين حضروا وسمعوا المحادثة وقالوا لي: «يا بابكر أغضبت علينا عبد الله بك الرجل المحسن فينا». كان هو وراء الباب يسمع ما أقول مما جعلني أظن أنه بعثهم إليّ. فقلت لهم بصوت مسموع مغضب: «عبد الله بك ما يكفيه أن الله أحوجنا له من قبائل شتى ومكنه من أن يأسر قبائلنا بإحسانه لنا، وهو إن لم يعرف أبي فلا شك أنه يعرف عمي مالكاً الذي كان يرافقه في أسفاره، وأنا من هذا اليوم اذا قعدت في كنفه أكون ولد حرام وهو يعمل لي ما يشاء، إنصرفوا عني فإني لست ممن يحمل له جميلة أكثر مما حمل هو لي برضائي». بعد هنيهة طلبني فوجدت عشاءه أمامه فقال لي: «أجلس كُل»، فقلت: «لا آكل». فَهَمّ أن يقف ليجلسني، فقلت له: «أسمع يا عمي عبد الله بك أنا اذا صرت غنيا مثلك وجئت عندك ضيفاً ما أكلت طعامك، إذا أكلته أكون ود حرام.. لا تتعب»، وخرجت.

لم أنم تلك الليلة هادئاً وبمجرد شروق الشمس نزلت إلى الشاطىء أنتظر مركبا تحملنا إلى أصوان، فجاءني عمي عبد الله وطلب مني أن أرجع فلم أقبل. عند ذلك أعطاني جنيها للأجرة والزاد فرفضته. وأثناء وجوده معي مرّت مركب فرفعت لها يدي فمالت علينا فأنزلت إليها أهلي والمدني، ودفعت للريِّس الأجرة مقدما. فيئس عمي عبد الله من رجوعي وقال لي أخيرا: «كنت أريد أن أعمل معك مصاهرة في أختك الصغيرة». فقلت: «آه.. ما كنت أعطيكها». قال: «لما ؟». قلت: «لأني سمعتك وأنت متزوج بنت الخَتَّام وأمها بنت الفقيه أحمد ولد هاشمي، إنك مرة سألت عمن فتح الباب بتاع الخيل فقيل لك فتحه محمد الخَتَّام، قلت: ولد الخَتَّام مين.. الله يلعن أمه يا شيخ». (أي أنه لم يكن يعامل أنسباءه بخير ـ المحقق). فضحك وقال: «أستودعناك الله، ما فيك بصارة».

في أصوان:

وصلنا أصوان وما بيدي غير اثنين وسبعين قرشا، أجّرنا منها غرفة واحدة بعشرين قرشا ودخلنا فيها عند الغروب. في الصباح ذهبت إلي السوق ثم إلى البحر أبحث عن عمل، فوجدت أكثر إخواننا الأسري عمالا باليومية في العمارات وأجرهم قرشين في اليوم. فجال في بالي أن معي جاز بنت مصطفي (أخت المدني)، وزينب عبد الله ولد مالك[١]، وأخواتي الثلاث وأمي والقرشين لا تكفينا أكلاً مهما إقتصدنا. وإن كلفت النساء بخدمة لأكلهن لا أدري ما يحصل لهن أثناء الخدمه. أيضا نحن في نيتنا الرجوع إلي بلدنا، فإذا تَعوّدنَ منقصة هنا تخالف عوائدنا وديننا، لا آمن إن عملنها هناك ولو من غير قصد تَفْضَحنا في بلدنا. تحت ضغط هذا الفكر مِلت علي رجل سَمكري بسوق الحاج حسن[٢] بأصوان وقلت له: «إني أريد أن اشتغل معك، وما أصنعه أنا يكون مناصفة بيننا.. آخذ النصف لعملي، وأنت لك النصف نظير المواد والدكان». وافقني على ذلك، فجلست انظر إليه كيف يلحم، ثم مسكت الكاوي ولحمت به كوزاً. ثم رأيته يقطع الصفيحة قطعة كبيرة ويقصّ منها قليلا قليلا بالمقص، فيتأخر في العمل، زيادة على تبذير الصفيح. فأحضرت ورقة مقواة من صندوق جزمة وقسمتها إلى سنتمترات والسنتمتر أجعل له خطاً أحمر ونصف السنتمتر خطاً أخضر. ولما أراد أن يلحم كوز كمقياس للرطل تناولته منه وأخذت طوله وعرضه جيدا. وصرت أمسك لوح الصفيح وأعلِّم على حافته الطول والعرض وأوصل ذلك بخطوط برأس المقص، ثم أقطع. فقال لي الأسطي: «خَسّرته». قلت له: «إن خَسّرته أخصمه مني»، ثم طويته علي السِندالة ولحمته وعملت

---

(١) أرملة أحد الأسرى من زملاء المؤلف (تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي ١٩٦٩م، صفحة ١٢٠).

(٢) سوق الحاج حسن: يعتبر هذا السوق امتداداً لسوق الحارث ـ الذى سيأتي ذكره ـ من ناحية الجنوب، وهو من أشهر الأسواق في مدينة أسوان ويتميز ببيع المشغولات الذهبية والفضية وكذلك المصنوعات الجلدية والتحف، أما نسبة السوق إلى الحاج حسن نفسه فيقال إنه من الأولياء الصالحين الذين قطنوا هذا المكان، وله مقام معروف في وسط السوق.

قعره ويده. فملأ كوزه ماء وصبه فيه فوجده مساويا تماما. صرت أصنع أربعة أكواز إلى خمسة وهو لا يكمل إثنين. فقال لي يوما: «علمني طريقتك في الشغل». قلت له: «أنا أهلي علموني العلم والحساب هل ممكن أعلمك الآن؟». بعد أيام وجدت إيرادي منه لا يكفي لضيق العمل وقلة التصريف، فتركت السمكرة وذهبت إلي الخياطين. مكثت هناك أيضا أياما وما وجدت منهم فائدة فتركتهم.

ثم بلغني أن بسوق الحارث[1] بأصوان سودانيا يعمل جلّادا، فمشيت إليه وقلت له: «أنا أعرف الجلادة وأريد أن أشتغل معك وآخذ نصف ما أصنعه»، فوافقني. كان الرجل عند حضوري إليه يقدّ في سير رقيق من الجلد فناولني إياه وقال لي: «خلّص هذا السير إلى أن أعود»، ثم خرج . فمسكت الموسى وصرت أقدّ ببطء حتى اعتادت يدي فلما أتي وجدني ماهراً في قدّ السير فاقتنع بأني جلّاد. كانت الجلادة صنعة نافعة في ذلك الوقت كثيرة الزبائن واسعة العمل المتنوع. وهذا يرجع إلي أن العبابدة كانوا يطلبون الزينات الجلدية لأدوات جمالهم فيزينون السروج والرُّسَانة[2] والقلائد والسيوف والسكاكين والأسواط وبيض النعام[3] وغير ذلك بتنافس شديد.

كان هذا الجلّاد، ويدعى علي ود سعد، مَيْرَفابي، فلما علم أني رُّباطابي ومعي عائلات أشار علي بأن آخذ السّيطان لمنزلي أشتغلها بالليل وآخذ أجرتها. فجعلت آخذ المائة سوط وأجرتها مائة قرش، وأشتري الجلد غير جلود الدكاكين وأقدها سيورا، وعلّمت البنات كيف يلففن والمدني كيف يعقد، وصرنا كلنا نشتغل. كنا نخلصها في يومين أو ثلاثة ليالي فتوسعنا وبدأنا نحسّن طعامنا. وفي يوم أخذت أجلّد سكينا بلدية فقطعت الجلد قدر المخيط للمكان العريض ثم عملت السِّيطان[4] وكسوتها بالجلد، ثم أردت أن أبرز السِّيطان فصغر الجلد. وهكذا كنت كلما شددت الجلد تنمحي السِّيطان. كان علي ود

---

(١) سوق الحارث: هذا السوق يُعدّ من أشهر الأسواق الشعبية بأسوان، ويقع في وسط المدينة، ويكثر فيه باعة الأقمشة والخضروات والعطارة والمصنوعات الجلدية.

(٢) الرُّسَانة: جمع رسن وهو المقود الذي يلجم به الجمل.

(٣) بيض النعام: يفرغ ويستعمل كزينة في البيوت في السودان.

(٤) السِّيطان: نقوش بارزة طويلة تعمل على بيت (غمد) السكين أو السيف.

سعد يراقبني، فلما تعبت أخذها مني وقال لي: «أنت لست جلّادا ولكنك نبيه»، فقطع الجلد كبيرا ثم أبرز السّيطان بالمُحْرات[1] حتى يبست. بعد ذلك وضعها في قلب السكين ثم ألآن باقي الجلد بالماء ومسحه بالمَديْدَة [2] للزقة. وصار بعدها يضغط عليه بالمُحْرات ليجتمع على بعضه حتى صار كأنه غير مطبّق، وتركه حتى كاد ييبس ثم أمشى عليه المُحْرات ليظهر محل القطع. ثم رمى بها إليّ وقال: «إقطع الجلد وخيّطها». ولم يقف على شيء من عدم إتقاني لهذه المهنة غير هذه المرة.

ترك علي ود سعد الدكان لي وصار يحوم في البلد وفي السوق لمصالحه الأخرى، وصرت أنا الذي أتفق مع الزبائن في الأجرة والمسئول عن كل المصنوعات والكاتب لعددها وأجرتها. وبالرغم من هذا كان في آخر الشهر يعطيني ماكنت آخذه حينما كان هو الذي يقوم بالاشراف على الدكان من مشتروات وغيرها، وعندما كان يشاركني الصناعة نفسها. فقلت له يوما: «أنت لك عليّ الشكران والجميل لأنك نورتني، ولكني أرى أن لك أعمالاً أخري شغلتك عن مباشرة الدكان فتفضل - بالنسبة لعملي وحملي - وأعطني الثلثين، وأني مستعد أن أقوم لك بكل العمل والحساب بدقة»، فرفض. فقلت له إني أخاف أن نفترق فنصير خصمين بعدما كنا كالأخوين !.

أصر على إبائه فمشيت منه الى رجل من أشراف بربر الخُفَّاب[3] يدعى علي ود المزند وحكيت له مطامع علي ود سعد. كان أملي أن يتداخل بيننا، ولكنه قال لي: «علي ود سعد يريد أن يستعبدك آملا أنك لا تجد رأس مال وأمنِّيَّة وضمانا»، ثم قفل دكانه وأخذني معه الى الضبطية[4] حيث وضع ستة ريالات كبيرة تأمينا، ووقع ضمانا عليّ؛ بعدها رجع معي حيث أجّر لي دكانا ودفع أجرة شهر مقدما. ثم أعطاني جنيها رأس مال فصار كل ما صرفه عليَّ مائتين وثمانين قرشا. فشكرته وأصبحت صاحب دكان مستقل، فأشتريت

(١) المحرات: آلة يستعملها الجلاد في نقش الجلد.

(٢) المديدة: خليط من الماء ودقيق الذرة تؤكل أو تستعمل للصق الجلد.

(٣) الخُفَّاب: قبيلة من قبائل منطقة بربر بشمال السودان.

(٤) الضبطية: مقر الشرطة أو مقر الإدارة.

عِدَّة (آلآت صنعة) وعملت الباقي بنفسي. جلست منذ ذلك في دكاني وتعرفت علي تجار الأناتيك، كأولاد عويضة ومدني يحيى ومصطفى وغيرهم. وللحظ حضر الشيخ عبد الله كريم الدين من السودان ومعه الأسواَط وبيض النعام بكميات كبيرة فاتفقت معه على أن أطيّع السَوط واجعل له يدا بقرشين. فاشتريت القطران وجئت بالمدني وكمال الدين مصطفي معي بالدكان. فكان المدني يمسح الأسواط بالقطران ويمشقها وكمال الدين علّمته كيف يقدّ السير. استلمت من الشيخ عبد الله كريم الدين ألفي سَوْط ودفع لي معها جنيهين عربونا لعملي، فاشتريت منها جلودا. كذلك اشتريت من الشيخ عبد الله ماعنده من بيض النعام وجلود الأصَلة والوَرَل[١] والتمساح بأثمان رخيصة جدا لأني كنت أجهل ثمنها، على أن أسددها حين يرجع من مصر. فجاءني زبائنها الذين يعرفون ثمنها فبِعْتُ لهم البعض من كل نوع واحتفظت بالبعض. بعتها لأني ظننت أن الشيخ عبد الله حينما يصل من مصر يحتاج إلى نقود ويطلبها مني، وفعلا حصل هذا.

منذ ذلك الحين إتسعت صنعتنا وحسنت حالنا، فأجّرنا ثلاثة منازل في حارة الحدادين[٢]؛ منزل منها لوالدتي ومن معها من البنات، وكنَّ زينب بت ود عبد الله والحُسْنَى، لأن أم طبول وجَاز زُوّجتا لوطنيين من الفلاحين. ومنزل للمدني وزوجته وبناته، والثالث لي. كذلك دفعت لعلي ود المزند المائتين والثمانين قرشا بعد أن أوضحت له حالتي وشكرته. ومن ثم جئت الى الدكان باثنين آخرين من الأسرى فصرنا مجموعة إضطررنا إثرها للنقل الى دكان أوسع، بجوار رجل يدعي صالح ويعمل مُزيّنا وطباخا. ومما فعلته أيضا أن جعلت لي جدولا للأعمال قَسّمته هكذا: اسم صاحب الشغل: نوع الشغل: موعده. وصرت كلما وصلت الدكان صباحا انظر في خانة الميعاد فنشتغل كلنا في اتمام ذلك العمل حتى إذا جاء صاحبه قلت له: «جئنا في العصر وباقي الحساب بيدك»، فيجيء ويستلم شغله كاملا عددا وصنعة. أما الزبون الذي يقدم شغلا جديدا،

---

(١) الأصَلة: نوع من الثعابين، والوَرَل نوع من السحالي كبيرة الحجم.

(٢) تعد هذه الحارة من الحارات القديمة في أسوان والتي مازالت موجودة حتى الآن وهي تشتهر بوجود حوانيت الحدادة فيها وهي في منتصف المدينة.

كنت انظر قبل أن أتفق معه على الأجرة انظر كم يوما بين هذا اليوم وآخر ميعاد لما بيدي، ثم انظر كم يوما يستغرقها عمله وأضم العددين وأقول: «بعد كذا يوما تأخذ شغلك تاما كاملا عددا وصنعة». وكانوا كلهم يقولون قبلما يعرفون وعدي: «يا أسطى هذا زمن طويل»، فأريه الجدول أو أقرأه له إن كان أمياَ. فبعضهم يقتنع ويقبل وبعضهم يستكثر الأيام ويذهب بشغله ليعطيه غيري من الجلاّدين. ويحدث أن بعضهم يمضي زمنا أطول مع غيرنا من الزمن الذي قررناه له ولا يستلم من شغله شيئا فيرجع به الينا. وقد يكون الميعاد الجديد أكثر أياما من وعدي الأول له فيقبل مضطرا. بهذه الطريقة أصبح دكاننا لا يفرغ من العمل حتى بارحنا أصوان.

أرسل لي في أحد الأيام عمي عبد الله بك حمزه لأصل إليه بالرَّمادي لأصنع له سُروجا لخيله بعضها جديد وبعضها أصلح جلده. وصلته ووجدت سُروجه مصنوعة من جلد البقر فنصحته بأخذ السروج الى أصوان لأجلِّدها بجلد الجمل الذي لا يطيع كجلد البقر. أخذتها فعلا وجلّدتها وأرسلتها له. بعد مدة جاء أصوان فذهبت إليه للسلام عليه فأراد أن يعطيني قيمة عمل السُّروج فرفضت، وقلت له أن يجعله مساهمة مني في تكاليف إخواني الأسرى الذين يرعاهم لأني مبسوط، ثم شرحت له إيرادي ومنصرفي. فدعا لي بالخير وتنبأ لي بمستقبل باهر، فشكرته وانصرفت.

في شهر ربيع من سنة ١٣٠٨هـ (نوفمبر ١٨٩٠) جاء الخديوي توفيق باشا الى أصوان ماراً إلى حلفا وعُمِلت له زينة عظيمة وأضيئت فيها المراكب والسواقي، وأمرنا بتزيين الدكاكين. فقام صالح جارنا بعمل زينته على باب دكانه ولكنه لملاصقة الدكاكين أخذ دكاننا قليلا من زينته. ولـمّا جئت صباحا قلت له: «عمي أسطى صالح زينتنا جميلة». فغضب وقال: «كم دفعت في زينتك يا ابن الكلب»، وهجم على ما بدكاننا من الزينة ومزقها. فأخرجت كل ما أتممت عمله، وما كاد عمله يتم، من المصنوعات بدكاني وعملت صفوفا من المسامير في باب دكاني وعلقت فيها السِّيطان اللاتي حسّنت صنع أيديهن ـ والتي كنت آخذ على يد السوط خمسين قرشا للمتقن منها ـ وجعلتها صفا. ثم علقت السكاكين المخللة بأبيات التراكيش وجعلتها صفا ثانيا، ثم الطنابير المخللة ببيض النعام صفا ثالثا، وركزت الحراب والسيوف والدرَق بعيدا قليلا

عن باب الدكان، فكان ذلك ملفتا للنظر. جاءت خلال هذه الزيارة بنتان ومعهما ضابطان عظيمان، وأظنهما بنتي الخديوي أو من أفراد العائلة المالكة، فلما رأتا زينتنا نزلتا ومالتا علينا. فأحضرت لهما كرسيين وكرسيين آخرين للضابطين وصرت أحضر لهما كل ما أشارتا إليه وكنت آمل منهم فائدة عظيمة؛ ولكن لعدم الحظ قام كمال الدين مصطفى ـ الصبي بالدكان ـ وأخذ طنبوراً وغنى على نغمته فسُرّتا وزاد أملي؛ ولكنه أخيرا قفز بينهما وصَوّت صوتا أزعجهما فقفزت كل واحدة منزعجة وركبوا وضاعت فرصتنا؛ فأوجعته ضربا.

زواجي من حفصة:

جاءت مريم[1] من بني سويف[2] واجتمعت بابنتها حفصة واجتمعنا. فخطب حفصة بعض الأسرى وخطبتها من ضمنهم، فقالت أمها: «اني أعطيها بابكر لأنه اما أن يمّسكِها سَمِـح أو يطلقها سَمِـح». وفعلا تزوجت بها وصرفت على زواجها مائتين وسبعين قرشا، فكانت له شهرة كشهرة زواج الحَردلّو[3] بن أحمد بن أبي سِّن لسِتّنا بت أبو عَاقلة، حيث جمع والده نُظّار السودان من حلفا الى فازوقلي. أما شهرة زواجي فكان لمخالفته عادة الأسرى لأن بعضهم كان يقدم عِمته (عمامته) أو أحد ثيابه صُداقاً لزوجته وترده هي له فيما بعد. ولم

---

(١) انظر موضوعها صفحة ١٧٦ أعلاه.

(٢) بني سويف: مدينة تقع جنوب القاهرة بحوالي ٢٠٠ كيلو متر.

(٣) الحَردلّو: (أو الحَاردلّو) هو اسم الشهرة للشاعر الشُكْرِي الشهير واسمه محمد بن أحمد بك أبو سن، وأحمد بك كان ناظر قبيلة الشُكْرية خلال الحكم التركي وفترة في المهدية وخلفه بعده ابنه عوض الكريم أخو الحاردلو (انظر ملحق رقم ٥). أما الحردلو نفسه فقد ولد في البُطَانة عام ١٨٣٠ واشتهر بالشعر السوداني الصميم الذي كان يصور به الحياة السودانية تصويرا معبرا خلال حياته. وكغيره من بعض كبار رجال القبائل لم يكن ذا عقيدة كبيرة في المهدية خصوصا بعد موت المهدي. وقد تعرض لشيء من الأذى من الخليفة عبدالله (انظر صفحة ٢٩٦ ـ ٢٩٧) بالرغم من أنه لم يهتم أو يعمل بالسياسة غير فترة قصيرة كان فيها مساعدا لأخيه عبدالآه الذي اختاره الخليفة وكيلا لقبيلة الشكرية في كَسْلا. وتوفى عن عمر كبير عام ١٩١٦ (الحاردلو، صفحة ٣ ـ ٦). ويتضح رأيه في المهدية في قوله:

كان المهدي داك ولداً قدل فوق عِزه　　حَتّ ود البَصير سَوانا في طّيز وزِه

يسبق أن أولم أحد أو عقد في جمعية من الناس قَبْلِي. ولو أنه صار منهم بالطبع فيما بعد التجار والصُناع وتحسنت حال الكثيرين منهم.

مع تحسن حالنا صرنا نجيء كل مساء بلبشة (ربطة) من قصب السكر ونقسمها فنعطي أمي أحسنها، ومنزلي وسطها، وأختى قريبا منها. وحدث في مرة أن كانت زوجتى في غرفة داخل البيت وكنت يومئذ مدعواً في مناسبة، فوقفت في الشارع وقلت لكمال الدين مصطفي: «خذ هذه القصبات لأمي»، ثم رجع وقلت له: «خذ هذه لحفصة زوجتي وهذه للسَّهوَة وبناتها». فرأت حفصة هذا التقسيم ولم يرضها فتركت نصيبها في مكانه خلاف عادتها. بعودتي وجدت القصب فسألتها: «لماذا لم تأكلي القصب ؟». قالت: «أنت تعطي أمك الأحسن وتعطيني الزِّفْت». فكسرت وأكلت وهي غضبى. ثم إلتفت اليها وقلت لها: «لو تذكرين والدتي بسوء أو تطالبينني بمساواتها أو التفضل عليها بعد اليوم فأنت طالق ثلاثا». ومن ذلك اليوم إلى أن توفيت والدتي ما تعرضت لها. وقد قلت لها قياسا على قول صخر:

فأي امرىء ساوى بأمّ حليلةً   فما عاش إلا في شقا و هوان

خلال فترة عملي كجلاّد في مصر قُفلت سكة السودان، وانعدمت جلود العَرَد والمُدُس[١] التي تلزم لسُروج وأرسِّنة وعُقاد ووَرق جمال العبابدة. فبحثت عند رجل عطار يدعي حاج عبد الله كان عنده كثيرا من الصبغات لعلي أجد عنده لونا يشبه لون المُدُس أو العَرَد البرتقاليين. فبحث كثيرا حتى جاءني بعلبة فيها "زَيْلَقُون"[٢] فأخذت منه قليلا وصبغت به جلدا أبيضاً حتي يبس ثم أعطيته مسحة أخرى فلمّا يبس صار لونه برتقاليا، فمسحته بالليمون فوجدته ثابت اللون ثم مسحته بدهن وغسلته بالصابون ومسحته بالليمون وتركته في الشمس يومين. ولما وجدت لونه لم يتغير اشتريت كل العلبة، وصرت أصبغ بها الجلود وأشتغل به كالمُدُس والعَرَد. لم يعلم الجلاّدون الآخرون من أين آتي بهذه الجلود حتى بَقِيت على السفر، فأطلعت عوض الكريم العبادي على السّر وأعطيته ما بقي معي من الصبغة.

---

(١) جلود العَرَد والمُدُس: أي الجلود المصبوغة ومدبوغة بهاتين المادتين. والعَرَد والمُدُس نوعان من الألوان يستخرجان من شجر العَرَد وشجر المُدُس ويستعملهما الجلاّدون لدبغ الجلود.

(٢) الزَّيْلَقُون: نوع من الأصباغ.

الفصل الخامس

الإعداد للرجوع إلى السودان:

رغما عن تحسن حالتنا وقربنا من الثروة والشهرة ـ إن بقينا ـ فقد كانت العقيدة ما زالت تنازعنا وتدعونا للسفر إلى السودان أكثر من شوقنا لوطننا وأهلنا. وفي تلك الأيام سمعت بأن كرار بشير العبادي صُرِّح له بالسفر الى السودان وهو بدرَاو، فمشيت لأودعه. فلما أراد أن يركب انهمرت دموعي وقلت له: «يا كرار أخبر خليفة المهدي (عم) أن أصحاب المهدي راضون بكل ما حصل عليهم اذا ضمنوا رضاك عنهم وعنايتك بهم». حصل هذا أمام جمع غفير فما باليت بضررهم ولا بهزئهم، ثم فكرت كيف نحصل على التصريح بالرجوع الى أهلنا. عرضت فكرتي هذه في جمعية من الأسرى ـ لا أذكر سببها ـ فحبذ جلهم رأيي، واتفقنا على أن نكتب طلبا لوود هاوس باشا نطلب منه تصريح السفر الى أهلنا[١]. فكتبنا له طلبا لم ندرِ ماذا حصل فيه. فلما تأخر كتبنا سبعة طلبات أخرى وضعنا اثنين منها في صندوق مكتبه الخاص، واثنين في مكتب البوستة العام، واثنين ناولناهما باليد كل واحد في مكان؛ فقدمنا واحد وهو راكب حصانه والآخر بالشارع. وفي الغد طلبنا بالمحافظة[٢] فقابلناه بأجمعنا، فقال بلسانه الفصيح: «أنتم لماذا تطلبون السفر الى السودان؟». فأجابه خالد الشّعَدينابى، وكان رجلا طويلا جسيما، وقال: «يا سعادة الباشا نحن جائعون ونحن هنا أسرى». فقال له: «أنت سمين ما تخدم وتأكل». أجابه خالد: «نعم أنا سمين وأخدم ولكن اليوم قرشين والأولاد كثيرة». فقال باتين (شاعر قبيلة الرُّباطاب) للباشا: «نحن بلغنا أن أهلنا بالسودان مات الكثير منهم بالجوع والمرض فنريد أن نصلهم لنخلف من مات ونساعد الحي». فقال الباشا: «الجوع للآن موجود في السودان فالأحسن أن تبقوا هنا». فقال له خالد: «إذاً، إما أن تصرِّح لنا أو تربط لنا مرتبات أو

---

(١) عند انكسار جيش ود النجومي أسر منه حوالي ٤٠٠٠ شخص، عدد منهم من أسَر ونساء الجنود. حُفِظ منهم في صعيد مصر حوالي ألف فرد، والباقين وُزعوا علي باقي المديريات. وفي ١٣ أبريل ١٨٩١ أذن السردار غرينفيل لحوالي ٣٤١ شخصاً بالعودة للسودان وكانت تلك أول مجموعة (شقير، صفحة ٧٩٣).

(٢) المحافظة: مقر الحاكم.

تضربونا رصاص». فغضب الباشا وقال لخالد: «أنت بليد اذا كنا نضربك رصاص كنا فعلنا ذلك حينما أسرناك ضعيفا، أنت خروف نسمنك لنذبحك!».
ثم إلتفت إلى باتين وقال له: «أنا أكتب على طلبكم وبعد خمسة عشر يوما أطلبكم وأخبركم». وقبل يوم الميعاد سافر باتين مع بعض العبابدة إلى السودان بمفرده دون انتظار الإذن. وقد قبل العبابدة أخذه معهم لأنهم كانوا يودون منه أن يقول لهم الدُوْبَيت[1] في الطريق الى السودان، خصوصا فقد كان مع أولئك في الرحلة شاعرهم الخضري المشهور، والذي يروى عنه قوله:

مـا دام الـرجـال متَّبْـعَـة	والـواحـد بـيَازَن سَـبْـعَـة
إن جمعوهـا مـن البُقعَـة	إحميـر ما بِتَدُوْسَـك رقُـعـة

وأجابه باتين عندها بقوله:

ما دام الـرجـال متَّبعـة	ليشـنْ يسَـوُّوا جُحر الضَبْعة
ربـى إنْ كـتَـبْ لَـك وَقْـعَـة	أخـاف مـا بتَنْسَـتِر يا أبتَفْعَة

ولما جاء الميعاد طلبنا وود هاوس باشا وأخبرنا بأنه قد صُدِّق له بتَشْهِيلنا الى السودان، وأنه سيصرف لكل نفر منا كَيْلَة قمح وعشرين قرشا ويعطينا المراكب الى حلفا. وأضاف: «لكن يجب أن تعرضوا أنفسكم ونساءكم وأولادكم لكي أتحقق من عددكم». فقال بشير بك الجبران[2]: «أهالي السودان لا يرضون أن ينظر الرجل نساءهم». فقال الباشا: «أنا عارف ذلك، أنا أجيء بامرأتي معي وهم ينظرون لامِرأتي وأنا أنظر وحدي نساءهم». فضحكنا ورضينا بذلك ما دام وحده فانه كالمحرم لنسائنا. فجئنا بشارع المحافظة حيث عين لنا مكان لا يُمرّ به أحد، وجاء الباشا وإمرأته وحسب الناس وكتب أسماء الرجال ومن في عيشة كل واحد منهم. وقام الرعيل الأول بالمراكب، ولكنِّي وأسرتي تأخرنا عنه لنجمع أطرافنا وتأتي أم طُبول لأن جَاز طُلّقت وحضرت لنا منذ زمن.

---

(١) الدُوْبَيت: هو شعر شعبي باللهجة العربية الدارجة في السودان.
(٢) بشير مصطفي أبو جبران: ناظر قبيلة العبابدة الذين يسكنون شمال السودان وجنوب مصر.

قبل قيامنا كتبت لعمنا الزبير باشا أخبره: «بأنا طلبنا تصريحا بالسفر للسودان وصُرِّح لنا فعلا، وحيث إن سعادتك قد سمعت بفناء قبائلك بالسودان من مجاعات سنة ستة وسبعة (١٣٠٦ ـ ١٣٠٧هـ حوالي ١٨٨٨ ـ ١٨٩٠م) وما أعقبها من وباء بالجدري، وأن من بقي من كل قبيلة يمكن أن يكون عددهم أقل ممن هم بالقطر المصري، وخصوصا مع سعادتك كثير منهم، فلو صرّحت لهم وشهّلتهم ليتوجهوا للسودان، لضاعفت المِنَّة عليهم منك». فقرأ عليهم كتابي وأمرهم بالسفر جميعا.

أعود لموضوع أم طُبول. لما عزمنا على السفر علمت إنّا لن نُعطَى مراكب كالدفعتين السابقتين فإشتريت حمارين أحدهما لأمي والثاني لأختي الحبلى (السَّهْوَة). وقلت للمدني: «نركب الحمارين ونذهب لأم طبول "بالرغامة" ـ وهي حلَّة شمال دَرَاوْ بمرحلة ـ لنأتي بها فتسافر معنا». فأخذ المدني يثبطني عن السفر لها بشتى أنواع التّثبيط حتى قال لي: «تذكر مسألة الروضة ؟» فحلفت له بالطّلاق بأني لا أسافر حتى أصلها فان أبت السفر وجدت عذرا عند أبي، وان رضيت أوصلتها لأبيها. فركب معي ولما وصلنا حلّة الرغامة عصراً، سلمنا على زوجها محمود ووالده على أبو غانم، ولم نذكر لهما غرضنا. عند المغرب لدغتني عقرب شغلتهم وشغلتنا عن المحادثة وأم طُبول ساهرة معي الى الصبح فأخبرتها بغرضنا في أخذها معنا. فسألتني: «أخذتم التساريح ؟». قلت: «نعم»، قالت: «متى سفركم ؟». قلت: «يوم الاثنين»؛ واليوم كان الخميس. قالت: «أقوم معكم رغم رغبتي في البقاء لأنك ترى منزلي ملآن بأنواع البهائم والطيور الداجنة»، وفتحت لي مخزنها الحافل بكل ما يحتاج إليه الإنسان. وقالت: «كنت أتمنى أن تأتيني قبل الآن زائرا فنكرمك ونهديك ولكن رغم هذا أنا لا أتأخر عنك فأزعجك طول حياتك، وأجعلك موضع تهمة في التقصير عن واجبك نحوي». فلما تأكدت منها أخبرت المدني ومشّينا الى عمنا محمود غانم، الذي تجاوز السبعين من عمره، وأخبرناه فأطال معنا الجدل والرجاء وتأكيد ضمان راحتها، حتى قال: «أم طُبول عينى»، فقلت له: «نتركك أعور». قال: «لكنها عَيْنَيّ الاثنين هل تتركني أعمى؟». وبعد كل هذا لم يقتنع فخرجت من عنده وشددنا حمارينا كأننا تركناها لهم، فتقدم المدني وخرج من الحِلّة

وحده، ومشيت لها فلقيتني عند باب الدار بقميصها كنسائهم[1]. قلت لها: «إركبي»، قالت: «آتي بحِجَبَاتي[2]»، فدخلت غرفتها ولبست ثوبها وحِجَبَاتها وأتتني كالبرق. ثم قالت لي: «أرفع لي رجلي»، فركبت وأسرعت بها.

علموا بسفرنا عندما صرنا رأى العين منهم فلحقنا زوجها الذي قلت له: «تذهب تودّع والدتها وأخواتها، فأتِنَّا أنت بأصوان ترجع بها». لكنها التفتت إليه وقالت: « لا تَتعب أنا مسافرة السودان وبيتك كما هو لم آخذ منه شيئا فأرجع إلى أهلك»، وضربت الحمار وسارت مع المدني. لكنه أمسكني ليتأكد مني هل يأتي لأصوان، فقلت له: «قد سمعت قولها»، فتركني ورجع وهو باكٍ. ثم لحقنا بأصوان فطلبنا منه طلاقها فأوقعه في الليلة التي نصبح مسافرين فيها.

(١) كَنِسَائِهِم: أي أن أخته كنساء مصر لم تكن تلبس غير قميصها.

(٢) حِجَبَاتي: أي الأحْجِبَة التي تخصها، والحِجَاب يلبس لمنع الحسد أو الشر.

مـن أُصوان إلى حلْفَا وصَوارْدَة:

سافرنا بالبحر مودعين أصوان إلى حَلْفَا بالمراكب التى يسّرها الله بعد أن قنعنا منها ـ وحمارانا معنا في المركب. أصوان التى سعدنا فيها والتي لولا غياب يوسف(١) عني لما تركتها. ويوسف كنت اذا ذكرته فزعت من النوم واذا رأيت وجهي في المرآة، يعلم الله، هاجت عليّ ذكراه. وصلنا حَلّفَا وأقمنا يومين بها واشترينا فيها ما يلزمنا للسفر. ولا أنسى ما لقيناه من اللطف من الشيخين طه مكي وشريكه الطيب. فلما بقينا على السفر جاءني عمر الحاج من أهالي "أم دُوْم"(٢) وعَرّفني أن له أخت كبيرة، تزوجها بَتجَاويش زنجي ولكنها وَعْدَته (أي وعدت أخاها) بأنها تسافر معنا. فطلب مني أن نمضي لها لنأتي بها وبأختها الصغرى. فمضينا معا ودخلنا عليهم في بيتهم وزوجها يحادثنا أطيب حديث وأحسن ترحيب، فاذا البوليس يدعونا جميعا للمكتب الذي وجدنا فيه صاغا مصريا يدعى خير الله أفندي. وأول ما وقفنا أمامه قال: «الله يَتعبِكم أتعبتونا رايحين جايين وقد ملأتم البلد شراميط». فقلت له: «أنتم غلبتونا رؤساء ونحن أتعبناكم أسرى فأنظرَ أينا المتُعِب، أما الشراميط فقبل أن نجيء نحن كل بلد بها كفايتها منكم ويثبت ذلك الوثائق الرسمية ومصلحة الصحة». فقال لي: «أنت بذيء». فقلت: «لكن البادي أظلم»، فضحك وقال: «نعم حقيقة». ثم سأل المرأة هل تمشي معنا أو تقعد مع زوجها، فإلتفتت على أخيها وقالت له: «لولا أن النساء بتِنَبِّذني بأني تزوجت العبد كنت أمشي معك ولكني لا أتحمل ذلك، أستودعك الله». فلطمها على فمها فضحكت وأخذت أختها وتركتنا واقفين حائرين. فخرجنا جريا حتى وصلنا وابور السكة الحديد الذي أخذنا الى صَرَص.

أسرت بالقطر المصري يوم ٥ ذو الحجة سنة ١٣٠٦هـ (٣١ يوليو ١٨٨٩م) ورجعت الى صَرَص في أواخر رجب سنة ١٣٠٨هـ (أبريل ١٨٩١م) أي بعد عامين الا أشهر. وعند وصولنا لصَرصَ قصدت مكان بيتي وحفرت في مكان

---

(١) يوسف هو شقيق المؤلف ويصغره سناً (انظر ملحوظة ٢ صفحة ١١٤).
(٢) أم دوم: قرية صغيرة على النيل الأزرق في وسط السودان .

الكتاب[١] فأخرجته من تحت الردم وما وجدت به غير مس بأطراف ورقة من قرض الأَرْضَة[٢] فأخذته وأقتنيته.

من صَرَص سرنا بأرجلنا حتى العُرضي، وكنت أقود حمار والدتي الذي أكاد أقضي المرحلة جريا معه ممسكا برقبته، وفي الغالب أحمل عبد الباسط (أخ حفصة زوجتي) ـ وهو صغيرـ على كتفي، حتى وأن والدتي كانت كثيراً ما تقـول: «أنـا أتعبتك الله يقتلني ويريحك منـي». فأضحك وأقول لها: «ألم أتعبك في الحمل والولادة والتربية أضعاف ما أتعبتني، أرجو أن تدعي لي بخير يريحني ويريحك بواسطتي». وكانت السَّهْوَة تركب حمارها ووراءها فاطمة ابنتها الصغيرة. أما زوجتي حفصة فكانت سائرة على رجليها ولم تبدي لي أو لغيرى تذمرا، بل أحيانا تحمل مني عبد الباسط على ظهرها، وكنت أذكر لها هذه الحَسنَة كلما إستأت منها.

لما وصلنا صَوَارْدَة وجدنا عثمان أزرق عاملا عاما بها، فعرضنا عليه أن يعطينا زاداً ومصروفات. فأعطانا بعض الزاد وقال عن المصروفات: «مُعْلّمِين الله». فقلت: «قد جئنا لناس مُعْلِّمِين الله !». ضحك وقال: «استغفر ربك». قمنا من صواردة للعُرْضي (دُنقُلا) فوصلناها ووجدنا العامل العام بها محمد خالد زُقَل[٣] الذي سرعان ما غيّروه بيونس الدكَيْم للمرة الثانية. هناك ظلّلنا خرائب من البيوت التي تركها أهلنا ممن كانوا مع ود النجومي وسَكنّا بها.

---

(١) الكتاب المذكور هنا هو كتاب الحِريفشِي الذي ورد ذكره في صفحة ٨٤ و١٠٥ (أيضا انظر ملحوظة ١ صفحة ٨٤).

(٢) الأَرْضَة: النمل الأَبْيَض أو دابة الأرض التي تأكل النبات والخشب والورق.

(٣) محمد خالد: يلقب بزُقَل وهو ابن عم محمد أحمد المهدي. كان قبل المهدية إداري في إقليم دارفُوْر يعمل كمساعد لسَلاطِين، وعند ظهور المهدي انضم إليه فأرسله (عام ١٨٨٤م) لاستلام دار فور من سَلاطِين ولإخلاء الحكام الآخرين منها. بقي حاكما عليها إلى أن جرده الخليفة عبد الله عنها في أبريل ١٨٨٦م. وبعد فترة عينه الخليفة عاملا (حاكما) على العُرْضِي (دنقلا)، ثم ما لبث أن استبدله بيونس الدكَيْم عام ١٨٨٨م، حيث أصبح يونس الحاكم على دُنقلا والقائد الأول لجيش غزو مصر والنِّجُومي القائد الثاني (انظر ملحوظة ٢ صفحة ١٠٠). لكن الخليفة عاد وعزل يونس عن دنقلا وعين محمد خالد زُقل عاملا عليها مرة أخرى في عام ١٨٩٠م. ثم عزله وأرجع يونس في حوالي مايو ١٨٩١م واستدعي زُقل إلى أمدرمان وسجنه لخلافه مع بعض معاونيه أمثال مساعد قيدوم وعربي دفع الله، وبعدها بقليل (١٨٩٣) نفاه مع أبو قَرجة إلى الرِّجاف (شقير، صفحة ٧١٢).

مرة أخرى مع البَقِيع وأهلها :

بعت أحد حماريّ بثلاثين ريالا وأشتريت بثمنه بضاعة مشكلة مما يتخذ إداما وطعاما، وأخذت من محمد بشارة رئيس السجون أربعة جمال وعُدت لصَوَارْدَة؛ آملا أن أبيع بضاعتي فيها وأشتري تمرا أحمله على جمالي إضافة لما يعطينيه أصدقائي من الأمراء بصَوَارْدَة. فلما وصلتها وجدت أولاد عثمان بها، فقالت لي أختهم الكبيرة زينب ـ وكانت ماهرة في الحصول على غرضها ـ : «نحن عزمنا أن نُزوجِك البقيع كما أوصانا الباشا (الزبير باشا) بذلك، ويتزوج الحسن ولد الفضل الحُسنَى أختك». فقلت لها: «زواجي بالبَقِيع لي فيه رغبة عظيمة، أما زواج الحُسنَى بالحَسن فهذا لا أضمنه لأنها بِكر قاصر وأبوها موجود، ومن الجائز أن يُرسل أحد ولديه يوسف أو سعيد يأخذ الحُسنَى وأمها، واذا كنتم تزوجوني البَقِيع دون هذا الشرط فإني أتزوجها وأسكن معكم بدنقلا، حتى لو نقلت أمي التي أحبها لأم درمان لأن لها هناك زوجا وولدين». فغابت عني ثم جاءتني لتخبرني بأنها، والبقيع نفسها، وافقوا على طلبي. فأعطيتها ما لزمهم من البضاعة وبعت باقيها فملأت بقيمتها، وبما أُعطيته، جملين تمرا. والجملان الأخران حملت عليهما عفشهما، وركبت البقيع على إحداهما وصرت أقود الجمل الذي تركبه، كما كان الحجاج يقود جمل هند بنت النعمان لعبد الملك بن مروان، ويتمتع بالأنس معها. وكانت لا تكلمني الا نادرا، وتستحي مني كما تستحي المخطوبة عندنا عادة من خطيبها، فأُسَرُّ بصحبتها وبحيائها حتى وصلنا العُرضِي. ظلّلنا لهم خرائب لسكناهم وكنت في تظليلها أنشط عامل. ولما سكنوا طَلبتُ من زينب اتمام زواجي من البقيع. فقالت لي: «أنتظر إلى أن يأتي الحسن أخي من دَلْقُو». في أثناء ذلك جاء يوسف ورحّل أمي وبناتها والمدني وبناته. أما أم طُبول فقد تقدمت معهم إلي الدَّبَّة ومن هناك سافرت هي وجاز وزينب بت عبد الله ومعهن جماعة من الرُّباطاب لمناطقهم في الرُّباطاب؛ أما والدتي ومن معها واصلوا سفرهم الى أمدرمان بطريق الدَّبَّة.

جاء الحسن وسافر مرة أخرى الى أرقو وزينب تتعلل بغيابه، حتى اذا حَرّصت عليها قالت: «إن إخوانها قالوا: إنك متزوج حفصة، التي يعتبرونها

كأختهم، ولا يمكن أن يزوجوك البقيع عليها، فأختر أيهما شئت». تحت تأثير الرغبة المُلِحَّة لزواج البقيع قلت لحفصة أني أريد طلاقك فبكت، وقالت لي: «إني سمعت أنهم يريدون أن يطلّقوني منك ويماطلونك حتى أستَّعِد[1] أنا فيزوجوني للحسن ولد الفضل ويمنعونك البقيع؛ فقل لهم أنا طلقت حفصة، وأنا أرحل مع أمي إلى بيت خالتي عائشة، إن زوجوك البقيع أنا مع ثلاث زوجات أقبلك رابعة، لأني ألفتك وأحببتك». فنهضت قائما وقلت هذه خادمتي وزوجتي، وتلك ستكون سيدتي وزوجتي. فصممت أني أقتنع بحفصة، وقبلت نصيحتها، وأمسكت عن محادثتي مع زينب بخصوص زواجي بالبقيع. بعد أيام جاءتني زينب في بيت والدتي، الذي كنت أقيِّل[2] فيه دائما لضيق بيتنا ووجود مريم حماتي به، فقالت لي زينب: «أنت سكت عن كلام خطبتك للبقيع، وأخوانها كلما خطبها أحد يقولون: إن إبن عمها يرغب في مراجعتها. فإذا كنت قَنِعت منها صارحهم يزوجوها غيرك لأنها يتيمة ولا تستطيع المعيشة مع زوجة أخيها». قلت لها إني سمعت كذا وكذا وصارحتها بكل ما قالته لي حفصة من المكيدة. فحلفت لي بقولها: «الله يأخذ أحمد والحسن وما يمتعهما الله تعالى بعافيتهما، هذا الكلام لم يخطر ببال أحد منّا، وأن ناقله يريد أن يفرّق بيننا وبينك فلا تصدقه أبدا». وتحت هذا القسم وتنفيذا للرغبة في زواجي بالبقيع جئت لمريم حماتي وقلت لها: «إني طلقت حفصة وهذا مؤخر صداقها ونفقة عدتها». قالت لي: «بارك الله فيك مسكتها سَمِـحْ وفارقتها سَمِـحْ (أى بالحسنى)».

أصبحت حفصة مطلقة وعصمة البقيع معلقة على رضاء الحسن الذي يرضى مرة ويأبى مرة، وأحمد وزينب ينصبان لي الحيل فيقربوني كلما بعدت، حتى استعدت حفصة وطُلِبت للحسن الفضل (تماما كما ذكرته حفصة لي). رضيت مريم (أمها) بهذه الخطوبة لأنها كانت زوجة أبيه (أي أبى الحسن الفضل)، وبحجرها عبد الباسط أخو الحسن.

---

(١) أستَعِد: أي تكمل العدة بعد الطلاق ليتسنى للمرأة الزواج برجل آخر.

(٢) أقيّل: أمضي وقت القيلولة.

أتاني بابكر كرم الله ـ رفيقي بشونة صرص ـ وأخبرني أنه علم ما حدث ووعد بمساعدتي في هذا الموضوع ليبطل زواج الحسن بحفصة. فقلت له: « لا أحب أن أرجعها، فقط ساعدني بالوقوف على حقيقة أولاد عثمان هل يزوجوني البَقِيع أو يقنعوني منها ». فقال لي: « مساء الغد أطلبني وعثمان وحمزة (ولَديّ رَحَمَه) ومحمد أحمد شكاك لنذهب معك، ونطلب منهم تحديد ميعاد زواجك فتظهر لك الحقيقة ». فقبلت برأيه فكانت النتيجة سلبا. فخاطبهم بابكر كرم الله بأنهم ليسوا أولاد ناس فيما صنعوه معي؛ فأسكتّه وأريتهم أني لست راغبا فيها كما كنت لأني علمت بما عملوا والله لا يحب الخائنين. قمت منهم وقلت لبابكر كرم الله: « اختبر لي البقيع نفسها، هل فيها رغبة لي أو إنها صددت عني ؟ ». فجاءني وقال: « هي تميل إليك كل الميل ولكنها لا تخالف إخوانها وأخواتها ». فتوجهت نفسي نحو أم درمان وفكرت في أن أتزوج كلتوم بنت حاج الحسن أيّمة ولد النجومي. وأعددت نفسي للسفر إلى أن جاءني خطابان؛ أحدهما من المنصور أبي كوع، والثاني من الشيخ بانقا موسى، يقولون لي فيه: « مريم وابنتها لا تتركهما وراءك ولو طلقت بنتها ». ويزيد الشيخ بانقا بقوله: « إني كتبت خطابا ليونس الدكيم بتشهيل مريم وابنتها فلتقابله مريم ». فطلبت مريم وبابكر كرم الله وعثمان رحمه وقرأت لهم كتابيّ بانقا والمنصور؛ وقلت لها: « إذا كنتِ تقبلين السفر إلى أمدرمان فإني مستعد أوصلكِ وابنتك ولكني لن أرجعها كزوجة. وإذا كنت لا تسافرين فأرفضي أمام هذين الرجلين؛ ليكون لي عذراً عند ناس أمدرمان جميعا ». فقالت: « أنت مأمون علينا توصلنا وأنا أعطيتك بنتي بكرا، فلا أمنعك منها وهي مطلقة منك.. أنا مسافرة معك ». فقلت لها: « قابلي الأمير يونس الدكيم وقولي له: أنا المرأة التي كتب لك بانقا بترحيلها وابنتها الى أمدرمان ». فقابلته وجاءت منه.بالتصريح وإذن الصرف بزادها. فأخذت التصريح والإذن وقلت لها: « إمشي »، قالت لي: « عندي معك كلام وحدك »، وأخبرتني بالخطبة وإنها استلمت كل الجهاز فماذا تصنع الآن. قلت لها: « اذا كنت راضية الاقامة هنا فأقيمي ». قالت: « لا.. ولكني أريد منك رأيا يبقي لي عذرا ». فقلت: « قولي لهم أني لا مانع عندي من أن أزوج الحسن بحفصة، ولكن لي ولد بأمدرمان وكل قبيلتي بها فأعطوني الحسن يوصلنا أمدرمان وهناك نزوجه. فإن رضوا فأرحلي بالحسن وزوجيه هناك، وإن أبوا

فكلُ أراد ولده.. سافري وأتركيهم». قالت: «هذا تمام».

بعد محادثتي معها سبقتها إلى أولاد عثمان ووجدتهم كلهم جالسين ورأيت جهاز الزواج تحت العنقريب. فخاطبت أحمد وهو الذي يفهم معنى قولي: «يا أحمد أسمع مني هذه القصة: كانت أرينب بنت إسحق وهي أجمل نساء زمنها، تحت[1] عبد الله بن سلام، فعشقها يزيد بن معاوية، فقال له والده: ساعدني بالكتمان. وأرسل إلى سيدنا عبد الله بن سلام ليأتيه من المدينة المنوّرة، فلما وصله بالشام قال له: بنتي مثلت للزواج وقد بَنيّتُ لها هذا البيت واخترتك لها زوجا. قال عبد الله: حباً وكرامة يا أمير المؤمنين. فقال له: أرسل لها من يخطرها فإنها بالغة وأمرها بيدها. فأرسل لها خاطبا فقالت: إن عبد الله تحته أرينب بنت إسحق، ولا تحظى معها امرأة به بلغت ما بلغت، فاذا طلقها ثلاثة تَزوّجتُه. فلما جاءه الرسول طلّق عبد الله أرينب ثلاثا ومكث بالشام منتظرا يوم الزواج. فلما طال به الأمر وخرجت أرينب من العدة أعلنت ابنة معاوية أن مُشاوِرُوها[2] لم يوافقوها على الزواج به، وعلم عبد الله أن معاوية أرسل أبي الدرداء ليخطب أرينب ليزيد. فقال عبد الله بن سلام: إن شاء الله الأمر الذي دبره لا يتم لهم»، وسكّتُ. فقال لي أحمد: «ماذا حصل بعد ذلك؟». قلت: «يكفي ما سمعتم»، وقمت من عندهم. فقال لهم بعدي: «زواج الحسن لحفصة إنحل وبطل». قالوا له: «هذا كلام مستحيل». فقال لهم: «أما فهمتم ما قاله بابكر؟ ولولا أنه ضمن إنحلاله لما صرح بما قال».

وهم في هذا الموضوع، جئت بالزاد والتصريح وقلت لمريم: «هذا زادكم وهذا تصريحكم، والسفر يوم الخميس»، (وهو اليوم المقرر للعقد). فقالت مريم: «نسافر بالبر أو بالبحر؟». قلت: «بالبحر والريّس استلم الأجرة للدَّبَّة». فقامت من وقتها واشتغلت في زادها. وفي يوم الخميس أنزلتهما المركب للدَّبَّة وكتبت لهما خطابا لعمي محمد أحمد شكاك الذي كان المندوب للدَّبَّة، وقد عينه فيها أحد عبيد يونس الدكيم، الذي كان بدوره قد عُين عاملا للجهة القبلية لدُنقُلا.

---

(١) تحت: أي متزوجة من شخص ما.

(٢) مُشَاوِرُوها: الناصحون، المستشارون.

مراجعتي لحفصة ودخولنا أمدرمان:

سافرت بعد حفصة وأمها بخمسة عشر يوما، فقطعت المسافة من دُنقُلا إلى الخَنْدَق سيرا على قدميَّ وهي أربعون ميلا، قطعتها في يوم واحد. لكنني وصلت عادم القوة، فاستقمت يوما كاملا كامنا ببيت النور الخبير، الذي كان كالخرابة.

وصلت الدَّبَّة ووجدت المرأتين مقيمتين على شاطىء النيل بالرغم من أن عمي محمد أحمد شكاك له بيت هناك وهو موجود فيه. وأيضا لم يأت إليهم أحد من أهلهم، على قرب الدَّبَّة من "فُقَّرَا كُتّي" التي كانوا يقيمون بها. وعندما قابلني عمي محمد أحمد شكاك قال لي: «ألا ترجع حفصة ؟». قلت: «أريد أن أتزوج كلتوم بنت الحسن». قال: «الأحسن انك ترجع حفصة تحلّل ترحيلك لها حتى تصل وأنت بّزوجتك، فإذا وجدت كلتوما موجودة وسعيد أخوك رضي يزوجك بها، هناك طلّق حفصة»، فَقبِلت مشورته وأرجعتها.

أجرّنا جملا لمريم وابنتها، وأنا مشيت على قدميّ، حتى وصلنا مكانا يسمى "أبا سيال" حيث أصابتني حمى ورِعَاف[1]، فأجّرت جملا بأربعة ريالات يحملني فوق رَحَلَ[2] التّمر الذي كان ينقله. فلما وصلت "جيدين" - وهي نصف المسافة إلى أمدرمان - أجبرنا الجمَّال (واسمه نَايرِ) على البقاء بها أسبوعا لأن بها بيته، فتماثلت خلاله للشفاء. ولكني وجدت من هذا التأخير أن نقودي قد إنتهت ولا أستطيع دفع أجرة الجمَّال، ولا أعرف من أعتمد عليه في دفعها لي بضمان. فلما شدّ نَايِر رَحَل جمله قال لي: «تعال اركب»، قلت له: «لا .. لن أركب»، فضربني بكفه على خدي حتى رأيت البرق خارجا من عينيّ فسبّته مريم حتى أوجعته سَبّاً وهددته بأهلي بأمدرمان. فصرت أقفو أثر الجمال ولا ألحقها إلا بعد أن تنزل بزمن طويل لضعفي. فلما وصلنا المرحلة التي قَيّلنا فيها، وفي المغرب ندخل أمدرمان، جاءني نَايِر الجمَّال ومعه جماعة وقال لي:

---

(١) رِعَاف: نزيف دموي من الأنف.

(٢) رَحَل: الحمولة التي يحملها الجمل وهي توزع شطرين على ظهر الجمل.

«سامحني»، فسامحته. فقال: «أعطني أمان الله ورسوله ما تؤذيني». قلت: «لك أمان الله ورسوله لا أوذيك»، ثم قال لي: «إنه فعل ذلك لأنه سمع أن خليفة المهدي نبّه أن من يصفع أحدا تُقطع يده».

جاءنا في تلك القافلة نساء عندهن دِهِن وشَحم ووَدَكَ[1] يجلبنّه[2]. وكان رأس حفصة جديد المُشَاطَ[3] وما عندنا من النقود ولا العروض غير ملابسنا التى علينا، وكأس صغير من القرع نشرب به الماء. فاشترينا دَرْدُوما[4] من الوَدَك من إحداهن بذلك الكأس؛ فمسحت به حفصة مقدمة رأسها التي تظهر للناظرين.

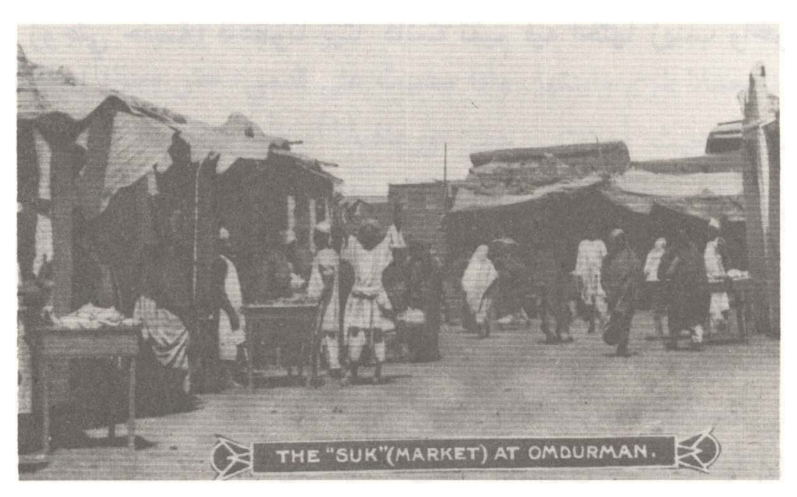
دخلنا أمدرمان في ليلة يوم ١٥ صفر الخير سنة ١٣٠٩هـ (٢٠ سبتمبر ١٨٩١م)[5]. وأول ما فعلناه سألنا عن عمي مالك وعلمنا أنه بكُرْدُفان. على ذلك نزلنا عند الشيخ بانقا موسى ـ وكيل الراية الزرقاء ـ لأن زوجته الكبري ابنة عم زوجتي حفصة؛ فأعطونا بيتا كانت تقيم فيه أختها زينب والحرم بنت علوب فمكثنا فيه.

---

(١) وَدَكَ: دهن يستخرج من شحوم الأغنام بعد غليها.
(٢) يجلبنّه: يحضرنه ويعرضنه للبيع.
(٣) المُشَاط: تصفيف الشعر في ضفاير دقيقة.
(٤) دردوما: قطعة مستديرة كالكرة الصغيرة.
(٥) كان خروج المؤلف من أمدرمان مع سرية ود النجومي في أبريل ١٨٨٦م، عليه فقد غاب عن أمدرمان حوالي خمس سنوات، ثلاث منها قضاها في رحلة الغزو، وأثنين في الأسر بمصر.

مع نَايِر في أمدرمان:

في الغد أتاني نَايِر يطلب الريالين أجرة جمله عن نصف المشوار؛ فتوجهت معه للسوق لعلي أجد أحداً ممن أعرفهم، فيسألني عن حالي حتى أصل إلى مناسبة أطلب بها منه سلفة الريالين. كان نَايِر لا يفارقني لحظة فمررت على كثير من أهلنا الرُّباطاب وأولاد خَلوَتنا برفاعة كأبي الفتح، وسالم عبد الأمين، والمهدي أحمد، وعبد الله الزبير، وكان كل منهم يُسلِّم عليَّ ثم ينتبه لعمله، فأبرح دكانه حتى خرجت من السوق. قلت لنَايِر: «أمشّى معاي للبيت أقلع لك جبِّتي هذه تعال بعِها في السوق وخذ الريالين وجئني بالباقي من ثمنها». وبينما نحن جالسين نتراود اذا بالمدني مصطفى جاء ماراً فرأيته، وبعد السلام مشيت معه إلى دكانه فأخذت منه الريالين وأعطيتهما لناير، الذي أخذهما ومشى.



سوق مدينة أمدرمان فى بداية القرن العشرين

أخبرت المدني بعد ذلك بكل ما حصل لي من نَايِر بمنزله، فقال لي: «أنه ما طلب منك العفو إلا لأنه سمع بتنبيه الخليفة»، وأقسم عليّ أن أشتكيه. فمشيت للمحكمة التي يرأسها الطيب ولد العربي (عليه رحمة الله) وكان معه مساعدوه حاج علي وحسن خبير فشكوت لهم نايراً. فأخذني من بينهم ودخل بي في غرفة وأخبرني بتنبيه الخليفة، وقال لي: «إن أباك لا يضر النّاس، فإذا قدمت لنا

هذا الرجل نحبسه في حر الشمس ومطر الليل، وإذا قُطعت يده تيتم أولاده وهو حيّ. وقد يؤخذ منه جمله بنصف قيمته فيغنم، وتؤخذ نظيره أغنامه إن كانت له أغنام، سامحه وأتركه لله كأبيك». فوعدته بذلك ولكني خفت من المدني، فأخذت من حُرّاس المحكمة أحداً وتوجهت لناير بمنزل أحمد الخضر - ابن أخت خوجال أم برير. وجدت نَايِر نائماً فأيقظته، وقلت له: «إني شكوتك في المحكمة وهذا رسولها»، فنزل على الأرض ووضع يده في التراب وقال لي: «يا بابكر تعطيني أمان الله البِنزِّل الكفّار من الجبل، وتشتكيني يسجنوني في الحر والمطر !»، وكرّر كل كلام الطيب إلى قوله «.. غنمه التي تؤخذ نظير الجمل». قلت له: «لكني يا ناير أنا في بيتك ضربتني، والآن مررت بي كل السوق في الريالين حتى إستلفتهما لك، أعطني الريالين وأعطي الحرس قرشين». قام وجاء بتسعة ريالات وقال لي: « هذه أجرة الجمل كلها خذها واتركني لله ولأولادي الصغار».

ما رأيك يا قارىء فوالله لم آخذ غير الريالين اللذين أعطيتهما للمدني مصطفى، علماً بأنه باع حماري الذي أرسلت عليه امرأته له من العُرضي، والذي كنت قد صرفت عليه وعلى زوجته من مصر الى أسوان؛ فأخذ الريالين ووضعهما مع نقوده ولم يسألني كيف جئت من مصر ومن جاء معي ؟!. فقمت منه وتوجهت إلى المنزل الذي فيه زوجتي - ولا أقول منزلي.

زيارتي لأمي في الكَامِلين:

أخذت أقل من أسبوع بأمدرمان ثم توجهت إلى أمي في الكَامْلِين إذ كانت عند سعيد أخي، وهو ولدها الكبير والذي تقسم بحياته، والذي كنت آمل أن يزوجني كلتوم بنت الحسن. وجدت والدتي تسكن في مخزن مظلل بقصب وفروع طَلح مُسّوسَات(١) والشمس من خلال القصب كالدنانير عليها. فلما كان المغرب طلبني سعيد وكان عنده "عُنكُولِيب"(٢) فأخذت منه قصبات، وقلت لخادمته الصغيرة: «أوصليه لأمي»؛ فما أدري أغضب من هذا التصرف أم لسبب آخر. لم يطلبني بعدها، فقط كان يأتي بأكله عند عمي الفقيه محمد شكاك كغيره من أهل المنازل فآكل معهم. وفي صبيحة يومي - وكان يوم السوق بالكَاملِين - أشتريت جلدا صغيرا بقرشين ولوح عُشَر(٣) بنصف قرش وموسى بقرش. وفرشتُ أجلِّد(٤) بالسوق حتى العصر. حصلت من ذلك على أربعة قروش، اشتريت منها عنقريبا ورغيفا ورأس نِيْفة خروف(٥) أعطيتها جميعا لوالدتي، والعنقريب القديم المكسور الذي كان لها وضعناه للحُسَنى لتنوم عليه بعد أن كانت تنام على بِرش. وجعلت أجلّد للبنات في البيت ويوم السوق اعمل بالسوق، حتى اشتريت لوالدتي نصف أردب غلال وغَنَمَاية(٦) وظلّلتُ لها نصف البيت بالحطب الجميل من السور، وسقفته بِالنَّال(٧) بحيث لا يتسرب المطر داخله ولا الشمس تخترقه. ثم ودّعتها حيث دعت لي دعوات صالحات تذوقت حلاوة إجابتها في فمي. وصلت أمدرمان التي نويت أن أشتغل فيها جلّادا بالسوق وبالمنزل، ولكن زوجتي منعتني لأن حرم بنت النور أعطتها نصف أردب عيش، والمنصور ولد أبي كوع، الذي حضر من بومباي بالهند، أعطاها ملابس فباعتها وصرنا نتصرف منها.

---

(١) مُسوسَات: أي أكلها السوس.

(٢) عُنكُوليب: نوع من القصب كقصب السكر.

(٣) لوح عَشر: أي مصنوع من خشب مأخوذ من شجر العُشر، وهو خشب هش ناعم.

(٤) فَرشتُ: أي جلست على الأرض. أجلّد: أي يقطع الجلد ويصنع منه مصنوعات يبيعها.

(٥) نّيفَة: هي رأس الخروف الذي تَفَسَّخ لحمه من فرط طبخه (قاسم، صفحة ١١٦٧).

(٦) غنماية: كلمة يستعملها السودانيون كمفرد لكلمة غنم (قاسم، صفحة ٨٣٣).

(٧) نال: نوع من القصب الرفيع، ويستعمل في السودان لبناء المنازل.

الفصل السادس

صفحة

مع مَنْدُوبِيَّة الكَرَيْبَة:[1]

بعد ذلك بوقت قصير عملت مع المندوب مختار قريش الرُّباطي ككاتب له، و عندما جاء وقت خروج المناديب للجزيرة خرجت معه. ولما وصلنا الكَاملِين أخذت أمي والحُسْنَى بمركب إلى مَدَنيْ، وهناك علمت أن السَّهْوة وبنتها برُفَاعة والمدني غائب عنهن، فأرسلت لها تأتينا بمَدَنيْ، وفعلا جاءت. وعند وصولنا مَدَنيْ وجدت الجعلي ولد محمد البشير ساكنا بمنزل خالي أحمد عطا المنان واضعا ملحاً له في القُطّيّتين الموجودتين بالمنزل. فقلت للجعلي: «حوِّل كل المِلْحَ في إحدى القُطّيّتين وأخلي لنا واحدة منهما»، فلما لم يرض باللين وبواسطة بعض أهل الخير، قلت للجِهَاديّة[2] الذين معنا: «خذوا الملح الذي في القُطِّية الكبيرة وأرموه في البحر». فلما أخذ كل واحد منهم عِدْلة[3] قال: «أصبروا لي للغد أجي بعَتَّالة[4] يخرجونه». قلت: «كم أجرة العتالة ؟» قال: «أربعة عِدَل بقرش»، قلت: «أعطني الأجرة للجِهَاديّة». فقبلوها وأخرجوه في الحال؛ فكنسناها وأدخلنا فيها أمي وابنتها.

أحمد عطا المنان (صاحب المنزل) هو ولد مصطفى ولد دياب، ووالدتي هي مدينة بنت محمد دياب، والجعلي لا يجتمع معهما إلا في رُبَاط[5]. كذلك فإن قرابة الجعلي بي هي بوالدي إذ أن والده أبن أخ والدي. إذن فلا تنكر عليَّ أيها القارىء بعد أن عرفت هذا النسب بأن والدتي أولى منه بالبيت.

تركت أمي ومن معها بعد أن أسكنتهم وتوجهت الى "الكَرَيْبَة" مركز

---

(١) مَنْدُوبِيَّة: مقر المندوب وهو المسئول عن الضرائب (انظر ملحوظة ٥ صفحة ٩١). والكَرَيْبة: قرية صغيرة في منطقة الجزيرة.

(٢) الجِهَاديّة: هم جنود الفرقة التي كونها المهدي ضمن جيش المهدية قبل فتح الأبَيِّض (في ١٩ يناير ١٨٨٣م) (أيضا انظر ملحوظة ١ صفحة ٨٣).

(٣) عِدْلة: هي جوال كبير الحجم مما يحمله الجمل مملوءاً بنوع من البضائع مثل الملح أو الصمغ أو التمر أو الحبوب . والأسم جاء من أن الجمل يحمل عِدْلتين واحدة تعادل الأخرى وكل منهما في جانب من جانبيه.

(٤) عتّالة: حمالين.

(٥) رُبَاط: انظر ملحوظة ٢ صفحة ١٦٢.

المَندُوبيَّة، ثم إلى باقي حَلاّلهِا[1] الكثيرة، مع مختار المندوب. لم يكن يرافقنا جهَاديّة، بل كان معنا صبيان وشباب تتراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين سنة أو يزيد بعضهم قليلا، ولكنهم لا يقلّون عن الجهَاديّة قسوة إن لم يزيدوا عليهم. كما إنهم كانوا زُناة أكثر من الجهادية ويحكي كل منهم بما عمل. كنت أول الأمر أنكر عليهم هذا العمل الذي لم يخطر ببالي أن أحدا يجرأ عليه. ومختار نفسه لا يخلو منه ولكنه مُقِل جدا ويختار الأمكنة. لا أخفي عليك أيها القارىء ماحصل مني ولكن الله سلّم؛ فقد بدأ سمعي يألفه عندما كثر منهم ما يحكونه ثم ترقى إلى محبة سماعه. كنت، كما قلت، الكاتب وأيضاً أمين النقود، التي كنا نضعها في جُراب نتخذه كخزينة. وفي يوم سافرت لأورّدها للعامل بمَدَنيْ، وعندما كنت راجعا أخذت نفسي تنازعني: «هل أنت الجنيد؟»[2] فقلت لنفسي إن الزنا فاحشة لا تقربينه ولو مرة، واستغفرت الله. فلما وصلت حلَّة "الوَرّاق" وكنا معسكرين بها ملكتني نفسي فذهبت الى امرأة وأظنها من أهالي كُرْدُفَان. وجدتها تطحن على مُرْحَاكَتِها وجلست أمامها وهي كأن لم تشعر بي. ثم أمسكت يدها فتركت الطحين، وبعد مدة قالت لي: «ماذا تريد منى؟». قلت بصوت الخائف: «أريدك ترقدي معى». قالت: «لماذا أرقد معك؟ أنا والله منذ خلقني ربي لا أعرف مثل هذا». فخرجت من عندها وقلت: «أعوذ بالله أول ما أبتدئ أهتك محصنة!»، وتذكرت قول الشاعر:

إن الزنا دين إذا إستقرضته فوفاؤه من أهل بيتك فأعلم

وقمت من عندها فأخذت تطحن. ولمّا وصلت سريري رقدت وأنا أرتجف. فجاء مختار وسألني عن رحلتي، فلم أتكلم معه وكنت أرتجف. فسألني وألحّ عليَّ فأخبرته بالحقيقة فضحك مني، وقال: «المرأة ضحكت عليك»، فاطمأننت حيث علمت أنها كذلك، وحمدت الله على سلامتي منها ولم أعد إلى مثلها والحمد لله.

---

(١) حَلالهِا: قُراها، ومفردها حِلَّة.

(٢) الجنيد: هو أحد علماء الصوفية المتّزنين وقد اشتهر برفضه لمبدأ «الملاماتية» وهو المبدأ الذي يبيح للقادة ما يُحرَّم على العامة (تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي، ١٩٦٩م، صفحة ١٤٣). والمؤلف يقصد هنا أن نفسه تنازعه بأنه لم يكن كالجنيد ليأبى لنفسه إرتكاب الزنا.

مع مَنْدُوبِيِّةَ الرَّضْمَةَ:

نقلنا من مَندُوبِـيَّة الكَرَيْبَة القريبة من مَدَنيْ حيث كنت أبيت مع أمي كل ليلة جمعة وأصلها بهدية وأرجع منها مغتبطا بما أسمعه من دعواتها ـ عليها رحمة الله. نقلنا إلى مندوبية "الرَّضْمَةَ"، وهي حلَّة الرجل الكريم يوسف ولد الزين العركي الذي يمثل الوطني السوداني، البسيط في طبعه، السخي في ماله، العظيم في مروءته، كثير الطعام؛ حتى يذكرك حاله كلام أحمد الرّيح العَركي[١]: «أكان ما عَجِينِي مَنْ بجِينِي»[٢]. مكثنا بها حتى قرب عيد الأضحية الذي هو مُنتهى[٣] زمن خدمة الضرائب حيث يرجع عنده كل العُمّال[٤] من الجزيرة ليحضروا العيد بأمدرمان بالأمر (أي بالأمر من الخليفة)، ثم يستأنفون عملهم في صفر الخير أو بعده من كل سنة.

في هذه السنة ـ أي سنة ١٣٠٩هـ (٩١ ـ ١٨٩٢م) ـ حصلت بأمدرمان حركة يسمونها بحركة الدنَاقلَة[٥]. وقَبَضَ الصالح حمدو بسببها على عدد من الناس في كل من الكاملين ورُفَاعة ومدني وجزيرة الفيل، وتم ذلك في يوم وساعة واحدة وبحركة منتظمة حتى لا يفرّ أحدهم من مكانه فينجو من القبض.

---

(١) الشيخ أحمد الرّيح العَركِي هو أحد زعماء قبيلة العركيين خلال الحكم التركي المصري في القرن التاسع عشر. وكان واسطة في عام ١٨٢٩م ـ ١٨٣٠م بين الحكومة التركية وأفراد قبيلة العركيين ممن هاجر إلى الحبشة تفاديا لبطش الحكومة خلال حملات الدفتردار وما بعدها. (تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي، صفحة ١٤٤).

(٢) العبارة تعني أنه لولا عجينه (أي طعامه) لما أتى له زائر، أي أنه كريم كثير الطعام.

(٣) مُنتهى: أي نهاية.

(٤) العُمّال: جمع عامل وهو المسئول الإداري عن المنطقة (أيضا انظر ملحوظة ١ صفحة ٦٢).

(٥) حركة الدنَاقلة: تعرف أيضا بثورة الأشراف حيث إجتمع جماعة من أقرباء المهدي يترأسهم الخليفة محمد شريف لتصحيح أحوال الحكم وازالة ما أحاق بهم من ضيم. ولكن الخليفة عبد الله كشف مؤامرتهم ضده فقبض على مجموعة منهم في ٢٣ نوفمبر ١٨٩١م وعقد صلحا مع رؤسائهم في أمدرمان، ولكنه استمر في البحث عن المشاركين في تلك الحركة وقام بحبسهم أو قتلهم، ومنهم الخليفة محمد شريف وأحمد ود سليمان المحسي أمين بيت المال وآخرون من أهل المهدي. (تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي، صفحة ١٤٤؛ شقير صفحة ٨٢٧ ـ ٨٣١ (انظر ملحوظات ٣ صفحة ٦٤ ـ ٦٥، ٢ صفحة ٧٠، ٢ صفحة ٧٤).

وقد مرّ علينا منهم صالح حسن وعبد القادر أخوه، وكريب نور الدين - كلهم من خَنَّاقيّة[1] رفاعة وكلهم من أقارب المهدي (عم) - في دفعة تربو على المائة نفر، وكانوا جميعهم مُشَعَّبُون[2]؛ فزرتهم لأني عرفتهم منذ نشأتي برفاعة، وأبكاني حالهم بهذا الذُّل بعد الرغد أيام دولتهم بحياة المهدي وبعدها، إذ كان لكل منهم فيما سبق منزل كبير ولهم حشم وخيل منقودة[3]، وكانوا واسطة أغراض أصحابهم ومحل آمالهم. فقلت هذا مصير الدنيا وتذكرت أيام بؤسي عند مدينة أم موسى في دَرَاوْ فحمدت الله، وأعطيتهم ما كنت أحضره لأمي في ذلك الأسبوع من الكريبة وودّعتهم.

عندما كنا بالرَّضْمَة أرسَل أحد التعائشة، يدعى الرشيد كَرُومَة، جِهَادِيِين من حلَّة عسير، التي تبعد نحو عشرة أميال من الرَّضمة، بكتاب لمختار محمد المندوب، يطلب منه ارسال ما حصّله من النقود والدَمُّور. فأبى مختار وأرجع الجِهَادِيين بلا شيء. فما كان من الرشيد كَرُومَة الا أن أرسل ثلاثين جهاديا لمختار، الذي كان أخذ شَربَه في ذلك اليوم، ليأخذوه له راجلا إلى عسير. فلما جاءوا وكان مختار خارج المنزل قالوا: «أين مختار؟». قلت لهم: «أنا مختار». وتمنيت أن مختارا لا يراهم فأذهب معهم أو أعطيهم ما شاءوا، ولكن مختارا حضر في الحال فقال لرئيسهم: «ماذا تريد؟». قال: «آخذ مختار إلى سيدى الرشيد». فأمر بشدّ حصانه، فقال له: «لا، أمرنا أن نأخذه راجلا». فقال: «مختار يمشي معكم وهو حيّ راجلاً؟» قال: «واي» - بمعنى نعم. قال: «يجب أن تفهم أن موت مختار وأخذ رأسه من أذنه أقرب من مشيه راجلاً أمامكم». فسُمح له بالركوب على حصانه ولما خرج من الحلَّة أنزلوه من حصانه وجروه وهو راقد نحو مائة متر، فلما رأوا عناده اتفقوا معه على أن يركب فاذا قرب من حلَّة عسير ينزل راجلا، فصمت وظنوا أنه وافقهم. فلما قرب من الحلَّة طرد حصانه فدخلها رامحا بالحصان، ونزل عند من يعرفه. ثم

---

(١) خَنَّاقيّة: اسم قبيلة تنسب للخَنَادقَة التي يرجع اسمها لمدينة الخَنْدَق في منطقة الدنَاقلة ويعتبرون فرع منها.

(٢) مُشَعَّبُون: أي عليهم قيد يعرف بالشِعْبَة ويصنع من فرع شجرة كبير مُتشعّب فرعين يوضع على العنق وتمد اليدين عليهما.

(٣) خيل منقودة: أي خيل مختارة.

توجه إلى الرشيد فسجنه في قُطَّيّة.

عندما أخذوا مختار منّا منعوننا من السير معه فأرسلت بوستة بجمل للعامل بمدني وأخبرته بما حصل. فركب العامل بنفسه لعسير بعد أن أخبر الشيخ أحمد السُّنّي[١] عامل عمال الجزيرة بخطابي؛ وأرسل لنا رداً بأن نقابله بعسير. فسبقناه إلى هناك ووجدنا مختاراً مسجونًا. وعند وصولي طلبني الرشيد وطلب مني تسليمه ما عندنا من النقود والدَمُّور، فقلت له: «العامل عثمان عوض الله سيصل الآن من مدني فاطلب منه ما شئت». فسألني: «حقيقة أنه آتي ؟». فأخرجت له كتابه لي، فجمع جماعته وقام من البلد وترك مختاراً في سجنه.

إستحسنت أن يبقى مختار بالسجن حتى يصل العامل، وقابلته وأخبرته برأيي وكل ما حصل، فاستحسن هو أيضا أن يبقى بسجنه. فلما وصل العامل وأخبرته بقيامهم، وكان العامل مسالما، حمد الله الذي صرفهم وشكرني وأخرج مختارا من سجنه. فرجعنا والعامل معنا إلى الرَّضْمة وأرانا مختار مكان جره بالأرض. مثل هذا كان يحدث كثيرا من البقارة حتى قيل المثل «أب دقناً أمر»، لأنه اذا طلب أحدهم شيئا من العامل أو من مندوب أو شيخ حِلَة، وطالبه العامل بتقديم أمره لينظره قال: «هي دقِن دَه ولا أمُر»[٢]، ويأخذ ما يريد قوة إن إستطاع.

أراد مختار أن نفترق لأن الوقت قرب والأعمال متأخرة، فعين لي حِلَة "ولد الجَالِب" و "الصرّاف" وهما أكبر حَلاّل المندوبية بعد "السِّبيرات" فجعلت مركزي حِلَة ولد الجالب وأذهب للصرّاف عند الحاجة وبين الحِلَّتين نحو ميل واحد. بعد رمضان بدأنا في تقرير وتحصيل زكاة الفَطِر، وكانت الفطرة في تلك السنة قد قُررت على أساس قرشين على الشخص الواحد، فطلبت رجال حِلَّة ولد الجَالِب ووضعت لهم المصحف الشريف كالمعتاد، الواحد منهم يحلّف ويوضِّح لي أنفاره الذين ينفق عليهم دون نقص. فلما أتممت الكشف وجدت من به أقل مما

---

(١) أحمد السُّنّي: كان يعمل بالتجارة قبل المهدية وأثناءها عين عامل عمال (أي كبير العمال) الجزيرة وهي موطنه، وبحكم ذلك أصبح الحاكم عليها. عاش بعد المهدية الى أن توفى عام ١٩٢٨م (تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي، صفحة ١٤٦). وقد استمرت مدينة مدني ـ عاصمة الإقليم الأوسط ـ تكنّى باسمه بعد ذلك حيث تسمى أحيانا مدني السُّني.

(٢) أي أليست ذقني هذه بمثابة الأمر؟ ويعني أنه رجل كبير لا يكذب.

أراه بعيني في الشوارع أو بقرب البئر؛ فأخذت رأي نزيلي[١] محمد ابراهيم، فقال لي: «نقبل منهم ما حلفوا عليه». فأعملت فكري فيما أصنعه من الحيلة لأخذ الفطرة على حقيقتها؛ فاهتديت لما يأتي: جلست حتى مرّ بي صبي في نحو الثامنة من عمره فطلبته وقلت له: «من أبوك ؟»، قال: «عبد الله الحاج علي»، قلت: «ما اسمك ؟»، فأجاب. فسألته: «وإخوانك ؟»، قال فلان وفلان.. إلخ، حتى عدد ثلاثة وعشرين شخصا. وكان أبوه قيد لنا ثمانية فقط فصرفت الطفل، وبعد مدة طلبت والده فقلت: «يا شيخ عبد الله أنت رجل غنى بحمد الله وزكاة الفطر يتوقف على أدائها كاملة قبول الصوم، وهي في السنة مرة وفطرة بيتك التي تلزمك لا تتجاوز ستة وأربعين قرشا، يعني ريالين وستة قروش، ثمن خروف تذبحه لضيف، أدفعها وأبرىء ذمتك». قال لي: «الثمانية أنفار بستة عشر قرشا، الثلاثون من أين جاءت ؟». قلت: «أنفارك ثلاثة وعشرون نفراً». قال: «أبداً. أنت حَلَّفتَني الكتاب». قلت: «نعم، لكن أسمع»، وقرأت له الكشف على لسان ولده. فأطرق وقال لي: «من أملاك هذا ؟» فقلت: «أملانيه فلان» ـ أقصد أحد جيرانه. قال: «هو كاتب كم ؟». قلت: «خمسة أنفار». قال لي: «أمسك أمليك أنفاره». وأمسكت القلم وقلت له: «بأسمائهم.. نعم ؟». فقال: «فلان وفلان»، حتى عدد خمسة عشر نفراً. فطلبت جاره هذا وكررت له المذاكرة السابقة وقرأت له أسماء أنفاره. قال: «من كتب لك هذا ؟». قلت: «جارك فلان»، قال أيضا: «هو كاتب كم نفر؟». وهكذا حتى كتبتهم على الحقيقة وحصلت منهم مبلغا لا يأمله مختار.

وفي يوم خرجت للتبرّز كحاجة الانسان، وحفرت برأس حَرْبَتي لأخذ ما استَّجمر به فخرج لي عِرِق ذرة جديد، وكنت مصدقا أنه لا محصول لهم هذه السنة، كما قالوا لي. فاتضح لي أنهم سكبوا[٢] بِلِدَاتَهُم[٣] حتى أخفوا أثر

(١) نَزِيلى: الشخص الذي يستضيفني في منزله.. هذه الكلمة تستعمل اليوم بمعنى الضيف وليس المُضيف، أي عكس ما كانت عليه.

(٢) سكبوا: حصدوا الذرة وقطعوا قصبه

(٣) بِلِدَاتَهُم: هي مناطق الزراعة التي يزرعها الأهالي في فصل الخريف والتي تكون غالبا مساحات صغيرة يختارونها بالقرب من القرى التي يسكنونها.

الزرع الجديد، ونقلوا القصب الى زرائب بعيدة غرب القرية. فلما وجدت العِرق الأبيض تأكدت من محصول تلك المزرعة فسألت عن صاحبها وطلبته. وقلت له: «زكاة الغلال؟». فقال لي: «البلد صَافقَة[1]». قلت: «فلان أخبرني أنك حصلت على ثلاثة وعشرين أردبا من الذرة ولم أصدقه حتى أوصلنى بلادك وأخرج إليّ عِرقها الجديد». قال: «فلان أخبرك!». قلت: «نعم». قال: «هو بلاده حصلت كذا». وهكذا حتى حصلت منهم قيمة مائة وثمانية وأربعون ريالا، ومن حلِّة الصرّاف اثنين وسبعين ريالا. ولما كنت لا أملك سلطة كتابة الوصولات أخذتهم معي لمختار، الذي وجدناه بحلَّة ولد ربيعة، بالخوالدَة. فسلمت عليه، وكنت أنتظر منه إجلالا بالنسبة لما حصّلته في الفطرة، وأرسلته إليه مما لا يأمل ولا يحلم به، فمد لي يده وهو ملتفت عني أمام الناس. فأنفت تلك المعاملة ورجعت للجماعة أهل عُشُور الغلال، وقلت لهم: «المندوب بقى على سفر وما دام هو ولا غيره يعلم بغلالكم خذوا نقودكم وارجعوا». فأعطوني منها عشرين ريالا فكانت هي نصيبي، وأخذ الجماعة باقي نقودهم ورجعوا.

عندما وصلنا أمدرمان أخبرت مختارا بما حصل على أصله فقال لي: «يا مربوط ما كنت تقول لي أعطني الخاتم حسب العادة أمده لك فتكتب لهم الوصولات وتأخذ الفلوس كلها أو جلها وتورّد الباقي». فقلت له: «ذمتي أضيق من ذلك، هذا تعمله أنت وأمثالك المدربون على البَلع»، وضحكنا.

من المضحكات أن الناس كانوا اذا قصد أحدهم السوق ولم يكن دفع الفطرة أو نسى أخذ وصلّه، يستعير وصلا من أصحابه فيعرضه للمحصّلين حينما يُطلب منه وصل الفطرة. وفي يوم كنت بسوق حلِّة الصرّاف أحصّل الفطرة، فجاءني مساعدي برجل مُدّع وصلا فقلت كالعادة: «ما اسمك؟». فنسي اسم صاحب الوصل المستعار منه، ورفع رأسه كالمفكر، فكررت له: «ما اسمك؟» فقال: «أصبر لي». فقلت: «ما اسمك؟». فقال: «اسمي الله يخِرّبُه»، ونحن نضحك. ثم قال: «والله اليأكلك أبصر منك، هاك القرشين». فأخذتهما وكتبت له الوصل.

---

(١) صَافقَة: لم تنتج محصولا.

في حلّة ولد الجَالِب جاءني يوسف أخي من كَرْكَوْج، أرسله أبي ليرانا ويتعرف أحوالنا، وكانت حالته رثّة تدل على فقره وعدم شغله؛ فما وجدت عندي غير أربعين قرشا دَمَجا[1] أعطيتها له، وأعطيته عمامة كنت غزلت لُحْمَتها وسَداها من حشو بِنَاج العُشر[2] وكنت معجبا بها لأنها تشبه الحرير.

(١) الدمَجَة: انظر ملحوظة ٤ صفحة ٣١
(٢) لُحمتها وسَدَاها: السَدى هى الخيوط الطويله التى يبدأ بها نسج القماش واللُحْمة هي الخيوط العرضية التي يكمل بها نسج القماش. وناج العُشَرْ هي ألياف رقيقة وخفيفة تستخرج من ثمر نبات العُشرْ.

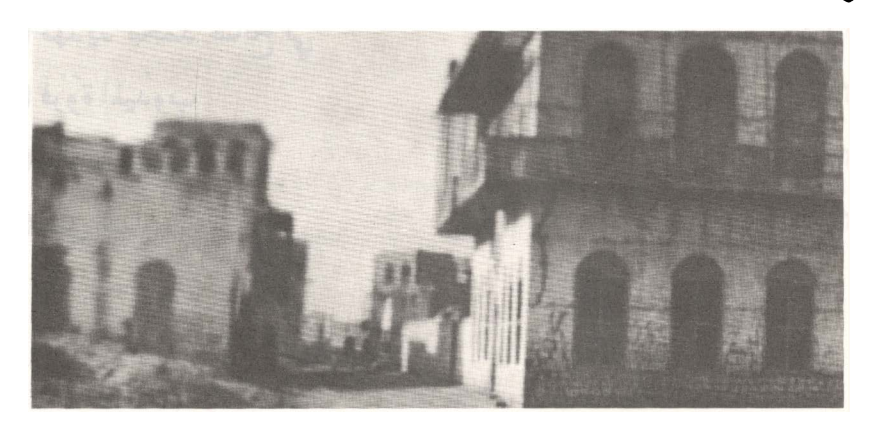
الفصل السابع

صفحة

عملي بالتجارة مع عمي مالك:

برجوعي من الجزيرة في شهر الحجة سنة ١٣٠٩هـ (يوليو ١٨٩٢م) وجدت حماتي بَنَتْ بَيتاً مساحته خمسة أذرع طولا وعرضا، ورَحْبَتُه[١] أمامه كمساحته أو تنقص قليلا، وفي شماله أرض خالية لمحمد على شّنقرَاوي فطلبت منه أن يعطيني ذراعين منها على طول بيتنا لنجعلها مُرْتَفَقا[٢] فرفض. استمرينا في ذلك المنزل حتى جاء عمي مالك وسافرت إلى سَوَاكِن[٣]، كما سيأتي. وبرجوعي من سَوَاكِن طلبت من زوجتي الرحيل منه، فقالت: «إنها لا ترغب في الرحيل من جوار أهلها». فقبعنا فيه حتى مَلأتَه بضاعة من تجارتي كما أودعت جزءا منها عند الجيران.

وحينما رجعت من الجزيرة وجدت عمي مالكاً قد حضر من كُرْدُفان فقلت له: «أعمل أحد أمرين، اما أن تأخذ مني والدتي وبناتها وتتركني أعيش وزوجتي، واما أن تعطيني مائة ريال أتاجر بها في التمر من دنقلا وأقاسمك الربح». فقال لي: «المائة ريال لو دفعتها لك ما بتنفعك... الناس قالوا الريف اذا ما أغناك يستر حالك. انتظر إلى أن يصل المنصور أبو كوع من سواكن سافر معه».



جانب من مدينة سواكن التي كانت مأمولة خلال المهدية ولكنها هُجرت بعد ذلك

(١) رَحْبَتُه: فناءه.
(٢) مُرْتَفَق: مرحاض.
(٣) سَوَاكِن: ميناء قديم ومشهور في شرق السودان على البحر الأحمر.



جانب آخر من مدينة سواكن

كان سببي في أني طلبت التجارة في التمر أمرين، الأول: أن العقل يعتبر قاصرا في جميع ما يجهله مهما كان صاحبه؛ والثاني: أني رأيت جَلاّبة [(١)] أحمد الخضر الذي جئنا معه من دنقلا عند عودتي من مصر، فعشقتها لأنها أول منظوراتي التجارية.

جاء المنصور بعد وقت قليل من سَوَاكِن ولكنه ترك بضاعته في حلة "الشيخ الطيب"، فصحبته لاحضارها لأمدرمان. وقبل قيامنا إلتقيت صدفة بعمي[(٢)] يوسف سليمان مندوب بيت المال، فقلت له: «عندنا اثنا عَشر رحلا من البضاعة فهل يمكن أن تتكرم وتُعْشِرُوها[(٣)] لنا في بيت عمي مالك ؟». فقال: «لا يمكن بل تُعْشِرُوها في الوكالة». فذهبنا الى حلة الشيخ الطيب لإحضارها،

---

(١) جَلاَّبَة: قوافل الجمال المحملة بالبضائع، ونفس الاسم أصبح يطلق على التجار أنفسهم.
(٢) عمي: هذه دلالة على الاحترام وليس لقرابة بين المؤلف ويوسف سليمان.
(٣) تـُعْشِرُوها: أي تؤخذ العُشُور عنها (انظر ملحوظة ٣ صفحة ٨٣).

وفي الطريق ونحن راكبين إتفقنا على أن أتأخّر أنا مع الفاتورة[1]، ويأخذ المنصور جِمَال البضائع الموزونة ليخبئها عن العُشُور بمنزل عمي مالك. فلما دخل المنصور البلد كان الوقت ليلا، وكان السحاب مع ظلمة آخر الشهر سببا في ضلاله عن البيت، فصار يتجول في السوق حتى نزل عليه المطر وكان عندها جوار المحكمة؛ فبَركتْ الجمال وصارت تُرْغي حتى خرج عليهم حرس المحكمة وقادوهم لوكالة بيت المال. هناك بات المنصور فمكثنا أنا وعمي مالك ننتظر ما يفعله الله لنا. فجاء عمي العوض المرضي[2] أمين بيت المال في الصباح واجتمع حوله أرباب الحاجات، فطلبنا منه فك بضاعتنا، ولكنه قال: «هذه غنيمة وقد تم الحكم نهائيا». عندما سمعت حكمه تقدمت في الحال بما ألهمني الله تعالى في الحِجا والحُجّة، فقلت: «والله يا عمي العوض إن إحتلتم علينا وجدتم السبب، وان سمعتم حُجتنا وأنصفتمونا إن شاء الله نخلص منكم». قال: «فما حجتكم ؟». فالتَفَتُّ على الناس وقلت لهم: «بالله يا أعمامي اسمعوا كلامي واحكموا بالحق. يا جماعة هل الذي يريد أن يُخلِّص بضاعته من بيت المال يخبر بها عمي يوسف سليمان عددا ونوعا ؟». قال عمي العوض: «لا». قلت: «وهل يمر بها على ود قَرَّاي بكَرَرِي، ويأخذ منه جوابا بعدد رحُوله ؟». قال عمي العوض: «لا». فالتفتُّ لعمي يوسف سليمان وقلت له: «أتذكر أني لقيتك أمس وأنت خارج من منزلك، وقلت لك: عندنا إثنا عشر رحلا بضاعة هل تسمح لنا بأخذ العُشر منها بمنزل عمي مالك ؟ فقلت لي: لا يمكن إلا في الوكالة». فأجاب عمي يوسف: «صحيح». كنت أنا قد استلمت من ولد قَرَّاي جوابا ـ بعدما دفعت رشوة له فى كتابته ـ لعمي يوسف بعدد جمالنا؛ وكان ذلك إجراءً إحتياطياً

---

(١) الفاتورة: الأقمشة.

(٢) «عمي»العوض المرضي: «عمي» هنا أيضا تأدبا من المؤلف، والعوض هو رابع أمناء بيت المال في المهدية وقد ولي هذا المنصب مرتين، الأولى خلال الفترة من عام ١٣١٠ إلى ١٣١٤هـ (حوالي ١٨٩٢ ـ ١٨٩٦م)، والمرة الثانية لفترة ثلاثة أشهر خلال عام ١٣١٥هـ (١٨٩٧م)، وقد عمل قبل المهدية كرئيس للكتبة فى كسلا فى الحكومة التركية المصرية، وفي أواخر المهدية غضب عليه الخليفة وسجنه واستمر في السجن حتى سقوط الخرطوم (شقير، صفحة ٩١٢، ٩٣٩؛ تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي، صفحة ١٥١).

إتخذته، فأخرجت الجواب من جيبي وقدمته لعمي العوض. فلما قرأه فتح فمه ونظر كعادته حينما يفكر وقال: «يا مالك هذا ولدك ؟». قال: «ابن أخي وشريكي». فقال عمي العوض: «طيب نأخذ نصفها». فقلت: «الإنصَاف يا سيدي»، قال: «الثلث». فقلت: «إن كانت الحجة قائمة فخذوا العُشْر». ثم التفَتُّ إلى الجماعة قبل أن يَنطِق عمي العوض بقراره النهائي، وقلت لهم: «بالله عليكم يا جماعة هل يتوه أحد من منزله في أمدرمان ؟»، فصمتوا. فأضفت: «نحن عادتنا في سفرنا من سواكن نَشدّ جمال الموزونات أولا لتتقدم لأنها مثقلات ثم نَشدّ جمال الفاتورة الخفيفة ونلحقها. ولما كانت الشَّدَّة الأخيرة من "العجيجة" مكان عمي ولد قَرَّاي؛ وصفنا للجماعة الطريق الغربى ولما وصلنا مفرق الدربين ولم نجدهم عرفنا أنهم تاهوا، فلحقهم المنصور على حماره، ولما دخل الليل واكفهر بالسحاب قصد المحكمة وأناخ جماله عندها، فاسألوا الحرس أين وجدوهم ؟». فقال عمي إبراهيم شُمُّو، الشهير بود أبو روف: «والله يا العوض الصبى دا ما خَلاً لك سبب تأخذ منه أكثر من العُشْر». فقال العوض لعمي مالك: «عندك بَخت»، ثم إلتفت إلى يوسف سليمان وقال له: «خذ منهم العُشْر»، فشكرناه وانصرفنا، وقد كافأني عمي مالك على هذه الخدمة بأنه تركني كلما اشترى تاجر صفقة منه أقول له: «أنا شريكك»، فيعطيني ريالا أو ريالين "خلو رجل". فلما أنتهى بيع كل البضاعة حصلت منه على خمسة وأربعين ريالا.

بعدها أرسلت مأمون ـ عبد عمي مالك ـ إلى مدني ليحضر أمي منها لأن المدني مصطفى ذهب إليهم هناك وأخذ أولاده إلى رفاعة. فأسكنت أمي عند قدومها في منزل عمي مالك المجاور للسوق، والذي كانت به عَصَّارته[1].

---

(١) العَصَّارة: آلة تدار بواسطة جمل أو جملين كالساقية وتستخدم لعصر السمسم أو غيره لاستخراج الزيت منه.

رحلتي الأولى في تجارتي لسَوَاكِن:

بعد ذلك سافرت مع المنصور بالصمغ الى سَوَاكِن، وكان لعمي مالك نصف المال، ولي وللمنصور النصف الثاني. فتأخر المنصور بأمدرمان ولكن الصمغ سافر قُبَّالِي[١] من أمِ درمان لبربر بمقدار يوم، بمركب رَيِّس لا أعرفه. فسافرت في الغد بمركب الرَيِّس ود أحمدو ومعي أبو اللّكيلك ونصر الدين التاجر الميرفابي؛ وكان عندي مصاريف الصمغ للحكومة والجمَّالة، وتبلغ أكثر من ألف ريال مجيدي[٢]، وضعتها كلها في عَيْبَة ملفوفة في حَوِيّة[٣]. فلمّا وصلنا بَربَر وقفت المركب ليخرج أبو اللّكيلِك قُبَالَة[٤] بيته، فقلت له: «خذ هذه الحَوِيّة واحفظها للصبح؛ لأن الزمن الآن بعد الظهر ومستخدموا بيت المال لا يأتون إلا ضحى الغد». فأخذها، وذهبت أنا إلى محل الصمغ فوجدت صمغنا مرصوصاً ولكنه ناقص عدلَة فكتبت لعمي مالك بذلك. صليت العصر في ظل الصمغ وأخذت أقرأ فى الرَّاتِب فإذا الفقيه ابن عمي الطيب الخليفة راكباً على حمارته بالقرب مني، فقمت له وفسحت له عن الفروة. فجلس يسألني عن أفراد العائلة وأجيبه فإذا به ينتبه انتباهة غير عادية معها هزّة، ويقول بلهفة: «أين نقودك التي جئت بها ؟». قلت: «أعطيتها أبو اللّكيْلِك يحفظها للغد». فقال: «اركب هذه الحمارة وأتيني بها». قلت: «ماذا أقول له ؟». قال لي بحزم: «لا أدري ما تقوله له وإنما أنا في انتظارك تأتيني بها الآن». ركبت الحمارة ووصلت أبا اللّكيْلِك وقلت له: «وجدت أحمد عبد الكريم ومحمد صالح جالسين عند الصمغ وطلبا مني النقود.. فأعطني الحوية»، مدّها لى فوضعتها على السرج وركبت خلفها. فلما قربت من الفقيه الطيب طلع على الصمغ وقال لي: «أرفعها»، فرفعتها بصعوبة عِدلَة إلى عِدلَة حتى وصَلّته فتناولها ورفعها ثم

---

(١) قُبَّالي: قَبلي، أي سبقني.

(٢) الريال المجيدي: انظر ملحوظة ٣ صفحة ٩٤.

(٣) عَيْبَه: جراب من الجلد؛ والحَوِيّة كيس يملأ بالهشيم ويوضع تحت السرج حول سنام الجمل.

(٤) قُبَالة: تعني أمام أو في مواجهة شيء أو مكان ما.

رماها بين عدلَتين ونزل؛ بعدها ركب حمارته وودّعني. وفى صباح الغد نُقبَ[١] بيت أبا اللّكيْلِك وأخذ جميع ما فيه من المحصولات؛ فلما جئته مُسليًا ومتوجعا كغيري، قال لي: «والله أنت ولد حلال لو كانت حَويّتَك عندي وما أخذتها أمس كان أعداؤنا يشيعون علينا إنا نقبنا بيتنا لأجل أن نخون نقودك».

جائنا في بَربَر المنصور أبو كوع ومأمون ـ عبد عمي مالك ـ وأخذنا نُقَطّع[٢] الصمغ بجماله إلى بربر. وكانت الحَرَم بنت النور أعطتني ثلاثين ريالا على نقودي الخمسة والأربعين ريالا فاشتريت بالمبلغين صمغاً، وقلت أظن أن المنصور يكفله في العبور على حساب صمغ شراكتنا، ولكن انعكس أملي لأن المنصور حاسبني عليه وعلى سَلَبْتَيْن[٣] كانتا معي ثمنهما ثلاثة قروش.

عندما طلعنا من بَربَر لسَواكِن أجّر المنصور لنفسه جملا ولي جملا يسمي جمل رُكُوبَة، يُحمَّل عليه الماء والزاد ويركبه المؤجر فيقرن في قطر الجمال ويمشي طَرَقَة[٤] وعلى مهل؛ فكنت أضجر من الركوب فأنزل وأمشي وأحيانا أمشي أكثر مما أركب. عند عودتنا أراد المنصور أن يؤجر لي جملا من سَواكِن فقلت له: «أعطني أجرة الجمل»، فأعطانيها وكانت أربعة عشر ريالا. عند ذلك قلت لابراهيم على اليعقوبابي: «يا ابراهيم أنت لما جئت من بربر كنت راكب كل المسافة ؟». قال: «لا والله يمكن أقل من نصفها». قلت: «هل توافق أن نؤجر جملا واحدا نحمل عليه ماءنا وزادنا ونتعاقب في الركوب عليه ؟». قال: «آي والله»، فأجرنا جملا واحدا فوَفَّر كل منا سبعة ريالات.

عندما وصلنا سَواكِن وجدنا الصمغ رخيصا جدا ويمكن أن يخسّر أربعة في المائة، ومما زادني حرجا، أن الصمغ الذي كان في عهدتي نقص عند انزاله من الجمال عِدْلة. فلما علم المنصور جاءني وقال لي: «مكان وَدّيتَ[٥] هذه العِدْلة أرجعها.. في البحر في بَربَر ضيّعت عِدْلة.. وهنا ضيّعت عِدْلة، والله إن لم

---

(١) نُقب: أى فُتح، والمعنى أن اللصوص فتحوا بيت ابا اللّكيلِك وسرقوه.
(٢) نُقَطّع: نعبر بالصمغ نهر النيل الى الضفة الأخري.
(٣) سَلَبْتَيْن: مفردها سَلَبَة وهي لفة الحبال.
(٤) طَرَقَة: خطوة الجمل البطيئة.
(٥) وَدّيتَ: أخذت أو أضعت

ترجعها أخصمها من حسابك الخاص». أحرجتني هذه العبارة الصريحة بالتهمة وأعملت فكري كيف أتحصل عليها، وأخيرا قررت أن أتعلم الوزن على ميزان الطبلية فأوزن لكل التجار مجانا، بدل أن يدفعوا قرشا للقنطار. فإنكبوا عليّ لثقتهم بي وعلمهم بأني لا يمكن أن أعامل عليهم الخواجات وأخونهم في الوزن كغيري. وفي يوم وَزنتُ صمغ لسليمان كِشّة فجاءت العدْلة وعليها علامة صمغنا؛ فقلت للعتّالة: «ضعوها وَرَاي[1]» وأرسلت للمنصور وقلت له: «هذه عدلتك وهذا سيدها»، فادّعاها كل منهما. ولما اشتد بينهما الجدل قلت لهما: «كل منكما يعدّ صمغه أزواجا لأن الجمل لا يحمل عدلا واحدا فمن وجدت في صمغه عِدْلَة بلا زوج فهي له»، فظهرت للمنصور.

لكساد السوق في سواكن؛ شحن المنصور الصمغ لمصر وسافر معه بعد أن ربط لي أربعة رحول فاتورة، وأرسلني بها إلى أم درمان، لعل عمي مالكاً يحتاج إلى نقود. فلما وصلنا "كُكْريب"[2] وجدنا أبا الفتح موسى دقِنَا[3] حضر بها لأن عمه العامل عثمان دقِنَا، قرر بها عُشْرًا على البضائع التي تمر عليها بالإضافة إلى الخمسة ريالات على الجمل للصمغ التى كانت مقررة أصلا.

---

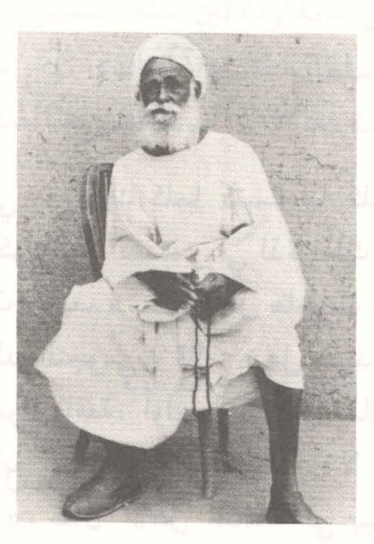
(١) وَرَاي: خلفي.

(٢) ككريب: قرية صغيرة على جبال البحر الأحمر على الحدود بين منطقة سواكن وباقي بلاد سودان عهد المهدية (انظر الخريطة ملحق رقم ١).

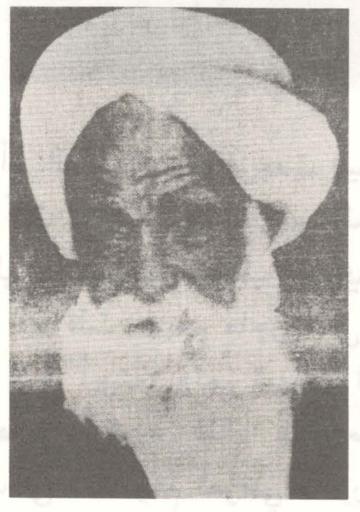
(٣) أبا الفتح موسى دقِنَا: هو ابن أخ عثمان دقنة ووكيله في جمع ضرائب القوافل المسافرة بين سَواكِن وباقي أجزاء السودان. أما عثمان دقنة نفسه فهو أحد القواد المشهورين في المهدية، وهو من أصل كُردي من الذين اختلطوا قديما بالزواج بقبائل الهَدَنْدَوَة، ولكن يذكر ضرار أنه من أصل عربي عباسي وقد عمل عثمان بالتجارة قبل المهدية في سواكن وبينها وبين جدة. ثم انضم وعمره حوالي ٤٣ سنة للمهدي بعد سقوط الأبَيِّض (١٩ يناير ١٨٨٣م)، وعندها عينه المهديّ عاملا على مناطق شرق السودان (طوكر وسواكن وكسلا)، وقاد معارك جمة ضد الجيوش المصرية والإنجليزية وأخذ كل مشرق السودان فيما عدا سواكن. كما اشترك في معركة أم درمان في ٢ سبتمبر ١٨٩٨م التي انهزم فيها جيش الخليفة عبد الله وبعدها انتهى حكم المهدية. ولكن عثمان دقنة تراجع مع الخليفة الى أم دبيكرات، وعند استشهاد الخليفة فيها في ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩م انسحب عثمان دقِنه إلى الشرق فوقع في الأسر بالقرب من سواكن في ١٨ يناير ١٩٠٠م وأرسل الى مصر حيث سجن في رشيد ثم في دمياط، وبعدها أعيد إلى سجن حلفا وتوفى به وعمره حوالي ٨٦ سنة عام ١٩٢٦م، (القدال صفحة ١١٠؛ شقير، صفحة ٣٨٥، ٤٢٠، ٤٢٣، ٩٣٠، ٩٦١ ـ ٩٦٢؛ زلفو صفحة ١٩٧؛ تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي، صفحة ١٥٥).



الأمير عثمان دقنة لحظة اعتقاله عام ١٩٠٠م

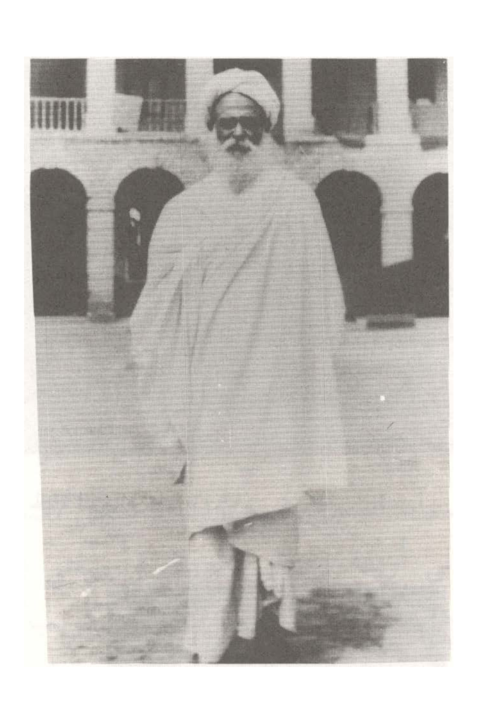


الأمير عثمان أبو بكر دقنة فى السجن عام ١٩٢٥



الأمير عثمان أبوبكر دقنة أمير السودان الشرقي وقد تقدم به العمر

وكنا أول من طُبِّق هذا العشر عليه. فلما نزلنا طلبنا أبو الفتح في مكتبه وأخبرنا بتقرير العشر ولم يقبل لنا أي عذر فيه. ثم التفت عنا وصار يكتب في الرَّملة بخط جميل كلمة (المُلك) ويمسحها، ثم يكتبها. فصرت كلما كتب (المُلك) كتبت (الله)، فلحظ ذلك ثم ترك الكتابة وأمرنا بالانصراف. طلبني بعد



الأمير عثمان دقنة وهو فى سجن وادى حلفا

قليل أبو الفتح برسوله فرجعت إليه. فقال لي: «رأيتك كلما كتبت أنا كلمة المُلك أنت تكتب كلمة الله !». قلت: «لأذكرك لئلا تستمر في لذة المُلك». فقال لي: «أنت من أصحاب المهدي ؟». قلت: «نعم». فقال: هل هاجرت فى سَرِيَّة ؟» قلت: «نعم هاجرت فى سَرِيَّة ولد النجومي» قال: «هل شهدت واقعة ؟». أجبته: «نعم شهدت ثلاث عشرة واقعة، أولها في قَيْقَر صالح وآخرها في أرْقين». فقال: «هل طُبعت بطابع الشهداء ؟». أجبته: «لا لم يكتب لى ذلك رغم تعرضي له ورغبتي فيه». فقال: «هل خدمت في بيت المـال ؟». قلت: «نعم». قال: «هل يوجد عندك دفتر تبدأ لنا فيه حصر ما نأخذه اليوم نوعا وقيمة ؟». قلت: «نعم». وأتيته بدفتر ورَوَّستُه[1] له، ثم أرسل معي أحد جماعته كرئيس علينا ومعه مساعدوه فدخلنا الجلاّبة وعَشّرنَاها وكتبناها عددا ونوعا. ولم تبق إلا أربعة رحول تخصني، فطلبني وقال لي: «لابد من أخذ العشر منك». قلت: «سمعا وطاعة». قال: «أي قماش أرخص

(١) رَوَّستُه: أي قسمت الكراس الى أعمدة وجعلت لكل منها عنوانه في رأسه.

قيمة عندك؟». قلت: «التَّنشَ». قال: «كم ثوباً عندك ؟ والرحل عشرون ثوباً، كم رحلا عندك ؟». قلت: «أربعة». قال: «أحضر ثمانية ثياب». قلت: «حاضرِ». فذهبت واستلفت الثمانية ثياب وسلمتها لرسوله، فطلبني وقال لي: «كلما جئت قابلني دائما»، وودّعته وسافرنا.

وصلت أمدرمان ووجدت البضاعة غالية جدا فسلمتها عمي مالكاً ولم أعلم عنها بعد ذلك شيئا. أما رَحَل صمغي الخصوصي الذي كان معي في سواكن فقد بعته فيها وإشتريت بثمنه بسطاوية [1] جوخ أسود لرِقُع الجُبَبَ، وقدْر نحاس صغير فيه "مَجْمُوع"[2]. ولما وصلت أم درمان بعت البَسَطاوّية والمَجْمُوع وأعطيت الحَرَم أمانتها بربحها، وبقي لي مائة وعشرة ريالات؛ إشتريت منها لزوجتي خدّامة كبيرة تدعى أم نعيم، ماتت فيما بعد وعمرها عند وفاتها أكثر من مائة وثلاثين سنة. تقديري لعمرها سببه أنها كانت تقول هي أكبر من السلطان حسين[3]، الذي تُوِّج سنة ١٢٥٤هـ ومات سنة١٢٩٢هـ، وهي ماتت سنة ١٣٥٨هـ. كذلك اشتريت خادمة أخرى أعطيتها لوالدتي.

---

(١) البسطاوية: قطعة كبيرة مطوية من القماش.
(٢) مَجْمُوع: نوع من العطور.
(٣) هو أحد سلاطين قبيلة الفور في غرب السودان.

استقلالي عن عمي مالك وتجارتي مع يوسف:

أرسلت ليوسف أخي بكركوج أن يأتيني لنتاجر معا، ولكن قبل مجيئه سافرت لسَواكِن شريكا لعمي مالك أيضا. وفي بَربَر اشتريت حمارا ركبت عليه وأجرت آخراً لمائي وزادي بأربعة ريالات. فصرت أمشي أمام القطار (قافلة الجمال) مسافة بعيدة، وأنزل لأرتاح، وحماري يرعى حتى يمر بي القطار. كان التجار يشتركون كل إثنين في جمل ركوبة كفعلنا أنا وإبراهيم على اليعقوبابي، فلما رأوني ركبت الحمار وأجرّت للماء والزاد إقتدوا بي. حصلت من هذه الرحلة على ستمائة وسبعين ريالا، وعند رجوعى إلى أمدرمان وجدت يوسف قد حضر من كركوج.

انفصلت بعد ذلك من عمي مالك نهائيا والسبب أنه استجرّ (استدان) ملابس لأهله ورقيقه ومصاريف أخرى تربو على مائة ريال، فلما أردت أن أحسبها عليه قال لي: «لا أقبلها إلا إذا حلفت على المصحف أنك ما دخلت مطبخا ولا جلست في قهوة، وإن لم تحلف يكون ما أخذته منك في مقابل ما صرفته فيهما»، فقلت: «يا عمي مالك مثل هذا الحساب يعلمني السرقة». وانفصلت منه ولم يكن بيني وبينه معاملة مالية إلى أن توفى ، رحمه الله رحمة واسعة؛ فإنه كان سبب معرفتي التجارة.

سافرت ويوسف إلى سواكن بمجيدي لأن الريال المجيدي صار عملة غير متداولة[١]، بل صار يُباع بقيمة فِضّته الصافية فيه. واشتريت بقيمته سكرا ومحلبا وزَرَاقا[٢] بعناها بأمدرمان واشترينا بقيمتها صمغا. ثم سافرنا، أنا ويوسف مرة أخرى إلى سواكن فلما وصلنا بَربَر وزنا الصمغ، وسلمناه خبير[٣]

---

(١) خلال المهدية أدخلت الحكومة في حوالي ١٣٠٤هـ (١٨٨٧ ـ ١٨٨٨م) عُملة تم ضربها محليا وتعرف بالمَقبُول (انظر ملحوظة ٣ صفحة ٢٢٨) وكان الهدف استبدالها مكان الريال المجيدي والعملات الأجنبية الأخرى التي كانت تستعمل خلال الحكم التركي.

(٢) الزَرَاق: نوع من القماش القطني زهيد الثمن، وكان يستورد من الهند ويصبغ عادة باللّون الأزرق، لذا أطلق عليه الأسم. والمَحْلَب نوع من التوابل يستعمل في صنع العطور.

(٣) الخبير: هو قائد القافلة ودليلها.

قافلتنا الفحل عبد السلام من فَحلاب المَكَايلاَب[١]. اشترينا هناك ثلاثة حَمِير، حَمّلنا الماء والزاد على أحدها، وركبنا الحمارين الأخرين. وكنا كلما كان الماء كثيرا نخففه على حمارينا، وبذلك وصلنا سواكن في تسعة أيام بدل أربعة وعشرين يوما بجمال الهَدَنْدَوَة، أو ثمانية عشر يوما بجمال أهل بَربَر.

وصلنا سَوَاكِن وكانت معي عينة من صمغنا، وبوصولنا بعت الصمغ بهذه العينة واشتريت بضاعة جديدة وربطتها، واستخرجت التصريح وأجّرت الجمال. وبمجرد وصول الصمغ سلمناه خليفة ليفي اليهودي، وخرجنا ببضاعتنا التي لم نرافقها بل إنتظرناها بكُكْريب عند أبي الفتح موسى دقنا. وحملنا لأبي الفتح معنا هدية مكونة من ثوب حرير، على شكل الشَّافُونَة التى تلبسها نساؤهم، ولكن هذه من نسيج القطن؛ وأقتين شايا أخضر، ورطلين ريحة مَحْلَبِيّة، ورطل سُرّتِيّة؛ قيمتها كلها نحو أربعين ريالا قُوشَلّيا[٢].

كانت بضاعتنا ستة رحول منها واحدة ريحة بيضاء، إعتبرها أبو الفتح لنا مجموعا، وخمسة فاتورة عَشّرنَاها "مشكلا"؛ ودفعت عشورى عنها كلها فى شكل "جَيْب الأضَيْنة"[٣]، الذي قيمة الثوب منه قرشان ونصف، إشتريتها مخصوصا لهذا الغرض من سواكن.

وصلنا أم درمان وبعنا بضاعتنا التي ملأت منزلنا الصغير وجَعْلَتُ باقيها في منزل جاري الحاج سَنُوسَابي. بعد ذلك قلت لزوجتي: «ألا نرحل بعد هذا ؟». قالت: «نعم نرحل». فرحلنا لمنزل خالي أحمد عطا المنان الذي بَنَيّت أكثر من بُنيانه الذي كان فيه. كذلك اشتريت بالرهن منزلا بجواره لوالدتي وإخواتي. وبعد أيام قليلة صرفنا ريالات مجيدي بثمن بضاعتنا ورجعنا إلى سَواكِن، التي وصلناها فى أقل من ثلاثة شهور منذ خروجنا منها. في بَربَر لقينا الفقيه الطيب الخليفة وقال لي: «جئني بسجادة أو حِرَام[٤] من سواكن»، فوعدته بأحدهما.

---

(١) فَحلاب: جمع فحل، والإشارة هنا لعائلة مُعيّنة، والمَكَايلاَب: اسم قرية على النيل بالقرب من بربر.
(٢) قُوشَلّيا: هو ريال ماري تريزا النمساوي الذي كان متداولا في السودان خلال القرن التاسع عشر خصوصا في سواكن، حيث كانت التجارة فيها مع خارج السودان.
(٣) نوع من القماش الرخيص، وكلمة جَيْبَ تعني يحضر، والأضَيْنَة هو الشخص الأبله سهل القيادة، عليه المصطلح جميعه يعني الشئ الذي يحضره أو يشتريه الأبله.
(٤) حِرَام: انظر ملحوظة ٣ صفحة ١١١.

منها سافرنا فوصلنا سواكن بأربعة حمير، كان على أحدها غَمْرَات المجيدي وشراب الحمير وعلائقهم، فصرفنا النقود وإشترينا البضاعة.

لم أجد الحِرَام للفقيه الطيب وإستكثرت ثمن السجادة فاشتريت له كتاب (الخُرَاشي) على خليل. وقمت بإخفائه فى بضاعتي مستعينا بالبتشاويش محمد أفندي طه الشايقي ابن بلدتنا وخَلّوتنا، والذي كان يعمل أمين تفتيش بيت البضائع. والسبب لإخفاء الكتاب هو أن الكتب كانت ضمن الممنوعات عن التصدير لداخل السودان. لقيني عند باب الجُمرك علي صديق قادما من بربر ونحن خارجون من سواكن، فقال لي: «إن الفقيه الطيب يقول لك هذا الكتاب الذي اشتريته لي خير لي من السجادة والحِرَام»، وكنت لم أخبر أحدا غير يوسف أخي الذي كنت متأكداً أنه ما أخبر أحدا بالكتاب. فهذه كَرْامَة ثانية له بالإضافة لكَرْامَة النقود[1] في بربر سنة ١٣١٠هـ (١٨٩٢ ـ ١٨٩٣م). وصلنا كُكْريب بهديتنا كالعادة وسومحنا في العُشر مسامحة كبيرة. وعند وصولنا بربر أرسلنا للفقيه الطيب كتابه بالرُّباطاب. ومنذ ذلك الحين بدأنا في عمل حيّل جديدة في إخفاء البضائع من الرسوم ببربر وأمدرمان كما سيجيء.

هنا لي قصة طريفة أحكيها: وهي أننا بعد أن اشترينا كل البضائع التى تلزمنا من سواكن، قال لي صاحبي الخواجة خليفة ليفي: «عندي لك بيعة قرنفل رخيصة جدا»، قلت: «بكم القنطار ؟». قال: «أحد عشر ريالا». قلت: «لكن ما عندى ثمنها». قال: «أتركك إلى أن ترجع من السودان[2]». قلت: «يُعرف ذلك في بيت المال هناك فيغنموني[3]»، فقال محمود بك أرْتيقَة[4] "نزيلنا": «أنا أحلِّ لكم هذا الموضوع، عندي ثمانمائة ريال لمصطفى الأمين

---

(١) الكَرْامَة: الحدث غير العادي (انظر ملحوظة ١ صفحة ١٠٣)، ويقصد المؤلف هنا الحادثة التي طلب فيها نفس الفقيه الطيب الخليفة من بابكر بدري أن يسترد نقوده من أبي اللكيلك بعد أن إستأمنه إياها (أنظر القصة صفحة ٢١٦).

(٢) السودان خلال حكم المهدية لم يكن يشمل مدينة سواكن، عليه كان المسافر إليها يعتبرخارجاً من السودان والمسافر منها يعتبر راجعاً إلى السودان.

(٣) يغنموني: يصادرون بضاعتي.

(٤) محمود أرتيقة هو عمدة سواكن (انظر ملحوظة ١ صفحة ٢٥٠).

قيمة صمغه، وأمرني أن أرسلها له نقدية مع شخص أمين، فأنا أدفعها هنا لخليفة وأنت سلمها لمصطفى بأمدرمان ». عملت بذلك، واستلمت القرنفل وكان يزن اثنين وسبعين قنطاراً، وباقي النقود شَهّلته بها رسوما بسواكن. لما وصلنا "قُبَّة قَرّي" بالقرب من أمدرمان، لقينا التجار الذين يقومون من أمدرمان صباحا فسألهم المهدي أحمد، الذي كان يرافقني، حتى علم منهم أن قنطار القرنفل يباع بسبعين ريالا. فجاءني فرحاً وأيقظني من النوم وأخبرني مبشراً لي. فقلت له: «نومي خير لي من بُشَارتك هذه»، قال: «لماذا ؟» قلت: «بضاعتي في البحر لا أدري أتغرق أم تسلم، هل تُغنّم بأمدرمان أو تَسلم، أتلحق هذا الثمن أم يتنازل الثمن ؟». قال لي: «تُبْ عليك أصلك ما بتتمنى الخير». وصل القرنفل وبيع القنطار منه بخمسة وسبعين ريالا؛ انظر هذا الكسب يا تاجر اليوم !.

الولد تيمان والرزق كيمان:

لما وصلنا حلَّة الشيخ الطَيب أخذت عَيْبَتي التي كان بها من الخرز والجَلاَد[١] ما لا تقل قيمته عن الألف ريال، وصحبني أخي يوسف والحاج عمر قناوي حاملا ما يحب إخفاؤه مثلي؛ وذهبنا إلى أم درمان فمررنا على بيت والدتي. هناك قلت ليوسف: «أسندني لأعلو السور ثم ناولني الشَّملة»، وكانت تلك شَّملة حَبَابِية[٢] تخينة برتقالية اللون شبيهة بالبطانية اشتريتها لوالدتي. فلما دخلت البيت تلمست والدتي حتى عرفتها بين بناتها وغطيتها بها، ثم أخذت عنقريبا سندته على السور فتناولني يوسف من فوقه. بعد ذلك اتجهنا إلى منزلي وخبأنا الأشياء في مخبأ لا يعرفه أحد، ولم نوقظ غير زوجتي التى فتحت لنا الباب. بعد إنتهائنا رجعنا لحلة الشيخ الطيب بليلنا. لقد كانت عادة والدتي أن تصحو سحرا فتصلي حتى يطلع الفجر، حيث تصلي الصبح وتقرأ هي وبناتها الرَّاتِب. وفي تلك الليلة لم تستيقظ كعادتها فأيقظنها بناتها، فلما أحست بثقل الغطاء عليها، قالت لهن: «بابكر جاء ؟». فقلن لها: «لا»، قالت: «أنظرن الشيء الذي فوقي». فلما نظرن الشَّملة، قلن: «نعم جاء بابكر».

أخذت بضاعتي من حلة الشيخ الطيب وعَشّرنا ما قدمناه منها بأمدرمان، ثم رَحّلنا الباقي إلى منزلي؛ بعده قمت تواً لوالدتي أسلم عليها. فضمتني ووضعت رأسي على وركها وأكبت على باكية حتى ملأت دموعها أذني اليمنى، وصار لها صوت مما دخلها من الدموع. لم أحرك رأسي حتى تنبهت أختي السَّهْوة، فقالت: «يا أماه إن أذن بابكر امتلأت من دموعك». فرفعت رأسها ثم قبلتني في خدي وقالت: «أسأل الله أن يعطيك الولد التيمان والرزق الكيمان». فأحسست بحلاوة روحية لقولها وما شككت فى أن الله تعالي يجيبها، وقد فعل والحمد لله .

---

(١) جلاد: نوع من العطور.

(٢) شَملة حَبَابِية: الشّملَة قماش صوفى خِشن يستعمل كغطاء عند النوم وغيره، حَبَابيّة تعنى أن الشّملَة تُنسب لقبيلة الحَبَاب التى تقيم موزعة بين شرق السودان وإرتريا (ضرار صالح ضرار).

شرائنا الصمغ من الدوِيْم:

دخلت سنة ١٣١٢ المباركة (١٨٩٤ ـ ١٨٩٥م) فبنيت لوالدتي بيتا معنا ورَحّلتها هي وابنتها الحُسْنَي فيه. وبعد بيع بضاعتنا وحصولنا على نقودِنا سمعنا أن قنطار الصمغ يباع في الدوِيّم بأربعة ريالات مجيدي. فسافرنا إلى الدوِيْم ووجدنا الصمغ به بستة ريالات، ولكن بلغنا أن ثمنه بدار الجمع، من الصمغ البائت، ريالان وترحيله ريالان. فلما وصلنا "أم حجر" مركز رئاستهم، وجدناه بأربعة ريالات وصار بالدويم بستة إلى سبعة ريالات. فأخذنا نشتري الصمغ منها ومن جاراتها، ثم إتخذنا محلا بحِلَّة تدعى "أم بُول" وسكانها من الدرعواب الإباحيين الذين رأينا منهم حوادث يقف لساننا عن ذكرها فضلا عن روايتها. أردت هناك أن أعرف نقصان الصمغ اللّين يكون كم رطلا في المائة إذا يبس جدا. فوزنت عشرة أرطال من صمغ الوادي كبير الحجم واللّين جدا، الذي يمتص الإنسان ما في بطنه ويمضغ خارجه بسهولة. وضعت هذا في طبق وعلقته على ظهر "راكوبة" وتركته حتى مكث خمسة عشر يوما فى الشمس الصائفة؛ ثم أنزلته فوجدته تكسّر وابيَّضّ جدا مما لفتني إلى نشر الصمغ على البُرُوش(١) في الشمس مستقبلا. وجدت وزنه أصبح تسعة أرطال ووقيتين أي نقص (٥ × ١٠) ÷ ٦ = ٨,٣٣ ٪ فجعلت حسابي على ذلك، وأضفت عليه ما ينقص من رمي الجمال عند كل نزول وصعود فاعتبرته ١٠٪.

أسرعت في شراء الصمغ إذ أزف وقت نزول المطر فعجّلت النزول للبحر وصالحنا(٢) فيما عندنا من الديون ونزلنا على الأ نرجع. فلما وصلنا أمدرمان وجدت بعض أصدقائي شاحنا صمغه لبَربَر فى مركب. رقدت ليلتين بالمركب التى بها صمغي ثم نقلت ثمانية أرحُل من صمغي لمركب أصدقائي، وخسرت في ذلك أربعة ريالات رشوة للخفير. لم أزر والدتي في هذين اليومين ولا رأيت بيتي. قصدت بهذه الطريقة أن أآخر صمغي بالمركب ثم أطلب من العتالة أن يخرجوا صمغ غيري فأنجو من الضريبة.

---

(١) البُرُوش: انظر ملحوظة ٣ صفحة ٤٧.

(٢) صالحنا: قمنا بدفع ما علينا من ديون واستلمنا ما لنا من أموال.

زرت في اليوم الثالث أمي فقالت لي: «يا بابكر أنت في البلد ثلاثة أيام حتى تأتينى ؟! أنا عفوت عن الناس الآخرين». (أي أني لن ألوم بعد اليوم من يتأخر عني)، فشق عليّ هذا القول وأخبرتها بعذري فغفرت لي زلتي.

وزنوا لي بعد ذلك صمغي وطالبوني بقيمة الثلث نقدا، فلم أجد من يسلفني المبلغ من التجار. ولكن للحظ كانت زوجتي قد طلبت مني منذ زمن قصير أن أشتري لها غلالا، فاشتريت مؤنة سبعة شهور ولكنها بعد ذلك بقليل أخبرتني بحاجتها لزيادة منه. وعند محاسبتي لها أخذت تبكي وتقول: «أنا ما بعت والله منه شيئا». فأعملت فكري فخطر لي أنها لا تدخل المخزن لتراه لإهمالها وكسلها، والخادمة تفتح العِدْلة التَمَّارية فتأخذ منها، وإذا لمست قعرها لم تهزّها ليظهر ما في جوانبها، فتفتح أخرى. فطلبت ما عندي من العبيد وكانوا ثلاثة وأمرتهم بإخراج عِدَل الغلال وإفراغ ما فيها في صحن الغرفة، فوجدنا بها أكثر مما صرف في مدة السبعة شهور التي غبتها. قلت لهم أكنسوا المخزن، فوجدنا في كُناستهِ قمحا وذرة ومَحْلَبا وظفرا[1] وقرنفلا. وزنّاه فكان سبعا وثلاثين رطلا وكثيرا من الخيش؛ ووجدت صندوقاً من الصفيح مما كان يستورد فيه الشاي من الهند، وبداخله شيء ثقيل فأخرجته للغرفة فوجدت فيه سُوسيةِ[2] مكتوباً على ظهرها كتابة بخطي وبداخلها ثلاثمائة وخمسون ريالا. فتحتها فاذا فيها كشف بأسماء من يشترون منا البضائع. أخذتها مسرورا، وصرفتها بالمَقْبُول[3]، ودفعت منها ما بقي عليّ من ثَمن ثلث الصمغ.

---

(١) الظفر: هو ظفر لحيوان بحري صدفي صغير يستعمل في البخور.

(٢) السوسية: المظروف.

(٣) المَقْبُول: هو الريال الذي تم سَكُّه خلال حكم المهدية، (انظرملحوظة ١ صفحة ٢٢٢) وكلمة «مقبول» كانت مكتوبة على أحد وجهيه فأصبحت تطلق عليه. والمقبول كان في البداية يعادل القوشلي الذي يتم التعامل به في سواكن وللتجارة الخارجية، الا أن قيمة المقبول بدئت في التدهور مع إنهيار ثقة السودانيين في نظام الحكم وللتلاعب في معدنه ووزنه؛ وأيضا إنهار أكثر مع تقدم الجيش الغازي. لذا كان الناس يفضلون الريال المجيدي وريال ماري تريزا عليه.

رحلة جديدة إلي بَربَر وسَوَاكِن:

سافرنا إلى بربر، وكان معي في الطريق أحمد الفقيه ابراهيم وقيع الله، الذي كان مسافرا لمصر طالبا للعلم. هناك اشتريت بُرُوشا شَمّستُ عليها الصمغ مدة أسبوعين حتى جاء الجمَّال لحمله ووزنه. أخذت منه عينة وسلّمت الباقي للخبير وسافرنا. فلما جئنا كُكْريب أخّرنا أبو الفتح فيها حتى جاء صمغنا ودفعنا عن كل جمل خمسة ريالات. كان الصمغ في تلك المرة كثيراً حتى وأنك لا تكاد ينقطع عنك قطر من الجمال الا ترى قطراً آخر. وكان قنطار الصمغ النظيف في سواكن بأربعة عشر ريالا، فاتفقت مع الخبير وكان اسمه "أوشيك"[١] أن أعطيه أربعة ريالات قُوشَلّية ويسلك بنا درب "هندوب" لنصل سواكن، ونبيع قبل الناس. فلما جاء عند مفرق الدروب سلك بنا طريق "أوكاك" (مدينة سنِكَات اليوم) فلحقته بحماري وقلت له الشرط. رمى لي ريالاتي على الأرض ومشى، فتبعته أنا ومن معي، وهما يوسف بدري وأحمد الفقيه إبراهيم. فمشى بنا ثلاث مراحل حتى وصل أرضا عالية فسيحة، أنزل فيها الصمغ وأخذ جماله ولم نره أو نعرف له خبرا حتى مضى واحد وعشرون يوما، ونحن لا نعرف أين نحن إلا القبلة حيث نصلي؛ عرفناها بالشمس.

هناك أكلنا زادنا الذي أعددناه للذهاب والإياب من وإلى بربر. وبعد الواحد والعشرين يوما، جاءنا بجمّالته ولم يكلمونا ولا كلمناهم فقط حملوا الصمغ فتبعناهم. اكتشفنا بعدها أننا كنا بالقرب من أوكاك حيث رأينا شجراتها الظليلة وواديها الجميل. فقلت لمن معي: «الأحسن أن أتقدم أنا بالعينة وأبيع الصمغ، لأني أعرف الطريق من أوكاك إلى سواكن»، وفعلت.

---

(١) أوشيك: من أسماء قبيلة الهدندوة وهي مأخوذة من اللفظة العربية «الشيخ».

في تلك الأيام رأيت رؤية في منامي أحسست فيها أني أجد بَلّه ود الدفِيّنَة عند باب سواكن، فأقول له: «يا بَلّه كم قنطار الصمغ؟». يقول: «الكُنُوز[1] باعوا بأربعة عشر ونحن أعطونا ستة عشر ولكنا أبينا». وفي أثناء سيرى من أوكاك مررت على سلسلة جبال عالية منها رأيت البحر ومدينة سواكن، فوصلتهما بعد ثلاثة ساعات من رؤيتي لهما. وعند الباب في سواكن وجدت أحدا غير بَلّه ود الدفِيّنَة فقال لي نفس القول، فدخلت سواكن مسرورا بالتأخير، وقلت صدق الله ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم﴾.

سمع صاحبنا خليفة ليفي بوصولي، فجاءني بالمنزل وأوصلني في القنطار المشمّس ثمانية عشر ريالا. رضيت له ورضى هو ولكن محمود بك أرتيقة قال: «الأحسن أن تصبروا حتى يصل الصمغ لأني أخاف اذا تنازل الصمغ، خليفة يقول هذا الصمغ والعينة مختلفان، واذا تعالى الصمغ، بابكر يقول يوسف أخوي ما رضى وهو شريكي». فتركنا الأتفاق لحضور الصمغ. فلما دخل الصمغ الوكالة[2] جاء الزبائن وفتح خواجة "جريفا" إحدى العدَل وملأ يديه منها صمغا تشتت منه البعض، فأتيته ونفضت يديه من الصمغ وقلت له: «ليس هذا للبيع». قال: «لمن؟». قلت: «لخليفة ليفي». فقال: «أتركه له بدكانه». قلت للحمّالة: «احملوه»، فحملوه حتى أوصلناه دكان خليفة. فلما وصله الخبر جاء مسرعا ووزن الصمغ بسعر القنطار واحد وعشرين ريالا ونصف، ودفع لنا الثمن نقدا غير ثمانمائة ريال أخذنا بها منه زَرَاقا من زَرَاقه المشهور.

أخذت منه ضمن نقودي كيسا به خمسمائة ريال قُوشَلّيا مختوماً باسمه بالشمع الأحمر فنسيته بدكان الخواجة "عدس". ولما وصلت منزلي وتغدينا، تذكرته فأخذت أبحث عنه في كل الدكاكين التي مررت عليها فلم أجده. وبعد الساعة الرابعة مساء جاء الخواجة عدس فسألته عن الكيس، فقال لي بحزم:

---

(١) الكُنُوز: قبيلة من شمال السودان ينسبون لكنز الدولة العباسي ولهجتهم النوبية قريبة من اللّهجة الدنقلاوية (قاسم، صفحة ١٠١٢). ويذكر ضرار أنهم ينسبون، كما جاء في البيان والاعراب للمقريزي الى قبيلة ربيعة العدنانية وليسوا عباسيين. وهنا يقصد بهم المؤلف التجار من تلك القبيلة.

(٢) الوكالة: هي وكالة الشناوي التي كانت تودع بها كل البضائع القادمة والمغادرة لسواكن (محمد صالح ضرار).



«لم تنسه عندنا». لكنه لما رآني إهتممت بضياع هذا الكيس إهتماما ظهر على مشاعري سألني: «كم رأس مالك ؟». قلت: «هذا الكيس أكثر من ربعه»، فأخرج لي الكيس من خزنته مكتوبا عليه بخط كبير "أمانة بابكر بدري". قلت: «ممن علمت أنه لى ؟». قال: «سألت خليفة ليفى عمن استلم منه كيسا مختوما نمرته ومبلغه كذا فعلمت منه أنه لك». فشكرته وقمت وتسوقنا البضاعة وخرجنا من سواكن بجمال أهالي بربر.

لما وصلنا بالبضاعة كُكْريب، كان معنا رجل يدعى عبد الماجد أحمد جبور وكان عنده رَحل واحد، فطلب مني أن أضمه الى بضاعتي لنخفف له العُشُور. قلت له: «نعمل حيلة ينجو من العُشر بالمَرّة». فوضعت له معي طرداً واحداً، ومع بضاعة أخرى طرداً. ولما جاءوا للحساب، غالطناهم فى العدد عندنا بواحد وفي البضاعة الأخرى بواحد؛ والسبب هو أن البضاعة الأخرى كانت بعيدة منا بنحو اثنى عشر مترا، وحُجّتنا أن الجمل لا يحمل طردا واحدا. فانطلت عليهم الحيلة وعشوري كالعادة كانت ستة عشر رطلا عَشّرنَاها بأرخص قيمة.

قمنا من كُكريب بطريق بئر "رواي" ولم نحمل معنا ماء كثيرا، ولكن عند وصولنا رواي لم نجد ببئرها ماء البتة. فأسرعنا في السير حتى وصلنا "الباك"

صباحا ونحن وبهائمنا في أشد العطش. فقلت ليوسف أخي وعبد الرحمن المربوع وبابكر البشير: «اشتروا بيرين أو ثلاثة آبار لنحجزها فنسقي بهائمنا ونحمل ما يكفينا ثلاثة أيام لبربر». فوردوا المُشْرَع ولم يجدوا الا بئراً واحدة أنزلوا فيها يوسف ليملأ لهما القربة ثم يخرجانه من البئر. وبعد قليل جاءني بابكر ومعه جَمّال يهرولان وقالوا لي: «يوسف نزلت عليه البئر». فمررت بهما على بيوت العرب واشتريت خشب بيتين من البيوت وبروشهما، وحملناه إلى البئر. هناك أدخلنا الخشب والبُرُوش فى البئر وأنزلنا معها عربا جعلوها ساترا يمنع وقوع رملة أخرى داخل البئر. وبعدما ثبتوها جعلوا يأخذون الرملة من جانبي يوسف. في أثناء ذلك سقطت رملة أخرى ولكنها سقطت وسط البرِش فلم يصل يوسف منها شيء، ولم تسد الثقب الذي نخرج منه الرملة. بعد ذلك أخرجنا يوسف واستمرينا حتى أخرجنا الوطنيين وأعطيناهم أجرهما، ووهبنا لهما أنقاض البيتين.

لقائي الأخير لأحمد عثمان:

بتنا في الباك وبقينا حتى جاء الليل وانصرف العرب فسقينا دوابنا وحملنا الماء من آبارهم، ثم سافرنا بليلنا، وسبقنا جمال البضاعة حتى دخلنا بربر. فلما وصلنا منزل أبي علام الحسين، حيث كنا ننزل دائما (لأن المنصور أبا كوع كان متزوجاً رَبِيبَة أبي علام)، أخبرونا أن أحمد عثمان شقيق مُطلّقتي البقيع جاء يسأل عنا وهو مقيم في بيت محمد نافع. فبِتّنَا ومررنا عليه في الصباح وأخبرنا أنه بعدما سافر وعبر البحر، هو ورفاقه، سمع بأنا سنصل بربر مساء نفس اليوم، فرجع من هناك ورجع معه رفاقه. وجدناه متوعكا بحمى فأخذناه معنا للدكان، الذي أجّرناه لنقيم فيه حتى نخلص أجور الجمال، وندفع العشور، ونستعد للسفر. جلس معنا قليلا ثم قال: «اشتروا لي ليمونا وسأرجع الى المنزل». في رجوعنا عصرا مررنا عليه فوجدناه أحسن حالا فمكثنا معه مليا ثم ذهبنا عنه. في الصباح مررنا عليه وأخذناه الى السوق فلم يستطع الجلوس معنا. كان في حَدق عينيه حبوب صغار حمراء فرجع الى منزله. وفي المساء جاءني رجل من سكان رُفَاعة يسمى حاج ضرار دعانا للعشاء فأخبرناه به، فقال

أدعوه معكم. فلما جئنا وقت الاصفرار وجدنا أحمد جالسا بالقرب من بئر خارج المنزل، فطلبناه للمشي معنا للعشاء فاعتذر. جلسنا معه قليلا فأصر بأن نمضي فمضينا. وبعد قليل جاءنا رسول من بيت محمد نافع يسألنا عنه فقمنا نبحث عنه، وخفنا أن يكون وقع في البئر. فأنزلنا من فَتّشها فلم نجده، فقصصنا أثره ووجدناه في غرفة صغيرة عند باب الدار ميتا. انكب يوسف أخي على جنازته يبكي شبابه الذي لم يتجاوز الثلاثة والثلاثين سنة ولا عقب[1] له. أرسلت بابكر البشير وأحضر ثوب دبلان كَفّنّاه منه، ودفنّاه بليله. لم يضعف حزني عليه ما عمله معي بخصوص أخته، ولا بتدبير طلاق حفصة مني وخطبتها للحسن الفضل لأني وهبت خيانتهم معي لله تعالى، حيث رأيت أني لا أستطيع الانتقام منه بقدرها، ورجوت قوله تعالى: ﴿**فمن عفا وأصلح فأجره على الله**﴾.

أصبحنا "فَارِشِين"[2] ولكن يوسف أخي رأى محمد نافع مشغولا ببناء في بيته فحلف لا يتم المأتم هنا فنقلنا "الفِرَاش" الى بيت عبد الرحمن المربوع. وبعد المأتم أعطينا رفاقه ما كنا أعطيناه المرحوم من كسوة لزوجته ولأخواته ولأخيه الحسن ـ بموجب كشف ـ كما أعطيناهم خطاباً للعزاء.

كان للسيد علي محمود الضوي إمتياز، يُسامح له بموجبه في نصف العُشر ببربر؛ فكتبت بضاعتي باسمه وذلك بوضعي خيشا على المكان الذي فيه عنواني وهو (ت ٢٢٥)، وكتبت على الخيش الجديد عنوانه وهو (ت ٩٨). فلما وصلنا بربر أدخل بضاعتي في دكانه وأخذ يماطلني بقوله: «ليأتِ أحمد أخوي»، وكان الجَمّالة يطالبونني بالأجرة. وذات يوم سمعت أنه يريد تسفير كِل ما في دكانه من البضاعة لأمدرمان، فأخذت مصحفا وجئته في منزله صباحا قبل أن يذهب الى السوق فحلفت له على المصحف، أنه اذا لم يعطني بضاعتي في نفس

---

(١) أي لم يرزق أطفالا.
(٢) فارشين: أي مقيمين فراشاً أى مأتما لاستقبال المعزّين.

اليوم أذهب للأمير الزاكي عثمان[1] وأطلعه على كل شيء. وقلت له: «أنا أنصاريّ لا يهمني الفقر؛ لأنه اعتيادي عندى، ولكن أنت تتصور ما يلحقك من المعرة والمضرة». فأخذني الى السوق وسلمني بضاعتي وعَيّن معي مَنْ أخذ مني ثلاثة أرباع العُشر.

ميلاد أول أبنائي:

خلصنا أطرافنا ثم سافرنا ووصلنا أمدرمان فوجدنا زوجتي حفصة حاملا؛ وولدت في يوم ٢٠ رمضان ١٣١٢هـ (١٧ مارس ١٨٩٥م) توأمين بنتا وولدا؛ لكنها تعبت في النفاس فولدت البنت يوم الخميس واستمرت ماسكة حبل الجنين الثاني حتى وضعته يوم الجمعة صباحا. بذلك أجيبت دعوة أمي «الرزق كيمان والولد تيمان»، خصوصا أن ربحي حينذاك كان خمسين في المائة عما كنا نسابق له... والولد تيمان فها هما. هذا علما بأني تزوجت حواء سنة ١٢٩٩هـ (١٨٨١ـ ١٨٨٢م)، والبقيع سنة ١٣٠٣هـ (يونيو ـ ١٨٨٧م)، وحفصة في صفر سنة ١٣٠٨هـ (نوفمبر عام ١٨٩٠م)، ولم ألد إلا في سنة ١٣١٢هـ (١٨٩٥م) من حفصة بدعوة الوالدة الصالحة بعد ثلاثة عشر سنة من زواجي الأول. عملت في هذا النفاس أكثر من عشرة أضعاف ما صرفته في زواج أمهم. ومما أتذكره عنه أن التّمر كان رَحَل جمل موضوعا بعدِلَتَيْه فوق بعضهما وسط غرفة أمهما، وكل من أراد شيئا منه أخذه من جهته حتى صارت بالعدلتين خروق كثيرة.

---

(١) الأمير الزاكي عثمان: هو محمد الزاكي عثمان ينتمي لقبيلة التعايشة، وكان الحاكم العسكري لمدينة بربر وفيما بعد أخلاها (في ٢٤ أغسطس ١٨٩٧م) وانضم لجيش محمود ود أحمد في المتمة عندما تقدم جيش كتشنر لاستعادة غزو السودان. واشترك مع محمود في واقعة النخيلة ضد الجيش الغازى، ولكنهما هزما فيها فانسحب الزاكي الى أمدرمان، وقبل واقعة كررى سجنه الخليفة عبد الله لأنه كان يفضل تراجع جيوش المهدية الى كردفان ومجابهة جيش كتشنر هناك بدلا من مجابهته في أمدرمان. ولكنه بعد قليل أفرج عنه واشترك في واقعة كررى التي استشهد فيها في ٢ سبتمبر ١٨٩٨. (شقير، صفحات ٨٨٤، ٩٢٤ ـ ٩٢٥، ٩٣٦؛ زلفو، ص ٢٣٤)

قصتي مع بشير الأمين:

بعد رجوعنا لأمدرمان من هذه الرحلة اشتريت صمغي وسَفّرته على عجل إلى بربر، ولكن جاءنا الفقيه الطيب الخليفة فأخّرنا كثيرا. في هذه البرهة صرت اشتري الصمغ وأبيعه، ومن ضمن المشترين مني، بشير الأمين الذي أنزل في بيته في المتمة؛ اشترى مني خمسة رُحُول كل عِدْلة مكتوب عليها وزنها بالأرطال ودفع ثمن خمسة وثلاثين قنطارا، وكان وزنها الحقيقي اثنين وأربعين قنطارا. سهى عليّ أن أجمع كل الوزن وأنَبهه بأن يكون الباقي أمانة معه. ولم أتذكر هذا حتى وصلت بربر، وكان قد رحّل صمغه عنها. وعندما ذكرتها له، أنكرها وادّعى أنه وجد الصمغ ناقصاً أرطالا قليلة. فسَكَتُ لسببين أولهما أني أهملت، والثاني لأن السبعة قناطير ثمنهما تسعة وأربعون ريالا، لا أشاحن فيها صديقا أنزل ببيته. ولكنه صار يُشنِّع[1] بي ونسي أنه قال لي بأمدرمان: «هذه العدلة ستمائة وخمسون رطلا لا يمكن أن يحملها إلا الجمل التلِب[2]»، وضحكنا عندها. فلما كثر كلامه بأني تَبلّيت[3] عليه، جائني محمود عيسى وقال لي: «اذا كان لك عند بشير الأمين صمغ فلا تتركه له لأنه فَضَحكَ[4] في البلد». فجمعت له مجلسا وكان أبو علام، الذي ننزل ببيته ببربر (كما ذكرت سابقا) صديقا لمصطفى، أخو بشير الأمين، وعليه كان نصيرا للبشير عليّ. فلما اجتمع المجلس قال لي أبو علام: «يا بابكر المال يجي بلا صَلَبَطَة[5]». فتحمّست وقلت: «يا بشير أتذكر أن أحد العِدَل وزنها سبعمائة وخمسة أرطال ؟»، قال: «نعم». قلت: «وتذكر أن الثانية وزنها ستمائة وخمسون رطلا ؟» قال: «نعم». قلت: «أنت قلت لي لا يمكن إلا الجمل التلب أن يحملها؟». قال: «نعم». قلت: «إذاً احفظوا لي يا جماعة وزن هاتين العدلتين،

---

(١) يُشنّع: ينتقد أو يلوم.
(٢) الجمل التلِب: الجمل القوى (قاسم، صفحة ١٧٥).
(٣) تبليت: أيَ ادعيت ما ليس لي.
(٤) فَضَحَك: أي كشف أمرك.
(٥) صَلَبَطَة: هي الادعاء الباطل

ونضيف لهما وزن أصغر العدلات الثمانية الباقية في الرسالة الموزونة والمسجلة باسمه في كشف القَبّاني[1] الرسمي. اذا كانت خمسة وثلاثين قنطارا أو أقل أنا كذاب، واذا زادت ماذا يكون؟». نهض محمود عيسى، الذي كان مضمحلا حينما سألني أبو علام بحضور المجلس، وسألني: «هل أخبرت بشيراً بأن صمغك زائد سبعة قناطير ؟». قلت: «لم أخبره». قال: «هل ألحقته خطابا بذلك في مدة شهرين ؟». قلت: «لا». فقال: «هذا كلام ساكت». ومشى بنفسه وأحضر سجل الوزن الذي كان تسعة وثلاثين قنطارا، فأطرق أبو علام وبدت عليه الكآبة. واعترف بشير وكلّم المجلس بالسبعة قناطير فقلت: «أنا تنازلت عنها لأجل خاطر أبي علام ابن عمي». فقال بشير: «لأي سبب تركتها ؟». قلت: «نظير الطعام الذي أكلته في بيتكم بالمَتْمَة»، فضحك الجماعة وانصرفوا مسرورين.

تهديد محمد صالح لي:

سافرنا إلى سواكن بالطريقة المعلومة وكان صمغنا قد سافر قبلنا فلحقناه في الطريق وسبقتهم إلى سواكن بالعينة. وقد صار صمغي معروفا عند تجار سواكن ببياضه لتشمّسه، الذي صار أخيرا العادة للصمغ إلى اليوم. ثم رجعنا إلى بربر وبضاعتي ستة عشر رَحَلا فاتورة، وخرزا مثمنا[2] في كيس. أخذت الخرز وقبل أن أخرج به طلبني محمد صالح أمين البضاعة فاضطررت أن أسلمه إلى من أتأكد عدم أمانته، ورجعت إلى محمد ولد صالح فاستلم بضاعتي وأدخلها في الحَاصِل[3] ضمن البضائع لتلك الدفعة لحينما يعشرها. فلما خلصت منه جريت مسرعا أبحث عن صاحب الخرز الذي اتهمته بالسّرقة. وبالبحث وجدته في

---

(١) القباني : الشخص المكلف رسميا بوزن البضائع

(٢) الفاتورة: الأقمشة. والخرز المثمن نوع من الحُلى وهو فصوص من الحجارة لها ثمانية أضلاع.

(٣) الحاصل: زريبة الجمرك

مكان خال وقد فكّ الخرز وأخذ منه ستة حبال، رأيته بعيني يدخلها في كَفّة سرواله؛ فخفت اذا أخذتها منه أو أفهمته أني رأيته يخبر محمد ود صالح الذي سيغنم الخرز كله. فكظمت غيظي.

ولما جاء الليل جئت للخفير عبد النبي ومعي الحارث أبُّو فأعطيناه على كل رَحَل ريالا قُوشَلّيا، ففتح لنا الباب فأخرجت منه أربعة أرحل من البضاعة المثمنة حللتها ووزعتها على رفوف دكان عمي محمد الحسن (أخ أبي علام) وقفلت الدكان سريعا ورجعت إلى المنزل. في الصباح جاء محمد ولد صالح وجعل يخرج البضاعة لكل منا حسب الكشف الذي عنده فلما جاء اسمي قال: «اخرجوا له ستة عشر رحلاً». قلت: «بضاعتي اثنا عشر رحلاً». نظر الكشف وقال: «ستة عشر رحلاً». قلت: «اثنا عشر». فنظرني شذرا، فقلت له بثبات: «أظنك يا عمي أردت أن تكتب الاثنين كتبتها ستة». فانتهرني وقال: «قبل ما يلدوك أنا كاتب». قلت: «لكن يا عم محمد أنا صاحب البضاعة أعترف بالنقصان وأنت الأمين تعترف بالزيادة، إذاً أوجد لي أربعة رحول خذ عُشرها واعطني الباقي». لما صدمته هذه الحقيقة المنطقية عضّ على أصبعه وقال لي: «أصبر أنا أورّيك»، وسكت. فاهتممت جدا لقوله لأني مختلس وإذا تربص يقبض عليّ متلبسا بالجريمة فيصادر مالي. حكيت لبعض أصدقائي هذه القصة فنصحني أحدهم بأن طريقة محمد ولد صالح ختمية فما عليك الا أن تأتيه بكتاب توصية من أحد السادة الميرغنية بأم درمان. ومن حسن حظي ان السيدة نفيسة بنت السيد الحسن كانت كثيرا ما تزورنا للرحم الذي بيننا من جهة والدتها لأن تلك والدها رباطابي. وعندما كنت بأم درمان زارتنا وطلبت مني عدَة الشاي الموجودة عندي، فقلت: «خذيها لكن البَرَّاد[1] طلبه مني علي ود الشيخ القرشي، وسآتيك بأحسن منه من سواكن في سفرتي هذه». وأضفت بأني سأشتري صمغا لي باسمها بثمنه، وثمن ما يتبعه؛ وطلبت منها أن تكتب لي خطابا للشيخ محمد صالح ببربر بالتوصية عليّ. فقالت لعمر التِنقَاري ـ الذي يأتي معها كلما جاءت ـ : « أكتب له طلبه». فأمليته كما

(١) بَرَّاد: إناء يستعمل لصنع الشاى أو شرب الشاي منه.

أحب وختمته السيدة في رأس الورقة بخاتمها، الذي يبلغ ضلعه حوالي بوصة. فأخذته واشتريت ركوة ومَرْكُوبا فاشريا[1] وسافرت مع صمغي بالمركب.

عندما وصلت بَربَر اتجهت إلى محمد صالح الذي بدأني قائلا: «جئت!». قلت: «نعم ولك معي أمانة»، وسلمته الركْوة والمركوب. قال لي: «ممن هما؟»، قلت: «معهما جواب من صاحبهما سأحضره لك غدا». فجئته بالجواب وتربصت له حتى وجدته منفردا فأعطيته أياه. ففك ظرفه وفتحه، فلما رأى خِتم السيدة نفيسة قَبّله، وبرك على ركبتيه وجرت دموعه، وأصابه حال بين السرور والدهشة، فتركته وانحزت جانبا. فلما أفاق وقرأ الجواب مرات عديدة صار يبحث عني فبرزت له، فقال: «هذا الجواب من السيدة نفيسة نفسها !؟». فقلت: «نعم بدليل خاتمها ويمكنك أن ترد عليها بواسطة كاتب الجواب عمر التنقاري تلميذها وخادمها الخاص». فقال لي: «أين كتبته لك؟». قلت: «في بيتنا». فاندهش وقال: «أتزوركم هي ؟!». قلت: «كثيرا للرحم الذي بيننا». فقال لي: «إذاً دخلت مني في حصن حصين يا بابكر سلِّم ليّ عليها».

فروة الميدوب:

كنت قبل قيامنا من أمدرمان رأيت عند يوسف أخي "فَرْوَة مَيْدُوب"[2] أخبرني بأن الحسن الفضل أهداها له، فقلت في نفسي: إن له غرضاً يريد أن نخدمه فيه. فجاءني الحسن بعد وقت قصير يُحمّلنِي أمانة صمغ نأخذه فنبيعه له بسواكن ونحضر له بثمنه جهاز عرسه. فقلت له: «لقد رأيت الفروة عند يوسف اذا كنت أهديتها له لهذا الغرض فاني أقضيه لك بغيرها فاستردها منه».

---

(١) مركوبا فاشريا: المركوب هو اسم نوع من الأحذية مما يصنع محليا. وفاشريا نسبة لمدينة الفاشر وهي عاصمة إقليم دارفور في غرب السودان. وهذا النوع من الأحذية يعرف بجودة صناعته.

(٢) فَرْوَة مَيْدُوب: الفروة هي جلد الخروف الذي يستعمل للصلاة، والميدوب هو نوع من الخراف التي تربى في جبل الميدوب في غرب السودان ويعرف بغزارة صوفه.

فقال لي: «لا والله أنا ويوسف أنداد في السن ولعيبان في الصبا». وأقسّم لي أنه أهداها لهذا الحب لا للغرض المزعوم. وبعد أيام سَفّرنا صمغه مع تسعة قناطير من صمغ الطَّلح، سفرتها باسم السيدة نفيسة. ولما ضمن سفر صمغه جاء ليوسف واستعار منه الفروة وسافر بها الى دنقلا. وعند وصولنا بربر لقيّنا بها أحمد صديق وقال لي: «الحسن الفضل حكى لأولاد عثمان أنه غشاكما بفروته التي أهداها ليوسف فلما سافر الصمغ فعلاً استعارها منه على ألا يرجعها، وقال له غِنْوَة (أغنية) وهي:

ما شَبَهَك ركوب الزَّرقا   يا العلي جيرانه قَاطع المَرْقَة
قل لأبان لِهْيجَا طَرْقَة   نحلا من قديم مَآ سرقة

ومعناها: أنت لا تستحق ركوب فروتي الزرقاء لأنك لا تزور جيرانك ولا تحييهم، وأنتم يا يوسف وأهلك كلامكم مثل مشي الجمل الأطرق، أما أنا فالركوب لمثلها ثابت لي (نحلا) ورثته من آبائي.

عندما سمعت هذه الغنوة ركبني من الغضب ما غطي عليّ، وغلب على حلمي، وعاملته من نوع عمله (هذه إحدى حادثتين انتقمت فيهما). لذا تركت صمغه ببربر، مع التسعة قناطير من صمغ الطلح، وكتبت له بدنقلا مع أحمد صديق: بأن صمغه غير خالص الثلث بأم درمان وقد ضبط مع تسعة قناطير لي غير خالصة الثلث، وقد تركت الصمغين ببربر، فاعمل لصمغك ما تراه وهذا للمعلومية؛ وسافرت الى سواكن. فلما عدت لأمدرمان جاءني هو وفاطمة أخته ليستلم الأمانة، فقلت له: «ألم يسلمك أحمد صديق خطابا مني بما حصل للصمغين ؟ أنا بعت صمغي بعد رجوعي من سواكن بسعر القنطار خمسة ريالات بعد خصم الثلث، وصمغك محفوظ تحت اسمك». بُهِتَ لكلامي إذ كان الأمر مفاجئا له. وبعد مدة قال لي: «أنا قلت أنك تهزل معي بخطابك مع أحمد صديق». ثم أنصرف وهو محسور، فعتبت عليّ أخته فاطمة فأخبرتها بما حصل منه، وقلت لها الغنوة، التى حفظتها من مرة واحدة لشدة تأثيرها عليّ. فلما سمعت فاطمة ذلك قالت: «هو يستحق منك ما حصل له، ولكني أرجوك أن تعطيني فِرْكَة حرير بَرْصَة[1] لخاطري»، فجئت لها بها.

---

(١) البَرْصَة: نوع من الثياب كالفِرْكَة ولكنه ينسج من الخزّ المخطط (قاسم، صفحة ٩٥).

الحادثة الثانية التى انتقمت فيها (وهذه حدثت بعد فترة طويلة من الأولى- المحقق)، كانت تفاصيلها كالاتي: سافر بشير الأمين ـ بعد حادثة مجلسنا معه ـ إلى سواكن، وهناك استبدل صمغه ببضاعة لكساد الصمغ؛ ولكنه بعد قليل باع البضاعة؛ لأن مصطفى أخوه قد أكد عليه ألا يحضر بضاعة بل يحضر القيمة نقدية. لأنه ـ على ما أظن ـ كان من ضمن المشتركين في مسألة تهريب سلاطين[1]، ويتوقع ظهور الحادث فتغنم بضاعته. فلما أستبدل بشير صمغه بالبضاعة، شرع يوزعها على التجار السودانيين ليعطوه القيمة نقدية، فعين لي بضاعة بخمسمائة ريال، وأنا عمداً إشتريت ما عرضه عليّ. فلما جاءني ليأخذ مني الخمسمائة ريال قلت له: «نفدت نقودي وأنت لم تذكّرني»، فاحتار وصار يساومني في أن يتنازل في المائة خمسة ريالات. فقلت له أني لم أقصد ربحا فابحث عن غيري. فإضطر أن يرجعها للخواجة الذي إشتراها منه بخسارة عشرين في المائة لإضطراره للخروج مع الجلاّبة.



رودلف فون سلاطين وهو مرتدياً الجبَّة المهدية كما كان خلال أسره فى عهد المهدية إلى وقت هروبه عام ١٨٩٥م.

---

(١) سلاطين: هو رودلف س. فون سلاطين وهو من أصل نمساوي جاء إلى السودان سائحاً عام ١٨٧٤م، بعدها عينه غردون مفتشاً للمالية عام ١٨٧٩م ثم حاكما على مديرية دارفور عام ١٨٨١م. وبعد سقوط الحكم التركي سلم لقوات المهدية وظل أسيرا لمدة ثلاثة عشر عاما، ولكنه هرب إلى مصر بمساعدة بعض العناصر المعارضة للمهدية في ٢٠ فبراير ١٨٩٥م، وقد شمل اتهام من ساعدوه على الهرب عدد كبير من الناس ويبدو أن منهم مصطفى الأمين هذا وبشير أخوه وأحمد العجيل (انظر=

عندما كنت في مَنْدُوبيّة الكَرَيْبْة سنة ١٣٠٩هـ (١٨٩٢م) اجتمعت بعمي حمودي الفضل الحضري ـ والد محمد حمودي الحضري، الذي تعين أمين بيت المال بصرص بعدي، وقد ساعدته مساعدات قيمة ـ وكان معه في ذلك الحين ابنه إبراهيم حمودي، الذي انعقدت بيني وبينه صداقة متينة دامت إلى أن توفي بحلة البسَاتنَة سنة ١٩١٧م. ذكرت هذا كمقدمة لما سيتلوه، لأني عند رجوعي لأمدرمان وبيعي بضاعتي، اشتريت لزوجتي حجول فضة وزنها ستون ريالاً من إبـراهيـم حمودي، الذي أراد أن يكسّرها ليجعلها ثمانين ريالاً ويهديها لزوجته، بعد أن يزيد عليها بعض الذهب. وفي أحد الأيام زارت زوجة إبراهيم حمودي ووالدته (بنت عامر أزرق التاجر الشهير) وزوجة محمد الكارس، زُرّن زوجتي. وعندما خرجن منها لم تتحرك لهن من عنقريبها فخَرَجتُ معهن وودعتهن ورجعت لزوجتي ناصحا وموبخا. وقلت لها: «هذه الحجول التى أثقلت رجليك عن الحركة هي التي استقلتها زائرتك فزيدت لها، والتي معها هي بنت عامر أزرق صاحب قميص عامر المضروب به المثل، والثالثة زوجة محمد الكارس الذي يرمى في بيته لقدَمه أكثر قيمة من المحفوظ عندنا، فعلام تتكبرين !.. أنسيت جوع بَلاّنا ؟ وسعيك من صرص راجلة للعرضي ؟ ونسيتِ دَردُوم الوَدَك حينما دخلتِ أمدرمان ؟». من ذلك اليوم اتعظت وأخذت تجامل الناس.

حادثة عجيبة:

في نفس تلك الفترة، أي حـــوالي سنة ١٣١٢هـ (١٨٩٤م)، حصلت الحادثة العجيبة التالية وهي أن رجلا ـ لا أذكر اسمه صونا ـ يعمل سمساراً احتد في الكلام مع عمي مالك وكنت حاضرا. فلما كان من سني دافعته عن عمي مالك فاحتد بيننا الغضب. فجاءني أحد معارفي وسَرّني في أذني أن أقول له: «هل أنا "فلان" حتى تغضب عليّ هذا الغضب ؟». وما كنت أفهم معنى لهذه الجملة التي قلتها تلقيناً، فاستشاط السمسار غضباً وبارحنا. سمع المهدي أحمد بما قلته،

= صفحة ٢٦٥) وغيرهم، وقد ألف سلاطين بعد هروبه كتاب "السيف والنار فى السودان" عن فترة أسره، ونشر الكتاب عام ١٨٩٦م، لكنه بالطبع لم يذكر أسماء الرؤوس التى ساعدته على هربه.

وما حصل من الرجل فأغلق دكانه بسرعة، وجاءني فحلف عليّ طلاقا أن أقوم معه لمنزلي لأمر مهم يفهمني اياه بالطريق. فركبت حماري وذهبت معه فأخبرني أثناء سيرنا معنى الجملة: وهي أن الرجل السمسار كان صديقا لما كنينا عنه "فلان"، صداقة رفعت عنهما الحجاب في المنازل. فخان السمسار فلانا في زوجته فلما أحس "فلان" بذلك قال للسمسار: «لا تأت منزلي فان نفسي لم ترتح لثقتي بك». فقال السمسار: «إن دخلك شك من ناحيتي فاني مع خادمتك فلانه». فسأل "فلان" خادمته فقالت لسيدها بعد أن عبست: «أنه مع زوجتك». ففكر في الانتقام من صديقه السمسار الخائن فما رضي أن يعتدي بمثل ما اعتدى عليه به الآخر، بل شرع يراود والدة السمسار، التي كان هو أصغر أولادها، فأجابته واتصل بها. فلما أحس السمسار بما حصل وبعد أن تأكد منه قال لأخيه الكبير: «ان أمك تزني بفلان». فأنكر عليه أخوه ذلك. فقال له: «سأريك بعينك، قم الآن واذهب اليها». فذهب الكبير فوجد أمه جالسة في حجر فلان، وفلان راقد. فنادى والدته فخرجت له فقال لها: «ما هذا؟». قالت له: «زوجني اياه ابن عمي...». فذهب لخاله مغضبا وقال له: «كيف تزوج أُمّنا دون علمنا ونحن رجال ؟» فقال له: «حفظا لكرامة الجميع، هي ابنة عمي وزَوّجتُها». فازداد الكبير غضبا وأخذ يوبخ خاله الذي احتد وقال له: «إن أمك زانية وأنا لم أزوجها». فبُهِتَ وسكت ومضى لسوقه الذي لم ينتفع به بعدها. ولما تأكد فلان من إشاعة الحادثة طلّق زوجته الخائنة وقال لصديقه السمسار: «أنا طلّقت زوجتي فطلّق أمك!».

وصلنا أنا والمهدي أحمد منزلنا، فلم نستقر به حتى دُقَّ الباب دقة مزعجة فطن لها المهدي فخرجت وخرج معي، ولكنه فتح الباب قَبلِي، فاذا السمسار وسكينة في يده. قلت له: «ادخل». فتنفس الصعداء وجلس المهدي وجلس هو في ظِل يتأوه، والمهدي بيني وبينه. فشرعت أعتذر له وأغلظ له في الأيمان أني لا أعرف معنى ما قلته له، ولكن فلانا ابن فلان سرّني بها في أذني فقلتها تلقينا؛ وأضفت بأننا وأنتم بيننا مصاهرة بابن خالتي، المتزوج فلانة شقيقتكم التي وجدتها أنا بأسوان بعد موت زوجها، وحفظتها مع أخواتي حتى زوجتها. فتنفس أحرّ من الأولى وبارحنا، فلقي الذي أسرني فرماه على الأرض في الشارع، وأخذ يبحث عن سكينة ولكن المارة خلصوه منه. أوردت هذه الحكاية

ليتعظ بها الزناة ان لم يتعظوا بقول الشاعر:

عفوا تعف نساؤكم عن محرم ... وتجنبوا ما لا يَحِلّ لمسلم

إلى أن قال:

لو كنتُ حراً من سلالة طاهرٍ ... ما كنت هتّاكا لحرمة مسلمٍ

إن الزنـا دَيْن إذا استقرضتَه ... فوفاؤه من أهل بيتك فاعلمٍ

طلق النـــار:

في سنة ١٣١٢هـ (١٨٩٤م) ونحن بالدوِّيْم، أرسل بيت المال مندوبين يشترون الصمغ، وبدأوا يمنعون التجار حتى يشتروا هم كميتهم أولا. فشكوناهم لعمي العوضي المرضي فأمرهم أن ينزلوا أنفسهم منزلتنا. وكان في الصمغ قلّة في الوارد فاجتمعنا وقررنا تقسيم ما يُشترى على رؤوس الزَرَائب[1]، حتى أن صاحب رأس المال القليل متى خلصت نقوده يسافر في السنة مرة وتُقْفَل زَرِيبَتُه بحيث لا يُسمح له أن يبيع في أمدرمان ويرجع للدوِّيم للشراء مرة ثانية. بذلك تمكّنا من كفاية كل واحد بأن يشتري مرة في السنة.

إختـــاروني مندوبـــا لإعداد قائمة بأسماء وزرائب التجار ممن يحق لهم شراء الصمغ. وكتبت اسم عمي مالك، الذي كتبت له خطابا فحضر لنا بأول فرصة وسكن زَرِيبَتُه التي حجزتها له. في نفس السنة (أي ١٣١٢هـ، ١٨٩٤- ١٨٩٥م) وُلِد له ابنه مجذوب بكُرْدُفان. كما حدث أثناء وجودنا بالدوِّيْم أن حضر رأس مائة[2] يدعى "طلق النار" ولعله عبد لمحمد علي طلق النار الجعلي، ومعه جملة من الجهادية وكانوا يأخذون من كل زريبة رحلين لحاوي[3] ولا أدري ماذا يريدون بهما. ومرّوا على زَرِيبَة بيت المال، وكان بها أبو الحسن أبو المعالي فنازعهم بأنه يتبع لبيت المال؛ فلم يبالوا به وكسروا ساعته وأخذوا

---

(١) زرائب: جمع زريبة، و رؤوس الزرائب هم أصحابها.

(٢) رأس مائة: لقب عسكري لمرتبة من القادة في قوات المهدية.

(٣) لَحَاوي: جمع لَحَاوِيَّة وهي القُفة أو السَّبَتَ الكبير الذي يُملأ بالأشياء ليحملها الجمل.

الرَحَلين منه. بعدها لقيتهم في زَريبة عمي مالك الذي خفت أن ينازعهم فيضربوه، فقدمت لهم الرحلين وسقتهم لزريبتي فوضعت لهم الرحلين خارج الزَرِيبة. وكان بجواري أبو اللّكيلك فلما وصلوه نازعهم فضربوه وشرّطوا (مزقوا) جبِتّه وأخذوا منه أربعة أَرْحُل. ولكنهم تركوا زريبة حاج الأمين عبد القادر ولم أدر السبب، ولا هو يعلمه ولكن الله سلّمه منهم.

الفصــل الثامــن

زواجي من أم أحمد:

في أحد المرات اشتريت صمغا من الدوِّيم وشحنته بالمراكب مع صمغ حاج الأمين عبدالقادر وقمنا معه، وعندما قربنا من الخرطوم قال لي حاج الأمين: «هل عندك زوجة بنت ريف[١] ؟». قلت: «لا». قال: «إذاً ما تزوجت في حياتك». قلت: «كيف ؟». قال: «هل الآن أحد من أهلي أو أهلك يعلم بمجيئنا؟». قلت: «اللهم لا». قال: «الآن عندما ندخل بيتنا نجد الغرفة الخاصة بي مغلقة ومُبخَّرَة وفرشها نظيف منتظم، وبوصولنا تأتي الغُبَاشَة [٢] المُسكَّرة الباردة، فالجَبَنَة[٣]، فالشّعْيرِية أو السُكْسُكَانية[٤]». ولما وصلنا وجدت كل ما قاله حقيقة كقوله. فقلت له في الحال: «أخبر زوجتك تبحث لي عن ابنة ريف مثلها».

استمرت فكرة تزوجي بمصرية مُولَّدَة [٥] تنازعني منذ كلام حاج الأمين عبد القادر؛ وفي يوم زرت المهدي أحمد بمنزله ـ وهو أيضا كان متزوجا بمصرية ـ فطلبت منه أن يكلم زوجته لتبحث لي عن زوجة مناسبة. جاءني منها في الحال وأخبرني أنها قالت: «خير زوجة لك هي نفيسة بنت صالحة، لأنهن نساء مصونات وصالحة طاهية في الطعام وجيدة في الخياطة وتطريز اللِّباس». قلت: «فلتخطبها لي». وبعد أيام أخبرني المهدي أحمد بالموافقة، فأعطيته أربعين ريالا قُوشليا صداقا وجهازا رغم غلاء الملبوسات. فجاءني وقال لي: «إستَّقلوا نقودك». فقلت له: «لتقل زوجتك لأمها صالحة عني هذا يكفي مع جهلي بحالة ابنتها، فاذا وجدتها موافقة بعد الدخول عليها، فاطلبي ما شئت وان لم توافق فهذا يكفي خسارة». فقبلت كلامي رغم معارضة أهلها، وقالت: «لا أكف بخت ابنتي وهذا رأي رجل عاقل يُرجَى منه الخير وأنا ضامنة ابنتي توافقه».

---

(١) بنت ريف: بنت من ريف مصر، أي مصرية الأصل.
(٢) الغباشة: الحليب المخمر المحلول بالماء.
(٣) الجَبَنَة: تعني القهوة.
(٤) الشعيرية أو السكسكانية: كلها من المأكولات من نوع المعكرونة.
(٥) مُولّدة: اي من أبوين مصريين ولكنها مولودة في السودان.

كان هذا في شهر ربيع الأول من عام ١٣١٢هـ (أغسطس ١٨٩٤م) ولم أرها ولا أحدا من أهلها ولا منزلهم بعده؛ ثم عقدت عليها في ٢٧ رجب بمنزل علي خاطر. وأيضا لم أرها ولا بيتها حتى يوم دخولي بها في غرة رمضان ١٣١٢هـ (٢٦ فبراير ١٨٩٥م)؛ كل ذلك لأني كنت حنبليا متطرفا. وبعد أن انصرف المدعوون من الحفل شاكرين بقي معي إبراهيم أفندي خاطر الذي عرفته في تلك الليلة بأنه نسيبي، وأنه الرجل الذي اشترى أرياح وملابس الجهاز دون أن يتعرف عليّ. كان معه عثمان حمدتو بك، يؤانساني الى أن قرب الليل أن ينتصف، وكلما قالا لي: «قم فادخل»، أقول لهما: «حتى تَخِف النساء». وبعد أن حصل ذلك دخلت. هناك علمت أن من بين المدعوات بنتَ أبو السعود باشا التي تقدم ذكرها (١)، فجاءتني وشكرتني بعد أن حكت حكايتها.

لما خلوت بالنساء جلست على السرير، بعد أن صليت ركعتين أمامهن وجعلت أسبِّح، فأخذت امرأة ضريرة ـ أظن اسمها حفصة ـ تغني فأشرت أن أصمتي. فقالت أخرى: «قمن.. قمن.. هو يتحصن منكن». فقلت: «لا.. بل أحصنكن». ثم أخذت الفاتحة، علامة ختام العدد، وقلت: «السلام عليكم». فخرجت إحداهن والعروس بيدها، وبدأت الضريرة تغني، قلت: «ماذا تردن؟». قلن: «نرقص». قلت: «لا يمكن.. انظرن كم شارعا بين منزلي وبين هذه المنازل وكم جنسا يسكنونها ؟ كل هذه الشوارع للرجال وإن أولاد خاطر من أحسن وأعقل الناس كما علمت، فلا يمكنني أن أمتع نظري ببناتهم ونسائهم عريانات أمامي». قالت إحداهن: «هم أولاد خاطر لا ينظرون الرقيص ؟». فقلت: «هذا اعتقادي فيهم فإذا كانوا سفهاء لهذا الحد فأنا آخذ زوجتي منهم وأرحل بها في صباح هذا الليل». فقالت إحداهن، وأظنها بنت يوسف بك كورتي: «أبدا حاشاهم والله.. هم كظنك بهم». قلت: «إذاً لا أكون أنا السفيه دونهم». قلن لي: «طيب ترقص العروس». قلت: «أهي تعرف الرقص ؟ ما كنت أظن أن بنات الريف يرقصن ! فلترقص لأرى». فلما صممن على الرقص قلت لهن: «أدخلن في المخزن وارقصن وأنا أرقد في مكاني هذا». قالت إحداهن: «طيب أعطنا حق البنات». قلت: «كم ريالا ؟». قالت:

---

(١) انظر هذا الموضوع في صفحة ٦١ والملحوظة ١ في الصفحة نفسها.

«عشرون ريالا». قلت للولد، الذي كان معي بالدكان، وكان بيده كيس به النقود: «أعطها يا عبد القادر حمودي عشرين ريالا»، فاستَلَمَتها. وقالت أخرى: «وحق البَلاّنة المَشّاطة». قلت: «كم ريالا ؟». قالت: «عشرة ريالات»، فاستلمتها. فقالت إحداهن: «حق مسح القُصَّة». قلت: «كم ريالا؟». قالت: «كما تشاء». قلت: «كم في العادة ؟». قالت: «وقية أو نصف وقية ذهب». قلت: «أعمل لها حُجّول، وأساور، وأكمام، وثوب جَزَايَرلي[1] قيمتها أكثر من ثلاث أواق ذهب». قالت: «متى تأتي بها ؟». قلت: «صباح الغد». كانت هذه الأشياء موجودة عندي، عملتها لأخطب بنت محمد الحسين الطيب ببربر ولكن والدي منعني من زواجها. وفي الصباح أرسلت عبدالقادر حمودي فجاء بها. بعده طلبت منهن أن يعفينني من مكث سبعة أيام بالمنزل لأنشغالي، فسامحنني بعدما أخذن رأي حماتي صالحة الظريفة. وجدت أن زوجتي ما بها غير "فَرج الله" [2] واحد في عنقها، فنويت أن أحلّيها بحلي كثيرة مستقبلا، ولكن ضياع مالنا حال دون ذلك. رغم هذا سررت لعدم استعمال أهلها عَاريّة [3] الحُلي الكاذبة، واعتبرته عقلا من حماتي. أيضا لا أنسى أن ما وجدته ببيتي من الأثاث مما أحضره أهلها معها وما عليها من اللباس يضاعف ما دفعته مهرا وجهازا، ناهيك عن عشاء المدعوين؛ مما جعلني أجود بما يطلبونه، وأظهر بينهم بمظهر الغني.

جاءني في أواخر رمضان علي خاطر زائرا وقال لي: «هذه الخادمة التي تخدمكم نحن ندفع أجّرتها. وإن أولاد خاطر إكتتبوا لزواجك، وأن زوجتك كانت تطحن بيدها؛ فاذا كنت راضيا لها أن تطحن فلتبدأ من أول شوال، وإن لم تَرْضَ فاعمل ما شئت». قلت: «كنت أظن الخادمة خادمتكم المُلك[4]». ضحك وقال لي: «ألم تر الدَّنّ[5] الذي بداخل الحوش لدبغ الجلود؟». قلت:

---

(١) جزائري.

(٢) فرج الله: نوع من العقود الذهبية مما تتحلى به النساء.

(٣) عَاريّة: مستعار، وهذا يعني أن الناس كانوا يستعيرون الذهب والحلي لتزدان به العروس.

(٤) المُلك: أي يملكها سيدها، وهي الخادمة المشتراه كرقيق.

(٥) الدَّنّ: الإناء الكبير.. والمعنى أن أهلها كانوا يعملون في دبغ الجلود بأنفسهم وليس لمثلهم خدم.

«لم أر داخل الحوش». وبعد أن إنصرف نزلت سوق الرقيق واشتريت فَرْخَة(١) بستين ريالا، وكانت أجمل من في السوق وأحضرتها لها.

آخر رحلاتي لسَواكِن:

في أول محرم سنة ١٣١٣هـ (٢٤ يونيو ١٨٩٥م) سافرنا الى سواكن لكنّا تأخرنا شهورا فى الطريق بسبب أن الحكومة أخذت تسخر الجِمَال لأحمالها اللازمة لها، وصار صمغ التجار يُرمى في مكان يسمى "ديس ابل" - اسم بئر شرق كُوكريب - فتوجهت الى سواكن وأحضرت جَمَّالة البِجّا(٢) وأخذت من خليفة ليفي نحو ألف ريال، ثم رجعت حيث أجّرت جمال النُورَاب(٣) لنوصل صمغنا - الذي صار في بوار(٤) - إلى سواكن. حجزنا ذلك أكثر من شهر إقامة، وكان الحرّ شديدا نستحم مرتين أو ثلاث مرات في اليوم. أخيراً بِعنا الصمغ واشترينا البضاعة، ولكني لما خرجت عند البوابة، أُعطيت محمد أفندي أمين تصريحي، فعدّ جمالي ووجدها اثنين وعشرين، فأشّر التصريح ووضعه آخر التصاريح. وبالصدفة كانت تأشيرتي تظهر في النسخ بخلاف الأصول، فلما أكمل ما كان يفعله عاد إلى أوراقي فلم يجد بها التأشيرة فظن أن جمالي متأخرة، فقال لي: «أين جمالك ؟». قلت: «خرجت». قال: «ارجعها». قلت: «حضرتك نظرتها». فامتلأ غيظا وقال: «كذاب أنا أوريك». ولما كنت متأكدا من أنه نظرها ما اهتممت بكلامه، فأمر عسكريا بأن يذهب ويحضر جمالي. وفعلا أُرجِعت جمالي وحفظت البضاعة بالمركز إلى الصباح. شكوته للمحافظ (لويد باشا) الذي طلبه، فاحتج بأنه لم ير التصريح الأخير، واتهمني بأن لدي ممنوعات لذلك هَرَّبت جمالي. فقلت للمحافظ: «يا سعادة الباشا هل يمكن

---

(١) فَرْخَة: أي الخادم الأنثى التى تشترى للعمل في المنزل.
(٢) البجّا: واحدة من القبائل الكبيرة التي تعيش في شرق السودان وجزء من إرتريا. وجمَّالة: هي جمع جمّال وهو الرجل الذي يقود الجمل.
(٣) النُورَاب: إحدى عشائر قبيلة الأمارأرْ البجاوية وهم يسكنون حوالي مدينة بورتسودان وسواكن.
(٤) بوار: كساد أى ليس هناك من يرغب في شرائه.

الانسان يُهرِّب نهارا اثنين وعشرين جملا وحضرة المأمور لا يراها ؟.. اذاً يكون حضرته مهملا ». وأضفت لسعادته: «رأيت المأمور بعيني حسب الجمال وأخذ قلمه من جيبه وأشّر على تصريحي، ولا أدري أين وضع التأشيرة». فتناول التصريح خاله محمد أحمد بك قمندان البوليس، الذي حضر صدفة لشغل رسمي. وكان معنا أيضا محمود بك أرتيقة[١] ـ نزيلنا ـ فترجى المأمور رجاء حارا بأن يعفيني، فرفض.

ولما استلم خاله التصريح تصفحه فوجد التأشيرة على ظهره، فأراها للمحافظ وقال: «المأمور غلطان والتاجر محق». فحكم الباشا بأن أنتظر جَلاّبة أخرى، وتكون مصاريفي ومصاريف جمالي على حساب المأمور، أو أن يعين معنا من مشايخ العرب من يضمن سلامتنا وبضاعتنا حتى نلحق الجلابة على حسابه؛ فاختار الثانية. وسافرنا ولحقنا الجلاّبة بعد ثلاثة أيام في ديس ابل. وعندما رجعت في المرة القادمة سنة ١٣١٣هـ ـ وتلك كانت هي المرة الأخيرة التى أسافر فيها الى سواكن ـ أحضرت له معى ثماني ريشات بيضاء من أحسن أنواع ريش النعام تفاديا لحقده فشكرني وصاحبني.

وفاة والدتي:

في رحلتي الأخيرة لسواكن بعنا صمغنا كالعادة فيها ثم رجعنا الى بربر، وهناك جاءني خبر وفاة والدتي (حوالي منتصف ١٣١٣هـ الموافق آخر ١٨٩٥م). حزنت جدا لخبر وفاتها وقمت تواً لأمدرمان براً بالحمير. وعند وصولي أخبرتني السَّهْوة أختي، وكل من حضر موتها، أنها كانت كلما أفاقت من

---

(١) هو محمود بك عثمان أرتيقة عمدة سواكن في تلك الفترة وينتمي لقبيلة الأرتيقَة الشهيرة في سواكن وشرق السودان، وبحكم وظيفته كان يستضيف التجار القادمين لسواكن لِيسْهُل عليه تقدير الضرائب وجمعها لحكومة الخديوي منهم (محمد صالح ضرار، صفحة ٦٥ ـ ٦٨).

سكرة من سكرات الموت قالت: «أنا عافية منك يا بابكر محللة لك حمل بطني ولبن ضرعي وحمل حكْري[1] عَفواً يدخلك الجنة ويمتّعك في الدنيا». فتقول لها السهوة: «وسعيد ؟!». فتقول: «عافية منك يا بابكر»، وتكرر ما قالته. ثم تقول: «عافية منكم يا أولادي إناثاً وذكوراً». ثم أفاقت وقام سعيد من عند رأسها وخرج. فقالت السهوة لها: «أما تستحي من سعيد وتذكرينه مع بابكر ؟ ». قالت لها الوالدة: «لا .. لا بابكر رفيق بلاّنا لا أقرن به أحداً في عفوي»، وكررت العبارة حتى تشهدت أخيرا وفارقت الدنيا. لما وصلت علمت ما قالته فزال عني الحزن وجعلت فراشي[2] عليها مندم سرور لا مأتم حزن. رحمها الله رحمة واسعة فقد فقدنا بفقدها أعطف قلب وأخلص صديق وأصلح دعوة والحمد لله.

بعد ذلك بوقت قصير وصلت بضاعتي من بربر، فأعطيت سعيدا أخي ستين ريالا قُوشَلّيا، وأرسلته ليحضر والدي وزوجته من كَرْكُوج فأتى بهما. لم أسافر بعد ذلك إلى سواكن، وصرت أبا لوالدي أوفي النفقة عليه إلى أن توفى سنة ١٣٣٧هـ (١٩١٩م)، أي بعد أن صرت أباه خمسا وعشرين سنة والحمد لله. وسيأتي حنانه عليّ وشفقته على مالي في حالتيّ الرخاء والشدة في أوانه ومكانه.

قلت إني لم أسافر إلى سَواكِن بعد وفاة والدتي والسبب لذلك كان كالاتي: تسوقت في تلك الأيام صمغا من الدوِّيْم ووضعته على البحر للسفر، ولكن حصل أن طرق سمع الخليفة أن التجار يدخلون قَقَرَة سواكن. هذا، وكان إعتقاده أن تجار المهدية يقابلون تجار سواكن بكُكْريب بدّيم عثمان دقنَة يتبادلون الأخذ والعطاء، حتى كشف الحقيقة في مجلس حافل رئيس الأمناء الحاج محمد إبراهيم زروق، فمنع الخليفة التجار بعد ذلك من الإتجار بين البلدين.

---

(١) حكْرِي: حجري.
(٢) فراش: المراد به هنا إقامة مأتم لتقبل عزاء المعزِّين.

بعض قصصي مع حفصة :

في عشرين رجب سنة ١٣١٤هـ (٢٥ ديسمبر ١٨٩٦م) وضعوا لي ابنتي آمنة [١]، وكنت غنيا كثير الأرباح فبالغت في الصرف على عَقِيقَتها(٢). ومما أذكره أن السُكَّر كان صندوقا ـ أعني خمسين رأسا؛ فلما اجتمع أصدقائي الذين دعوتهم، وكان من ضمنهم المهدي أحمد مساعد، الذي قال لي: «قد بالغت في الصرف!». فقلت له بيت شعر ارتجالا:

عققت على بنتي وكانت وليمتيَ   على أمها ما لم تكن قيمة السُكَّر

وسألته: «ما قولك يا سيدي؟» فضحك وضحك الجماعة.

وفي شهر ذي القعدة سنة ١٣١٥هـ (أبريل ١٨٩٨م) وضعت لي ابنة ثانية أسميتها السَّهْوَة؛ وكنت يا قارئي حينها معسراً فى المال مشتغلاً بالعِلم، فجعلت عَقِيقتَها أقل من الأولى بقليل. ولما أكملت البنت عشرة سنوات لدغتها عقرب عندما كُنّا برفاعة، فلما أتعبتها أشار عليَّ الدكتور يوسف مبارك، الذي كان بمنزلي، أن نسقيها "كونياكا". عَلِمَت هي بذلك وجزعت جدا، وقالت: «يا أبي أقسم عليك بالله أن لا تسقني خمرا ألقى به الله». فرفضت سقيها إياه فأصبحت مُتَوفّاة. كنت عازما فى ذاك اليوم السفر إلى الدويم كعادتى، فدفنتها وسافرت من المقابر دون أن أرجع إلى المنزل للمعزى (للعزاء)، لأني رأيت من تمام الاحتساب لمصابها عدم إبرازي علامة من علامات المأتم.

كذلك حصل بيني وبين زوجتي حفصة فى تلك الأيام ما يحصل بين الزوجين إذ أظهرت الفخفخة والإفتخار؛ وفي أثناء محادثتي معها قلت لها: «لمن أشكوك؟» فقامت وذهبت لقريبها محمد مَكّي، الذي جمع معه ثلاثة من أولاد عمه وأتوني الأربعة في البيت وجاءت حفصة معهم، ولكنها دخلت بيتها

---

(١) آمنة هي بنت المؤلف من زوجته حفصة، وكذلك السهوة التي سيجيء ذكرها في الفقرة التالية.
(٢) العَقِيقَة: الحفل الذي يُسمى فيه الطفل اسمه لأول مرة ويذبح أبو المولود في هذا الحفل عن الذكر شاتين وعن الأنثى شاة.

فاستقبلتهم بالديوان. لم أسألهم عما جاء بهم أمام أبناء عمي الذين كانوا معي؛ مخافة أن يحصل لفظ يؤدي إلى شحناء. فلما شربوا الشاي وأنصرف أقاربي قلت لهم: «جاءتكم حفصة ؟». قال محمد مكي وابراهيم البشير بتغيظ: «أيوه لأنك جهلتنا». قلت: «أطلبوها لتحضر كلامنا». فلما جاءت قلت لهم: «ما الذي قالته لكم؟». فقال كبيرهم: «قلت لها: ما عندك ولِيَان (أولياء)». قلت: «هل قالت شيئا نسبته لي غير هذا ؟». قال: «لا». قلت: «أنا معكم منفرد فليقم أحدكم يضربني حتى تحجزه هي مَرّضاة لها». فقال: «لا .. ولكن نريد أن تعمل لها وقيتيّ ذهب». قلت: «واذا ثبت لكم أن لا أولياء لها تعفوني من الأوقيتين». فسكتوا ولكن اشتد غيظهم. قلت: «لا تسكتوا.. أنت يا محمد مكي أكبرهم، وتذكر كل شيء وأمها شاهدة على ما أقوله لكم. هل علمتم أني حينما جلسنا للعقد عليها بأصوان وقال المأذون حفصة بنت مَنْ ؟ لم يعرف أحد من الحاضرين اسم والدها حتى قلت أنا بنت «الشيخ»، وأقصد الشيخ لغويا يعني الرجل الشائب، فصادف ذلك اسم أبيها الشيخ ولد سنادة وما كنت أعرفه. ثانيا هل علمت أنها ووالدتها مكثتا بالدَّبَّة خمسة عشر يوما وهي مطلّقة مني، والمسافة بين الدَّبَّة و "فُقَرا أم كتي" ـ بلدكم ـ ضحوة، فلم يزرها أحد من أهلكم مع أن الشيخ سنادة له زوجة وبنت متزوجة هناك، وكل أهله موجودون فيها. ثالثا جئت هاربا، ووجدتهما بالدَّبَّة فراجعتها لأحلل حملها أثناء الطريق حتى أوصلتها لكم بأمدرمان، وأنتم اللائى تفزعون معها الآن كلكم موجودون، هل زارها أحدكم أو قدم لها قرشا أو كيلة غلال، خلاف حرم بنت النور مع أنها نازلة بينكم؟. رابعا أنا سافرت إلى الجزيرة كاتبا لمختار ومعي والدتي وأخواتي، وأنتم تعلمون أنهما (أي حفصة وأمها) أخرجتا من البيت لتسكن فيه العيبة وحرم بنت علوب، ثم بَنْتَ مريم بيتها ـ الذي كان كبيت الحمام ـ هل ساعدها أحدكم ؟. ثم أعطاها عمي محمد علي حمد السيد أخشابا لسقفه وكساها المنصور أبو كوع ابن عمتي !. والآن لما صارت غنية في الحلى والعيشَة عرفتموها وصرتم تقومون أمامها وتنتصرون لها مني؟ أأنتم تكافئون الرجل الذي يحفظ وليتّكم (أنثاكم) ويسترها بمثل هذا ؟! أما تعلمون أن أكمل إمرأة بها عيبان: عيب يعلمه الله والزوج، وعيب يعلمه معهما الناس؟ إذاً قوموا اضربوني أو اضربوا أنفسكم فإن أحدنا يستحق الضرب». فانتحب

محمد يبكي بكاء عاليا، ثم انصرفوا خجلين. ولما سمع الشيخ الجليل محمد البدوي بكلامي لهم طلبهم وزجرهم وقال لهم: «فَضَحتُموني بما كان مجهولا عندنا وعند غيرنا». ثم زارنا بالمنزل واعتذر لي عما فعلوه، وزجرها هي وأقسم لها إذا حدث منها مثله مستقبلا سيحلق شعرها.

سرقاتي من الرسوم وسببها:

في سنة ١٣١٠هـ (١٨٩٣م)، كما تقدم، حصلت لي أول مسامحة من أبي الفتح موسى دقنا في أخذ عشوري وكنت حينها شريكا لعمي مالك. وعندما رجعت في أوائل سنة ١٣١١هـ جعلت في صندوق السُّكَّر عَلْفَة[١] أدسّ داخلها رأسا من السُّكَّر فزاد الرَحَل عشرين رأسا ـ بثمن سواكن. وكانت رحولي ستة رحول من السكر. كل هذه الزيادة لم أكن أدفع عليها أجرة ولا عشور. ثم اشتريت قِدْرَين ريحة بيضاء زنة القِدْرَ مائة وخمسة أرطال جعلت في مضيقه الأسفل صفيحة وملأت المضيق بمَجمُوع وقفلته وسددته بطين من البحر بسواكن، فعُشّر في كُكُريب على أنه مَجمُوعا. لكن لما وصلت بربر ظهرت الريحه البيضاء في الطين لانفتاح القفل الأدنى وإختلاط المَجمُوع بالريحة، فدقق معي محمد ود صالح حتى كحت الطين وأخرج الصفيحة السفلى وعَشّرها على أنها ريحة بيضاء وقيمتها أربعة أضعاف المَجْمُوع. ولما أردنا السفر إلى أمدرمان جعلت كل قِدْرَ في عِدْلَةَ تمارية ولففته من الداخل بخيشة تخينة وأتممت العِدْلَه تمراً. وعندما قَرُبنا من أمدرمان أجّرت جملا حمل رَحَل السُّكَّر وربطت في كل عِدْلَة قِرْبَة بها ماء حتى اذا سُمِع صوت الريحة من إهتزاز مشى الجمل يرى الناظر الماء في القِرَب فلا يشك في أنه صوت الماء. وفي أمدرمان كنت أُنزِل الرّيحة على أنها تمر، وبذلك نجت الريحة والسُّكَّر من العُشور. أما

---

(١) عَلْفَة: المكان الخفى الذى لا يُرى

الفاتورة فكان الصادق عثمان[١] مسموحا له من عثمان شيخ الدين[٢] بإعفائه عن نصف عشوره، فكتبت بضاعتي باسمه ونجا ربع عشرها (هذا لأن المؤلف كما يبدو كان يدفع الربع الآخر لصاحب الإعفاء ـ المحقق). فربحت في هذه السفرة سبعمائة ريال، وبعدها إنفصلت بتجارتي وفارقت عمي مالك.



عثمان شيخ الدين بن الخليفة عبد الله وهو في وسط الصورة راقدا وعليه العمامة عند أسره في ام دبيكرات

---

(١) الصادق عثمان: أحد التجار ممن يعرفهم المؤلف وكانت له صداقة ـ كما سيرد لاحقا ـ بعثمان ابن الخليفه عبد الله.

(٢) عثمان شيخ الدين هو أكبر أبناء الخليفة عبد الله، وكان والده يهتم كثيرا بتعليمه وإعداده إعداداً طيباً لما يتوقعه له من مهام في الدولة وكان من معلميه الشيخ الطيب محمد هاشم (انظر صفحة ٢٨٢ أدناه)، والشيخ محمد عمر البّنا (انظر ملحوظة ٣ صفحة ٢٧٦). زوّجه أبوه أبنة عمه يعقوب وهو في السابعة عشرة من عمره وكان حفلا كبيرا تحدثت عنه أمدرمان (زلفو، صفحة ٢٦١). كذلك عينه أبوه قائدا لفريق كبير من جيش الملازمية بالرغم من عدم خبرته العسكرية، وهناك بعض الأقوال بأنه إختلف مع بعض القواد الآخرين في بداية موقعة كرري منهم الأمير إبراهيم الخليل ود أحمد حول موعد الهجوم مما انعكس سلبا على نتيجة تلك المعركة (زلفو، صفحة ٢٦٤). جرح في موقعة كرري التي أبلى فيها بلاء كبيرا (شقير، صفحة ٩٣١ ـ ٩٣٢)، ثم انسحب بعد إنكسار جيش المهدية مع أبيه وبعدها أسر في أم دبيكرات في ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩م، وأرسل إلى مصر وسجن في سجن رشيد ثم في سجن دمياط وتوفي هناك عام١٩٠٠م (شقير، صفحات ٨٩٣ ـ ٨٩٤ وصفحات ٩٥٣ ـ ٩٥٩).

في مناسبة ثانية إجتمعت ـ كما ذكرت سابقا ـ بيوسف أخي وسافرنا بمجيدي صرفناه واشترينا بثمنه قِدْرَين مَحلَبيّة. وفي هذه المرة جعلت لكل منهما أنبوبا لَـحمتُه لحماً محكماً بقعر القِدْر، وكان الأنبوب متفاوت الحجم ففي مكان كان قُطره ثمانية سنتمترات، وعند المضيق ثلاثة سنتمترات، حتى يمكن إدخال عصا فيها. وتركتها بلا طين ولكني جعلت له قفلين أحدهما في أسفل المضيق والآخر في أعلى المضيق حيث يبتدىء البزبوز. ولما وصلنا بربر جاءني محمد ولد صالح بمسمار وخزق البزبوز وأدخل فيه "سلكَة" رقيقة لآخر قعر القدر وسحبها وشمها فاقتنع بأنه مجموع. أما الفاتورة التى كنت اشتريتها من الحراير والجوخ فقد أدخلتها في صندوق وغطيتها بطبقة من السنبل(١)، ففتحوها وعَشّروها سنبلا، والسنبل سعر قنطاره سبعين قرشاً. وعملت في أمدرمان عملي الأول ونجحت أيضا. وبعد أن بعنا بضاعتنا هذه، رجعنا إلى سواكن بالصمغ الذي ربحنا فيه ربحا كثيرا. وسرقتي هذه المرة كانت كالآتي: اشريت زَرَاقا(٢) كثيراً، لأنه يباع في أمدرمان مختوما "بالبصلة" التي كانت دائرتها بمساحة دائرة ختم الحكومة، الذي تّدمَغ البضائع به غير الزراق، ومكتوب فيه بخط كبير "بيت المال". فلما جاوزنا "الباك" قلنا للفحل عبد السلام (الجَمّال) ـ الذي كان بيته في "المكَايلاَب" قِبْلِي بربر ـ : «خذ الأربعة رحول خَبِّيها في بيتك». ففارقنا بها وأدخلها في مخزن بيته ووضع عليها قَشّ لوبيا. وباقي البضاعة دخلنا بها بربر وكان فيها رحلين من القدور بهما محلب وريحة يابسة، خبئتهما كالسابق بأن وضعت حولهما خولنجان(٣). وعندما رآهما عمي محمد ولد صالح قال لي: «ماهر!». وذلك كان بعد جواب السيدة نفيسة كما تقدم.

بعد يومين طلبني عمي الرَّيَّح حامد (أمين بيت المال ببربر) وقال لي «الأربعة رُحُول الزَرَاق التي وضعها الفحل عبد السلام في مخزنه ووضع عليها قش اللوبيا، الأحسن تقدمها للعشور والا نُغْنِّمها». قلت: «يا عمي الرَّيِّح لماذا لم يضع مُخبرك هذا عليها خفيرا يحرسها لكم؟ إني مسامحكم غَنِّمُوها إن

---

(١) السنبل: نوع من الحبوب الزيتية العطرية كالمحلب.

(٢) الزراق: انظر ملحوظة ٢ صفحة ٢٢٢.

(٣) خولنجان: نبات يشبه الجنزبيل.

صح خبرك». وكان يوسف أخي بجانبي، فقلت له في أثناء كلامي: «بخيت فرحات (وهو جَمَّال نأمنه)، للسفلاوي إلى قتيبة لمحمد مصطفي بالفاضلاب». فقام من وقته لبخيت وحملوا الرُحُول للسفلاوي، الذي عبر بها النيل عند الداخلة (أتبرة الحالية) على طوف من الدوم[1] لمحمد بالفاضلاب، الذي وضع لها مِرقاً [2] على فم حفرة، وعلقها فيها خوفا من الأرضة. بعد يومين طلبني عمي الرَّيِّح وقال لي: «الرُحُول عبرت النيل بالداخلة ووصلت الفاضلاب، وعُلقت بحبل في حفرة في عمود خوف الأرضة»، ولم أكن أنا أعلم ما قَصّه لي. فقلت: «غنِّموها يا عم الرَّيِّح». قال: «أفضل ترجعها». قلت: «يا عمي الريح لاتكلمني ثانية في هذه الرُحُول غَنِّمها.. غَنِّمها». وكررت ليوسف: «بخيت فرحات يضعها عند شيخي الفقيه محمد حامد بالمَتَمَّة». فقام من حينه لبخيت الذي أوصلها المَتَمَّة. فطلبني عمي الرَّيِّح وقال لي: «الرحول وصلت المَتَمَّة وسنكتب لأمين بيت مال أمدرمان بها». قلت: «هي خرجت من دائرة اختصاصكم». قال: «نكتب بها للنور الجريفاوي أمين بيت مال أمدرمان[3]». فقلت: «افعل ما شئت»، ومشيت.

وصلت أمدرمان وقدمت بضاعتنا فأخذوا عُشر ما قدمناه، ولكن كان بِعَيْبَتي من الخزر والجَلاَد ما قيمته فوق الألف ريال؛ دخلت بها وكالة العشور. هناك أريت الأمناء مختار محمد وحسن حدِربي ثيابا وفِركَا[4] لاقيمة لها كانت معي، وأخبرتهم أنها كسوة للعائلات فسلموني إياها. بعد ذلك حمل العتّالة البضاعة التي أخذوا عشرها وعند باب الوكالة لقيني يوسف سليمان (وهو أكبر العمال المنوط بهم أخذ ثلث الصمغ وعُشر البضائع ولا يقبل رشوة)، فقال لي: «ما في هذه العَيْبَة ؟». رميت له بها وبالمفاتيح بعدم مبالاة وقلت: «البضاعة

---

(١) طُوْف: قارب نهري يصنع بربط جزوع الأشجار بعضها ببعض لتصبح مسطح خشبي. والدوم هو نوع من الشجر يشبه شجر النخل ولو أنه يختلف عنه في الثمر.
(٢) مِرق: هو العمود السميك من الخشب.
(٣) النور أبراهيم الجريفاوي هو أمين بيت المال الثالث في دولة المهدية إذ خلف أحمد سليمان وابراهيم عدلان، ولكنه لم يُعدَم مثلهما بل عزل عندما غضب عليه الخليفة عبد الله. تعين بعده العوض المرضي ثم ابراهيم رمضان ثم الحاج أحمد ياسين (ضرار، صفحة ٢٠٨).
(٤) فِركَا: جمع فِركَه وهي نوع من الثياب يصنع من الحرير أو على شكل الحرير ولونه في الغالب أحمر أو أصفر وتلبسه نساء السودان في مناسبات خاصة.

تقدمت.. أنت أيضا فَتّشها وأرسلها لي». فقال: «خذها وألحق بضاعتك». كنت أدرك أني لو تلجلجت في الجواب أو جمد دمي من الخوف أو الكسوف لأستلمها وفَتّشها.

جاءني في يوم صديقي الحميم المرحوم إبراهيم حمودي الفضل الحضري، وعَرّفني أن عمي يوسف سليمان وضع على منزله حرساً بتهمة أن عنده ختم مزوَّر يدمغ به البضاعة كختم بيت المال، ويأخذ على ذلك نصف العشر ممن يختم لهم بضاعتهم. واعترف إبراهيم لي أنه عمل ذلك فعلا. وقال لي أنه يخاف اذا ضُبط الختم عنده لاشك في ترحيله للرّجَاف وموته هناك، أو أن تقطع يده ورجِّله؛ وطلب مني مساعدته في الخروج من ورطته. بعد روية اهتديت لأن أذهب الي عمي يوسف سليمان وأقول له: إني كنت في زيارة الشيخ عبد الله الفقيه الأمين أم حَقّين، وفى رجوعي لقيني إبراهيم حمودي مُحمِّـلا عائلته ووالدته ذاهبين الى المَتَمَّة؛ وأنه أخبرني أنك سبب رحيله لقصدك له بناء على وشاية من أعدائه. وأقول له: أني أنزلته "بالعجيجَة" [1] لحينما أقابلك لأني ما رضيت لك هذه السمعة. فذهبت إليه وبعد أخذ ورد قبل يوسف إلغاء الاتهام.

كان السبب لسرقاتنا من بضاعتنا بهذه المخاطرة هو كثرة الرسوم الموضوعة من الحكومة على البضائع؛ وهذه لو يدفعها التاجر تماما لما تبقى له من رأس ماله إلا سبعة أجزاء من ستين جزء. وهاك حسابه لتنظر ذلك :

ندفع على الصمغ من الدويم الثُلث في أمدرمان، وفي بربر السُدس، وفي كُكْريب ندفع عن الجمل ـ ومتوسطه أربعة قناطير ـ خمسة ريالات قُوشَلّية، يعني جنيه عن الجمل. ومتوسط سعر الصمغ خمسة عشر ريالا للقنطار. إذاً تكون الرسوم واحد على اثنى عشر. وعند الرجوع يؤخذ في كُكْريب عن الجمل العُشر وفي أمدرمان العُشر. عليه يكون جملة الحساب كالاتي:

$$١-\frac{١}{٣}=\frac{٢}{٣} \text{ و } \frac{٢}{٣}-\frac{١}{٦}=\frac{١}{٢} \text{ و } \frac{١}{٢}-\frac{١}{١٢}=\frac{٥}{١٢} \text{ و } \frac{٥}{١٢}-\frac{١}{١٠}=\frac{١٩}{٦٠}$$

$$\text{و } \frac{١٩}{٦٠}-\frac{١}{١٠}=\frac{١٣}{٦٠} \text{ و } \frac{١٣}{٦٠}-\frac{١}{١٠}=\frac{٧}{٦٠}$$

---

(١) العجيجة: قرية صغيرة شمال أمدرمان مباشرة.

هذا ما يبقى من رأس مال التاجر، وهو بخلاف العشرين قرشا التى تأخذها حكومة سواكن على الجمل داخلا وخارجا. فبالله عليك يا قارئي، ما هي التجارة التي تربح ألف في المائة؟ وفوق هذه الرسوم هناك مصاريف التاجر ذهابا وايابا ومصاريف أولاده وراءه!. أتنكر بعد هذا علينا السرقة في الرسوم مهما بالغنا في إخفاء بضائعنا وتعبنا وتفننا في أساليبه؟. اللّهم لا لوم علينا.

حكايتي مع مفتش الضرائب مختار محمد سليمان:

فاتني أن أذكر أنني في سفرتي الأولي بعد إنفصالي عن عمي مالك سنة ١٣١١هـ (١٨٩٣ ـ ١٨٩٤)، خبأت بضاعتي في أحد المراكب تحت بضائع جماعة من الرُّباطاب كانت زعفاً وتمراً. فلما وصلنا أمدرمان جاءني مختار محمد سليمان، مفتش البضائع المسؤول عن العشور، والذي كان قد درس معنا بخَلّوة القرآن برُفاعة، فعرفني هو ولم أعرفه أنا، بل ظننته تاجراً يدعي شبِيطَة. فسألته عن أثمان البضائع وأطلعته على كل بضاعتى بأنواعها وأعدادها، المخبأة منها والظاهرة. فلما أتممت كلامي تأكد أني لم أعرفه. فقال لي: «أنت يا بابكر ما عرفتني؟» فذكّرني بنفسه؛ وعندها أُسْقِط في يدي. فلما رآني إرتبكت هدأني بقوله: «أخرج ما كان ظاهراً من البضاعة، والمخبأ أتركه في مكانه حتى يأتي عمي العوض، فاذا قال: خذوا العُشر فقط، أخرج كل البضاعة للعُشر، واذا قال : خذوا نصفها أو ثلثها، بعد العُشر، كسلفية على بيت المال، يكفي أن يأخذوا منك نصف أو ثلث ما أخرجته فقط». وفي أثناء كلامنا جاء عمنا العوض ومعه يوسف سليمان وأمره أن يأخذ العُشر ونصف البضاعة سُلفَة(١)؛ فنفذ الأمر وترك المخبأ. كانت هذه أول خدمة منه لي، وبذا إنعقدت بيننا صداقة متينة وتبادل نافع وإليكم قصته كاملة: حينما أردت السفر أوصاني أن أحضر له معى سبحة يَسُر وعقد سُوْمِيت(٢) فأحضرتهما، وحلفت من

(١) سُلفَة: أي تأخذ الحكومة البضاعة من صاحبها كدين منه لمقابلة ظرف طاريء (كأن تجهز الجيش لحرب أو غيره) وتردها له فيما بعد. فعل غردون نفس الشيء أثناء حصار الخرطوم.
(٢) اليَسر والسُوْمِيت نوعان من الخرز يستعملان للزينة خصوصاً في حفلات الزواج.

ثمنهما، الذي لا يتجاوز السبعين ريالاً قُوشَلّيا، يعني ١٤ جنيهاً. فصار بعدها يجاملني في العشور ويقبل شفاعتي لغيري؛ ثم جعلت له أمانة تجارية تزداد ربحا كلما بِعتُ وإشتريت. وعندما تزوج ووضُعِت له بنته الأولى اشتريت له فَرْخَة تحمل ابنته. وأعترف أن ما ربحته منه كان ضعف ما أعطيته ونحن على صفاء حتى جاء محمد منصور يحمل خطاباً من أبي علام لأساعده في العشور. فلما أخبرت مختارا، وكان محمد موجودا معنا، فبدلاً من أن يحترمه أو يتسامح له عن بعض العُشر، ضربه بكفه على خدِّه بعد أن أخذ منه العُشر كله. أنكرت هذا الإنقلاب المفاجئ وقمت وركبت حماري وذهبت إلى السوق. فلما كان وقت العصر جئته بمنزله فرحب بي كعادته فطلبته في خَلّوة، فخرج معي. قلت له: «يا مختار عرف سكان أم درمان والتجار أننا صديقان، وبما أننا معروفان ولا يجوز أن نتهاجر مهاجرة النساء أو العامة وجئتك لأنصح لك أني لست صديقك المخلص كما كنت ولا تعتمد على صداقتي. أما المعاملة المالية بيني وبينك ـ أعني أمانتك عندي ـ فمحفوظة السر مأمونة النقصان. والذي أريده أنك إذا سبقتني في مجلس جئته بعدك أو ضَمَّنا مجلس، تحافظ على ألا يفهم أحد أن بيننا جَفوَة. ولك عليّ أني لا أسمح لك به مني». إضطرب جدا وبدأ يعتذر ولكني بارحته، فجائني في السوق وجلس معي؛ فبدأت أريه بضاعتي التي بدكاني بأنها كلها معشورة ومختومة. فأمسك بيده زجاجة فيها نحو رطلين مَحْلَبية وقال لي مازحا: «هذه معشورة ؟». فقلت: «لا»؛ وأمسكتها منه وصوبت فمها نحو الأرض فقبض على يدي. لكني حلفت عليه بالطّلاق ليفكني حتى صببتها كلها على الأرض. نهض بعذ ذلك قائما وانقطع عن دكاني، لكنه كان يزورني ببيتي، رغم قطعي زيارته، في المناسبات القاضية بالزيارة.

كساد التجـارة:

انقطعت عن السفر إلى سواكن ـ كما ذكرت ـ وبقيت تاجراً بأمدرمان. وفي بداية سنة ١٣١٤هـ (١٨٩٦م) كنا في كساد وكان لي صمغ كثير، ومعه لَحَاوِي ورُحُول نطرون وجوالات ملأى بريش النعام؛ كلها مكدسة بدكاني.

وفي اليوم التالي لسقوط دُنقلا بيد الحكومة * مرّ عليّ بالشارع علي حمد، صاحب الحمارة التي بعتها ببَلّان كما تقدم، (صفحة ١٢٠) ومعه ثلاثة رجال. فقمت وعانقته وصافحت من معه وأجلستهم وطلبت لهم قهوة. فأخذ علي حمد يصوب نظره ويمعن في بضاعة الدكان، ثم قال لي: «لمن هذا الدكان؟». قلت: «لي». فقال: «هذا كله ملكك ؟». قلت: «نعم». فقال: «أعوذ بالله من السلب بعد العطا، أنت يا بابكر نصراني ؟ لأنه لا يمكن لأحد من أصحاب المهدي أن يملك مثل هذا إلا إذا نقض البيعة [١]». أراد بعد كلامه أن يقوم فتعلقت به وقلت له: «هذه الليلة أنت وهؤلاء الإخوان الذين معك بيتوا معي بمنزلي». وفعلاً بتنا معاً وتآنسنا؛ فسألته إن كان اتهمني بأني بعت حمارته. فأقسم بالله أن ذلك لم يجل بخلده ولا مرة، وأنه نسيها ولم يذكرها إلا بحديثي الآن. أعطيته ستة عشر ريالاً وأعطيت كل واحد ممن معه أربعة ريالات بعد أن حكيت لهم الحكاية كما حدثت.

إنتصفت سنة ١٣١٤هـ (نوفمبر ١٨٩٦م) وقضيتها بأمدرمان تاجراً وطالب علم، رغم منع التعليم رسمياً؛ فقرأت "الأزهرية" [٢] على الفقيه حامد محمد أحمد منفرداً بمنزلي. وبعد قليل انضم لي الفقيه أحمد كريم الدين ومحمد نمر السعدابي يحضران "المختصر" و"الألفية". كنا ندرس في مخبأ إتخذناه في بيت محمد خير كريم الدين الذي قتل بالمَتَمَّة. وكانت سقوف البيت قد أخذت منه، فسقفنا لنا محلاً فيه لا يعرفه أحد، وصرنا نقرأ بداخله. بعدها بدأت أنا

---

* حاشية للمحقق ـ نظراً لأن المؤلف كتب هذا الكتاب عبر مرحلتين سياسيتين في تاريخ السودان نجده يستعمل كلمة حكومة لتصف دولة المهدية حينا وأحياناً لتصف الحكومة المصرية الإنجليزية، أو لتصف حكومة الخديوي التي إستمرت تسيطر على سواكن طيلة فترة المهدية. أما هنا فهو يقصد الحكومة المصرية الإنجليزية التي خلفت المهدية بعد إعادة غزو السودان والذي قاده لورد كتشنر. وواقعة دنقلا المذكورة هنا التى حدثت في ٢٣ سبتمبر ١٨٩٦م، كانت بداية الغزو الذى تبعه سقوط أمدرمان فى يوم الجمعة ٢ سبتمبر ١٨٩٨م، ونهاية دولة المهدية؛ كما سنرى في باقي الكتاب.

(١) أى نقض البيعة للمهدى.

(٢) الأزهرية والمختصر والألفية كتب في اللغة العربية وقواعدها.

والشيخ سيد أحمد الأزهري قراءة "الأجرومية" على طريقة أبي النجا على مذهب الشريف ود أبي خُف. وبعد إنتهائي منها أكملت دروسي على الفقيه حامد محمد أحمد. وفي الحقيقه أنني لم أتوقف عن الدرس إلى يوم خروجنا إلى المعركة في كرري، ولم أتركه إلا حينما أكون مريضاً أو غائباً عن أمدرمان.

طوال هذا العام كان لي صمغاً وكان مرصوصاً على شاطىء النيل حتى جاء المنصور أبو كوع من بربر في آخر شهر ذي الحجة من تلك السنة (١٣١٤هـ)، ونصح لي وألح عليّ في سفر صمغي ليبقى ببربر، لأن الخليفة كان قد أصدر أمراً بأن كل الصمغ الذي يوجد في أمدرمان يُصادر. فسفرته في آخر أسبوع من محرم (١٣١٥هـ) بمركب عبد الله سعد التي رِيِّسُها[١] عبد الباقي العالم الزيدابي، وسفرت معه اللَحَاوِي الفارغ ورحول النطرون وجوالات ريش النعام. سافر المنصور نفسه في المركب إلى بربر لأن له غلالا فيها. ولما وصلوا المَتمَّة وجدوا الأمير عبد الله سعد[٢] عرض بمن معه ضد المهدية، وخاطب الانجليز بمروي لينجدوه بسرعة فلم ينجدوه كما آمل. وفى ذلك الحال قام بجماعته بالقبض على صمغي ليخرجونه بالمَتمَّة ويحتفظون بالمركب. ولكن أصدقائي بالمَتمَّة شفعوا لي عنده فترك المركب تصل بَربَر على أن ترجع له. فلما وصلت المركب الزَيْدَاب (وطن رَيّسها) وجدت الأمير حسنين عرض أيضاً، فأخرج أولئك الصمغ وما معه وأدخلوه في مربوع التهامى. أما أخونا المنصور فقد أجّر مركباً صغيرة شحنها بغلاله وترك بضاعتنا وسافر إلى بربر سامحه الله. سنرجع لسيرة هذا الصمغ فيما بعد.

---

(١) رِيِّسُها: أي رئيسها وهو القبطان.

(٢) عبد الله سعد (أنظر ملحوظة ١ صفحة ١٢٥) هو ناظر قبيلة الجَعلِّيين الذي عارض الخليفة عبد الله عندما طلب منه الخليفة إخلاء شندي والمتمّة حتى يضع فيها جيوش المهدية لمحاربة جيش كتشنر الذي تحرك من الشمال لإعادة غزو السودان. وحدثت موقعة معروفة بين جيش الخليفة وقوات عبد الله ود سعد قتل فيها عبد الله ومعه الكثيرين من الجَعلِّيين من سكان المَتمَّة والمناطق المجاورة لها (تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي، ١٩٦٩م صفحة ٧٥).

إنشاء الله أنتم الغابة وهم الحَطَّابة:

إعتاد بعض أولاد عمي وبعض أولاد خالي أن ينزلوا ضيوفاً عندنا، فيأتوننا كل عام في أول الشتاء ويستمرون يتاجرون ـ وهم ضيوف ـ إلى وسط شهر أغسطس. كما أن بعضهم يعمل عَصَّارة [١] في بيتنا، ويسعى الكبَاش البَاطلات[٢] لتسمن ويبيعها. ولطول بقائهم تُرفع الكُلفة بيننا، ويحدث أن يقوم أحد أولادي بضرب كَبش لهم فيضرب صاحب الكَبش الولد على فعله. بدأ ذلك في أول سنه ١٣١١هـ (١٨٩٣م) واستمر إلى آخر شعبان سنة ١٣١٦هـ (يناير ١٨٩٩م) حيث رحلت من أم درمان بوالدي وزوجتي الأولى (حَفصة) وأولادها إلى الجزيرة كما سيأتي.

ومما أتذكره من أحداثهم فى تلك الفترة هو أن علي صديق - أحد أولئك الأقارب - طلب مني أن أمشي معه إلى مختار محمد سليمان، لأخلصه من دفع رسوم لبضاعة تخصه كانت بالدَّامَر. فقلت له: «إن رجلين إشتريا مني ريحة وتركاها عندي أمانة، لذا سأذهب إلى السوق أسلمهما إياها وأرجع لك». فجذبني من الحمار ثم أمسك عنقي ولَزّني بعنف حتى وقعت على وجهي في الأرض. قمت وركبت حماري وذهبت معه لمختار محمد سليمان وخلصته منه.

---

(١) العَصَّارة: انظر ملحوظة ١ صفحة ٢١٥.

(٢) كبَاش: جمع كَبْش وهو ذكر الخراف؛ وباطلات تعنى هزيلات.

توجهت بعدها نحو السوق، فلما مررت بجنوب بيت المال، رآني عمي يوسف سليمان فناداني. لما وصلته وجدت معه جمعا من أولي الحاجات، وأظنهم من جماعة الكَارَة (١)، فقال لي: «عندك نقود جاهزة ؟». قلت: «بيَع أمس معي بدولاب دكاني». قال: «أبيع لك تسعين ثوبا من الولِاَية ذات الثوبين (أي ذات العرضين) بسعر مائة وعشرين قرشا، بشرط أن تدفع لهؤلاء خمسمائة ريالا قُوَشلّيا». قلت: «قَبِلت، ولكن أستلمها مقدما». سلمني إياها وحملتها على الحمير، ومشيت مع الجماعة وبضاعتي معنا إلى السوق. فتحت الدكان وأدخلت الولِاَية في المخزن وقفلت عليها، ثم وضعت الصنجة ذات الخمس وعشرون رطلاً في كفة الميزان والنقود في الكفة الثانية حتى توازيا، هذه أربعمائة ريال. ثم عددت لهم مائة ريال، وبقي في الدولاب نقود؛ وهذا كان كسب يوم واحد !. سمع التجار بالولِاَية فازدحموا عليّ، وحددت السعر بمايتي قرش فتجازبوها في الحال، وربحت في كل ثوب ثمانين قرشا. هذا ببركة تحمّل الأذى للأهل والأرحام.

كذلك كان عمي علي شكاك يؤذينني أحياناً، كما قرأتم، وكان هو أحد ضيوفنا في تلك الأيام. وكنت كلما جاءني أبالغ في إكرامه، ولأني أعلم أنه كثير الجوع بين وجَبتّي الفطور والعشاء؛ ولأنّا في وقت الغداء نكون بالسوق، كنت أوصي مشددا بأن يُعمل له الغداء والشاي حتى قال المغني في هذا المعنى:

«خلاف الشاي في النهارِ أتنين أكلتنا»

أكتب لكم هذا يا أولادي لا تمجيدا لنفسي ولكني أريد أن أريكم أن الأرحام لها حق لا تسقطه إساءتهم لأحدكم. قال تعالي: ﴿**وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض**﴾ صدق الله العظيم. فلما رأى والدي صبرى على أذاهم ونسياني إساءتهم شكرني، ودعا لي قائلا: «إن شاء الله يا ولدي أنتم الغابة وهم الحَطّابة». (والمعنى هو أن تدوم حاجتهم لكم وفضلكم عليهم، كما تدوم حاجة

---

(١) الكَارَة: هي السّور الذي بني لتحصين مدينة أم درمان وبه ثكنات جزء من قوات الملازمية التي كانت تسمي جيش الكارة (تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزي، ١٩٦٩م، صفحة ١٩٦) (انظر الخريطة لمدينة أمدرمان ملحق رقم ٧).

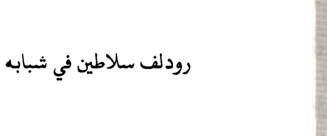
المحتطبين لغابة الأشجار الغزيرة، إذ يدوم تعويض كل ما قطعوه منها بنموه أو بنمو نبات غيره ـ المحقق).

كانت هذه دعوة صالحة حفظتها وكررتها لإبراهيم مالك[1] في بلدنا "دَنْبَك" في جزيرة "كَشْوِي"، حينما جاءنا على صديق (المذكور) في آخر يوم أسافر فيه راجعا من الرُّباطاب سنة ١٩٢١م، يسألنا صدقة، فأعطيته خمسين قرشا وأعطاه الشيخ إبراهيم ثلاثين قرشا، فأمسكها بيده وقَنَت[2] مستقلا المبلغ؛ ثم قام مغضبا ومشى. فقال لى إبراهيم: «يستحق أن نرجعها منه». فقلت له: «أتركه إن شاء الله نحن الغابة وهم الحَطّابة».

هروب سلاطين وما بعده:

من حوادث سنة ١٣١٢هـ (١٨٩٥م) التي أذكرها سفر سلاطين[3] وما ترتب عليه. ومما كان يقال هو أن عبد الماجد الحاج محمد الغبشاوي أخبر الخليفة عبد الله بأن أحمد العجيل هو الذي دبّر هروب سلاطين، وأحضر له





رودلف سلاطين في شبابه

(١) إبراهيم مالك هو ابن عم المؤلف، ووالده هو مالك ود أحمد نوري الذي كان يتاجر المؤلف كشريك له في بداية عمله بالتجارة.

(٢) قَنَت: زمجر غاضبا.

(٣) انظر ملحوظة ١ صفحة ٢٤٠.

الزاكي الذي سَفّره فعلا. والسبب على ماسمعناه وقتئذ مصداق الحكمة القائلة: «ما اجتمع فَرجَان في مَنكُوح واحد الا ألقيت بينهما العداوة والبغضاء». وما سمعناه هو أن عبد الماجد طلّق زوجته التي في "الرِّميلَة"، تأديبا لها وفي نيته مراجعتها، فسبقه أحمد العجيل وتزوج بها. هذا على عهدة الراوي.

أصبح أحمد العجيل يقضي معظم أيامه في الرِّميلَة مع عروسه، وكان له شريك في تجارته يدعي أبشر عثمان، وهو الذي يباشر الدكان ولا يغيب عنه. أيضا كان من التجار الذين أعرفهم الصادق عثمان، التاجر الميرفابي صديق شيخ الدين (ابن الخليفة عبد الله)، وقد سمعته مرة في السوق يقول: «والله لو يسلم لي مالي هذه السنة لا أتاجر بعدها أبداً». وفي يوم كنا أنا والصادق عثمان ومصطفى الأمين بدكان أبشر عثمان، وبلغ الصادق أن محمد أبو بلل ومعه جِهَادية توجهوا إلى منزل محمود عيسى. وكان للصادق بالمنزل صندوق فيه تباكو (تنباك)؛ ولما كان إستعمال التنباك أو الإتجار به ممنوعا جدا فقد أسرع الصادق الذي بجيبه مفتاح الصندوق ليصل قبلهم، ولكنه وجدهم عند الباب فدخلوا معه.

أراد ولد أبي بلل أن يحمل الصندوق بما فيه إلى بيت المال، ولكن الصادق فتحه وأخرج منه ورقة ليأخذها، غير أن محمد أبا بلل خطفها منه وفتحها، فاذا خطها أفرنجي. وبقدر ما ترجّاه الصادق وتذلل له من كبريائه وبالغ له في الرشوة، لم يتركه أبو بلل وأوصلها للخليفة. فطلب الخليفة ترجمتها فاذا بها أن الصادق متفق مع الحكومة[1] بسَوَاكِن لترحيل أفرنجية من أمدرمان. في صباح اليوم الثاني خرج الصادق إلى مخزن بضاعته ـ التى ملأت البضاعة فيه ثماني غرف ـ ماراً بالسوق، فكان التجار يسألونه عما حصل. ولما كنت ومصطفي الأمين من أصدقائه توجهنا معه إلى مخزنه، وهناك أخذ يتوضأ لصلاة العصر. ولما بدء في غسل يده الشمال دخل محمد أبو بلل ومعه كل الحَمَّارة [2]

---

(١) الحكومة: هنا يقصد المؤلف حكومة خديوي مصر التي استمرت تسيطر على سواكن ومنطقة صغيرة تحيط بها كل فترة المهدية.

(٢) حَمَّارة: تعني أصحاب الحمير الذين ينقلون الأحمال عليها .

بحَميِرهم وجهَادية بيت المال، فقال محمد له: «هات مفاتيح البضاعة». فما زاد الصادق على أن قال: «البضاعة كلها أو بعضها». فقال محمد بأنفة: «كلها». فأدخل يده اليسرى وأخرج المفاتيح من جيبه ورماها له على الأرض، فأخذها محمد وفتح المخازن ونقل الحَمَّارة ما فيها.

وحينما كادت الشمس أن تغرب، صلى الصادق العصر معنا في جماعة، وبعد الصلاة جلس على كرسي؛ فلما فرغ محمد أبو بلل شَمّع ما في الحواصل بالشمع الأحمر ووضع خاتمه على شريط من الناحيتين. كان ذلك أول يوم أرى فيه الشمع الأحمر. ثم تناول عِمَّة الصادق من رأسه وكَتّف بها يديه على ظهره وساقه إلى بيت المال راجلا. تركنا أنا ومصطفى الأمين حميرنا ومشينا معه بأرجلنا حتى وصلنا بيت المال. هناك وجدنا عمي العوض ومعه أبشر عثمان، الذي كان قد أقتيد من دكانه مباشرة. وجدنا عمي العوض يقول لأبشر: «يا زول أمن نفسك ولا تقتل نفسك»؛ فيرد عليه أبشر عثمان: «أنا وأحمد العجيل نموت معا أو نحيا معا»، وبقدر ما ألح عليه تمسك بمبدئه هذا.

جيء بعد ذلك بأحمد العجيل وفي عنقه جنِزير وابور[١]، ويحمل باقيه على ظهره، فوُضِعَت عليه في الحال ثلاث مَكّيات[٢] وأدخل السجن. ثم إلتفت عمي العوض لي ولمصطفى وقال لنا: «أنتما مجنونان هؤلاء جناة محكوم عليهم بالموت ماذا تريدون منهم؟ أمشوا أخرجوا حالا وإلا أدخلناكم معهم». ثم قال لنا: «خذوا أبشر عثمان معكما». فراجعناه قبل أن يدخل السجن فيؤتم أولاده بلا سبب. فلما إلتفتنا إلى أبشر عثمان قال لنا: «أنا مع أحمد العجيل، تمتعت معه ووالله وعليّ الطلاق سأموت معه»، فتركناه وخرجنا.

انظر إلى هذا الوفاء وقارن بينه وبين وفاء السموءل، ذاك بابنه في أمانته، وهذا بروحه لمجرد صداقة. اللّهم هذا أكثر وفاء ولكنه ما وجد أُمّة تسجل له هذا الوفاء. فأُدخل معه وسُفّرا معا إلى بحر الجبل وهناك توفيا. أما الصادق عثمان فقد قُيِّد وأُدخل السجن، ولم أره بعدها حيث سُفّر إلى بحر الجبل. والخبر الذي جاء عنه وقتئذ، أنه نزل على دَفّة المُركَب التي يقطرها الوابور

(١) جنزير وابور: أي سلسلة من الحديد الثقيل تستعمل لربط الوابور (السفينة النهرية) بالشاطيء أو المرفأ عند وقوفها عليهما.
(٢) مَكّيات: جمع مَكّية وهي قيد حديدي تُقيّد به الأرجل.

ليتوضأ فاختطفه تمساح، والحكم لله العلي الكبير.

يجب أن نقارن هنا بين معاملة الخليفة عبد الله لأولاد البحر حكماً من معاملته لهذين الرجلين. فقد كان الصادق بَاشبُوزُق[1] في الحكومة السابقة وأحمد العجيل كان تَرْبَال[2] ساقية. فصارت مالية الصادق بسبب صداقته لشيخ الدين تقدر بستين ألف ريال، ومالية أحمد العجيل بنصفه، فخاناه في صميم دولته. كذلك فقد آثر الخليفة أهل الغرب من أول توليه الحكم، بحيث جعل عثمان آدم بالفاشر بدل محمد خالد زقل، وحامد على بكسلا بدل أبي قرجة، ويونس الدكيم بدنقلا بدل ود النِّجُومي، الذي عَرّضه هو وجيشه للموت المحقق. وعثمان الدكيم ببربر بدل محمد الخير عبد الله، ومحمد زين بأبي حمد بدل أولاد محمد أبي حِجِل. أترك الحكم للقارئين.

---

(١) بَاشْبُورُق: كلمة تركية مثل سَنْجَك (انظر ملحوظة ٢ صفحة ٤٣)، وتعني مثلها الجندي من القوات غير النظامية (قاسم، صفحة ٧٢).

(٢) تَرْبَال: أصلها نوبي وتعني مُزارع (قاسم، صفحة ١٦٠)، وتعني أيضا عامل زراعي صغير يشتغل في متابعة سقي الزرع.

تدهور حال التجارة والبلاد:

جاء في نفس هذه السنة للمهدي أحمد مساعد ـ الذي كنت أعرفه منذ نعومة أظافري ـ شريكه حمد الكردي، وحاسبه وكنس دكانه حتى ترك رفوف الدكان خاوية. فلما سمعت ذلك طلبت المهدي في ساعته، وقاسمته ما في دكاني من البضاعة إلا الرّيحَة التي إحتكرتها داخل مخزني، وقَيّدت عليه ثمنها فصار يدافعني حتى خلصني. هكذا لم أترك له شامتا ولا أوقفت حركته التجارية. بعد قليل ربحت تجارته فاشترى بما رِبحه ريشا وسافر إلى مصر حيث إجتمع بمحمود المَكّي، وعقدا شركة مع عبد المجيد حسن قريب. وهذا الأخير جاء إلى السودان بعد فتوح أمدرمان.

توفي في تلك الأيام الشيخ عبدالغنى السّلاوي العالم الجليل الذي يحفظ القاموس المحيط تقريبا، فما تسأله عن كلمة لغوية إلا يقرأ لك كل المادة. وفي يوم وفاته زرته فوجدته حَاقِنا[١] فقال لي: «أئتني بحسن زكي[٢]»، فأسرعت له طارداً حماري. فلما جئت به وقربنا من بيته سمعنا البكاء عليه، فَبُهِتُّ ومشيت في جنازته حافيا جزعا على وحيد نوعه بين كل العلماء في اللغة والتي لم أفَتّشها في غيره. وعندما كنا ندفنه في الجَبَّانة[٣] أخبرني يوسف كُورتِي بأن صمغي أُخذ من أخي يوسف بالزَيّدَاب. فسألته عن يوسف نفسه إن كان قد وصل بَربَر سالما. فأكد سلامته بعد أن تعرض للموت ثلاث مرات. حمدت الله على ذلك وعملت حفلة فرح مَدَحَ[٤] فيها الشيخ أحمد أبو شريعة بزمالة أصحابه؛ والشيخ إبراهيم أحمد كُراع النعامة، والمشايخ على طُلْبَه، والصّاوي وغيرهم من المقرئين المصريين، فسهرنا ليلتنا تلك ونحن في سعادة.

---

(١) حَاقِنا: يعاني من عسر في التبول.

(٢) حسن زكي كان طبيبا في مستشفى الخرطوم قبل المهدية، وكان هو وعبد القادر ود ساتي على (طبيب المهدي) ممن استشيروا عند مرض المهدي الذي توفى على إثره (شقير، صفحة ٨٣٤؛ تاريخ حياة بابكر بدري، النص الإنجليزى ١٩٦٩م، صفحة ٢٠١).

(٣) الجَبَّانة: المقابر

(٤) مَدَحَ: أي أنشد الشعر الذي قيل في مدح النبي (صلي الله عليه وسلم).

في عام ١٣١٤هـ (١٨٩٦ ـ ١٨٩٧م) طلب الخليفة عبد الله محمود ولد أحمد بجيشه من الفَاشِر. عندها إنتشر الريال المجيدي في السوق لأنه كان يُصرف في رواتب جيش محمود. وبما أن هذا الريال كان يُسْبَك منقوص الوزن كان التجار يأخذون الريال منه بنصف الريال القُوشَلّي أو "أبوطيرة" ـ وهو العملة المستعملة في سواكن وقيمته عشرون قرشا. أما الريال المجيدي فقد صار بضاعة تباع بقيمة ستة عشر قرشا، فحصلت من ذلك ربكة في السوق في ثمن البضائع. فاشتكى جماعة محمود للخليفة عبد الله، مباشرة أو بواسطة أحد لا أدري. إنما الذي أذكره لهذه الحادثة أن الخليفة جمع كل التجار المعروفين، وكنت منهم، وذلك بواسطة الأمناء العشرة من التجار ورئيسهم محمد إبراهيم زروق؛ وقال: «لماذا تعتبرون الريال للأخوان جماعة محمود أحمد نصف ريال ؟». فخاطبه محمد إبراهيم زروق قائلا: «يا سيدي.. السبب أن التجار حينما يصلوا في سواكن لا يُقبل الريال المجيدي المَسّهُوك إلا في نصف ريال قوشلي، لأن المجيدي أصبح بضاعة في سواكن يشترونه كفضة غشيمة». فغضب الخليفة عبد الله وقال: «أصحاب المهدي يدخلون عند الكَفَرة؟». قال: «نعم يا خليفة المهدي». فقال الخليفة: «الله عالم وشاهد النور الجريفاوي[1] وجماعته قالوا أصحاب المهدي يجتمعون بتجار سواكن في كُكْريب يستلموا منهم البضاعة ويسلّموهم الصمغ». فقال محمد إبراهيم: «أنا يا خليفة المهدي لا أكذب عليك، الحقيقة هي ما أخبرتك بها». فغضب الخليفة ودخل بيته؛ وفي الغد منع التجار من سواكن (سبقت الإشارة لذلك صفحة ٢٥١).

إجتهدت في إحتّكار الرّيحَة اليابسة لأنه كان عندي منها قرنفل كثير، وصرت اشتري كل الوارد منها، حتى جمعت نحو أربعين قنطارا. بعد قليل إنقطع الوارد وعدمت عند غيري بالسودان، فصرت أُخرج كل يوم قدر قِنطَارين، لا أبيع منها الا للفَرَّاشة (أي التجار الصغار). كنت أبيع لكل واحد منهم ثُمن قنطار ـ أي إثني عشر رطلا ونصف الرطل ـ بثمن أفرضه عليهم

(١) النور الجريفاوي: انظر ملحوظة ٣ صفحة ٢٥٧.

فرضا؛ ولم يكن هناك وقتئذ تموين بل كان كل السوق سوق سوداء، حتى نفدت ريحتي.

اشتريت في شهر ربيع من هذه السنة (١٣١٤هـ أي حوالي أغسطس - سبتمبر ١٨٩٦م) مؤونة ستة أشهر من الغلال بسعر الأردب ريال وربع الريال، وأودعت عند والدي ما أردت حفظه من النقود للطوارىء. وسبب ذلك أن الخليفة عين محمود ود أحمد لعبد الله ود سعد[١]، والحكومة[٢] إستولت على أبي حمد. فقال لي والدي: «إشتر بكل هذه النقود التي سلّمتني إياها غلالا واحفظها في الأرض». فقلت له: «ان الغلال ما دام ولد السني[٣] مسيطر عليه في الجزيرة لن يتعالى ثمنه». قال: «ولِمَ ؟». قلت: «لأنه يوجد عنده الجِهَادية والمناديب ومن يتبعونهم وهم يبيعونه رخيصا». فقال لي بعد أن تَبسّم: «هذا من أسباب تعاليه، لأنه اذا أجدبت سنة أو إتوسطت (أى كان المحصول متوسطاً) يأخذ أحمد ولد السّنّي ومناديبه مؤونتهم ومؤونة باب [٤] الخليفة، وينعدم الغلال فترتفع قيمته ارتفاعا غير منظور». فما سمعت كلامه، ولما جاء شعبان وطُلب مني الغلال، نزلت البحر فوجدت الأردب ستة ريالات.. فأشتريت منها مؤونتنا لآخر محرم. وفي أول صفر جاءنا خبر قتل عبد الله ولد سعد ومن معه بالمَتمَّة بواسطة جيش محمود، وقتل حسنين ومن معه بالزَّيدَاب بواسطة علي فَرْفَار[٥]، وانقطعت المواصلات. فلما طُلبت الغلال ثانية وجدت

---

(١) انظر ملحوظة ٢ صفحة ٢٦٢ وملحوظة ١ صفحة ١٢٥.

(٢) الحكومة: هنا يقصد المؤلف الحكومة المصرية الإنجليزية أو بمعني أدق الجيش الغازي بقيادة كتشنر.

(٣) ولد السُّنّي: هو أحمد السُّنّي العامل على مَدَنيْ (انظر ملحوظة ١ صفحة ٢٠٧) وكبير عمال المهدية في الجزيرة، حيث يزرع معظم محصول الذرة في السودان.

(٤) الباب: كلمة مستمدة من استعمالها فى الحكم التركى السابق فى السودان، وهى لقب للحاكم أو حاشيته أو مكان سكنه، وهنا تعنى خليفة المهدى.

(٥) كان هذا قائد تحت إمرة محمود ولد أحمد، ندب لاخماد الثورة التي شبت بالزَّيدَاب فى نفس وقت ثورة عبد الله ود سعد بالمَتمَّة، وثورة الزيداب كانت بقيادة شخص يدعي حسنين.

الأردب باثنى عشر ريالا، واستمر في هذا الثمن حتى شهر رجب من سنة ١٣١٥هـ ، وبعدها صار الأردب ثلاثين ريالا. نفدت غلالنا وقَلَّت نقودنا، وأفراد عائلتنا ـ رقيقا وأحرارا وضيوفا ـ يزيدون في مجموعهم على الأربعين نفراً. ومما زاد الطين بِلَّة أن وضعت الرّسالة[١] ولدها إبراهيم بدري يوم ١٥ شعبان ١٣١٥هـ (٩يناير١٨٩٨م)، فخسرنا في تسميته واشترينا خادمة لوالدته. كذلك طلب مني صديقي مصطفي الطاهر مبلغا يسمي به ابنه عمر ـ الذي وضع في شعبان أيضا ـ فدفعت له ما كان معي من النقدية وهو ريالات قليلة.

تصبّرت وكيف يصبر رب عائلة كهذه فقدت مؤونتها، فحاورتني نفسي أن أطرق باب أصحابي يسلفوني. فبدأت بأبناء عمي (ممن كنت أستضيفهم)، فتنكّروا لي، وبعضهم رحل من بيتي، فتصاغر عند ذلك كبريائي وتنازلت عنه وقلت:

ذا المالِ لا تَغترْ فالمال غـرّارُ
الناسُ بالناس والمحتالُ محتـارُ

كم للضرورةِ أحوالٌ تبيحك ما
قد تَقْشَعِرُّ لذِكراه وتحتارُ

قد كنت أزعم أني لا يزعزعني
عُسْرُ ويسرٌ لدى الحالين صَبّارُ

لكن طفلا وشيبا عز صبرهما
الطفل يبكي وصَرح الشيب ينهارُ

زعمت ألا أقوم الدهر من أحد
ببابه صَاغرا إن حَلّ إعسارُ

لما اقتحمت من اللأواء لُجّتها
قد صار عزمي و عزم القوم خوّارُ

---

(١) الرسالة: زوجة يوسف بدري أخ المؤلف.

وصـار كـلُّ حبيـبٍ كنـتُ آملـهُ
لكـربتي شـامتاً للعُـرف نَكّـار
فصـار يقتادني ذلُّ الطميع إلى
بيـت اللئيـم وما للجـود ديّـارُ
حتى لجأت إلى من ليس يهملني
فـاسبـل السـترَ إنّ الله سَـتّارُ

رحلتي لرُفَاعَة قبل الغزو:

وأنا في هذه الحيرة، جاءني موسى يعقوب وهو من أصدقائي، ولكني لبخله لم أطرق بابه. جاءني ليكلفني أن أمشي معه إلى رفاعة قائلاً: «بلغني أن ابن عمكم مختار العامل سيقلع مَطَّامِيري(1)». إعتذرت له لعدم وجود غلال بمنزلي ولا يمكنني أن أترك عائلتي بهذا الحال وأسافر. فسلّفني أردب قسّمته عليهم وقمت معه؛ وكان ذلك من فضل الله الذي سخره لى. وعند لقاء مختار لموسي قال له: «يا موسي، إني كنت مشتاقا لزيارة بابكر لي برُفَاعه فلما رأيته معك تمنيت أنه لم يأتني؛ أنت يا موسي سمين وأبيض حتى كنت أظنك من البساريين (جماعة من مواليد الهلالية كبيري الأجسام)». ثم أضاف: «كنت عازما أن أقلع مطّاميرك، وأنت تنظرها فلا يُقيّد لك أكثر من نصفها، والباقي يكون خشم وسوق وعلائق وحق الفعلاء والخفراء، ولكن عندك بَخْت لأن بابكر جاء معك». أعطاني مختار خلال هذه الزيارة ست أرادب؛ فقلت لموسي: «إستلم أردب سُلفتك هنا، وأنا أعطيك أجرة ترحيله». فقال: «لا، اذ قد تغرق المركب في الترحيل»، ورفض بتاتا إستلام الذرة في رُفَاعة. ولكنّي عند عودته لأمدرمان أرسلت أرادبي معه وطلبت منه أن يسلمها والدي.

---

(1) مَطّامير: مفردها مطمُورَة وهي حفرة عميقة تحفر في الأرض لتخزن فيها الغلال.

تأخرت مع مختار، الذي أخذني معه في مروره على ضواحي رُفَاعة، ووجدته يصطحب معه الشيخ إبراهيم مدني نديما له لأنه ظريف وعالم. ولما وصلنا معه حلِّة "الطُنْضُب" وجدنا كبار قبيلة الشُكريِّة هناك في إنتظاره، وهم المشايخ محمد عوض الكريم وعبد الله عوض الكريم وعلى الهَدَّ وحسان أبو سنِ(١). فجلس مختار على "مَقْلُوبة"(٢) عليها فَرْوَة، وجلسنا نحن مع أولاد أبي سن. دخل علينا في مجلسنا مختار ولد الحسين، ومحمد ولد شُوش، ومحمد ولد أحمد، وكلهم من أقارب عبد الله ود سعد. فدارت بالمجلس سيرة عبد الله سعد بمناسبة حضور محمد شُوش من المَتمَّة، فقال على الهَدَّ: «عبد الله ولد سعد شنو الأضَيْنَة فَضَح بنات عمّه». فغضب مختار (العامل) حتى ورمت أنفه وصبت دموعه، ثم إلتفت الى ولد الهَدَّ وقال له: «يا على، عبد الله ولد سعد ما قال طُلبت منى أشياء أنا لا أُسلم بها حتى أموت فتجري بَعدِي ؟ وفعلا وقف دونها حتى مات. ما عليه في ذلك عَيْبَ إنما العَيْبَ على الناس الذين قالوا نحن نَنشَف في المكان الذي مطّرنا فيه، وما نفذوا ما قالوا وماتوا والقيود بأرجلهم»(٣). فإلتفت إليه محمد أبو سنِ أخوه وقال له: «شنْ من بَلادَة دي يا على؟.. الزُوْل يقول كلاماً يندم عليه ويُنَبَّذ فيه !».

بعد ذلك خرج محمد ولد شوش وطلبني وقال لي: «أنا سمعت بأن مختاراً زاره أحد أولاد عمه المقربين عنده، وجئت لك بمختار ود الحسين ومحمد ولد أحمد كشاهدين، ليُرجع لي مختار غلالي الذي قلعه وسفره لمنزله بأمدرمان، وإن لم يرجعه لي إشتكيته. ولكن الأن أرجوك أن تقول له: قال لك عمك

---

(١) جميعهم فيما عدا حسان أبناء شيخ عوض الكريم أبو سنِ ناظر قبيلة الشُكرية (انظر ملحق ٥).

(٢) مَقْلُوبَة: حصير سميك يستعمل للصلاة ويصنع من القصب.

(٣) المعنى لهذه المحاورة أن الخليفة عبد الله طلب من عبد الله ود سعد تنفيذ طلبات منها إخلاء شَنْدِي وتحضير مؤونة لجيش الخليفة في حربه ضد جيش كتشنر الغازي، فرفض عبد الله ود سعد تنفيذ ما طُلب منه، فجاءه جيش الخليفة بقيادة محمود ود أحمد وقتل عبد الله ود سعد. ومن ناحية أخرى طلب الخليفة عبد الله من شيخ عوض الكريم والد علي الهد وإخوانه الحضور لأمدرمان بعد وفاة المهدي، ومعه رؤوس قبيلته لتجديد البيعة له؛ فرفض شيخ عوض الكريم ذلك، فأحضره الخليفة رغما عنه وسجنه وكبله بالقيود. وهذا هو معنى «ناس قالوا نحن ننشف بالمكان الذي مطرنا فيه» أي لن نتحرك من مكاننا خريفا أو صيفا، ولكنه أخذ عنوة وسُجن.

محمد ولد شوش كلام على ولد الهَدَّ الذي رديت عليه وأخجلته به في المجلس يقصدنـي به، وقلت له أنت كلاما أنا لا أستطيع أن أقوله له في هذا الوقت. أخبره أني قد عفيت له غلالي لايُسأل عنها في الدنيا ولا في الآخرة. وعليّ الطّلاق اذا بقى لي شيء في خيلي لأهديت له أفضلها، واذا كنت في حالي في المكانة والميسرة لكنت أزوجه ابنتي نظير هذا الكلام والسلام».

دخلت على مختار وقبل أن أخبره، جاء الغداء فقال له الشيخ محمد أبو سن: «تفضل يا العامل». فنهض مختار قائما وقال: «أنا آكل عندكم ؟! آكل السم اذاً»، ونادى: «شدّوا زواملنا». فشددنا ومشينا إلى عِدّ الحاج[1]. ونزلنا هناك بمنزل مختار حسين، الذي تركناه معهم بالطُنْضُب، فذبحوا لنا خروفا تغدينا وتعشينا منه. وخلال مكوثنا طلب مختار وكيله المأمون طه، وقال له: «أنت قَلعت غلال محمد شوش ؟! إذاً فأذهب في هذا الليل وافتح مَطَّاميره وأملأها من غلال الشُكريّة وأدفنها القَصّابي قَصّابِي، والفيتَريتَه فَيتَرِيتَه[2]، وتأتني غدا العصر برفاعة لتخبرني بأنك نفذت أمري تماما»؛ فنفذه.

(١) عِدّ: اسم يطلق على مكان وجود المياه حيث تجلب المواشي للشرب.

(٢) القَصّابى والفَيتَرِيتَه نوعان من أنواع الذرة بالسودان، والمقصود هنا أن يضع ذلك الشخص كل صنف من الغلال منفصلا عن الآخر.

حوادث جديدة مع عمي مالك:

بعد عودتي من رفاعة، علمت أن لعمي مالك رَحَل مرمر[1] مخبئه بمنزل محمد اليمنى بالسوق، وقد انكشف أمرها. بحثت عن عمي مالك لأخبره، فوجدته بمنزل عبدالقادر محمد ولد الأمين، كاتب الأمير يعقوب، فأخبرته. ولكنه وضح لي من كلامه أنه ربما يتهمني بافشاء سرّه، فحلفت له حتى وثق من براءتي. أشرت عليه بان نمضي لمحمد أحمد كاتب الشُّونه؛ لأنا نعرفه فنُرشّيه ونأخذ من كل عِدْلَة نصفها. لكن أبَى عمي مالك ذلك وقال إن إبراهيم رمضان أمين بيت المال صاحبه، وكان جاره قبل ترحيله من السُّور[2]، وهو سيمشي له في المغرب بمفرده، ويعمل معه الترتيب. فوافقته على ذلك ولكن سرعان ما غيّر فكره ومشى للشيخ محمد عمر البنآ[3] فوسّطه لإبراهيم رمضان وأعطاه خمسين ريالا ليعطيها إبراهيم رمضان؛ لكن إبراهيم رفض وغضب غضباً شديداً. فلما قابل عمي مالك الشيخ البنّا قال له: «قابل إبراهيم رمضان ببيت المال غدا». ما شككنا أنه اتفق معه على شيء يريحنا. فلما قابلنا إبراهيم رمضان ماكان منه إلا أن طلب سروراً السجان وأمره بسجن عمي مالك. فقلت له: «عمي إبراهيم نحن لنا أمل أن تعطينا بعض البضاعة».

---

(١) المرمر: نوع من القماش ناعم كالحرير.

(٢) السُّور: هو الحى الملاصق للسُّور المحيط بمدينة أمدرمان لتحصينها، وقد تم ترحيل بعض ساكنيه لاستعماله ثكنات للجيش في أواخر المهدية، ونفس الأسم استمر يطلق على ذلك الحَيّ بمدينة أمدرمان إلى اليوم.

(٣) الشيخ محمد عمر البنّا: درس في الأزهر وعاد منه في أول المهدية التي انضم اليها في ذلك الحين، وكان من المقربين للخليفة عبد الله ومن مستشاريه. وقد طلب منه الخليفة الإشراف على تعليم أولاده الفقه واللغة. كما نظم الكثير من الشعر في المهدية منها القصيدة المشهورة التي نظمها في قَدير ومطلعها:

الحرب صبر واللقاء ثبات　　والموت في شأن الإله حياة

وبعد الغزو المصري الانجليزي عمل مفتشا على المحاكم الشرعية. وهو أيضا والد الشاعر الفحل عبدالله محمد عمر البنّا (على المك، صفحة ٩).

فقبض بيده حفنَة من التراب وقال لي: «دي ما أعطيكم إياها». فقلت له: «الأرض نحن نمشي عليها وبنينا بيوتا فوقها». توجهت لعبد القادر الأمين الذي جاء معي في الحال، وكانت النتيجة من مجيئه أن شاتم إبراهيم رمضان وأغضبه حتى زيدت أغلال عمي مالك. فمضيت في صباح اليوم الثاني للشيخ بانّقا ـ وكيل راية يعقوب الزرقاء ـ فحضر معي، ولما قابل إبراهيم رمضان ضحك معه، وقال له: «يا إبراهيم، مالك صديقك وجارك واعتماده عليك بعد الله.. تسجنه؟!». فضحك ابراهيم رمضان وقال له: «سجنته لتساهله ومن العجيب أنه وسّط لي الشيخ محمد عمر البنّا نديم خليفة المهدي، وأنت تعرفه خفيف اللسان يقول ما يشاء وما لا يشاء، وأنا خفت أن ينطق عند الخليفة بهذا فأُعطب.. ولكن الآن نطلقه لكم». قال: «نعم تطلقه وتعطيه شيئا من بضاعته». قال إبراهيم: «والله البضاعة سُجِّلت وبيعت ولكن أعطيه ما تطلبه له من الصمغ». فاتفقنا على أن يعطيه صمغا بثلث قيمة الرَحَل، ويضعف من قيمة الصمغ حتى توازى نصف قيمة بضاعته، فعمل بذلك. لكن شيخ بانّقا رجع قبل أن ينتظر فك أغلال عمي مالك، فأحالني إبراهيم رمضان برسول إلى السجان الذي أقسم أن لا يحل أغلاله إلا بثلاثين ريالا؛ أرجعناها لعشرين. فمشيت إلى منزل عمتى أم إبراهيم (زوجة عمي مالك) وأخذناها منها. وبعد إطلاقه مباشرة أخذ عمي مالك سُرِّيَّته "صَافي النِّيَّة" وركب حماره وخرج من أمدرمان، التى لم يرجع لها إلا بعد أن وصل الجيش الغازي قرية السّبَلُوكة.

بعد عودتى من رُفاعة وسفر عمي مالك صدر أمر من الحكومة [1] بأن كل من له صمغ بالوكالة ـ التي صارت ثكنة للجيش ـ ولم يحوله في ظرف أربعة أيام يُصادر. وكان لعمي مالك نحو ستين رحلاً، فأخبرت أم أولاده الكبيرة بها فاعطتني وقية ذهب، واستلمت من شريكه عبد الرحمن المربوع أردباً من السمسم. بعت الأثنين ورحّلت الصمغ إلى منزلي ـ الذي أسكنه بالأجرة ـ لقربه من الوكالة. فلما صار الفتح واطمأن الناس، جاءني عمي مالك بمنزلي الذي به الصمغ، وبعد الغداء قال لي: «أنا أطلبك مائة ريال». قلت له: «حقيقة لكن

---

(١) الحكومة: في هذه المرة يقصد المؤلف بها الحكومة المهدية.

أمهلني حتى أبيع هذا الصمغ وأعطيك إياها »، فضحك وقال لي: « والله تعملها يا ظالم ». قلت له: « يا عمي مالك رؤساء المراكب، والعتَّالة الذين أخرجوه منها، والحمّارة الذين أوصلوه هنا كلهم أنا الذي دفعت لهم الأجرة، ويعترفون بذلك، وهو الأن بمنزلي ». فقال لي: « تمام .. تعملها يا ملعون »، وضحكنا وركب لأهله.

في تلك الأيام وصلنا الخبر الأكيد أن صمغنا وما معه من الريش والنطرون، جُعل للضعفاء من أهل الزَّيداَب الذين سَلِموا من الموت. وطبعا إختل عندهم الأمن وفسدت الحِّرف، وانتابهم الجوع؛ فجعلوا يبلّون الصمغ ويأكلونه؛ والأقوياء منهم يحملونه على الطّيفَان[١] للدامَر أو لبَربَر، ليبيعونه ويشترون بثمنه الغلال. بعد مدة بلغ يوسف خبر الذين يحملونه لبَربَر، فجعل يحتّج عليهم فكان بعضهم يقسمون له ببراءتهم وأكثرهم يهرب. فرجع لنا بعد الفتوح بتسعين جنيها فقط.

قبل مجيء يوسف طلبت من ابن عمي علي صديق ـ الذي إشترى ذهباً[٢] من أمدرمان ليخف عليه حمله ـ أن يسلفني إياه، ونكتب ليوسف ببربر يعطيه قيمته، فرفض. ولما سمع أحمد محمد ماحي بك الرُّباطابي بذلك أرسل إليّ من نفسه ليعطيني ما أطلب؛ وفعلا إستلفت منه أربع أوقيات. وهذا الأخير تجمعني معه لحمة الرُّبَاطَاب[٣] في الجملة، وعلي صديق هو ابن عمي وضيفي ـ ومعه سرِّيَّته ـ وبعد هذا استمر ضيفنا دون مبالاة يطالب براحته إلى أن سافر.

وفي يوم آخر جاءني عمي مالك وقال لي: « إن إبراهيم باكراوي ومن معه أكلوا[٤] مني ألفي ريال أو أربعين ريالاً قوشليا (إذ أن الريال القوشلى أصبح

---

(١) طيفان: جمع طُوْف وهو نوع بسيط من القوارب (انظر ملحوظة ١ صفحة ٢٥٧).

(٢) يبدو أن تقدم الجيش الغازي من الشمال جعل الأحوال غير مستقرة فأصبح الناس يشترون الغلال لضمان غذائهم ويستبدلون نقودهم بالذهب لضمان قيمته. أيضا كانت الحكومة المهدية تتشدد في فرض الضرائب وجمعها، مما أدي لإنخفاض سعر العُملة المحلية وارتفاع سعر العُملة الأجنبية، كما سيرد.

(٣) لحمة الرُّباطاب: علاقة الدم بين أبناء قبيلة الرُباطاب، والمقصود هنا أن المؤلف وأحمد محمد ماحي بك لا تجمعهما صلة إلا إنتمائهما لقبيلة الرُباطاب.

(٤) أكلوا: أي خدعوه وأخذوا فلوسه.

يساوى خمسين ريالاً محليا) وقد أمضوني عليها مرتين. وهي مبلغ كان يطلبني أياه ولد الشقليني فدفعوها له، ولكنهم أرسلوه لي فمشيت معه ووقعت عليها مرة ثانية ». قمت أنا ومشيت لبخيت سليمان، وهو أصدقهم والذي بعهدته دفتر حسابهم الأصلي النظيف، وقلت له : « هذه المسألة تكشف قلوبكم، خصوصا أنت تَقِل ثقة الناس فيك. أطلعني على دفتركم النظيف لأنظره، هل عمي مالك في هذين التاريخين أخذ منكم مالا مرتين ؟ ». قال لي: « أمهلني حتى يحضر شركائي ». فقلت له: « الأمر لا يحتاج لحضورهم ». فضحك وقال لي: « خلّصت عمك منّا، وقد كنت أخبرتهم أنك ستأتي وتأخذها منّا فالأحسن نتركها، خذها استلمها وشيّلها حمالا ». أخذتها لعمي مالك؛ ولّما استلمها وعدّها قال لي: « أنت حرامي مثلهم لذلك خلّصتها منهم »؛ ودفعت أنا أجرة الحَمّال.

الفصـل التـاسـع

صفحة

الأشهر الأخيرة بأمدرمان:

قريباً من ذلك الوقت وردت لي ثمانية رُحُول من الصمغ من الدّوَيم في مركب، فدخل عليها بعض الجِهَادية الذين كانوا قد دسوا فيها تنباكا كعادتهم، وبحثوا حتى بَيّنوه؛ فضُبطت بالمركز ونقل صمغها إلى بيت المال. فأخذت أحاول مع عمي العوض المَرّضي أن يترك لي صمغي فلم يقتنع. وفي مرة وجدته ومعه عمي علي إبراهيم شمو، وفي محاولتي لعمي العوض قلت له: «يا عمي العوض انظر للرَحم بيننا». فسألني: «أنا رُباطابي ؟!. قلت له: «ما جنسك ؟». قال لي: «من الجزيرة فُتوَار»(١). قلت: «أنت ما سمعت الرُباطابي قال لإمرأته: ناس فتوار مثل البغل مع الحمار يهنقون، ومع الحصان يَحنحِنون (يصهلون)». فضحك عمي على إبراهيم وقال له: «عليك الرسول يا العوض تعطي بابكر صمغه لأنه صبي طاعم»، ولكنه لم يقتنع. أخبرت والدي بالأمر، فقال لي: «أعمل له غداء وأوصلني إياه». فدعوته فأجاب ولمّا جاء الغداء أخذ عمي العوض قطعة لحم وجعل يمصها مصا؛ لأن أسنانه كانت مُخلّعة؛ فقلت له: «إن محمداً أبا حجِل منذ بدأت سنونه بالقلع حرّم اللحم»؛ فما أخذ عمي العوض بعدها لحما، ولكنه لم يقتنع بردّ الصمغ. وفي يوم جئته أول المكتب ووجدت معه عمي الأمين أبا سن، فجاء الشيخ بانّقا (وكيل راية الأمير يعقوب) يريد مبلغا كبيرا من المال؛ فلما رآني عمي العوض قلت له: «والله العظيم ربنا اليوم يُخلّص لي منك صمغي بوجود صاحبيّ نعمتي سابقا ولاحقا». فأخبرتهما خبري فتوسّطا لي عند عمي العوض، الذي قال للشيخ بانقا: «اذا أردت أن تعطيه الصمغ فحرر له إذنا بنصف قيمته كمنصرف لك ضمن طلبك»؛ فحرر له الوصل في الحين. وكتب العوض لي لمحمد أبي بلل الذي أخذ مني أربعين ريالا رشوة زيادة على الأتعاب التي قاسيتها، واستلمت منه الصمغ وكانت عليه علامتي المكتوبة على طروده !.

---

(١) الجزيرة فُتْوَار: إحدى الجزر على النيل فى منطقة قبيلة الرُباطاب بشمال السودان.

كان لى فَرخ[1] يدعى رزق الله، ضمن عبيدي ولكنه هرب مني وبعد مدة وجدته عند جماعة من التعائشة، ففديته منهم بنقود. ولما أخذته للبيت وجدت بيده داغًا[2]، وهو حرف (ج) يوضع بين السبابة والإبهام علامة بأنه جِهَادي. وفى نفس ذلك الوقت كان عثمان شيخ الدين ـ أكبر أولاد الخليفة عبد الله ـ قد عينه والده لرد المظالم، فأخذت فَرْخِي وكتبت عَرْضَحالاً[3] أطلب فيه كتابة شهادة بملكيته أحفظها عندي، أو يستبدلونه مني بقيمة أو بعبد غيره، أو يستلمونه مني قبل أن أعتبر مالكاً لأحد الجهادية ـ وهذا بالطبع كان ممنوعا. جئت وبركت على رُكبتيّ أمام شيخ الدين بالجامع بين صلاتي الظهر والعصر. وكان عند يمينه الشيخ الطيب هاشم الذي نُدب لتعليمه العربية، ووجدت أمامه مُولَّد ريف[4] من كُردُفان يتكلم معه بما يخالف ما بأعراضه (أي يخالف ما فى الطلب المكتوب منه). فقلت لصاحب العَرْضَحَال: «كلامك مخالف لعرضحالك خذه ليقرأه أحد لك، ووافق بينهما ثم تعال لسيدنا». قال شيخ الدين: «قل له يا سيدي». ثم تناول عرضحالي من عِـمّتي[5]، فلما قرأه قال لي: «أنت غير شاك ولا مشكيا». قلت: «نعم»، فأخذ العرضحال وقال لي: «تعال باكر تجد عرضحالك على أسطى» (وهي كلمة تركية معناها تماما كما تريد). ولكن للأسف فأِن عثمان أصبح معزولا[6] فاحتفظت بِفَرخِي حتى سقطت أمدرمان، وهرب مع من هربوا من رقيقي.

---

(١) الفَرخ: هو العبد بلغة السودانيين العامية.

(٢) الداغ: الوشم

(٣) عَرْضَحال: خطاب يكتبه الفرد للقاضى أو للحاكم يعرض فيه حاله أو ظُلامته.

(٤) مُولَّد ريف: انظر ملحوظة ١ و٥ صفحة ٢٤٦.

(٥) كانت العادة أن يركع صاحب الظلامة أمام الخليفة أو من يمثله ويضع طلبه في لفّة عمامته وأثناء ركوعه يؤخذ الطلب من على العمامة للنظر فيه.

(٦) سُحب شيخ الدين من هذه الوظيفة لإنشغاله بقيادة جيش الملازمية وبالتحضير لشؤون الحرب ضد الجيش الغازي .

جائني في أحد الأيام موسى يعقوب، وأخبرني أن مختار محمد ـ العامل ـ مَحُمْوم[1]، وطلب مني أن أقوم معه لنزوه. فركبنا، ولما وصلناه وجدنا معه ملازمية[2] الأمير العظيم يعقوب* وهم علي أحمد فضيل، وآدم جديد الحريري، ودوديه بدوي، وآخر يدعى داؤد ـ وكلهم من قبيلة الجوامعة من غرب السودان؛ وكان أمامهم سموار[3] نحاس أصفر فيه ماء لصنع الشاي. وبينما كنا نتحدث سمعنا صوت الوابور الآتي بنساء المَتمَّة ممن قتل أو أسر ولاة أمورهن، فنهض داؤد قائما وضرب جبَّته على وركه بيده نشطا، وقال (بلفظه): «كَبْ.. أمشي لخليفة المهدي يدّيني جَعّلية أسويها سرِيّة». فما أتم كلامه إلا ونهض مختار المريض ورمى ثوبه الذي كان مؤتزرا به وقام بسرواله فقط، وضرب داؤد صفعة كادت تلقيه على الأرض وضرب السموار برجله، وقال:

---

(١) مَحمُوم: مريض بالحمى.

(٢) ملازمية جمع ملازم وهو الجندي الخاص في جيش المهدية ممن يلازمون الأمراء.

*حاشية للمحقق: الأمير يعقوب بن محمد ينتمي إلى قبيلة التعايشة احدى فروع قبائل البقارة، وهو أخو الخليفة عبد الله من أبيه وأكثر الأخوه شهرة بعد الخليفة. وممن إشتهروا خلال المهدية غيره السنوسي أخو الخليفة من أمه، وقد أسندت إليه رئاسة الجبارات التعايشة، ومنهم أيضا هارون أخوه من أبيه (شقير، صفحة ٨٩٤). إلا أن هناك شيئا من الإرتباك في ترتيبهم حسب أعمارهم اذ يقول بعض المؤرخين كشقير(صفحة ٢٧١) وزلفو(صفحة ٢٥٨)، أن يعقوب أكبر من عبد الله، وسلاطين (صفحة ٥٤) يقول إن الخليفة عبد الله أكبر سنا؛ لكنهم يجمعون على أن يعقوب كان أكثر حظا في التعليم، ويرون أنه كان أقرب الإخوان للخليفة. ويعقوب هو أول من انضم منهم للمهدية وهي في بدايتها بعد الخليفة مباشرة وذلك في عام ١٨٨١. كما أن الخليفة اختاره لمساعدته في تصريف شؤون الراية الزرقاء (السوداء) خلال الحروب الأولى للمهدية قبل وفاة المهدي (زلفو، صفحة، ٢٥٨). ثم برز دوره بعد أن أصبح الخليفة عبد الله رجل الدولة الأول عند وفاة المهدي في عام ١٨٨٥م. فأصبح يعقوب هو المشرف على الجيش والمسؤول عن إمداداته ومعداته الحربية. وصار أيضا بمثابة وزير الداخلية المسؤول عن عمال (حكام) الأقاليم، بالإضافة إلى مسؤوليته الكاملة عن أمدرمان عاصمة الدولة. هذا فوق إستشارة الخليفة له في كل شؤون البلاد المالية والقضائية والإدارية والتنفيذية والتشريعية؛ بذا فقد كان بمثابة رئيس الوزراء للدولة والمسؤول الأول بعد الخليفة. وهذا هو نفس الدور الذي لعبه الخليفة بالنسبة للمهدي قبل وفاته (شبيكة، صفحة ٦٩٦ ـ ٦٩٧). اشتهر يعقوب بالرزانة وسعة الصدر والكرم والتواضع حيث لم يكن يقصده شاك أو متذمر أو مظلوم إلا وخرج منه راض وقد نال حقه وأزيح عنه الظلم. وقد لقب لهذا ولحكمته «بجُرَاب الرأى» (شبيكة صفحة ٦٩٧ : ضرار صفحة ١٧٣). استشهد يعقوب فى واقعة كرري في ٢ سبتمبر ١٨٩٨م، وبموته فقد الخليفة عضده الأول وحزن عليه حزنا شديدا (راجع ما ذكره المؤلف **في هذا الموضوع صفحة ٣١٣ ـ ٣١٤**).

(٣) السموار: إناء لغلى الما .

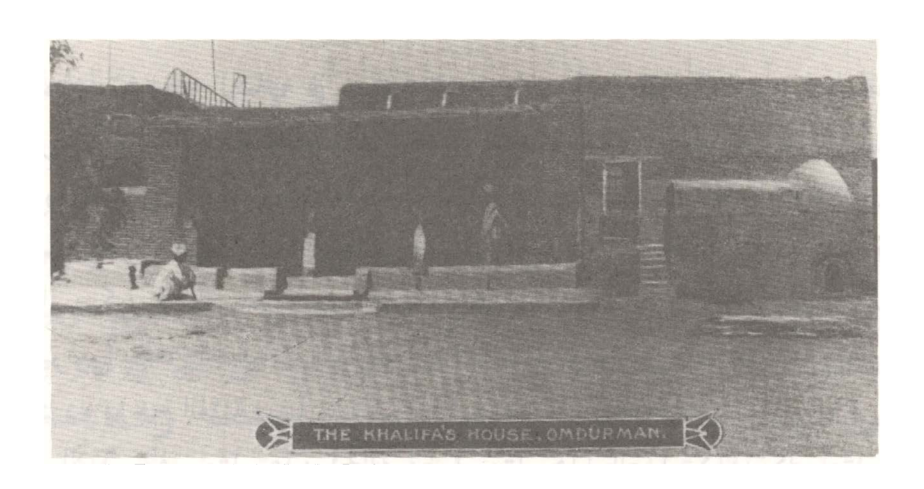
«كمان تشرب الشاي في بيتي تشرب سمّاً». فقال داود: «يا مختار تضربني؟». قال: «وأقتلك.. هل خليفة المهدي يعمل الجَعّليات سراري؟ وهل يقدر يعملهن إذا أمدرمان ما تقيد ناراً؟». خرج داؤد مغضبا، وخرج بعده موسى يعقوب فزعا وساد المجلس صمت عميق. رجع مختار الى سريره وتدثر وصار يبكي. فنهض علي أحمد فضيل واقفا وقال: «والله يا مختار خليفة المهدي ما يرضى يجعل الجَّعليات سراري. ووالله إنه لا يمكن أن يأمر بذلك. وأهو مثل داود ده يؤجج الفتنة بيننا وبينكم»[1]. وبعد أن خرجوا قلت لمختار: «في مثل هذه الأيام وفي مثل هذه الحالة تعمل مثل هذا العمل؟ وتتكلم مثل هذا الكلام؟». جلس على عنقريبه وإلتفت إليّ مغضبا وقال لي: «أنا عارفك جبان، ماذا يريدون أن يعملوا لنا أكثر من ذلك، وما قيمة الحياة بهذه الحالة؟»، ثم هاضته الحمى فرقد. وَدّعته وانصرفت مستعجلا لأدرك بيت المال؛ لأخرج بتول بنت ولد ضبعة ـ بنت أخت عبد الله بك حمزة، وأخت السيد الذي بلغني أنه قُتل في المَتمَّة ـ لعلي بذلك أقدم لعمي عبد الله بك يداً وأساهم بواجبي للجِّعليين المأسورين؛ ولكني كنت لا أزال مشغول البال بما يحصل على مختار.

سار داؤد من توه إلى الرجل العاقل الحليم الحكيم الأمير يعقوب متهيجا، وطبعا حكى له ما صار من مختار. فأرسل الأمير يعقوب في الحال للشيخ بانّقا موسى وقال له: «أمش إلى خليفة المهدي الآن وأحكي له ما حصل من ولدكم مختار، واعمل فكرك في أن خليفة المهدي يعفو عن نساء المَتمَّة، وسلّم كل واحدة منهن معارفها قبل غروب الشمس». فسار بانّقا ودخل الباب[2] وحكى لخليفة المهدي ما قاله مختار، كمتبرىء منه ومخطىء لمختار. وقد روى لنا بانّقا نفسه فيما بعد: «أن الخليفة إستوى جالسا وقال: يا بانّقا، يعقوب عرف هذا الكلام؟. قلت: نعم. وأرسلني إلى خليفة المهدي أبلغه اياه. قال الخليفة: وما رأي يعقوب؟. قال: اضطربت ولكني خفت ما يعود عليّ من المسئوولية،

---

(١) أي بين السودانيين من قبائل النيل وقبائل غرب السودان.

(٢) الباب: لقب يطلق على الخليفة أو مكان سكنه (انظر ملحوظة ٤ صفحة ٢٧١).



بيت الخليفة عبدالله بأمدرمان

فقلت: رأي سيدنا فوق الجميع. قال بحدة: ماذا قال يعقوب ؟. قلت: يفوض لخليفة المهدي ويرى أن تقسّم هذه النسوة لمعارفها قبل غروب الشمس. قال: أمش من ساعتك هذه لبيت المال وأعط كل إمراة لمن يعرفها أو تعرفه، وشجعوا الناس على دخول بيت المال. مختار جزاه الله خيراً». قال بانّقا: «فإنقلب خوفي أمنا وجُبني شجاعة وحزني سرورا، ورجعت إلى سيدي يعقوب وأخبرته فارتاح إرتياحا ظهر فى أسارير وجهه، ونفذت أمر الخليفة في الحال».

قلت إني أردت أن أخرج بتول بنت ولد ضبعة، فلمّا وصلت بيتي صرت أفكر في الطريقة التي تدخلني على النساء ويتردد فكري فيما اذا كان الدخول عليهن مسموح، أم أنهن وضعن في سور مخصوص وعليهن خفراء يمنعون الدخول ؟ حزمت أمري ومشيت فوجدت بيت المال مفتوحا، ووالله ما وجدت إمرأة حُرّة مطلقا فأحسن فيها، بل وجدت الشيخ بانّقا موسى، وإبراهيم رمضان بجانبه، ودلالة بيع الرقيق قائمة. فإشتريت خادمتين، إحداهن مُرضِعة لأرضع منها ابنتي آمنة الصغيرة، لأحجزها من لبن أمها، والثانية كانت للقاضي ولد الخضر كما سيجئ ذكرها.

جعل أهل الغرب عصيان عبد الله ود سعد (ناظر الجَعّلين) سببا لإستباحة أموال الجَلاّبة ـ كما كانوا يسموننا ـ وهبط علينا كابوس مُركّب من خوف



جماعة من ملازمية وحرس الخليفة عبدالله بعد واقعة كرَرِي

وحزن أنسانا أنفسنا على إنا مؤسسو دولة المهدية. فجرءوا علينا وخضعنا لهم حتى في مدينة أمدرمان، واستدل على ذلك بثلاث حوادث حدثت لي نفسي !.

الأولي: قصدنا السوق أنا والمنصور أبو كوع راكبان حمارينا وفرخانا يجريان وراءنا، وكل منا رابط تُركَاشه[1] في سرج حماره يضربه في ظهره كالأمر، (أي كالأمر الذي صدر للإنصار في طريقة حمل سلاحهم ـ المحقق). فلقينا عند مقابر الشهداء الشماليين عبد الله (تَابع)[2] السنوسي[3] (أخ خليفة المهدي من أُمِّه) ومعه اثنان راكبان، وواحد من السود رَاجلا[4]. فلما التقينا نَّهرني أن أنزل، فنزلت، فأركبوا الرجل الأسود حُماري ومضوا في طريقهم. تبعهم المنصور بحماره وفَرخَه وجلست أنا في انتظار رجوع حماري مع المنصور وفرخه، فإذا المنصور يعود ولا حمار له. فقال لي: «سألوني عنك فقلت هو في انتظار حماره». فقال عبد الله: «إذهب إليه وآتي به ولد الكلب الجَلاّبي، ما يمنعه من الجري وراءنا حتى نصل ونسلّمه حماره ؟». فمضيت مع منصور راكبا

---

(١) تُركَاش: جُعبة أو غمد من الجلد توضع فيه الحراب الصغيرة (قاسم صفحة ١٦٣).
(٢) تَابع: ملازم من الحرس الخاص، وبعضهم قد يكونوا عبيدا.
(٣) السنوسي: هو أخ الخليفة عبد الله من أمه ويكبره في العمر (راجع الحاشية عن الأمير يعقوب صفحة ٢٨٣).
(٤) راجل: أي يمشي على رجليه أو قدميه.

خلفه إلى فريق فُوْر[1] حيث وجدتهم في ظل حوش عبد اللطيف التاجر الفُوْرَاري فأخذوا مني عمامتي وكرَّابتي[2] وسيفي وأجلسوني في الشمس، وكان النهار حاراً جداً. وللحظ وجدت عندهم قضية بين رجل إسْكافي من المواليد المصريين وزوجته ـ وهذه كانت من أقرباء عبد الله ـ فجعلت أدحض حجة الزوج مؤيداً حجة الزوجة. وكلما رأيت من سيدنا عبد الله إرتياحا لدفاعي، أدنو من الظل حتى إنتهت القضية. بعدها إلتفت اليّ وقال لي: «الجلاّبي ود البُقُس ـ لم أعرف معناها ـ مالك لا تجري وراءنا ؟ ألا تجري وراء العبيد». فقلت: «أنت يا سيدي ما قلت لي أجري، ولو قلت لفعلت». قال: «أعطوه عِمّته وكرَّابته وحماره». وبعد أن أخذتهم ركبنا معهم على غير طريق السوق بحكم الرهبة، فاذا الطريق يمّر بباب منزلي، فقلت له: «يا سيدي هذا منزلي ألا تشرفونا بشرب الشاي عندنا ؟»، وغرضي التعرف عليه. قال: «دي.. واى بشرب». دخلنا وعملنا لهم قُرّاصة قمح بسمن وسكر. وأثناء شربنا الشاي رأى البَرّاد[3] جميلا، فقال لأحد ممن معه: «أدخل هذا البَرّاد في مُخلايتك[4]» ولم يطلبه مني، كأنما اشتراه من دكاني ودفع لي الثمن. لم أُظهر أي حركة ولا حتى العجب بل شكرته بأنه شرفني بأخذه. لكن عبد الله هذا نفعني ونفع من معي فيما بعد، وذلك في حادثتنا مع الأمير يعقوب كما سيأتي.

الحادثة الثانية: ركبنا أنا والمنصور أيضا من بيت المال ـ وورشة مدرسة الصناعة الآن[5] ـ بطريق الشاطىء قاصدين الموردة. ولسوء الحظ صادف سيرنا مجيء أهل الغرب لصرف الغلال من شُونة "حبيب" ـ بجنوب فنطاز المياه الآن[5] ـ فالتقينا بجماعة منهم راجعين وهم راجلون، فاصطدمت بامرأة منهم

---

(١) فريق فُوْر: فريق تعني حيّ من المدينة؛ فُوْر تعني قبيلة الفُوْر وهي أحد قبائل غرب السودان، والمقصود هنا هو الحيّ الذي يسكنه أفراد هذه القبيلة بأمدرمان.

(٢) كرَّابة: حزام.

(٣) البَرّاد: الإناء الذي يوضع فيه شراب الشاي بعد إعداده.

(٤) مخلاية: حقيبة من الصوف أو الجلد لحمل الأشياء.

(٥) الآن: يقصد بها المؤلف وقت كتابة هذا الكتاب (أى الأربعينات من هذا القرن).

إصطدامة أشك في أن جبّتي لمستها أم لا. فإذا هي تقع ميتة، فبُهِتنا لذلك وانحلت قوانا واستسلمنا لما يُعمل بنا. فاذا هم بدلا من أن يكتفونا كقاتلين ليقودونا، أخذوا يفتّشون جيوبنا؛ فوجدوا عندي نحو أربعين ريالا وعند صاحبى خمسة عشر ريالا. فلما أخذوها رَكل أحدهم المرأة برجله فاستوت قائمة، فحمدت الله حيث قدّر ولطف. مشوا في طريقهم وركبنا نحن في طريقنا فما أحد منا ضحك ولا جرى ذكر الحادثة على لسانه حتى إنقطعوا عن طريقنا. لما وصلنا المورده حكينا بها لمن قابلونا فأخبرونا أنها تكرّرت عليهم حتى ألفوها.

الحادثة الثالثة: هي أن سكان السور (المُلازمية)[١] إتخذوا أخيراً عادة لإكتساب النقود من الجَّلابَة بـأن يخرج بعضهم فيلاقي رأس (أي فرد من) الرَقِيق فيغريه إذا كانت أمَة[٢] بزواجها، وإذا كان عبداً بتحريره من الرق بإدخاله الجهادية. قد تصح الثانية ولكن الأولي لا تحصل للأمَة. وبعد إدخال المُغْرَى للسور يمكث أياما ثم يأتي أحدهم لسيد الشخص الذي تم إغراؤه ويصف له رقيقه ويتفق معه على مبلغ يقارب ثلث قيمة الموصوف، ويستلم المبلغ منه ثم يحضر له رأس رَقِيقة. وفي يوم كنت أنا وعمي مالك مع محمد أحمد حاج الإمام بدهليز باب دائرة حوشه، فجاءه جهاديان ووصفا له آدمية آبقة منه وطلبا فى مقابل إرجاعها ثمانين ريالا مقبولا - أي ريالين قوشلي - فأعطاهما إياها، وبعد يومين جاءا له بالخادمة.

كذلك كانت لعمي مالك آدمية هاربة منه وهي فوراَوِية تدعى فاطمة وكانت بيضاء اللون؛ فسأل منها الجهاديين ووصفها لهما. وبعد يومين أو أكثر قليلا جاءا وطلبا منه ثلاثين ريالا، فقال لهما: «أنا آخذ الثلاثين ريالا وأمشي معكما، تسلماني الآدمية واسلمكما الثلاثين ريالا». فرضيا وركبنا حمارينا أنا وعمي مالك ومشينا معهما. وقفنا قُبالة باب السور الضيق الشمالي ودخلا السور بأمل أنهما يأتيان بفاطمة ويأخذان النقود، فإذا بهما ومعهما أربعة من

---

(١) يعرف هذا الحيّ الآن بحيّ المُلازمين أو بالسُّور. والاسم أطلق لأنه كان مقر سكن قوات المُلازمية في جيش المهدية (انظر ملحوظة ٢ صفحة ٢٧٦).
(٢) أمَة: الخادم من النساء.

الجهادية، فأمسك كل ثلاثة منهم بواحد مِنّا وفتشوا جيوبنا وأخذوا ما فيها، وسلبوا عِمّتينا وكرَّابتينا وسيوفنا؛ ولو كان باب السور يدخل الحمار لأخذوا حمارينا. رجعنا بعدها ونحن نحوقل ونسخط.

وما يشبه هذا هو أن الشيخ عبد اللطيف وقيع الله كان عنده عبد يدعى علي، مُولّد عنده (أي مولود ببيته من عبيد يمتلكهم) فختنه مع أولاده، وأرقده على عنقريب ساج عظيم القيمة. فلما كانت سنة ١٣١٥هـ (١٨٩٧ ـ ١٨٩٨م)، وبلغ عمره العشرين سنة، هرب منه ودخل الجِهَادية. وفي أحد الأيام أرسل لي عبد اللطيف ـ الذي كان جارنا ـ أحد أولاده. فلما وصلته وجدت عبده علياً معه ومعهم أربعة من الملازمين السود. وجدت علياً جاء يطلب من عبد اللطيف أخذ والدته والعنقريب الساج الذي خُتن عليه. فقلت لعلي: «أما العنقريب فلك الحق في أخذه حيث أنه أرقدك عليه لختانك، أما أُمُك فالشرع لا يسلّمك إياها إلا إذا دفعت قيمتها». فأخذ العنقريب ووعد سيّده بدفع قيمة والدته. لما خرجوا قال لي الشيخ عبد اللطيف: «بماذا أحللت له أخذ العنقريب ؟» قلت: «بتغفيلك في إكرامك للعبد، أما سمعت قول الشاعر: ثلاثة أكرامهم إهانة الرّق والنساء والصبيان» فضحكنا رغم سخطنا وافترقنا.

كنت في السوق يوما فمرّ علينا عبد حاملا مصحفا، وكان خطه من أجمل ما رأيت من خط النسخ، وتاريخ كتابته سنة ١١٩٢هـ (١٧٧٥م) أي قبل مائة واثنين وعشرين سنة، فاشتريته منه بستة ريالات قُوشَلّي، يعني جنيه مصري تقريبا. ستأتي لهذا المصحف قصة.

قلت لكم فيما سبق[1] أن عبد الله (عبد السنوسي) قد نفعني، وها هي القصة: بعد قفل السِّكّة التجارية في سنة ١٣١٤هـ (١٨٩٦ـ ١٨٩٧م) بلغنا أن الخليفة أراد فتحها ففرحنا نحن التجار. وفي يوم إجتمع نحو ثمانية مِنّا وركبنا حميرنا ذاهبين إلى الموردة لنبحث عن المراكب لترحيل صمغنا، وكنا أثناء سيرنا مشغولين بالحديث عن طريقة وصول الصمغ إلى سواكن والجيش (أى الجيش المصري الإنجليزي) في بَربَر وبعدها. وعندما قربنا من بيت الأمير

---

(١) سبق ذكرها في صفحة ٢٨٧ أعلاه.

يعقوب (محل مدرسة الأحفاد للبنات الآن[1]) إذا بالأمير يعقوب نفسه بالشارع ووراءه جُملَة أنصار ومن بينهم عبد الله (عبد السنوسي). فلما رآني عبد الله إنطلق نحوي وقال: «سيدي يعقوب يا بابكر»؛ فاذا نحن قُبَالة وجهه. فنزلنا من حميرنا التي استمرت في سيرها بقربه ووقفنا نحن صفا واحداً أمامه. إلتفت علينا الرجل العظيم بما أبدل خوفنا أمناً وحزننا سروراً، وقال لنا: «السلام عليكم..أنتم طيبون؟ وعيالكم وتجارتكم؟ التجار ركن من أركان المهدية (الدولة)». وكنا مع كل سؤال نستبق في الاجابة عليه: «نعم يا سيدي». كل هذا وهو واقف مكانه، ثم أشار لمن أحضر حميرنا وقال: «أمشوا بارك الله فيكم»، وأشار بأن نمرّ أمامه. فلما ترددنا قال: «أمشوا الأدب في المطاوعة». فمشينا ونحن نلهج بمدحه والدعاء له.

في يوم آخر أتاني أحد المخنثين وطلب مني حبات من القرنفل وقال إنه يودها ليشرب بها الماء مع البنات. عبست في وجهه وقلت له القرنفل معروض للبيع. فولّى عني ولكنه وجد صديقي مختار بن محمد سليمان بدكان أحد الشوافعة، فقال لمختار: «صاحبك الذي في دكان بسيوني[2] الله يخيبه!». قال له مختار: «ماذا أقول لك؟ إن قلت لك الله يخيبك فقد خيبك الله. مالك وصاحبي؟». قال: «شحدت منه حبات قرنفل أشرب بها ماء.. كشّر في وجهي وقال لي القرنفل للبيع». فقال له مختار: «والله لو أعطاك حبة قرنفل واحدة كنت أترك صحبته». رد المخنث لمختار: «ها أنت تعطني ما أطلبه منك!». فقال مختار: «نعم ولكن تَخسِّرنا الاثنين؟». قال المخنث لمختار: «ليصبر والله لأذمنه في كل مجلس». فضحك مختار وقال له: «هو لا يبالي لذلك لأن مثلك ذمه مدح في الحقيقة، فقد قال المتنبيء:

واذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل»

ثم أتانا مختار وقال لي: «لماذا لا تعطي المخنث حبات قرنفل فتلجم بها لسانه؟». ضحكت وقلت له: «جاءك؟». قال: «نعم»، وقصّ عليّ كل ما

---

(١) انظر ملحوظة ٥ صفحة ٢٨٧.

(٢) بسيوني: هو صاحب الدكان الذي كان المؤلف يستأجره منه بسوق أمدرمان، وهو من أصل يهودي.

جرى بينهما. فقلت له: «إني ما بخلت بالحبات لكني بخلت بما هو آت». فضحك وقال: «هل هذا بيت شعر؟ ما هو الذي تبخل به؟». قلت له: «يا صديقي أنت تعرف المخنثين ورغبتهم بل سرعتهم فى الإتصال بالنساء في بيوتهن وما يقولون عنهن، فاني خفت أن أعطيه هذه الحبات أو أبش له فيأتي مرة أخرى فيجلس على هذا الكرسي، ثم يزورني في البيت، ثم يتردد على البيت في حضوري وغيبتي فيعرف أسماء وذوات زوجاتي وأخواتي. وفي أثناء ذلك يترقى في طلباته بقدر صلاته فمتى إمتنعنا من إعطائه ما يحب، لبخل أو لعذر، قال عن عائلتي ما شاء له عرضه ولسانه. فرأيت أن أعمل بالمثل الحكيم: الباب البجيك منه الريح سدّه واستريح». فقبل رأسي وشكرني وقال: «ليتني عرفت هذا قبل أن أعرف هذا الخبيث».

جئت في أحد الأيام من السوق ووجدت بعض عفش منزل زوجتي حفصة في حوش الديوان البَرَّاني[1]، فسألت والدتها مريم عن سبب خروجه. فقالت لي: «أبوك طلّقنا!». قلت لها ـ رغما عن رغبتي الأكيدة في زوجتي خصوصا أن بحجرها التوأمين أول أولادي على صغرهما ـ: «إذا كان والدي لا يرضى ببقاء إبنتك معي فان كلامه يمضي عليّ». فأخبرت هي إبنتها بما حدث وشاع الخبر حتى وصل أختي السَّهْوَة. أما أنا فمما يدل على تنفيذي كلام والدي، أخذت كتابا وصرت أقرأ فيه ونسيت كل ما قيل وما فعلته. بعد قليل جاءتني السَّهْوَة أختي وقالت لي: «أنت تقرأ كتابك والنسوان نقلن عفشهن كله!». قلت لها: «إن في إمكاني أن أتزوج إمرأة أخرى وأن ألد أولادا ولكن ليس في إمكاني أن أشتري والداً أبدا. لذا أكرر لك إن لم يرض أبي ببقائها بمنزلنا فإن كلامه يمضي بلا شك». فذهبت لهن وأكدت لهن ذلك. ثم ذهبت لأبي وسألته عن السبب وأخبرته بكلامي. فقال لها: «اذا كانت ترغب في بقائها مع زوجها فالتأتى لي هنا وتقول لي ولدك عَدِيل[2]». فتوجهت السَّهْوَة لها ثم رجعت لوالدي وقالت له: «إن حفصة قالت: ولدك عديل». قال لها: «ربي يأخذني

---

(١) البَرَّاني: الخارجي.
(٢) عَدِيل: صفة بمعنى مستقيم أو طيب أو ليس به عيب.

(قسم يعتاده)، إن لم تأت عندي هنا وتقول لي: ولدك عَدِيل، ما أرجع عن قولي». فرجعت لحفصه وأتت بها إلى أبي وأسمعته «ولدك عديل». فقال لها: «أرجعي لبيتك أنا عفوت عنك، وبابكر لا يقدر يسألك عن هذا الكلام». وأبداً ما سألتها عنه إلى اليوم.

بـدايـة الغــزو :

دخلنا سنة ١٣١٦هـ (١٨٩٨م)، بعد أن سبقها من الحوادث الحربية والسياسية، ما زعزع إعتقاد المعتقدين إلا من عصم الله قلبه، وقليل من هم. فمن الحربيات سقوط كسلا يوم ٧ ربيع آخر سنة ١٣١٢هـ (٨ أكتوبر ١٨٩٤م)، وسقوط دُنقلا في ١٥ ربيع ثاني سنة ١٣١٤هـ (٢٣ سبتمبر ١٨٩٦م)، وواقعة المَتمّة وسائر الجَعَليين في غرة صفر سنة ١٣١٥هـ (٢يوليو ١٨٩٧م)، وسقوط أبي حمد في ٨ ربيع أول سنة ١٣١٥هـ (٧ أغسطس ١٨٩٧م)، وجلاء أبي الخليل من السلمات في ٧ ربيع أول سنة ١٣١٥هـ (٦ أغسطس ١٨٩٧م)، وقيام الَزاكي عثمان من بَربَر في ٢٥ ربيع أول سنة ١٣١٥هـ (٢٤ أغسطس ١٨٩٧م)، ودخول هنتر باشا بربر في غرة ربيع ثاني (٣٠ أغسطس١٨٩٧م)، ووصول السّكّة حديد أبا حمد يوم سبعة جمادى الأولى سنة ١٣١٥هـ (٤ أكتوبر)، واحتلال شَنْدِي يوم ٢٩ شوال سنة ١٣١٥هـ



الأمير محمود ود أحمد (١٨٦٥ - ١٩٠٦م) عند أسره فى واقعة النخيلة بالقرب من مدينة عطبرة فى ٨ أبريل ١٨٩٨م.

(٢٣ مارس ١٨٩٨م). وأكبر من كل هذا كان إنكسار جيش الأمير محمود* ببلدة النَّخيلَة بنهر أتبرة يوم الجمعة ١٣ القعدة سنة ١٣١٥هـ (٨ أبريل ١٨٩٨م)، (هذه التواريخ الميلادية تؤكدها مصادر أخرى مثل هولت، ١٩٧٩ـ المحقق).

أما السياسيات فمن أهمها تَغيُّر ولاء أهل الجَّزِيرة وعكس إعتقادهم بسبب معاملة أحمد السني التي كان أولها سنة ١٣١١هـ (١٨٩٣ـ ١٨٩٤م)، عندما بدأ يأخذ الغلال "للباب" من محل وجوده ولا يُقسِّمه على أصحابه من أهل الحِلّة بالرءوس ولا يفرق بين غني وفقير. كذلك فقد أطلق يد عماله وجهاديته بحيث تُفتَح المطمورة فيؤخذ ثلثاها "للباب" وثلثها الباقي لهم. هذا ناهيك عن الشفّاتة ـ أهل الغرب ـ والجِهَادية الذين يمرون في الجزيرة فيسلبون ما أرادوا سلبه. ثم كانت الخاتمة واقعة الجَعَليين[١].

---

* حاشية للمحقق : الأمير محمود ود أحمد (١٨٦٥ ـ ١٩٠٦م) هو الأخ الأكبر لإبراهيم الخليل والاثنان أبناء عمومة الخليفة عبد الله الذي قام بتربيتهم مع ابنه عثمان شيخ الدين ضمن مجموعة من أبناء قبيلة التعايشة مثل محمد ود بشارة والختيم موسى (زلفو، صفحة ٢٢٤). وعندما بلغ محمود سن الشباب أسند إليه الخليفة ولاية إقليم دار فُور وكُرْدُفان ـ في يناير ١٨٩١م ـ (شقير، صفحة ٨٢٢)، وأثبت في ذلك نجاحا كبيرا. وفي بداية الغزو المصري الأنجليزي طلبه الخليفة للتحرك من دار فور بجيشه الضخم في عام ١٨٩٧م، لمعارضة الجيش الغازي في المَتمّة أو شمالها. هناك حدثت المعركة المعروفة بواقعة المتمة ـ أول يوليو ١٨٩٧م ـ (زلفو، صفحة ٢٢٨ ـ ٢٣٠) حيث قَتَل جيش محمود المكون من قبائل غرب السودان سكان تلك المدينة من الجَعَليين. ثم تقدم محمود بعد تردد طويل إلى نهر عَطْبَرة وكان يعاونه جيشا عثمان دقنة وعثمان أزرق فخاضوا معركة عنيفة ضد الجيش الغازي في النخيلة ـ ٨ أبريل ١٨٩٨م ـ (شقير، صفحة ٨٨٥؛ زلفو، صفحة ٢٣٥ ـ ٢٤٥). ولكن جيش المهدية خسر تلك الواقعة وأسر محمود وأخذ إلى سجن رشيد بمصر؛ أما عثمان دقنة وعثمان أزرق فقد نجيا ورجعا بمن معهما من قوات إلى أمدرمان للأشتراك مع الخليفة عبد الله في واقعة كَرَري.

(١) راجع صفحة ٢٦٢ ملحوظة ٢؛ وصفحة ١٢٥ ملحوظة ١.



الأمير محمود ود أحمد فى سجن وادى حلفا قبل رحيله إلى سجن رشيد فى مصر حيث توفى هناك عام ١٩٠٦م

إستعداد الخليفة للدفاع:

بعد إنكسار جيش الأمير محمود، أخذ خليفة المهدي يفكر جديا في الدفاع. فجعل ابنه شيخ الدين رئيسا للمُلازمية وإبراهيم الخليل(١) قائداً على جهادية الكَارة، وعين عبد الباقي عبد الوكيل(٢) أن يسير أمام الجيش (الجيش الإنجليزي المصري) المحارب ليشغله. علما بأن الجيش الغازي كان قد تحرك على جناحين أحدهما غرب النيل من "ود حامد"، والثاني شرقه من "الرَويَان". وقد نفذ عبد الباقي ما أُمر به حتى قربوا من كَرَرِي فجاء بخبرهم للخليفة.

---

(١) إبراهيم الخليل ود أحمد ينتمي إلى قبيلة التَّعايشة وهو أخو الأمير محمود ود أحمد والاثنين كان الخليفة عبد الله قد أحضرهما من دار التعايشة لصلة القرابة بينهم لينشئا مع ابنه شيخ الدين. وعندما كبر إبراهيم قاد بعض الحملات العسكرية ومنها قمع تمرد جبال النُوبَة، ثم أوكلت له قيادة جيش الكَارة. وأخيراً اشترك في واقعة كَرَري واستشهد فيها.

(٢) عبد الباقي عبدالوكيل: ينتمي أيضاً إلى قبيلة التَّعايشة وقد عينه الخليفة عبد الله في حوالي أبريل ـ مايو ١٨٩٨م بعد واقعة النّخيلة، كقائد على كل شمال السودان شمال أمدرمان، وكان تحت إمرته ثلاثمائة فارس لمراقبة تقدم الجيش الغازي، بقصد إبلاغ الخليفة يوميا بكل تحركاته، وقد نفذ ذلك =

كذلك طلب الخليفة من محمد البصير، وعبد الله عوض الكريم أبي سن، والعباس العبِيد، وولد الكّريل وغيرهم من الأمراء، أن يذهبوا لذويهم فينفرا الرجال المستحقين للجهاد ولا يسمحوا لأحدهم باحضار عائلة ولو خادمة أو سرّيَّة. فوجد هؤلاء هذه الفرصة بين أهليهم في التنفير ما بين المد والجذر، بمعنى أنهم يرسلون الناس فيصلون الشرق ويقيمون أياما ثم يتسللون راجعين حينما يصل غيرهم لحفظ المكان. حتى أن الجيش الغازي عندما وصل منطقة الجَّعليين لم يجد منهم، وهم رجال حرب، مَنْ يقاومهم. فأبحث أيها القارئ عن سبب هذا الإنقلاب؟ نفس الحال حدث لأهل الجزيرة الذين كانوا عضواً مهماً في نصرة المهدية في فتح الخرطوم وفي الثغور. أما سمعت قول الشيخ الحسين ولد الزَهراء[1] فيهم في موقعة القلابات (٩ مارس ١٨٨٩م) حينما نزل الأحباش عليهم فوصفهم «بقومي»:

ان قـــومي خفيـف حديثـهـم	أحـدّث عن قومي بـكل العجائــب
أكارم وافوا شاهد الحق واقــف	ليشهد فانقضوا إنقضاض الكواكب

ومما يدلّك على عدم ارتياحهم للجهاد هذه المرة، أنه لما أمر الخليفة الشيخ عبد الله عوض الكريم أبو سن بالسفر لتنفير قبيلة الشُكرِية، كان مَعه عمه

= بدقة ونجاح كبيرين (زلفو، صفحة ٣٤٣). وعند وصول جيش كتشنر إلى قرب كَرري تراجع عبد الباقي جنوباً إلى أمدرمان وإشترك في واقعة كرري مع باقي جيوش المهدية. وعند إنكسارها إنسحب مع الخليفة جنوبا ثم غربا وبقي يحارب معه الى أن إستشهد الأثنين في أم دِبيْكرَات في ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩م (شقير، صفحة ٩٥٧). الا أن رتشارد هِل (صفحة، ٨) يقول أنه أُسر فقط في أم دبيكرات وتوفي بأمدرمان في عام ١٩١٨م.

(١) الشيخ الحسين الزَهرَاء: هو الشيخ حسين بن إبراهيم المُلقب بولد الزهراء من ضواحى قرية المسلّمية بالجزيرة، وقد درس فى الأزهر ثم انضم للمهدية بعد واقعة الجزيرة أبا وهي في بدايتها (القدال، صفحة ٩٢). كلفه المهدي ببعض الأعمال منها العمل مع آخرين للإشراف على تسليم حامية كَسَلا في ١٨ مايو ١٨٨٥م (شقير، صفحة ٥٨٥). وكان شاعراً نظم الكثير من القصائد عن المهدية، كما تولى منصب قاضي الإسلام بعد موت سليمان الحجاز، ولكن الخليفة لم يُسَرّ منه لإختلافه معه في بعض القضايا فحبسه ومنع عنه الطعام إلى أن مات عام ١٨٩٥م (شقير، صفحة ٨٤٠ ـ ٨٤٢).

الحاردلو، فأرسل الشيخ عبد الله من يشتري له بطانية من سوق أمدرمان وتأخر الرسول قليلا، فاستحثه الحاردلو على الخروج وترك الرسول وبطانيته بقوله: «يا شيخ العرب نحن نَكْتَل في بطانية، الزول ده[1] اذا غيّر رأيه نحن ما كِتِلنَا[2]، أركب يا شيخ العرب وأمرُقنَا[3] مادام لقيت لك سبَيِّب (تصغير سبب)»، فركبوا وتركوا البطانية. ولو أنهم أرسلوا فيما بعد من أحضرها. هل ترى أيها القارىء، مثل هؤلاء لهم روح معنوية تدفعهم للرجوع ليموتوا ؟ وعلى من تقع تبعة هذا التحول من الإخلاص الممزوج بالإندفاع إلى الحيلة الممزوجة بالإنهلاع.

إليك قصة أخرى: زارنا الأمير دَقَرْشَاوي أبو حجل، في مرّة ومعه سليمان أخوه ورجب الملك عوض الله، وكان الأخير من ملازمية الخليفة عبد الله المتطرفين، فقال في حديثه «إنه سمع من فم خليفة المهدي أن التُّرُك سيصلون كَرَرِي يوم ١٦ ربيع الآخر ونحن نقتلهم في كرري ونرجع نصلي الجمعة في الجامع». فرفعت يدي إلى أذني علامة التكذيب لما قيل، كما يفعلها الصبيان. فقال لي رجب: «يا بابكر كذاب أنا أم خليفة المهدي ؟». وقبل أن أردّ عليه في هذا الموطن الخشن الدقيق (طبعا يكون ردي: كذاب أنت)، ردّ عليه الأمير دَقَرْشَاوي بقوله: «والله يا رجب كلنا في قلبنا كلام بابكر دَهْ ولكنه سبقنا بالنطق به.. كذاب أنت، خليفة المهدي لا يقول هذا الكلام الذي لا يعلم به إلا الله». ثم بعد هنيهة قال رجب: «خليفة المهدي قال: أن أصحابه المخلصين لو تَرك الواحد منهم فرضا من الصلاة أن الله لا يسأله عنه إكراما للخليفة». فقال له سليمان: «والله الخليفة نفسه إن ترك فرضا يُسأل عنه». فخرج وقال: «أنتم منافقون».

---

(١) الزول: تعني ـ كما سبقت الإشارة ـ في لغة السودانيين الشخص، وعبارة «الزول ده» تعني هذا الشخص، والإشارة هنا الى الخليفة عبد الله.

(٢) كتلنَا: قُتلنَا.

(٣) أمَرُقنَا: أخرِجنا.. والمعنى لكل العبارة هو: يا شيخ العرب الأفضل أن تترك شراء البطانية ونخرج من أمدرمان طالما وجدنا سببا للخروج؛ لأن الخليفة إن غير رأيه أو وجدنا باقين بالمدينة لقتلنا.

انتشرت كثيرا في تلك الايام القصة التي تقول: إن المهدي (عم) قال ان التُّرُك سيندحرون في كرري. وصار الخليفة يسأل باحثا عمن سمعوها من المهدي (عم) ليستأنس بها؛ وقد جاءنا على قُوَىْ وسألنا عنها فأجبناه سلبا. حدث ذلك قبل أن تحصل واقعة محمود بأتبرة. وفي تلك الأيام كان والدي يردد: «اني أفكر دائما في جيش الخليفة وجيش الحكومة وأجمع بينهما في كرري، وبعد قليل أرى الخليفة وجيشه يقوم ويمشي لأمدرمان، ثم يجري أددّ.. أددّ (وصف للجري) أمام جيش الحكومة؛ ما رأيت لهم نصراً أبداً». فقلت في نفسي لو كانت والدتي حية لأمسكته من خده وقالت له: «هوى يا دا الرجل الكافر أسكت لا تتمنى للأنصار الهزيمة». وقد حصل ما تفرسه فعلا.

قضيت شهور سنة ١٣١٦هـ (١٨٩٨م) قبل سقوط أمدرمان كما قضيت سنتي ١٣١٤و ١٣١٥هـ (١٨٩٦و ١٨٩٧م) في التعليم والمطالعة، حيث طالعت ديوان ابن الفارض[١] بشرحيّ "البوريني" و "النابلسي"، وكثيراً من تفسير "الكشاف"، والجزء الأول من "حاشية الشهاب" لتفسير البيضاوي، و"البردة" للباجوري، و"النهرية" للجمل. وكان عندي أيضا شرح "الزوزني" للمعلقات[١]، وما كنت أميل لمطالعته، ولا ذنب له فى ذلك إلا أنه لا يبعث الروح الدينية في نفس الانسان كما يبعثها ابن عباد على "حِكَم ابن عطاء الله"، الذي ما كنت أترك النظر فيه حتى كدت أحفظه.

كان إنكبابي على القراءة يعود إلى أن النفوس كانت تستعد للموت وكانت الأخبار المروعة تكاد تصم الآذان ، فلا تطرق مجلسا إلا ويسألك من به ما الخبر. فاذا إختلقت لهم خبرا إعتقدوه ونشروه رغم ترجيحهم، إن لم يكن تأكيدهم، بأنك إختلقته. فمن ذلك أن وابورات الحكومة كانت تمرّ على المَتمَّة حينما كان الأمير محمود بها بجيشه بعد أن قتل أهلها، وكنت جالسا مع بعض أصدقائي الذين دعوتهم للغداء معي، فخرجت منهم لأنظر إستعداد الطعام فلما رجعت سألوني: هل جاء خبر؟. لم يكن بين قيامي منهم ورجوعي إليهم إلا بضع

---

(١) معظم هذه الكتب كانت لشعراء صوفيين أو شرحاً للقرآن الكريم أو كتباً في اللغة كانت شائعة بين المتعلمين والمثقفين السودانيين في ذلك الوقت .

دقائق ولم أتعدّ سور المنزل. قلت لهم: «نعم»، فتسابقوا لسماعه بأشتياق. قلت: «جاءت ثلاث وابورات ذاهبة إلى حِلَّة "مدين" لتأخذ الغلال منها فضربها جماعة محمود وكسروا منها واحدة، ورجعت الإثنتان إلى شَنْدِي». فنقل بعضهم هذا الخبر مع علمه أني خلقته على طريق الفكاهة، ونقله سامعوه منهم على سبيل الحقيقة. فلما انتشر بلغني فقلت لِمُبَلّغي ان هذا الخبر قد خلقته أنا على سبيل الفكاهة، فلم يصدقني. ومن أغرب المصادفات أنه بعد أسبوع حصل فعلا مصداق هذا الخبر.

أقول الحكاية الأتية وأترك للقارئ تأويلها حسبما يعتقد، أما أنا فمقتنع بولاية قائلها لأني سمعتها منه مباشرة. وهي أنه قال: «كنت في الأسبوع الأول من ربيع الأول سنة ١٣١٢هـ (سبتمبر ١٨٩٤م) راكبا حمارا متوجها إلى الموردة في غرض مهم، فلما قابلت بيت الأمانة في شارع الموردة، رأيت مجتمعا على شكل دائرة. وعندما وصلتها وجدت المجذوب المسمى ابن عوف عريانا وسط الدائرة يتكلم مع حركة أشبه بالرقص. كانت عادة هذا المجذوب أن يلبس إزارا ضيقا اذا ستر صفحة إلِيَته لا يستر الأخرى، وفي الغالب ترى عليه العذرة. ومما سمعته منه قوله: القاضي أحمد[١].. الرّاجِل[٢] مَسَكَهُ مَسَكَهُ، مَرَق مَرَق، ثاني مسكه رماه فى البحر، مسكه رماه فى البحر، غطس غطس. رماه في البحر غَطَس غَطَس. الفاتحة لروحه.. القضاة ده ورا ده». كررها وهو يرقص

(١) القاضي أحمد: هو القاضي أحمد عليٍ من قبيلة بني هلبة وقد تولى القضاء بعد أحمد ود جُبارة وود حَلّاب اللذين توفيا أثناء الوقائع لفتح الأُبَيِّض في بداية المهدية. فأصبح رئيس القضاء ـ قاضي الاسلام ـ عند وفاة المهدي، وازداد شأنه مع تولي الخليفة عبد الله شؤون البلاد. وكان من أهم الأعضاء في مجلس الشورى الذي يستشيره الخليفة في كثير من أمور الدولة خصوصا القضائية منها. فكان مثلا رئيس مجلس القضاء الذي حاكم الخليفة محمد شريف حامد في ٢ مارس ١٨٩٢م لتزعمه ثورة الأشراف المشهورة، ومحاكمة الزَّاكي طمل في يونيو ١٨٩٤م (شقير، صفحة ٦٤١، ٨٣٩، ٨٤٠). ولكن نجمه أفل بعد سجن الزَّاكي وموته محروماً من الطعام، حيث يقال أن الخليفة لم يكن مسروراً من حكم القاضي أحمد على ضد الزَّاكي ومنعه الطعام عنه (زلفو، صفحة ٩٨ ـ ٩٩). ولكن سلاطين (صفحة ٣٣٩) وشقير(صفحة ٨٤٠) يذكران أن الخليفة إتهمه بالرشوة والخيانة فأدخله في نفس سجن الزَّاكي ومنع عنه الأكل حتى مات هناك في يونيو ١٨٩٤م.

(٢) الرّاجِل: هذه إشارة للخليفة عبد الله.

فيها، ثم قال: الله.. الله التُّنْبَاك في كَسَلا.. التُّنْبَاك في كَسَلا». ولم تكن كَسَلا بيد التليان حينذاك. ثم أضاف مُحدثي: «كان من ضمن الواقفين الشيخ عبد القادر ولد أم مَرّيوم[1] فلما سمع «التُّنباك في كَسَلا» ضرب حماره وأسرع، فتبعته خوفا من أن يراني أحد أستمع لمثل هذا الكلام». بعد قليل جاء خبر احتلال التليان لكَسَلا!.

كان القاضي أحمد على قاضي القضاة ولكنه وُشيّ به للخليفة فسجنه ثم أطلقه ثم سجنه في بيت، ومنعه الأكل والشراب حتى مات جوعاً وعطشاً. ثم وُلّي القضاء بعده الشيخ سليمان الحجّاز[2] فلم تطل مدته لوفاته. ثم وُلّي بعده الشيخ الحسين الزهراء، الذي لم يحد عن الصراحة في مسألة دُنقلا وما فعله عبيد يونس الدكيم فيها؛ فسجن ومُنع عنه الطعام والشراب حتى مات أيضا جوعا وعطشا. فتحقق موت القضاة الثلاثة «دَهْ.. ورا.. دَهْ».

وبعد واقعة أتبرة وأسر الأمير محمود أيقن خليفة المهدي أن الجيش قد قرب وصوله فاستعد لمقابلته. مع ذلك راجت إشاعة أن الخليفة وأخاه يعقوب ومن معهم عازمون على الهجرة إلى كُرْدُفان أو دار فُوْر. ولكنها عما قليل كُذّبَت خصوصا بعد أن شرع خليفة المهدي ببناء أحد عشر طَابِية[3] في أمدرمان، وست طوابي في الشرق، وطابيتين في كل من الخرطوم وجزيرة تُوتي، ووزع عليها الحرس والمدافع والطُبجيّة. كما جرب عمل اللّغم بواسطة رجل مغربي يدعي مُنَوّرا[4]؛ وقد وفق هذا في عمل اللّغم فعلا، وأخذه في مركب يقطرها وابور "الإسماعيلية" لوضعه في المكان الذي عُين له. لا أعرف المكان بالضبط، ولكنا سمعنا صوت إنفجاره حينما إنفجر وأغرق المركب

---

(١) عبد القادر ود أم مريوم: هو حفيد الشيخ حمد (المذكور في طبقات ود ضيف الله صفحة ٦٥)، وكان قاضيا على قرية الكَلاكْلَة وله نفوذ عظيم على قبائل النيل الأبيض وقد انضم إلى صفوف المهدي في بداية حصار الخرطوم وشارك فيه وكان من المقربين للمهدي (سلاطين، صفحة ١٧٦).

(٢) سليمان الحجَّاز: من تجار بربر المتفقهين تولى منصب قاضي الاسلام بعد عزل القاضي أحمد علي، وتوفى بعد فترة قصيرة وهو في منصبه (شقير، صفحة ٨٤٠).

(٣) طابية: حصن، وجمعها طوابي، (انظر ملحوظة ١ صفحة ٥٠).

(٤) واقعة عمل ألغام مائية لتحطيم بَوارِج العدو يصفها زلفو بتفصيل في "كَرَرِي" صفحة ٣٥٣. أما مُنَوّر هذا فقد كان من أصل مغربي من الأسرى الذين أسرتهم جيوش المهدية في حروبها الأولي.

والوابور ومن فيها، وكان مُنَوّر من المغرقين. سمعنا صوت الإنفجار على جهة الدَبّاغِين ولا أتذكر تاريخه بالضبط.

تَغيّر كبير في الناس والأحوال:

كان محمود علي الإحيمر أميناً على نقود الأمير يعقوب وكان متزوجاً بنت على خاطر، الذي لا تُحجَبُ عني عائلته لمصاهرتي لهم؛ فعرفت محمودا وإتصلت به فرأيت منه تبذيرا في نقود الأمير، مما يدل على إنحلال الإدارة من أصلها. فكان يعمل لياليا في المديح النبوي ويجمع فيها كل أنواع المَدَّاحِين والمُقرئِين والسامعين، مما يكلفه عشاؤهم نحو الخمسين ريالا مجيديا. وكانوا يحيون الليلة ـ وكنت معهم في أكثر الأحيان ـ إلى أن يطلع الفجر، فنفترق لنصلي بمنازلنا خوفا من إعلان صوت التكبيرة المتحدة؛ كما كنا ننتقل من بيت إلى آخر. وكان كلما أراد المادحون الانصراف يوزع عليهم نحو ثلثمائة ريال مجيدى، فيأخذ الشيخ أحمد أبو شريعة وجماعته مائة ريال، والشيخ إبراهيم كُرَاع النّعَامة (الرجل العالم) خمسين ريالا، والشيخ علي طُلبَة ومن معه من القراء مائة ريال؛ وباقي المادحين، مثل قِسم الله واخوانه وغيرهم، بواقع عشرة ريالات لكل منهم. كما كان يرسل لصاحب المنزل، حيث يقام الحفل، خمسين ريالا مقدما على العشاء. وكان بعضهم يقتصد في عمل العشاء ليوفر من المبلغ شيئا لنفسه.

في مرة أرسل لي محمود خمسين ريالا لتكون الحفلة في منزلي، فرددتها له وعملت الحفلة على حسابي الخاص. بعد ذلك اليوم لم يطلب مني عمل حفلة في منزلي. هذا الرجل الذي كان هذا حاله من البذل فشل في إتخاذ وظيفة له في هذه الحكومة (أي بعد الغزو)، كما أخبرني بنفسه عندما زارني برُفَاعة سنة ١٩٠٨م مستجدياً. لكنه كان يقول ان سبب حرمانه أنه أهان سَلاطين باشا يوما في المهدية حينما جاءه سلاطين طالبا منه نقودا. هذه حالة الدنيا بخصوصه، وهي دليل على إنحلال إدارة المهدية المالية.

بعد عقد نية خليفة المهدي على الدفاع إرتفع سعر الذرة إرتفاعاً سريعاً حتى بلغ ستة وثلاثين ريالا مجيديا للأردَب، لأن أهل العوائل الكبيرة تنافسوا في

مشترى مؤونتهم لسنة مقدماً لخوفهم من الحصار. أما أنا ومن معي فلم نشتر إلا ما يلزمنا لشهر على الأكثر. وفي الآخر صرنا نشتري ما يلزمنا في اليوم لإختفاء الذرة من السوق، حتى وإني إضطررت إلى تكليف موسى يعقوب أن يبيع لى ثلاثة أرادب سلفاً بمائة وثمانية ريالات، ولعمي مالك (وهو غائب) أردباً واحداً. كان ذلك يوم الاثنين، تسعة وعشرين أغسطس ١٨٩٨م، أي قبل سقوط أمدرمان بأربعة أيام.

وفي يوم الثلاثاء موعد استلامي للغلال من موسى كنت أنا وهو نتغدى بمنزلي، فسمعنا أن الوابورات وصلت أطراف أمدرمان البحرية (أي الشمالية) ورجعت. فقام موسى مسرعا لمنزله وبقيت بمنزلي. وفي عصر يوم الأربعاء خرجت مع من خرج لكَررِي ولم أستلم الغلال ولا بعضه. وبعد سقوط أمدرمان إنخفض سعر الغلال، ولكني أتممت البيعة بالسعر الذي إتفقت به عليه لأني كنت دفعت جزءاً من ثمنه، فدفعت له الباقي وهو تسعون ريالا، مع قيمة أردب عمي مالك الذي كان برفاعة. وإستلمت منه سنداً لغلال عمي مالك بخطه.

قلت أن خليفة المهدي صمم على الدفاع فصار الناس ـ وأنا منهم ـ يفكرون فيما يؤول إليه حالهم اذا حُوصِرت أمدرمان، أو تغلب جيش الحكومة على الخليفة، أو اذا هو خرج من أمدرمان وأخذ الناس بعوائلهم. كان هذا يشغل فكر الناس خصوصا من ذاق الهجرة مثلنا في جيش ولد النجومي. وفي بعض الليالي أَعملت فكري وكَددتُه فيما يُنجينا من الحصار أو الهجرة، فجرى على لساني تخميس لبيتيّ ابن عطاء الله اللذين أولهما «لا تدبر لك أمرا» وهاك التخميس:

أيها المبلوُّ صبرا	لا تضق للكرب صدرا
لم تحط بالغيب خبرا	لا تُدبر لك أمرا
فأولى التدبير هلكى	وأرض كلا ما أردنا
وإستفد مما أفدنا	للنوائب أن تردنا
سَلِّم الأمر تجدنا	نحن أولى بك منْكا

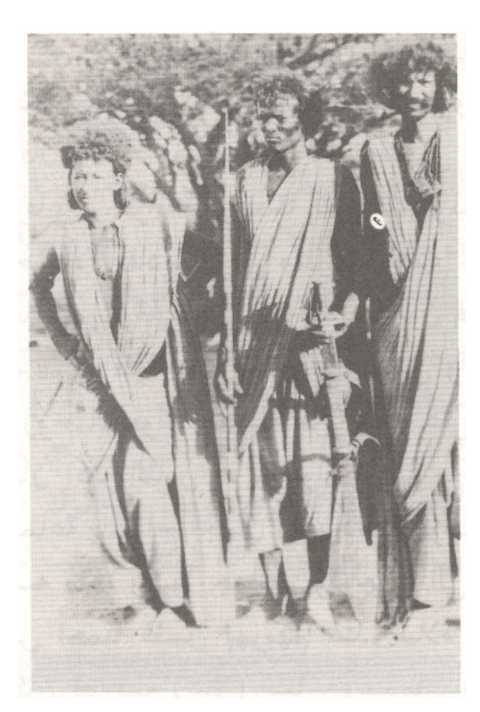
فاطمأن قلبي وسَلَّمت الأمر لربي.

وعندما حضر الناس الذين جاءوا من بربر، ليحضروا الموقعة مع عوائلهم بأمدرمان، بلغني الخبر الأكيد بضياع صمغي والأموال التى كانت معه هناك. وفي ذلك الوقت لقيني عمي النور إبراهيم الجريفاوي وقال لي: «أظنك غير حارص على إخراج الزكاة ولذلك أضاع الله مالك». فقلت له: «أنا مَانِي مُحْمَّد الله جميلة في الزكاة» . فقال: «أعوذ بالله من جراءتك على الله». والحقيقة أني كنت أُخرِج الزكاة بدقة وتحقيق واحتياط لخوفي أن أكون ناسيا دينا مرجو الدفع يستحق إخراجِ الزكاة عليه. وبعد مفارقتي لعمي النور تألمت مما سمعت منه لعل فيه روح الشَّمَاتة فقلت هذه الأبيات:

كُلومي أراها من كلامي غالباً وقد تأتي أحيانا بغير تَكلُّمِي
فما كان من قولي ألمِت لمسِّه وما كان من ربي فليس بمؤلمِ
ولكن أراني صابراً عند خطبها وذاك بفضل الله لا بتَحــزُّمِ

وفي أحد الأيام خلال تلك الفترة وجدت أنه لم يكن بيدي غير اثنين وعشرين ريالا وكنت أفكر في أن أشتري بها غلالا أو أتركها لغيره مما يلزم؛ فدخل على المشايخ البلال الأسيدة، وعبد الرحمن منصور، والنور عبد الحفيظ. وبعد شربهم الشاى قال البلال: «جئناك نطلب منك تسليف عمك النور عبدالحفيظ ثلاثين ريالا لِأضطراره لها». فقلت لهم: «والله لا أملك غير هذه الاثنين والعشرين ريالا»، ثم دخلت وجئتهم بأساور وحُجُول[1] تخص ابنتي التي توفيت، فأخذوها ومضوا شاكرين. بعد خروجهم بَكيتُ لعدمهم لأن البلال الأسيده هو الرجل الكريم الباذل، وعبد الرحمن منصور كان بالأمس أغنى تاجر سوداني بتجارته العظيمة، والنور عبد الحفيظ كان بيته ممتلئا بمهاجري أهله من المَتمَّة، وها هم وصل بهم الحال إلى هذا الحد. بَكيتُ أسفاً على ما أصاب الناس من الشِّدة التى عمت العظيم والحقير.

(١) الأساور والحجول: حلى للزينة تلبسها النساء، فتلبس الأساور على الأيدي والحجول أسفل الساقين.



ثلاثة من قبيلة الهَدنْدَوة التى كان يمثل أفرادها جزء كبير من جيش عثمان دقنة فى حروبه ضد الأتراك ثم ضد الجيش المصري الإنجليزى خلال المهدية.

من ضمن إستعداد الخليفة للدفاع أن أرسل لأحمد فَضِيل[1] (في حوالي أبريل ـ مايو ١٨٩٨م) ليحضر بجيشه ليحافظ على شرق النيل قريبا من أمدرمان، لئلا يحتلها قبله جيش الحكومة (المصرية الإنجليزية). فلما وصل أحمد فَضِيل رُفَاعة بلغه إحتلال الحكومة لأمدرمان. وبعده بيوم وصلت وابورات الحكومة إلى رفاعة فقابلها الأهالي بالترحيب والزغاريد ظنا منهم أن الوابورات جاءت لتطرد جيش أحمد فَضِيل، فاذا هي تمرّ في طريقها لَمَدَنيْ فسِّنْجَة. فأنفرد أحمد فضيل وجيشه بسكان رفاعة نهبا وسلبا، حتى ملابسهم التي على أجسادهم سُلبت منهم. بعدها سيق الرجال والنساء والأطفال أمام الجيش حتى أخرجوا من البلد، وهناك ظهرت حيلة الشيخ عبد الله عوض

(١) أحمد فضيل: كان أمير الجيش أو القائد للقوات في القضارف في شرق السودان وفي الفاشر في غربه في آن واحد (سلاطين، صفحة ٣٠٠). واشترك في كثير من وقائع المهدية في جنوب وغرب وشرق السودان (شقير، صفحة ٩١٥). وأخيرا حاول اللحاق بجيوش المهدية لصد الجيش المصرى الانجليزي في موقعة كرري ولكنه عندما وصل أبا حراز (على النيل الأزرق بالقرب من رفاعة) علم بانكسار جيش الخليفة، فبقي هناك وحدث من جيشه ما يذكره بابكر بدري من سلب ونهب في تلك المدينة وما جاورها. بعدها تحرك بجيشه راجعا للقضارف وواقع القوات المصرية الإنجليزية في معارك =

الكريم أبو سن الذي أظهر له الحزن على إحتلال الحكومة النصرانية لبقعة المهدي (عم)، والعزم الأكيد على صحبته حتى يصلوا إلى خليفة المهدي. ولما باتوا بحلَّة بانت، وهي أقرب حلَّة من رُفَاعة، قال لأحمد فضيل: «لا فائدة لنا في النساء والأطفال فالأفضل أن ترجعهم إلى رُفَاعة»، فوافقه ورجعت العائلات. ولما بلغوا الحلَّة التى بعدها قال أبو سن: «نحن الآن قادمون إلى مفازه، وهؤلاء الشيب والضعفاء يشاركوننا في الماء والطعام، وإذا قابلنا العدو ربما ينهزمون فيحلّون عزم الجيش، فالأحسن أن ترجعهم»، فوافقه. بقي بعد ذلك الرقيق والشبان الأقوياء فبث فيهم شيخ عبد الله روح الرجوله بواسطة من يأمنه على حفظ سره. فلما وصلوا قرب المفازة، وكان أكثر الناس قد رجعوا؛ تعشى مع أحمد فضيل كعادته، وكان قد نَبّه على جماعة بِأسراج الجمال وِأعدادها للهرب. فلما علم أن الأمير قد نام وتفرق حرسه منه، ركبوا جمالهم وتوجهوا الى مَدَنيْ بجزيرة الرَهَد والدِّندرِ. ولما أحس أحمد فَضِيل بهربهم عند صلاة الصبح طردوهم بخيلهم؛ ولكن أبو سن كان قد قطع (عبر) النيل. وعندما رأى عبد الله خيل أحمد فضيل تطارده في الشاطئ الشرقي، ضربوهم بالرصاص فرجع مطاردوه.

= متعددة منها واقعة القَضَارف في ٢٨ سبتمبر ١٨٩٨م وواقعة الرُوصيّرص في ٢٦ ديسمبر ١٨٩٨م (شقير، صفحـة ٩٤٦ ـ ٩٤٧). وأخيرا لحق بالخليفة عبد الله في دار الجَوامعة بكُردُفان وخاض معارك عنيفة دفاعا عن المهدية ضد الجيش الذي ظل يلاحقهم حتى استشهد مع الخليفة عبد الله والخليفة على ود حلو والسنوسي وهارون أخويّ الخليفة عبد الله وعبد الباقي عبد الوكيل وغيرهم في أم دبيكرات يوم الجمعة ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩م. وفي إستبسال أحمد فضيل ومن معه في معاركهم هذه وإقبالهم على الموت بشجاعة منقطعة النظير قيلت الأبيات الآتية (شقير، صفحة ٩٥٨).

يا أخوات البنات تعالوا أوصيكم — وأودعكم نبياً لا يخون فيكم
أعقدوا الطروف وما تجوا بقفيكم — الموت في الخَلا وفي الحلّة راجيكم

موقعة كَرَرِي وما بعدها:

خرجت من منزلي يوم الأربعاء آخر أغسطس سنة ١٨٩٨م حاملا جلاّساً (١) في طريقي لدروسي، وبعد أن فرغت من الدرس سمعنا "أُم بَايا"(٢) ونحاس يُضْرَبان. وبالسؤال علمنا أن خليفة المهدي خارج الى كَرَرِي، فسلمت غلامي الصغير جلاّسي ليرجعه للمنزل. خرجت توا بأمل أن الخليفة يقضي ليلته في منزل هجرته بمكان العَرْضَة ويذاكر الناس بأن يستعدوا، ثم يرجعوا إلى منازلهم ليخرجوا يوم الخميس إلى كَرَرِي. ولكن الجيش واصل سيره لخُور شَمبَات حيث بِتنا هناك؛ فلحقني عبداي عبد الله وجابر بالرَكْوَة والفَرْوَة وزاد يومين وعِدّة شاي. وهذا لم أترك شرابه رغم أن رأس السكر أصبح بستة ريالات مجيدي، وأقة الشاي وصلت ثمانية وعشرين ريالا مجيديا.



لوحة تمثل جيش الخليفة عبد الله في موقعة كررِي

أصبحنا يوم الخميس أول سبتمبر بِشَمْبَات، وعقبتنا الوابورات على أمدرمان فضربت طوابي شَمْبَات وتُوتِي والخرطوم. وكنا نسمع صوت طوابي أمدرمان وغيرها تضرب في الوابورات. وفي نحو الساعة الرابعة صباحا

(١) جلاّس: غلاف من ورق مقوى أو غيره يضع التلميذ أو الدارس أوراقه داخله.

(٢) أمبايا: هي بوق خاص في المهدية مصنوع من قرن الثور يستعمل للتنبيه لجمع الجنود أو لبدء الهجوم الحربي.



أفراد من المصريين المجندين فى الجيش الإنجليزي عند غزو السودان

بالتوقيت الشمسي ـ العاشرة صباحا عربي ـ سمعنا صوت سلاح ضَربُه جيشنا، وبالسؤال عن سببه فهمنا أن إحدى الوابورات غرقت وثانية سلمت وجيء بدفتها إلى الخليفة، فضُرب السلاح بشرى بالنصر.

كان معنا رجل يدعى مجذوب أبا بكر، أصله من جماعة عثمان دقنة ووالدته بنت الشيخ الطاهر المجذوب، وكان يحمل بيده كَرْسًا فصار يضرب الأرض بكندابه (زجه) فيغطس جزء منه في رملة خور شَمْبَات المطورة، ويقول لنا: «يا منكرون أنظروا علامة النصر»، ونحن سكوت. وكان كل قليل يوجه سَبّه لنا نحن العشرة الذين كنا معه، وهم سليمان أبو حجل، وميكائيل الملك عوض الله، وعمر الصادق، وعبد القادر الأمين، وأحمد عبد الحميد (كاتب الأمير يعقوب[١])، ومختار محمد (العامل)، وبابكر مصطفى، ومحمد مصطفى، وأنا (بابكر بدرى)، وآخر لا أذكره. وبعد هنيهة سكت ضرب الوابورات للطوابي فانتفخت أوداجه فخراً واعتقد أننا بلا شك منتصرون.

---

(١) أحمد عبد الحميد وعبد القادر الأمين كلاهما من كُتّاب الأمير يعقوب، راجع هذه الوظيفة لعبد القادر الأمين في صفحة ٢٧٦ أعلاه.



جانب من الجيش الإنجليزي في موقعة كَرَرِي

ولكن الوابورات رجعت للضرب بعد الظهر فاضمحل صاحبنا مجذوب من فخره، فقلت له: «الكفرة ديل يبعثون قبل الآخرة ؟.. لعنة الله عليهم». فطأطأ رأسه وبان عليه الخذلان.

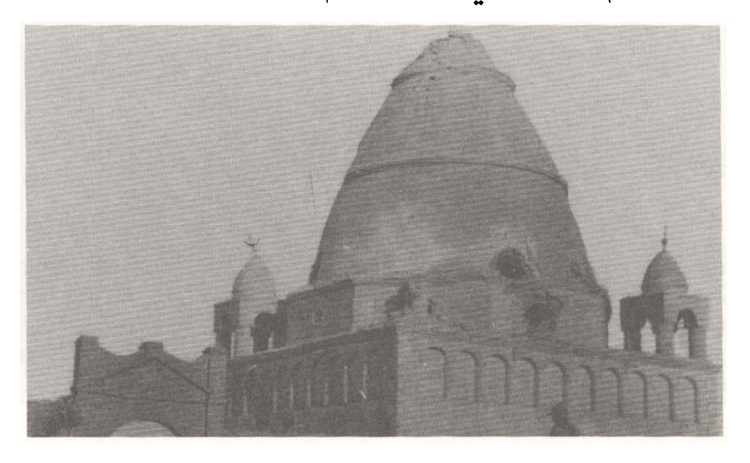
في نحو الساعة الرابعة مساء بدأ ضرب القنابل في قبة المهدي (عم). عندها إصطففنا صفا واحداً في طرف الجيش من جهة الجنوب الغربي. وكانت خيل الراية الزرقاء قبل ذلك بقليل «تُقلب أربعاً أربعا»[١]، فانكسرت أثناءه رجل الشيخ بانقا موسى (وكيل الأمير يعقوب فى رايته وإدارته) فأُرجِّع إلى منزله. غبطناه نحن وقلنا إنه سعيد سلم بباقي جسده.

قلت وقفنا صفاً ننظر ضرب القبة وكان عند أحمد أفندي عبد الحميد نظارة مُقْرِّبة نتناوب النظر فيها. وفي تلك الساعة مرّ علينا السيد محمد بن المهدي[٢] راكبا حصانه وتابعه وراءه يحمل له رَكْوَته، فَسلّم علينا واستمر في سيره. فلما رجع رأى إشتداد الضرب فوقف على بُعد مائة ياردة مِنّا وجعل

(١) تقلب أربعا أربعا: أي تجري في صفوف يتكون كل صف منها من أربعة خيول.

(٢) هو محمد الابن الأكبر للمهدي وكان أحد القواد في الراية الزرقاء في موقعة كَرري، واستشهد بعد دور بطولي في نفس هذه الموقعة (زلفو، صفحة ٥٠٧ ـ ٥٠٩).

ينظرها حتى ظهرت على القبة فتحة عريضة وطويلة، فكرّ راجعا وسلّم علينا بصوت جهور وتبسم لنا ومرّ في طريقه. ولم أره بعد ذلك.



قبة المهدى بأمدرمان و تبدو عليها آثار التدمير من قذف المدفعية (١سبتمبر١٨٩٨م)

عندما ظهر الشق الكبير في القبة بُهِت الناس وانقطع صوتهم كما انقطع صهيل الخيل، ولم أسمع تكبيرة الإحرام للمغرب، ولا أدري أغيري سمعها أم لا. وبعد أن صلينا المغرب في تَايّتنا[١] تعشّيّنا بالآبري بالماء والدُّقة[٢]. وبعد أن صلينا العشاء جاء طلب لأحمد عبد الحميد أفندي من الأمير يعقوب (أخ الخليفة عبد الله). ولما رجع إلينا أخبرنا أنه قد كتب أمراً للأمير يعقوب أبي زينب[٣]، الذي تركه خليفة المهدي بأمدرمان، بأن يمرّ بعد ثلاث ساعات من شروق الشمس على أحياء المدينة، وكل من وجده في بيته ممن لم يخرجوا للجهاد في سبيل الله مع خليفة المهدي، يذبحه على باب داره. كانت هذه مكيدة من الخليفة إذ لولاها لتسرب الكثير من الناس تحت الظلام لبيوتهم.

في نحو الساعة الحادية عشرة مساء، جاءنا علي كرواش شقيق محمد

(١) تاية: انظر ملحوظة ٤ صفحة ١١٣.

(٢) الآبري: نوع من الطعام يستعمله السودانيون عادة خلال شهر رمضان. والدُّقة هى التوابل المسحونة.

(٣) يعقوب أبو زينب ينتمي لقبيلة التعايشة وقد عينه الخليفة محافظاً على أمدرمان بعد خروج الجيش عنها إلى الحرب في كَرَرِي (زلفو، صفحة ٣٩٩).

فضل، أمين بيت مال الفاشر، وطلب مِنّا أن نعمل له جَبَنة [١]. ثم أخبرنا أنه متوجه إلى الفَاشِر، وأوهمنا إنه خارج بمأمورية. فتوجهت لأبشر إلياس الذي كان عنده جَبَنَة أستقرضها منه. فلما شربها أدخلها وعدتها في الزَغْو[٢] وقال لا يرجعها لصاحبها بأي وجه، ثم ركب جمله وفارقنا. بعد الواقعة علمنا أنه كان متهرب فقط فنجا. وفي الفاشر إنتظر السلطان على دينار فحظي عنده. أما أبشر إلياس صاحب الجَبَنَة فاستشهد في صباح الجمعة بالموقعة.

جاءتنا الأخبار ليلا بصَفَّات[٣] ترتيب الجيش من حيث الزمان والمكان، فمن قائل يقول: إن سلاح النار قام فعلا ليهجم على جيش التُّرُك فـي مكان خِدعَه؛ وآخر يقول: إن الخيالة يكونون معه؛ ومن قائل آخر يقول: إن شيخ الدين والخليل إختلفا وبسبب إختلافهما بطل هجوم الليل[٤]. ونحن ما بين مُصدّق ومُكذّب حتى أصبحنا فعلمنا أن أهل السلاح الناري توجهوا شمالا إلى جبل كَرَرِي، وأن عثمان دِقنَة وعثمان أزرق بمن معهما نزلا جهة البحر تحت جبل ضرغام، ورأينا فعلا رايات الخليفة علي ولد حلو في جهة الشمال الغربي لمكاننا، الذي نقلنا إليه نحن أنصار الراية الزرقاء[٥]. ولكنّا بعد ذلك نزلنا وادياً كنا ننظر منه جبل ضرغام شرقنا وإلى جهة الشمال قليلا. وفي نحو الساعة السابعة صباحا سمعنا دوي السلاح من العدو ومن سلاحنا الناري، وفي نحو الساعة الثامنة بدأ المجروحون (الجرحى) من جماعة عثمان دِقنَة يمرّون علينا، ويحمل المجروح (الجريح) أو يسنده أربعة أشخاص فلا يعترضهم أحد.

في تلك الساعة قلت لمن معي: «اذا جرح مِنّا أحد سأُجَرح معه من دمه،

---

(١) جَبَنة: هي إناء لصنع القهوة، وتطلق أيضاً على شراب القهوة الذي يصنع فيها (انظر ملحوظة ٣ صفحة ٢٤٦).

(٢) الزغو: حبال مضفورة على هيئة كيس لحمل الأشياء (قاسم، صفحة ٤٩٨).

(٣) صفات: صفوف، أي طريقة اصطفاف وحدات الجيش.

(٤) أورد هذا الاختلاف حول الهجوم الليلي زلفو صفحة ٢٦٤؛ أيضا انظر التعليق ٢ صفحة ٢٥٥.

(٥) يبدو أن المؤلف قد انضم للراية الزرقاء (السوداء) في موقعة كرري ضمن بقايا جيش ود النجومي (الراية الحمراء) الذي أضيف للراية الزرقاء حسب التكوين الجديد لجيش المهدية، (أيضا انظر زلفو، صفحة ١٣٨ ـ ١٤٢).

ويحملنا الباقون مِنّا فننجو ما دام ذلك جائزاً». كان خليفة المهدي بالقرب مِنّا جهة الغرب ومعه حاشيته، وأمامهم المُلازمية ـ المعروفون بالإمدادية ـ جلوس على نحو عشرين ياردة أمام الخليفة. وفي نحو الساعة الحادية عشرة والنصف، جاء من أخبر الخليفة باستشهاد ابراهيم الخليل (رحمه الله)، فقال له بصوت سمعناه: «شيلوا عَنْقَريبي أحملوه عليه وأدفنوه في بيته». كان العَنْقَريب محمولا على بغل بجانبنا فأخذوه ورجعوا بطريقهم علينا حاملين جنازة الخليل.

بعد قليل جعلونا صفاً والرَاية الزرقاء أمامنا، فرأينا سلاح العدو يلمع ويخفت تبعا لحركاتهم؛ وهذا مشهد أعرفه. وعند ظهور شكل الجنود كالحجارة الصفراء نادى خليفة المهدي بصوت سمعناه: «أبْجكّة[1] خذ الأخوان دَوْلَ صدوا أعداء الله دَيْكَ». فقام سلاح الإمدادية ونحن ننظرهم فتقدموا نحو مائة متر أو أكثر بقليل وضربوا بطلق متقطع. فرماهم الجيش بطلق متحد رنّ صوته. فلم يرجع منهم أحد اذ مات من مات، وبعضهم تماوت. ومنهم عَمّنا رجب المذكور كما تقدم (أى رجب الملك وهو من ملازمية الخليفة عبد الله، أنظر قصته صفحة ٢٩٧ أعلاه – المحقق).

استمر جيش العدو سائراً علينا ونحن تحت الراية الزرقاء حتى قرب مِنّا وصار يصلنا برصاصه فيمُرّ مصوبا فوق رؤوسنا. حينذاك قال محمد المهدي: «إلى متى نقف؟ هل نقف الى أن يمسكونا بأيديهم؟» ثم همز حصانه وخلع الراية. كنت قبل ذلك رأيت لواء رملة بجانبه شجيرات فقلت لمن معي: «من يصل مِنَّا ذلك الرمل يرقد في داره».

قُلِعَت الراية وجرينا معها حتى وصلنا الرملة فرقدنا أجمعين في صف واحد، وصرنا ننظر إلى الراية وهي تقع فترتفع، فتقع فترتفع؛ وفي المرة الثالثة إشتد رمي الرصاص علينا. أصدقُك إني أنا الذي كنت أتعرض للوابورات ولا أبالي بلقاء الجيش، وأنا الذي هاجرت لفتح حلفا من ضمن تسعة رجال فقط، صرت

---

(١) أبجَكّة: أي أبو جَكّة، وهو من المُلازمين للخليفة عبد الله منذ عهد المهدية الأول، وكانت وظيفته مساعدة الخليفة في ركوب حصانه أو النزول منه، كما كان يرافقه باستمرار، فاذا مشى الخليفة سار أبو جكه في شماله (سلاطين، صفحة ٢٨٨؛ زلفو، صفحة ٣٣٩).

اليوم أدّعك وجهي في الرملة، كأني إذا دخل رأسي في الرملة لا أموت إختناقا. ذهلت من حالتي تلك لشدة خوفي من الموت الذي كنت أتمناه في مثل هذا الموقف. وفي تلك اللحظات ضُرِبَ بابكر مصطفى، جاري من ناحية اليمين، في يده الشمال. فآب لي وعي وتذكرّت وعدي للجماعة. فملصت (خلعت) عِمّتي من رأسي ولوثتها في دمه وربطت بها ذراعي الشمال؛ ثم قلت للجماعة: «ها قد صرنا إثنين مضروبين». فقام الجميع من مكمنهم وحمل أربعة منهم واحداً، وخرجنا فلما صرنا خارج الوادي، جرى كل مِنّا إلى جهته التى أرادها. لكن أنا ومختار محمد (العامل) بقينا مع بابكر مصطفى الذي وضعنا يده المضروبة على كتفي، ومختار حمل يده السالمة. ثم اجتمع معنا سليمان باشري ـ من الرُباطاب ـ وجرينا جهة الغرب.

كان جيش من العدو وراءنا ولِكنّا وجدنا أننا كلما أسرعنا نجد الأرض تنخفض ونشعر أننا في سلامة. قلت في تلك الساعة لمختار ممتحنا له: «أبصق مثلي هكذا»، ورميت ببصاقي. فقال في الحال: «أنت جمعته في ساعة، إن كنت فالح أبصق غيره»، فضحكنا. ولما رأى المضروب إنا مهما جرينا لا نخرج عن دائرة الخطر قال: «أرخوا لي يدي فان الجرح آلمني من رفع يدي». فلما أرخينا له يده وتخلى عنا جرى أسرع مِنّا، ووالله ما صرنا نلحق به.

خطر ببالي أن نتجه بجريِنا صوب الجنوب لنقطع مسافة إمتداد الجيش للجنوب فننجو من رصاصه. فلما أخبرتهم بذلك، مِلنَا بسرعة خاطفة نحو الجنوب وبعد دقائق نجونا. عندها إطمأن جريحنا وجلس على الأرض وقال: «أموت هنا ولا أتحرك». فإنتهره مختار وقال له: «اذا كنت تريد الموت فما الذي أوصلك إلى هنا؟». قلت لهم: «إنه معذور فلا يصح أن نضيف إلى ألمه ألم التوبيخ»، فضحك مختار. بعد قليل إلتفتنا غربا فرأينا فرج الله ـ عبد أولاد حاج حمد ـ بحماره الذي يحمل عليه الأحمال بالأجرة في السوق. فأمسك مختار الحمار ليركبه المجروح فأبى فرج الله، وقال: «إني منتظر أحمد ومحمد أسيادي»، وكانا من أصدقائي. فقلت لفرج الله: «إني رأيتهما رجعا وسنجدهما في بيت عثمان حسن سوار الذهب. فصدّقني رغم كذبي عليه وسلمنا الحمار، فأركبنا الجريح عليه.

وصلنا بعد قليل ديم عثمان دقنا، وهناك رأينا النساء يهدمن بيوتهن المصنوعة من البُرُوش ويحملن ما استطعن منها ويجرين صوب أمدرمان. ثم إلتفتنا غربا فرأينا خليفة المهدي راكبا حمارا أبيض ومعه جماعة ذاهبين إلى أمدرمان. أخيراً وصلنا منزل عثمان حسن سوار الذهب ووجدنا أولاد حاج حمد هناك فعلا !؛ فحمدت الله الذي صدّقني وخلصني من السُبَّة والعداوة التي كانت تلحقني. جلست معهم قليلا، ثم استأذنتهم في فرج الله وحماره للجريح ليوصلاه منزله، فسمحا لي؛ جزاهما الله خيراً. أثناء جلوسى معهم جاءنا رجل لا أعرفه، وقال إنه من جماعة السيد المكّي، وقال إنه كان مع السيد المكّي في مجلسه مع خليفة المهدي، ثم حكى أن الخليفة كان يتكلم خلال الموقعة مع من معه هادئ الوجه ولم تظهر عليه علامة يأس أو خوف، حتى جاءه من أخبره بأن الأمير يعقوب[١] قد إستُشهد. عندها أطرق الخليفة ملياً وجرى عرقه ولم يتكلم بعدها.

كذلك أخبرني الشيخ محمد عمر البنّا، الذي كان مع خليفة المهدي، مثل هذه الرواية. وزاد أنه لما قرب منهم العدو قال السيد المكّي: «يا خليفة المهدي ما دمت حيا الدين منصور، فلنتحيز من العدو لئلا يتمكنوا من أسرنا وفينا خليفة المهدي». وقال الشيخ محمد عمر البنّا: «لما سمعنا كلام السيد المكّي ونظرت الخليفة فلم يُنكره، قمت وأمسكت خليفة المهدي من عضده، الذي لا يُلمس لغيره، وأنهضته. فتبعني وخطونا خطوات بأرجلنا حتى لحقنا أحد بحمار فأركبنا عليه خليفة المهدي. ثم جاء صاحب حصان أركبنا عليه السيد المكّي، ثم لحقني عبدي بحماري فركبته حتى قابلت شارع بيتي، فنزلت عليه».

ذكرتني حكاية جزع الخليفة على شقيقه الأمير يعقوب ما حُكي عن لقمان الحكيم بأنه أتى بعد غيبة لبلده فلقيه أحد مواطنيه خارجها.

فقال له لقمان: ما فعل أبي ؟

قال: مات.

فقال لقمان: مَلكت أمري، ما فعلت أمي ؟

---

(١) الأمير يعقوب أخو الخليفة عبد الله (انظر الحاشية صفحة ٢٨٣).

قال : ماتت .

فقال لقمان : زال همي ، ما فعلت أختي ؟

قال : ماتت .

فقال لقمان : سُترت عورتي ، ما فعلت زوجتي ؟

قال : ماتت .

فقال لقمان : جُدِّد فراشي ، ما فعل ابني ؟

قال : مات .

فقال لقمان : خلقته من ظهري ، ما فعلت ابنتي ؟

قال : ماتت .

فقال لقمان : هذا خير لأصهاري ، ما فعل أخي ؟

قال : مات .

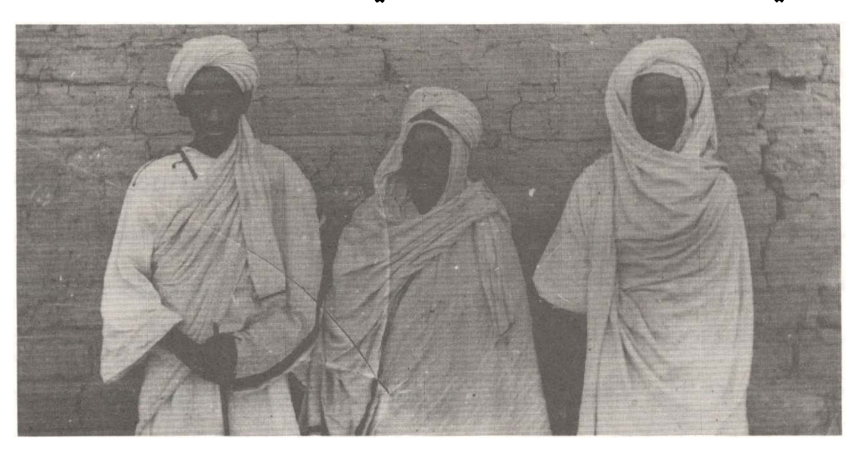
فقال لقمان : الآن انقصم ظهري .

لقد كان الأمير يعقوب نعم الأخ والوزير الآزر لخليفة المهدي، رحمه الله رحمة واسعة. كذلك فان الأمير يعقوب كان مثال التواضع والإعتدال .

قمت من باب عثمان حسن سوار الذهب فمررت على منزل يوسف أخي لأطمئنهم على حياتي ، ثم خرجت منهم نحو الساعة الثالثة بعد الظهر ، فوجدت عساكر الأورطة الثالثة عشرة (الثلاثة عشرة) جالسين في شارع الهِجَرة شمال بيوت إلياس أم برير، وكنت أعرف الكثير منهم من أصوان سنة ١٣٠٧ - ١٣٠٨هـ (١٨٨٩ - ١٨٩١م) ؛ فسألت الذين في طريقي عن اليوزباشي فرج صدقي ، فقالوا انه نُقل للأورطة السابعة . سألت بعد ذلك عن البتجاويش بخيت موافي[1] ، فمشى معي أحدهم حتى أوصلني له . ولما رآني عانقني وقال لي : «ان هذا لعجيب نحن كنا قبل ساعتين أعداء نتحارب والآن أصدقاء نتسالم !» ، فقلت له : «الحمد لله على نعمته» . ولما رأى سيفي في كتفي قال لي : «أعطني هذا السيف أحفظه لك ، ربما يستبيح الجيش المدينة فيضيع مثل هذا السيف» . فسلمته إياه ووصلت بيتي القريب . وبينما كنت أشرب ماءاً سمعت صوت

(١) انظر موضوعه صفحة ١٧٧ .

"أُمبَايا" يصيح، فأمرت أحد عبيدي أن يصعد فوق الديوان وقلت له: «انظر الأورطة في مكانها أو قامت ؟». فقال: «في مكانها». قلت: «انظر إلى جامع



ثلاث من أبناء المهدى عند أسرهم بعد موقعة كَرَري

المهدي ماذا ترى فيه ؟». قال: «فيه خيول تجول وعليها فرسانها». فقلت: «انظرهم هل هم من الأنصار أم من التُّرُك ؟». فقال: «من الأنصار بحرابهم». ثم خفت عليه فأمرته بالنزول.

فى نحو الساعة الخامسة مساء خرجنا من منازلنا مغربين، (أى متجهين نحو الغرب) حتى وصلنا شارع الهِجرَة، فرأينا الجيش الإنجليزي سائراً نحو الجامع فتبعناه حتى قربنا من مقابر الشهداء بجوار الاسبتالية(١)، وبعد ذلك رجعنا.

بعد قليل سمعنا أن اللورد كتشنر أباح نهب الغلال من كل بيوت الخليفة، وكان عندي كثير من الرقيق فمنعتهم أن يأخذوا قيراطا واحدا منه. إثر ذلك نزل ثمن الغلال من ستة وثلاثين ريالا للأردب إلى ستة ريالات، وكانت هذه أول حسنة من اللورد كتشنر للمساكين الجائعين الذين لو أراد أن يُقسّم عليهم الغلال كصرفية لمات بعضهم قبل أن يصله نصيبه. كنا نرى الناس في تلك الليلة يجولون ما بين الشُّونة الغربية وبين منازلهم. وبعضهم أعرف أن الحظ ساعده

(١) يقصد المؤلف «بالأسبتالية» مستشفى أمدرمان القائم الآن، أما مقابر الشهداء التي تقع بالقرب منه فقد أزيلت حوالي عام ١٩٨٠، وأصبح مكانها ميدان عام.



بعض ممن استشهدوا من جيش الخليفة فى واقعة كرري يوم ٢ سبتمبر ١٨٩٨م
ويقف بينهم أثنان من الجنود المصريين يبحثان عن الأسلاب.

حيث كانت بعض حواصل الغلال تلتصق بغرفهم؛ فيكسر غرفته وُيدخِل فيها الغلال بالوَاسُوق(١) والفاس حتى كاد يملؤها؛ فأصبح فيما بعد غنيا مما باعه. ومن هؤلاء بعض الرُّباطاب المجاورون للشُّونة الغربية، التي كانت بالقرب من بيت عباس رحمه الله.

في تلك الليلة جاء عسكري كان عبدا لابراهيم البك اليعقوبابي، ووقف ببابه وناداه بِأسمه. فلما خرج عليه رحّب به وظنه جاء ليحرسه هو وأولاده فمدّ يده ليصافحه، فما كان من العسكري الا أن أصابه بطلقة أرداه بها في الحال قتيلا وتركه يتخبط في دمه. وعندما خرج أهله وجيرانه وجدوا العسكري المعروف عندهم منذ صغره يطؤه على بطنه بجزمته وهو ميت، فرجع الكل مختبئا في ركنه خوفا من القتل، ومضى العسكري لحاله.

وحادثة أخرى رأيتها بعيني، وهي أننا خرجنا من منزلي، أنا ومعي بعض أقاربي الذين كانوا ضيوفا عندي، لنزور محمد ولد أبشر، الذي خرج مع من خرج للموقعة بكَرَرِي. ولما وصلنا طرف السوق الجنوبي الشرقي رأينا عسكريا سودانيا يقود خَدَّامة، خرج بها من السوق بجهة المشانق (شرق مبني البوسطة الحالية). ورأينا التاجر إبراهيم تميم الأصولّي، وأظنه سيد الخادمة، جاريا إليها.

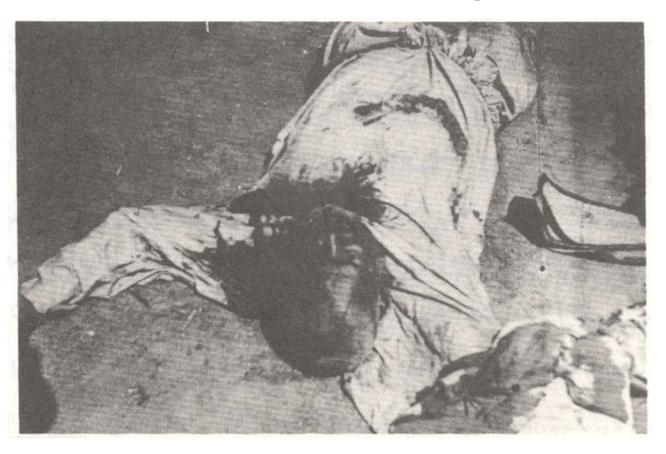
---

(١) الوَاسُوق: آلة تستعمل لجرف التراب لتحضير الأرض للزراعة.

فلما وصلهما أمسك بيد الخادمة ليرجع بها فإذا العسكري يضع ظرفا في بندقيته ويرميه به. فارتفع إبراهيم تميم في الهواء وسقط، ونحن ننظر إليه على أقرب من مائتي متر. بعدها أخذ العسكري الخَدَّامة ومشى بها وهما يضحكان ضحكا عاليا. وبالسؤال علمنا أن هذه الخَدَّامة كانت سِرِّيَّة لإبراهيم تميم وهذا العسكري أخوها، وكانا مُولُودين بمنزل إبراهيم.

كانت هذه من فضائح الفتوحات لجيش منظم تحت حكومة مُتمَدِّيَنَة، أما قتل عوض الكريم كانون بواسطة الميرغنية، وقتل أحمد حمزة بواسطة الجَعَلّيين، فهي أحداث جائزة لأن الاثنين كانا محكوما عليهما بالقتل قصاصاً أو شُبهة. وقد رأينا في ثاني يوم الفتوح جنائز مطروحة في طريق الهِجرَة، مجهول قاتلوها ومجهول أهلوها.

كان لي عبدين خلال المعركة وكانا معي بالميدان، وكغيرهما من أمثالهما كانا واقفين خلفنا على شفير الوادي، فلما إصطففنا إمتد الصف شرقا، ولما خرجنا من الوادي لم نذكرهما طبعا، لننجو بأنفسنا. وقد علمت فيما بعد أن أحدهما ـ ويدعى جابر ـ أخذ الرَّكْوَة وجرى للبيت. أما عبد الله ـ عبدي الثاني ـ فإنه ظل ممسكاً بحماري حتى أُسر وغُنّم الحمار منه. بعد يومين علمت أنه ضمن الأسرى بجامع المهدي، فأخَذَت والدته طعاماً له وأوصلته إليه داخل الجامع. وعند إستلامه الطعام قال لها أخرجي وأتركي لي أواني الطعام لأخرج بها. وفعلا خرج بالباب كأنه من الذين أتوا بالطعام لأسير هناك، وجاءنا بالمنزل. هذه الحيلة تدل على نباهته؛ وهو فعلاً نبيه.



جثمان الخليفة عبد الله وعلى جبَّتِهِ دماؤه عند استشهاده فى أم دبيكرات فى ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩م

لم أعرف شيئا آخر عن خروج خليفة المهدي من أمدرمان غير اني سمعت أنه لما أراد الخروج تمهل حتي أرسل لمن يأمل أنهم يصحبونه في هِجرَته، كأولاد هاشمي والشيخ بانّقا(١) والسيد المكّي(٢) ومُدّثر الحَجّاز(٣) وغيرهم. وقد علمت من أحدهم أنه لما طرق رسول الخليفة بابه أرسل إليه أحد أولاده، فلما علم أن الطارق هو رسول خليفة المهدي جاء يطلبه للهِجّرَة مع الخليفة، قال لولده: «أقفل الباب في وجهه ولا تخاطبه». على أنه كان قبل ذلك حينما يعلم أن الطارق رسول الخليفة يسرع بالإستعداد ويهرول مع الرسول الذي يجري حتى يصلا باب الخليفة. إن هذا يعدّ منه عدم وفاء؛ ولو كنت مكانه لقابلت الرسول وحمّلته سلامي للخليفة ووعدي بلحاقه، وأخبرته أنني سأخرج بعد إكمال إستعدادي للخروج بعائلتي لأن الوقت ضيق. قلت هذا الرأي لمحدثي فعلا وغَلّطته فيما صنع.

(١) الشيخ بانّقا: هو الشيخ عبد الرحمن بانّقا من قبيلة الجَعَليين المقيمين في مدينة الأبَيِّض عند ظهور المهدي. وكان هو وقريبه إلياس باشا أم برير من أثرياء المدينة ممن انضموا للمهدي خلال حصاره لها عام ١٨٨٣م (القدال، صفحة ١٠٨؛ سلاطين، صفحة ٥٩). إستمر منذ ذلك الوقت مؤمنا بالمهدية وقريبا من مجلس الخليفة عبد الله حتى بعد وفاة المهدي وإلى حين إنكسار جيش المهدية في موقعة كَرَري في ٢ سبتمبر ١٨٩٨م.

(٢) السيد المكّي: من أصل دُنقُلاوي من المقيمين في مدينة الأبَيِّض عند ظهور المهدي (شبيكة، ١٩٨٠م، صفحة ٧٠٢)، وكان شيخ المشايخ لتلك المدينة (سلاطين، صفحة ٢١٣). كان المهدي قبل إعلان دعوته يستأمنه سر دعوته ضمن قليلين آخرين في تلك المدينة وكان ينزل عنده عند زيارته لها (القدال، صفحة ٥٣).

(٣) مُدّثر إبراهيم الحَجّاز: هو أحد كُتّاب الخليفة عبد الله ممن يكتبون خطبه وخطاباته لعماله وقواده في أنحاء السودان. وكان أكبرهم مكانة حيث يحفظ ختم الخليفة الذي تختم به الرسائل الرسمية. وفي صبيحة إنكسار جيش الخليفة في كرري إستحضره الأميرلاي «ونجت» مدير مخابرات الجيش الإنجليزي المصري وطلب منه الختم وأوراق الخليفة. وبعد إستتباب الأمور للجيش الغازي عينته الحكومة الجديدة قاضيا فيها (شقير، صفحات ٨٩٨، ٩٣٦، ٩٦٣).



جثمان الخليفة عبد الله وعن يمينه جثمان أحمد فضيل بعد استشهادهما فى واقعة أم دبيكرات

لا أعلم فوق هذا شيئا أكتبه عن عمل الحكومة العليا في المهدية في أعمالها الرسمية لأني أصغر ممن يتصلون بها ولشغلي بالتجارة فقط وامتناعي عن السياسة.

* انتهى الجزء الأول *

ملحق ٢
خطاب السيد خضر بدري
بسم الله الرحمن الرحيم

أم درمان في ١٩/١١/١٩٨٨م

ابني المحبوب بابكر بدري

السلام عليكم جميعا ورحمة الله تعالى وبركاته آملا أن يصلكم هذا وانتم ترفلون فى حلل العافية والسعادة وذلك غاية ما أدعو به اليكم.

تناولت بمزيد السرور خطابك الرقيق وسررت له كثيرا وإنى آسف لتأخير الرد وما ذلك الا بسبب زحمة الرحول فمعذرة.

وردا على تساؤلكم عن بعض المعلومات الخاصة بمذكرات جدّك أوضح الآتي :-

(١) جدك "محمد أحمد" اسم واحد هو ابن شكاك ابن الطيب ابن محمد ابن الفكي مالك؛ وبابكر هو ابن "محمد بدري" اسم واحد ابن الصادق ابن الطيب ابن محمد ابن الفكى مالك. وعليه فهو عم بابكر بدرى لأن الصادق وشكاك إبنا عم. محمد أحمد توفي حوالي ١٩٤٠م عن عمر يقارب حوالي ٩٢ سنة أي أنه ولد في (١٩٤٠ ـ ٩٢) = ١٨٤٨م. فيكون عمره عند قيام المهدية هو (١٨٨١ ـ ١٨٤٨) = ٣٣ سنة.

وبابكر توفى في ١٩٥٤م عن عمر ٩٤ سنة أى ولد في ١٨٦٠م أى أن عمره عند قيام المهدية كان ١٨٨١ـ ١٨٦٠ = ٢١ سنة

(٢) جدك ميرغني محمد شكاك الطيب محمد الفكي مالك يعني أنه ابن أخ محمد أحمد وابن عم بابكر بدرى. ميرغنى توفى حوالى ١٩٣٧ عن عمر يقارب حوالى ٧٠ سنة. أى أنه ولد فى (١٩٣٧ ـ ٧٠) = ١٨٦٧م يعنى ان عمره عند بدء المهديه هو ١٨٨١ ـ ١٨٦٧ = ١٤ سنة.

(٣) إبراهيم مصطفى وأحمد عثمان من أقرباء أم بابكر بدري التي هى مدينة بنت صريرابي كما جاء فى مذكراته ونأسف حيث إننا لم نهتد إلى هذه القرابة ويكفى أنهما من أقرباء أمه.

(٤) عند سفر بابكر بدري سنة ١٨٨٤م من رفاعة إلى الخرطوم بالمركب اصطحب معه أمه مدينة وزوجته حواء بنت المبارك وزوجة أبيه زينب بنت شيقوق (shaigoug)، وهى أم جدتك حسب سيدها وأم جديك عبد الكريم وخضر. وقد انجبت غيرهم بنينا وبنات توفوا صغارا: لهؤلاء جميعا الرحمة الواسعة. هذا وقد رأيت من المناسب أن أزيدك بمعلومات إضافية عن بعض هؤلاء :-

جدك محمد أحمد شكاك الطيب محمد الفكي مالك لم ينجب لا أبناء ولا بنات وكان من أنصار المهدي المبايعين له. وكان قائدا وحارسا مسئولا عن الطابيه المقامة على النيل في أم درمان. شقيقه الوحيد الأصغر هو علي الذي توفى في ود شلعي حوالي ١٩٤٥م وله إبنان المرحوم عبدالحليم على شكاك والطيب علي شكاك المقيم الآن في سنار(مزارع) وعمره الآن حوالي ٨٥ سنة. وله ابنتان زينب على شكاك (أم يوسف ميرغني واخوانه واخواته) والتي توفيت هذا العام. والأخرى والتي هي أصغر من زينب هي المرحومة عائشة على شكاك زوجة المرحوم محمد عثمان ميرغني وأم بناته.

أما شقيقات محمد أحمد فأربع هن المرحومات عائشة (كانت زوجة من زوجات عمي مالك أحمد الطيب) ورخاء وفاطمه ووداعه.

أما جدك المرحوم ميرغني محمد شكاك الطيب فانت تعرف أولاده وبناته. واليوم منهم على قيد الحياة زينب ميرغني وعلى ميرغنى ضابط الزراعة بالنيل الأبيض وعمره الآن ٥٦. وأمه من قرية الطلحة المجاورة للدويم: فهو أخ لزينب من أبيها. وأشقاء زينب هم المرحومون: محمد ـ محمد عثمان ـ الطيب ـ أحمد (محمد أخ لزينب من أبيها لكنه كان كالشقيق). شقيقتاها هما المرحومتان فاطمه وآمنه.

هذا وكان لعلى شقيقه توفيت طفلة. ولزواج جدك ميرغنى من المرحومة أم على ميرغنى قصة طريفة وهي :-

لما تزوج جدك بابكر من أم مالك ـ نفيسة ابراهيم مدنى ـ طالب ميرغنى من أولاده تزويجه كما فعل أولاد بابكر بدري وزوجوا لأبيهم. فتم له ما أراد.

قبل وفاة جدك محمد أحمد كان يسكن مع جدك بابكر في الحوش وعندما

إشتد عليه المرض طلب عمك محمد عثمان ميرغني السماح له بأخذ جده محمد أحمد إلى منزله بالهاشماب فأجاب عمه بابكر طلبه فأخذه وباشر علاجه حتى الوفاة. حيث أقيم مأتمه بمنزل محمد عثمان ميرغنى.

هذا ولزواج جدك بابكر من حواء أيضا قصه طريفة: فلقد كانت حواء مطلقه وتركها أبوها مع جدك ود بدرى وكانا صديقان. وكانت جدتك أم طبول أيضا مطلقة ثم تزوجت أم طبول فخشى جدك ود بدري لوم صديقه المبارك على أنه زوّج ابنته أم طبول وترك حواء ابنة صديقه. فما كان من ود بدري إلا أن أشار على ولده بابكر بالزواج منها وفعلا تم ذلك.

أكتفي بهذا القدر وأكرر سلامي للجميع ولكم ودمتم سالمين لأبيكم. أكرر سلامي لابنى مهدى الذى آمل أن يكون قد استقر وتم له ما أراد.

خضر بدري

١٩/١١/١٩٨٨م

ملحـــق ٣

نسـب آل بـــدري

التسلسل لنسب المؤلف تكرم به السيد خضر بدري أخ بابكر بدري، وقد بدءه من الشيخ الطيب محمد الفكي مالك كما يأتي:

الطيب محمد الفكي مالك
(أبنائـه)

١ ـ محمد	٢ ـ الحاج مالك	٣ ـ الحاج الصادق
٤ ـ حمد السيد	٥ ـ أحمد ولد نوري	٦ ـ الحاج إدريس
٧ ـ الحاج الخليفة	٨ ـ الحاج محمد	٩ ـ الحاج شكاك
١٠ ـ كسبـاوي	١١ ـ الأمين	١٢ ـ الحسين

* هناك أربع أخوات لم يمكن الأهتداء لأسمائهن.

* الأبناء أعلاه من أمهات مختلفات، ولكن الأخوان رقم ٢، ٣، ٤، ٥، هم أشقاء. وهؤلاء هم الحاج مالك والحاج الصادق ـ والد أب المؤلف ـ وحمد السيد ـ والد محمد علي المذكور في بداية الكتاب ـ وأحمد ولد نوري ـ والد مالك الذي يشير إليه المؤلف بلقب عمي، وعمل معه في التجارة كما مذكور في الكتاب.

* ومن الأبناء المذكورين أعلاه الحاج شكاك (رقم ٩)، وهو والد محمد أحمد وعلي المذكورين في الكتاب. ومن هذا النسب يصبح واضحا أنهما أعمام للمؤلف مثلهما مثل مالك ومحمد على المذكورين في الفقرة أعلاه.

ملحق ٤

تسلسل نسب آل بدري وشكاك ومالك
الطيب محمد الفكى مالك



تَسلسُل نَسَب آل بدري وَشكاك وَمالِك الطيّب محمّد الفَكي مالِك

ملحق ٥

تسلسل نظارة قبيلة الشُّكريَّة

١ - أحمد بك عوض الكريم أبو سن كان ناظر لقبيلة الشُكريَة خلال العهد التركي المصري وكان أيضا مديرا على الخرطوم في الفترة من عام ١٨٦٠م إلى وقت وفاته عام ١٨٧٠م.

٢ - عوض الكريم أحمد أبوسن خلف أباه أحمد بك وكان يلقب بأبو هلبة. منحته الحكومة التركية لقب باشا وكانت نظارته للشكرية في أواخر العهد التركي المصري وبداية المهدية، وتوفي عام ١٨٨٦م. أنجب الشيخ عوض الكريم أبناء كثيرين (حوالي ٢٥) منهم علي الهد وعبد الله ومحمد.

٣ - تولى علي أبو سن أخ الشيخ عوض الكريم نظارة القبيلة بين عامي ١٨٧٢م و١٨٧٤م بدلا عن أخيه الشيخ عوض الكريم.

٤ - تولى علي بن عوض الكريم أبو سن رئاسة القبيلة لفترة قصيرة بعد والده وعمه وكان لقبه شيخ وليس ناظر.

٥ - بعد علي تولى أخوه عبد الله عوض الكريم أبو سن النظارة في عام ١٩٠٢م واستمر فيها إلى وفاته عام ١٩٢٣.

٦ - ومن بعد عبد الله تولى النظارة ابنه عوض الكريم وهذا لم يلد. عليه لم يكن من الممكن أن تنتقل النظارة إلى أبنائه.

٧ - انتقلت النظارة من عوض الكريم إلى أخيه محمد عبد الله عوض الكريم.

٨ - انتقلت النظارة بعد ذلك من محمد إلى ابن أخيه محمد أحمد حلمي

أبوسن في حوالي ١٩٥٧م. أي في آواخر الحكم الإنجليزي المصري للسودان وبداية الاستقلال. وكان الشيخ محمد أحمد حلمي هو الناظر للشكرية في رفاعة حتى تاريخ وفاته عام ١٩٨٧ . هذا مع العلم بأن نظام الادارة الأهلية كان قد جمد خلال حكم نظام النميري في بداية السبعينيات ثم أعيد بعد عودة النظام الديموقراطي في منتصف الثمانينيات.

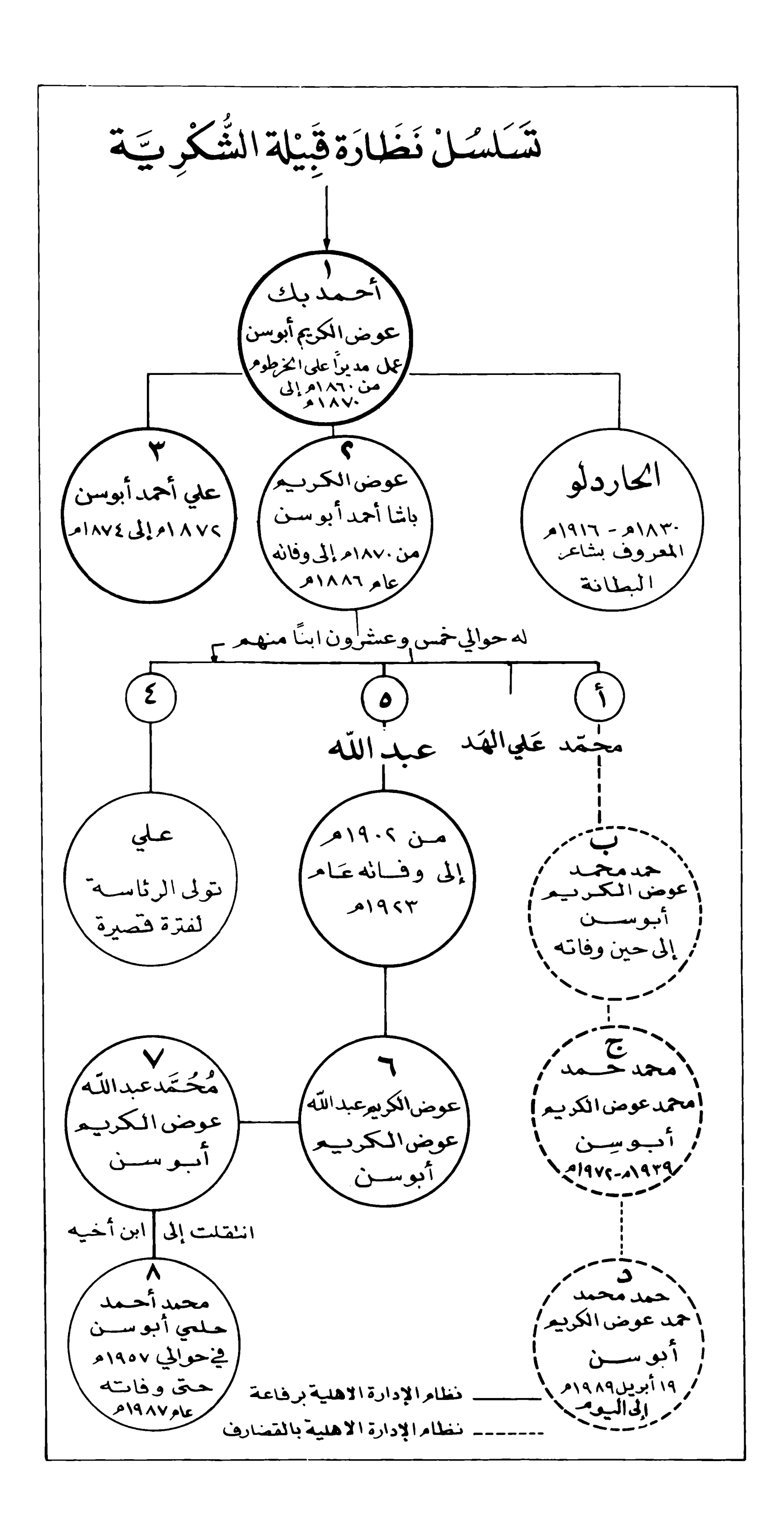
٩ ـ هذا جانب نظارة الشكرية في رفاعة. وهناك شق لنفس القبيلة في منطقة جنوب البطانة ومركزه مدينة القضارف: وتسلسل رئاسته كان كالآتي:

أ ـ قام عوض الكريم بن عبد الله بن عوض الكريم خلال رئاسته للقبيلة في رفاعة بتعيين ابن عمه الشيخ حمد بن محمد بن عوض الكريم وكيلا له للفرع القاطن في البطانة.

ب ـ استمر الشيخ حمد ناظرا للشكرية في البطانة إلى حين وفاته مع نهاية الحرب العالمية الثانية.

جـ ـ بعده خلفه ابنه الشيخ محمد حمد محمد عوض الكريم أبو سن واستمر في نظارته إلى بداية نظام نميري في بداية السبعينيات.

د ـ وبعد وفاة الشيخ محمد وإزالة نظام نميري أعيدت الإدارة الأهلية. فتم **اختيار الشيخ حمد بن محمد حمد محمد عوض الكريم ليخلف أباه، وكان ذلك في أبريل ١٩٨٩م.**



تَسَلسُل نَظَارة قَبِيلة الشُّكرِيَّة
١
أحمد بك
عوض الكريم أبوسن
عمل مديراً على الخرطوم
من ١٨٦٠م إلى ١٨٧٠م
٣
علي أحمد أبوسن
١٨٧٢م إلى ١٨٧٤م
٢
عوض الكريم
باشا أحمد أبوسن
من ١٨٧٠م إلى وفاته
عام ١٨٨٦م
الحاردلو
١٨٣٠م - ١٩١٦م
المعروف بشاعر
البطانة
له حوالي خمس وعشرون ابناً منهم
٤
٥
أ
عبد الله
محمّد علي الهد
علي
تولى الرئاسة
لفترة قصيرة
من ١٩٠٢م
إلى وفاته عام
١٩٢٣م
ب
حمد محمد
عوض الكريم
أبوسن
إلى حين وفاته
٧
مُحمّد عبد الله
عوض الكريم
أبوسن
٦
عوض الكريم عبد الله
عوض الكريم
أبوسن
ج
محمد حمد
محمد عوض الكريم
أبوسن
١٩٣٩م-١٩٧٢م
انتقلت إلى ابن أخيه
٨
محمد أحمد
حلمي أبوسن
في حوالي ١٩٥٧م
حتى وفاته
عام ١٩٨٧م
د
حمد محمد
حمد عوض الكريم
أبوسن
١٩ أبريل ١٩٨٩م
إلى اليوم
نظام الإدارة الاهلية برفاعة
نظام الإدارة الاهلية بالقضارف

ملحق رقم ٦

بسم الله الرحمن الرحيم

زيارة خضر بدري الصادق
إلى السادة/حسن علي أبو حاج
عمدة دراو في ١٩٥٥م

عند زيارتي إلى مصر بالأجازة في ١٩٥٥م قابلني صباحا في أسوان المرحوم المهندس خالد محمد عبد العظيم حسين بك خليفة والذي هو أحد تلاميذي في مدرسة المهندسين في كلية غوردون بالخرطوم. فسّر لهذه الصدفة وفي الحال دعاني للذهاب معه إلى دراو حيث تسكن عائلات حسين بك خليفة بجوار عائلات المرحوم/حسن علي أبو حاج والذين تربطهم بهم علاقات الجوار والمصاهرة فأخبرته بأني مسافر إلى القاهرة بالقطار مساء وقد ألحَّ عليَّ كثيرا لزيارتهم قائلا إن عائلات أبو حاج يسألون دائما عن عائلة بدري لصلتهم الوثيقة بالمرحوم بابكر بدري وأنهم سوف يلومونه لتفويت هذه الفرصة.

وعليه فقد وعدته بأني سأزورهم في دراو عند رجوعي من القاهرة عائدا إلى السودان وفعلا أخذت عنوانهم ثم أخذت القطار مساء من أسوان وفي محطة دراو قابلني جمع كبير من عائلة أبو حاج فسرّوا كثيرا لمقابلتي وقد أكدت لهم عزمي على زيارتهم وسوف يصلهم مني خبر بذلك.

وفعلا أخبرتهم بتلغراف بميعاد وصولي فقابلني منهم عدد كبير ونزلت ضيفا معززا بمنزلهم العامر في دراو وقضيت معهم باقي اليوم والليلة وفي اليوم التالي غادرتهم إلى الشلال حيث لحقت بالباخرة المسافرة إلى حلفا.

هذا وقد سروا كثيرا لهذه الزيارة وعرفوني بكثير من العائلة بأني أنا أخو الشيخ بابكر بدري ومن ضمنهم رجل كبير مكفوف البصر كان يلازم بابكر دائما وكانا يقرآن القرآن في مسجدهم الذي هو نفس المسجد الذي كان يؤمه بابكر وظل على حالته الأولى لكنهم كانوا يجددون سقفه من وقت لآخر.

ومن ضمن الذكريات فقد أخبرني أحد كبار العائلة بأن بابكر بدري كان قد طلب في إحدى رسائله إليهم أن يرسلوه له في رفاعة ليشرف على تعليمه مع أولاده وقد أخبرني بأنه قد أسف حيث لم يرسلوه إلى رفاعة قائلا ليتهم فعلوا.

هذا ومن الطريف أن أذكر في هذه المناسبة زيارة المرحوم حسن علي أبو حاج أو ربما يكون آخر أولاده إلى رفاعة لزيارة بابكر بدري وعائلته تجديدا للصلات التي تربطهم بعضهم بالبعض وكان ذلك في حوالي ١٩١٦م.

فكانت زيارة ميمونة موفقة سَر لها كل أهلنا في كل من رفاعة والدويم التي أخذه إليها بابكر بدري لمقابلة شقيقه المرحوم يوسف بدري الذي توفي عام ١٩٢٣م.

وهذه الزيارة ـ كما أعتقد ـ مذكورة في تاريخ حياة بابكر بدري الذي كتبه بخطه والذي طبعه أبناؤه. وكانت وفاة بابكر بدري في شهر يونيه ١٩٥٤م.

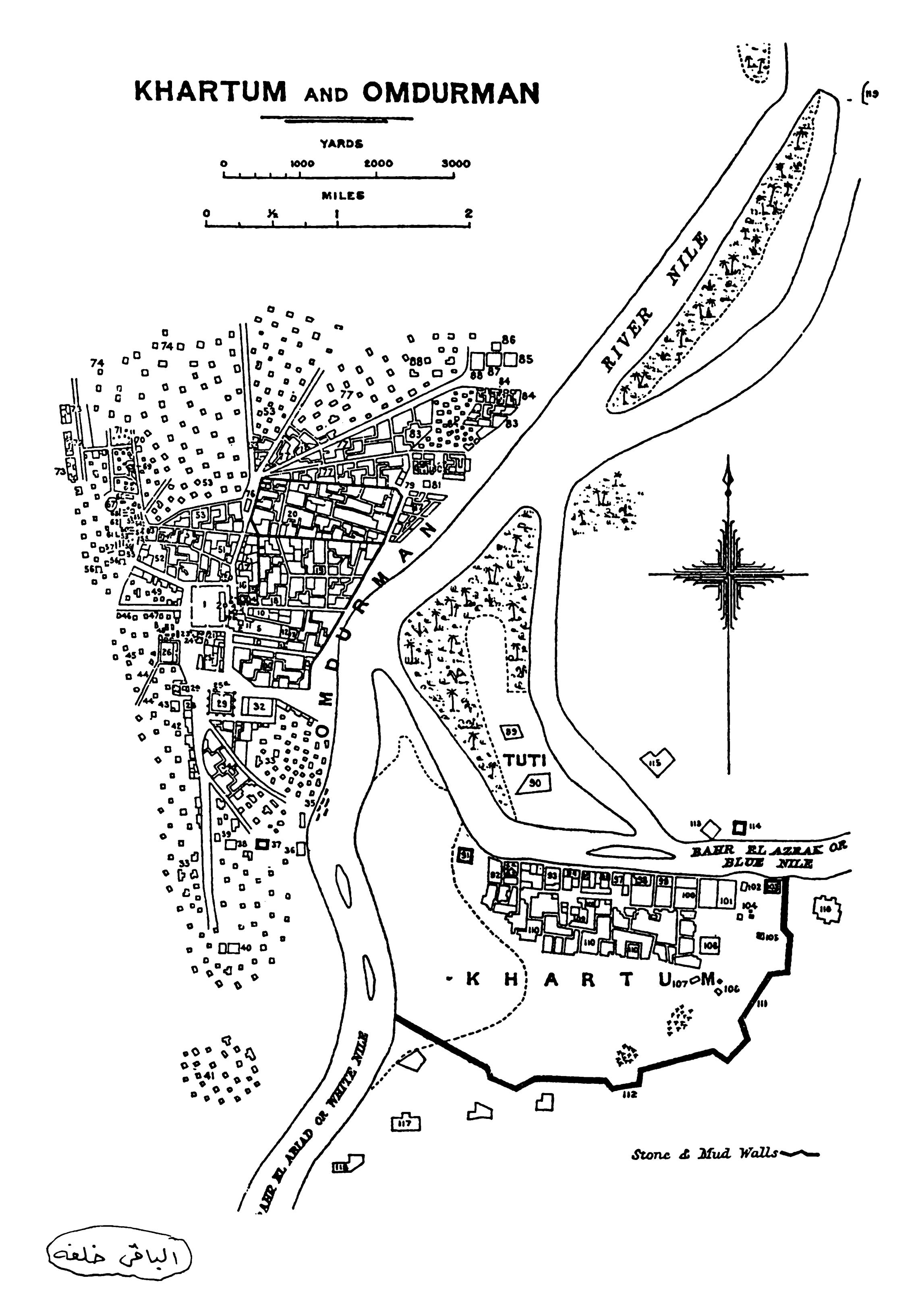
ولا يفوتني أن أذكر بأني انتهزت هذه الفرصة وزرت السادة/آل المرحوم حسين بك خليفة وقدمت لهم العزاء في وفاة حفيدهم صديقي المرحوم صالح عبد العظيم حسين بك خليفة الذي توفي في نفس سنة زيارتي هذه (١٩٥٥م).

هذا وعند مغادرتي لهم في اليوم التالي لزيارتي خف عدد كبير منهم لوداعي بمحطة السكة الحديد في دراو ومعهم تلميذي المغفور له المهندس خالد محمد عبد العظيم حسين بك خليفة وشكرته على تهيئة هذه الفرصة السعيدة.

وقبل أن أختم كلمتي هذه أترحم على كل أفراد عائلات العمدة أبو حاج وعائلات حسين بك خليفة وعائلات بابكر بدري الذي رحلوا إلى الدار الآخرة رحمهم الله رحمة واسعة وبارك في الأحياء من ذرياتهم.

أم درمان في يناير ١٩٨٩م

خضر بدري


KHARTUM AND OMDURMAN
YARDS
0 1000 2000 3000
MILES
0 ½ 1 2
RIVER NILE
OMDURMAN
TUTI
BAHR EL AZRAK OR BLUE NILE
KHARTUM
BAHR EL ABIAD OR WHITE NILE
Stone & Mud Walls

الباقي خلفه

OMDURMAN.

1. The Mosque
2. Mihrab
3. Kubbet el Mahdi (Mahdi's tomb)
4. The tin Mosque
5. Khalifa's enclosure
6. Khalifa's special court
7. Khalifa's Palace
8. Khalifa's Harem
9. Khalifa's kuran school
0. Houses of Khalifa's Mulazemin (body guard)
1. House of Mahdi's son
2. Khalifa's stables
3. Khalifa's stores
4. Mahdi's Harem
5. House of Mahdi's family
6. Khalifa Ali Wad Helu's house
7. Houses of Khalifa Ali Wad Helu's Mulazemin & relations
8. House of Khalifa's son (Osman)
9. Great stone wall of Omdurman
0. Mud wall of Omdurman
1. House of the Khalifa's relations
2. Slatin's new house
3. } Houses of Kadis
4. }
5. Yakub's old house
6. Yakub's new house
7. Houses of Yakub's katebs
8. Slatin's old house
9. Beit el Amana
9a. Flags & drums stores
0. Other houses of Khalifa's relations
1. Prison
2. Arms Factory
3. Quarters of the Western people
4. Quarters of Borgo & Takarna people
5. Mashra (Ferry)
6. Khalifa's house on the Nile
7. Old fort of Omdurman
8. House of the commandant of Jehadia
9. Quarters of the Black Jehadia
10. Khalifa's house in Dem Yunes
11. Hillet (village) of the Fetihab Arabs
12. Quarters of Bornu, Fellata & Gowama people
13. House of Nur Angara
14. Quarters of Homr Arabs
15. Quarters of Kababish and other camel-owning Arabs
16. Quarters of Hamar Arabs
17. Quarters of Habbania Arabs
18. Quarters of Rizighat Arabs
19. Quarters of Kanana Arabs
50. House of Abdulla Wad Ahmed
51. Quarters of Degheim Arabs
52. Quarters of White Nile tribes
53. Quarters of Jaalin Arabs
54. Carpenters' shops
55. Market courts of justice
56. Scaffolds
57. Salt Market
58. Linen & cloth market
59. Barbers' shops
60. Tailors' shops
61. Vegetable market
62. Butchers' shops
63. Forage market
64. Grain & date market
65. Grain & date stores
66. Wood market
67. Women's market
68. European cook shops
69. The Muslimania quarter
70. Old house of Father Ohrwalder
71. Cemetry
72. Houses of Ahmed Sharfi & family of Khalifa Sherif
73. Quarters of Kunuz Barabra
74. Quarters of the Danagla
75 Quarters of the Beni Jarrar Arabs
76. Tombs of the Martyrs
77. Quarters of different tribes
78. Tombs of the Mahdi's family & relations
79. Powder factory
80. Beit el Mal
81. Slave market.
82. Commissariat stores of the Mulazemin & Katebs
83. Quarters of the Fur tribes
84. Quarters of the Egyptians (Ibrahim Pasha Fauzi, Said Bey Guma, Yusef Effendi Mansur & others)
85. Khalifa's Hejra house
86. Khalifa Ali Wad Hulu's Hejra house
87 The Hejra Mosque
88. Quarters of the Wad el Besir & Hellawin Arabs

TUTI ISLAND.

89. Powder Magazine
90. Tuti village

KHARTUM.

91. Mukran fort
92. Gardens
93. Church
94. Sanitary Department
95. Post and Finance offices
96. Austrian Consulate
97. Government House (Hekemdaria)
98. Govenor's palace (Saraya)
99. Grain stores
100. Arsenal
101. Barracks
102. Hospital
103. Fort Burri
104. Small arms, ammunition stores
105. Artillery ammunition stores
106. Cartridge factory
107. A place of worship
108. French Consulate
109. Italian Consulate
110. Houses of the natives
111. Bab el Messallamia
112. Fort Kalakla
113. The Eastern palace (Saraya)
114. North Fort

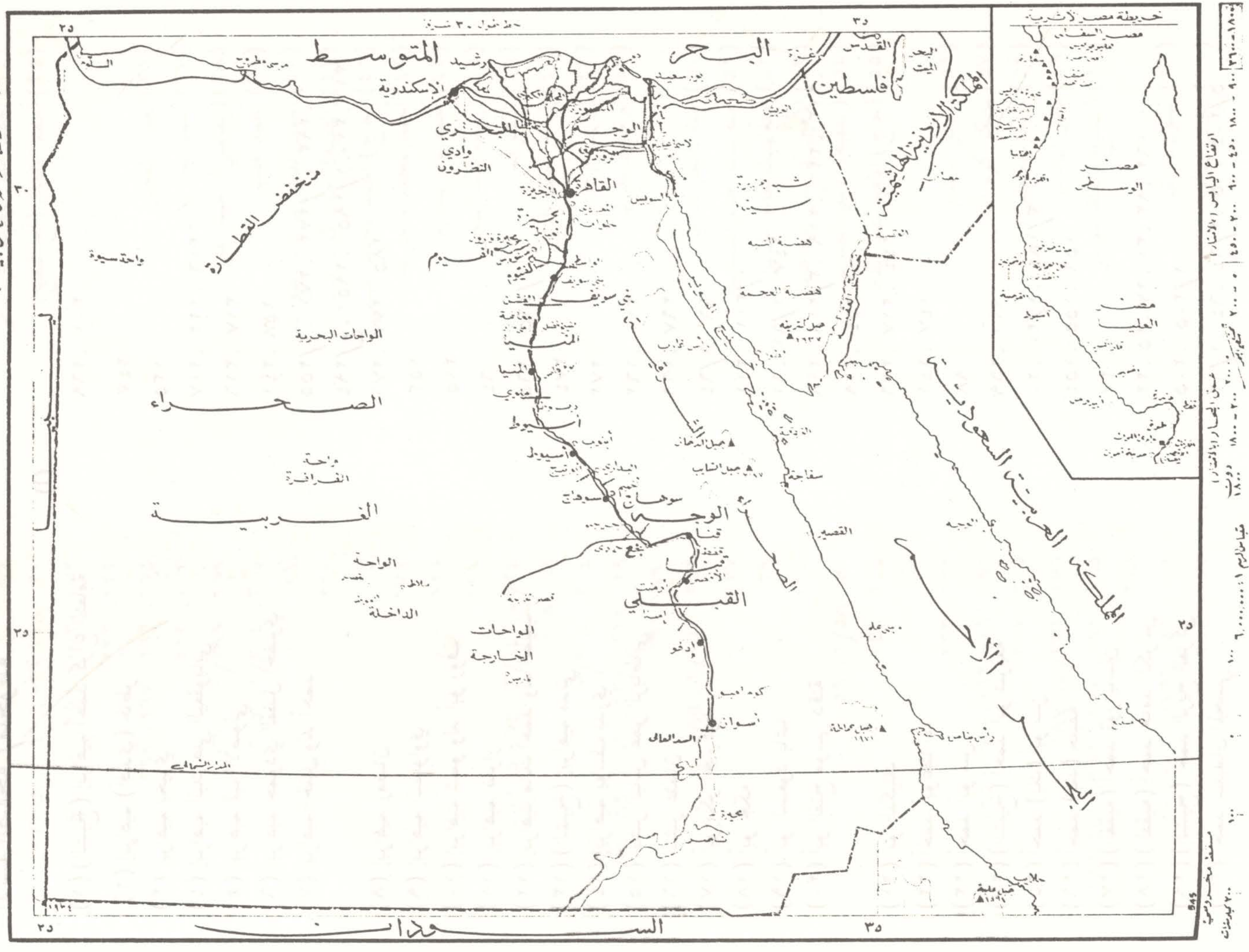
---

115. Khojali
116. Burri
117. Kalakla
118. Shagaret Muhhi Bey
119. Halfaya

ملحق ٨

صفحة ٣٣٢

جمهورية مصر العربية



فهرس الأسماء

الاسم الصفحة /ملحوظة

(أ)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(ی)

قائمة المراجع

١ ـ باشري، محجوب عمر. رواد الفكر السوداني. دار الفكر، الخرطوم، ١٩٨١.

٢ ـ البنا، عبد الله محمد عمر. ديوان البنا. تحقيق علي المك. دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م.

٣ ـ الحاردلو، د. ابراهيم. ديوان الحاردلو. الدار السودانية، الخرطوم، الطبعة الرابعة، ١٩٨٨م.

٤ ـ زلفو، عصمت حسن. كرري: تحليل عسكري لمعركة أمدرمان. دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم، الخرطوم، ١٩٧٣م.

٥ ـ زلفو، عصمت حسن. شيكان: تحليل عسكرى لحملة الجنرال هكس. شركة كَررى للطباعة والنشر، أمدرمان، السودان، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م.

٦ ـ سلاطين، رودلف فون. السيف والنار في السودان. عالم الكتب، أمدرمان، السودان، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨م.

٧ ـ شبيكه، مكي. تاريخ شعوب وادي النيل: مصر والسودان في القرن التاسع عشر الميلادي. دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.

٨ ـ شبيكه، مكي. السودان عبر القرون. دار الثقافة، بيروت ، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٦٤.

٩ ـ شقير، نعوم. تاريخ السودان. تحقيق د. محمد إبراهيم أبو سليم. دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٨١م.

١٠ ـ ضرار، ضرار صالح. تاريخ السودان الحديث. الدار السودانية للكتب، الخرطوم، الطبعة الثالثة، ١٩٧٥م.

١١ ـ ضرار، محمد صالح. تاريخ سواكن والبحر الأحمر. الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ١٩٨١.

١٢ ـ ضرار، محمد صالح. تاريخ قبائل الحباب والحماسين. الدار السودانية، الخرطوم، ١٩٨٤.

١٣ ـ الفضلي، محمد ضيف الله بن محمد الجعلي. كتاب الطبقات : في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان. شرح وتفسير الشيخ ابراهيم صديق أحمد. المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، (بدون تاريخ).

١٤ ـ قاسم، د. عون الشريف. قاموس اللهجة العامية في السودان. المكتب المصري الحديث، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥.

١٥ ـ د. محمد إبراهيم أبو سليم. تاريخ الخرطوم. دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م.

١٦ ـ محمد محجوب مالك. المقاومة الداخلية لحركة المهدية (١٨٨١ - ١٨٩٨م) دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م.

١٧ ـ هولت، ب. م. دولة المهدية في السودان: عهد الخليفة عبد الله: ١٨٨٥ - ١٨٩٨. ترجمة هنري رياض، محمد محجوب مالك، الجنيد علي عمر، عبد الحافظ عبد العزيز. دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٨٢.

English Refrences

1 - BEDRI, Yousef & SCOTT, George, (Translators). The Memoirs of Babikr Bedri, Oxford University ~Press, London, 1969.

2 - HOLT, P.M. & DALY, M.W., The History of the Sudan: From the coming of Islam to the present day, Weidenfield and Nicolson, London, 3rd Edition, 1979.

3 - GIEGLER,Carl Christian, The Sudan Memoirs of Carl Christian Giegler, Richard Hill (Ed.), Oxford University Press, Oxford, 1984.

4 - DURHAM UNIVERSITY LIBRARY, DURHAM U.K. is gratefully thanked for providing some of the pictures included in the book.

طبع بشركة العبيكان للطباعة والنشر ــ الهاتف : ٤٩٨٣٣٩٢ ــ الرياض